دار الشروق

مذكرات فخري عبد النور

ثورة ١٩١٩

تقديم:
مصطفى أمين

تحقيق:
د. يونان لبيب رزق

دور سعد زغلول والوفد في الحركة الوطنية



ثورة ١٩١٩

دور سعد زغلول والوفد فى الحركة الوطنية

تقديم
مصطفى أمين

تحقيق
د. يونان لبيب رزق

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٩٩٢م - ١٤١٣هـ

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٢٤٥٧٨ - ٣٩٢٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

مذكرات فخرى عبد النور

ثورة ١٩١٩

دور سعد زغلول والوفد فى الحركة الوطنية

تقديم : مصطفى أمين

تحقيق : د. يونان لبيب رزق

شـكر وعـرفـان

هذه المذكّرات التى تناولت ذكريات صاحبها عن ثورة الشعب المصرى ، المعروفة فى التاريخ « بثورة ١٩١٩ » دوّنت تباعا ، وعلى مدى أربع سنوات ، في الفترة من يونيو ١٩٣٨ حتى نوفمبر ١٩٤٢ .

وكانت جريدة « المصرى » التى يصدرها آل « أبو الفتح » قد نشرت ـ وقتذاك ـ مقتطفات منها ، إحياء لذكرى بعض أحداثها :

« ١٣ نوفمبر ١٩١٨ المسمّى بعيد « الجهاد الوطنى » ، « ٨ و ٩ مارس ١٩١٩ ، ٢١ ديسمبر ١٩٢١ » ، ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ » ، وغيرها من الأيام التى حفرت فى تاريخنا الوطني حروفًا بارزة .

كما أن مجلة المصّور نشرت فى مارس ١٩٦٩ ـ وكان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد بهاء الدين ـ أكثر من فصل منها . تسجيلاً لأحداث هذه الثورة بعد أن انقضت خمسون سنة على اندلاعها .

وقد أعيد مؤخرا نشر هذه الفصول فى جريدة « الوفد » التى أفسحت لها العديد من صفحاتها ، وقدّمتها إلى القراء فى أجمل صورة .

ويقتضى واجب العرفان العميق أن ننوّه بما كان لعميد الصحافة المصرية الأستاذ الكبير « مصطفى أمين » من فضل كبير فى التشجيع على إخراج هذه المذكرات ثم فى مراجعة أصولها ، وأخيرًا فى تقديم كاتبها إلى الآلاف من محبّيه بعبارات كريمة ومؤثرة ، تمضى الأيام ولا تمحّى معانيها .

وقد تفضلّ الأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق ـ أستاذ تاريخ مصر المعاصر بجامعة

عين شمس ـ بتوثيق أحداث هذه المذكّرات ، ومراجعتها على مصادرها ، كما سجّلتها وثائق الحكومة البريطانية أو غيرها من المؤلفات والمذكّرات والدوريات والصحف ، وبذل جهدًا موفورًا فى تحقيقها ـ بدقة العالم الخبير ـ والتعليق عليها فى هوامش أضيفت إلى فصول المذكرات ، تيسيرًا للباحثين وغيرهم ممن يولون اهتمامًا خاصًا بالتاريخ .

ونحن نعبر له ـ على هذه الصفحات ـ عن خالص الشكر على دأبه وجهده ، جزاه الله أفضل الجزاء .

وإن ننس ، فلا يسعنا فى النهاية أن نحيى بأرق عبارة ذكرى رجلين انتقلا إلى الرفيق الأعلى وكانت لهما يد بيضاء على هذه المذكّرات :

أولهما : الأستاذ « محمد بيومى الجنيد » رئيس تحرير جريدة « البلاغ » الذى أمدّها بالكثير من نصوص خطب الزعيم « سعد زغلول » السياسية ، وبعدد من المقالات التى نشرت فى حينها ـ فى بعض الصحف اليومية .

أما الثانى فهو الأستاذ « صادق حنين » ـ سفير مصر الأسبق فى روما ـ وصاحب المواقف المعروفة فى الحركة الوطنية . إذ عكف على تفصيل أبواب هذه المذكرات ، وتلخيص هوامشها ثم تدوينها على رءوس فصولها حتى يمكن الاهتداء بها ، والرجوع إليها فى يسر دون ما عناء .

وأخيرًا فإن لآل « محمد المعلم » أصحاب « دار الشروق » فضل إخراج هذه المذكرات إلى عالم النور طبعا ، وتنسيقًا ونشرًا فلهم جميعًا جزاء من أتقن عمله .

حمى الله مصر العزيزة . .

وحفظ لنا ترابها وتاريخها وتراثها . . !

* * *

قصة شعب مصر

بقلم : مصطفى أمين

هذه قصة مصر. شعب كان مكبّلا بالأغلال ، مكمّم الأفواه ، مقيدًا بالسلاسل ، ثم انتفض فجأة ، وحطّم أغلاله ، وكسّر قيوده ، وانقضّ قيوده ، وانقضّ على محتلّيه ومستعمريه وغاصبيه . لم يتردد أمام ضعفه وقوّتهم ، وهوانه وعظمتهم ، وفقره وغناهم ، وتجرّده من السلاح وضخامة جيوشهم .

كأن الأرض انشقت ، وجعلت من الأقزام عمالقة ، ومن الضعفاء جبابرة ، ومن المقهورين أبطالا ، ومن المسحوقين الذين داستهم أقدام الغزاة فرسانا تدق أعناق الظالمين ، وجعلت من الطوب فى أيديهم قنابل تدك قلاع المحتلّين !

كيف حدثت هذه المعجزة التى أذهلت العالم ؟

شعب تحت الحماية البريطانية . جيوش الاحتلال العارمة تحتل أراضيه . المخابرات البريطانية تراقبه بالليل والنهار. الأحكام العرفية معلنة . الأنوار مطفأة فى الشوارع . الناس تمشى خائفة واجفة تتلفت ذعرًا ورعبا . الصحف تحت الرقابة العسكرية البريطانية . التقارير السرية تصل إلى مجلس الوزراء البريطانى تؤكد أن مصر خاضعة مستسلمة وأن الشعب قانع ومستكين ، وأن بريطانيا أصبحت الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ، وصاحبة أعظم أسطول فى العالم ، ومالكة لأكبر جيش فى الدنيا . هذا الجيش الذى جعل امبراطورية ألمانيا العظيمة تركع على ركبتها وتسلّم بلا شرط ولا قيد . وجاء تشرشل يتقدم بمذكرة إلى مجلس الوزراء البريطانى يقول فيها : « إن الوقت أصبح ملائما لضّم مصر إلى الامبراطورية البريطانية » .

حدث الانتصار العظيم يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وبعد ٤٨ ساعة فقط ـ فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ـ ذهب سعد زغلول إلى دار الحماية يقول لنائب الملك أخرجوا من بلادنا ! وانفجرت الثورة من إسكندرية إلى أسوان . كل مواطن تحوّل إلى مقاتل . الشيوخ والشباب . النساء والأطفال . البيوت تحوّلت إلى قلاع . المواصلات قُطعت . لا تليفون ولا تلغراف . القطارات توقّفت بتحطيم القضبان . عربات الترام شُلّت بإضراب عمّال

الترام . الموظّفون أضربوا . البلد المسالم الهادئ تحوّل إلى صوت كالرعد يهتف : «الاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

نفى الانجليز سعد زغلول ، وحاولوا أن يقسّموا الحركة الوطنية بين معتدلين ومتطرفين كان المتطرفون أغلبية ساحقة يطالبون بالاستقلال التام . وكان المعتدلون أقلية تافهة ترضى بالفتات . كان سعد يهاجم وكان عدلى يهدئ . كانت أقلية من الأعيان ترضى باستقلال هزيل يقبل الاحتلال . وكانت الأغلبية الساحقة ترفض أن تتنزل عن شبر واحد من أرض الوطن للمستعمرين المتجبّرين .

وتحمّل الشعب العنت والإرهاق . المشانق والسجون . هُدمت القرى . سقط ألوف الشهداء .

دبّر الانجليز مؤامرة فى أسيوط لاغتيال سعد زغلول ، ذهب ضبّاط الجيش المصرى الشبّان إلى سعد فى باخرته النيلية وحذّروه من المؤامرة وطلبوا منه أن لا ينزل إلى الشاطئ يُفسد المؤامرة المدبّرة . هاجم الجنود المستقبلين . رفض بعض الجنود أن يشتركوا فى المؤامرة ورموا بنادقهم فى النيل وهتفوا لسعد زغلول . عاش فخرى عبد النور بك كل هذه الأحداث الجسام . وكان يدوّنها أولا بأول ليكون شاهد التاريخ .

من هو فخرى عبد النور ؟

عرفت « فخرى بك عبد النور » منذ كان عمرى أربع سنوات . يدخل ويخرج إلى مكتب سعد زغلول كأنه يعدو . بجسمه الضخم ، وصوته الجهورى ، وطربوشه الذى كان دائما ينزلق إلى الوراء . كان بيت الأمة فى تلك الأيام أشبه بخليّة نحل لا تنتهى ، داخلون وخارجون . ذاهبون إلى السجن وخارجون من السجن . نساء يحملن منشورات ، ورجال يخفون المسدسات . وجوه مختلفة وسنح متباينة ، ولكن فخرى عبد النور كان دائما الاسم المكرّر بين الزائرين .

وكان سعد معجباً بصراحته وخفة ظلّه وبقدرته العجيبة على تذكر الأحداث والتواريخ . فإذا كان المجلس مختلفًا فى تاريخ معيّن أو واقعة معيّنة ، صاح سعد هاتوا «مؤرخ الوفد » ! أو هاتوا « قاموس الوفد » ! أو هاتوا « الوطنى الغيُور » . . وكثيرًا ما كان سعد يطلق على فخرى « الوقائع السعدية » ، نسبة إلى « الوقائع المصرية » التى تصدرها

الحكومة المصرية حاوية القوانين والمراسيم والقرارات . وكان إذا نزل سعد من الطابق العلوى من بيت الأمة عقب نومه بعد الظهر ، ورأى فخرى عبد النور بين الجموع المنتظرة أمسكه من يده وقال له : « تعال اخرج معى » ! وكان يصحبه فى عربته الحانطور ويطوف معه كوبرى قصر النيل ويدور حول نادى الجزيرة ويتجه إلى شارع الأهرام ثم يعود إلى بيت الأمة . وهذه كانت نزهة سعد اليومية .

وقد التهمت « مذّكرات » فخرى عبد النور » التهامًا ، لأنه استطاع أن يجعلنى أعيش فيها طفولتى وشبابى ، وأرى نفس الوجوه ، وأسمع نفس الأصوات ، وأرى نفس الأحداث ، وكأنه فيلم « سينيراما » ترى فيه أحداث ثورة ١٩١٩ من مختلف جوانبها ، لا من ناحية واحدة . بكل ألوانها وأعلامها الزاهية وصوتها الداوى كالرعد الشديد .

كان يشرح فى مذكّراته معركة حربية بين جيشين غير متكافئين . جيش معه السلاح والقوة والجبروت ، وجيش معه الحق والإيمان والطوب ! جيش يمثل أقوى امبراطورية فى العالم ، وجيش آخر يمثل شعبا صغيرا !يكافح ليحطم قيوده وأغلاله . ثم ترى كيف يتحول الضعفاء إلى أقوياء ، والمسحوقون إلى منتصرين . وكيف يفّر الطغاة الجبابرة المسلّحون أمام إجماع صمَّم على الحرية والحياة ! إن فخرى عبد النور رسم صورة هذا الشعب الجبّار بالكلمات . . . !

طبقات الوفد

عندما ألّف سعد زغلول الوفد نظّمه إلى طبقات سرّية إذا نُفيت الطبقة الأولى ، برزت الطبقة الثانية تتولى الزعامة ، وإذا أعدمت الطبقة الثانية وقفت الطبقة الثالثة من القادة تقود المعركة بغير أن تتوقف لحظة واحدة . وإذا حُكم على طبقة بالنفى فى قشلاق قصر النيل كانت الطبقة الرابعة مستعدة للعمل فورا بغير تردد أو تأخير . كانت الثورة أشبه بسباق التتابع يسلّم كل فريق العلم إلى الفريق الذى يليه ، ويدخل العضو الجديد إلى القيادة وهو يعلم أنه فى طريقه إلى المشنقة أو الاعتقال أو مصادرة الأموال أو غرفة التعذيب، ولم يكن العضو الذى ينضم للمعركة يستطيع أن يفخر بهذا التكريم الوطنى العظيم . لقد كان ممنوعًا على الصحف أن تذكر أسماءهم ، أو تشير إليهم ، لا تذكرهم إذا سُجنوا ، ولا تتحدث عنهم إذا حوكموا ولا تشيد بهم إذا حكموا عليهم !

ومع ذلك كان « فى ميدان التضحية متسع للجميع » ، وكان الوطنيون يتزاحمون على الموت تزاحم غيرهم على المناصب الكبرى ومقاعد الوزارة ، وكان الواحد منهم يتفاخر بالجرح الذى شجّ رأسه من حراب جندى انجليزى ويفضّله ألف مرة على وسام يجود به السلطان !

رجل فضّل المشنقة على الاستسلام

هذه المعركة الدموية بين الشعب المصرى وغاصبيه تحتاج إلى ألف كتاب لا إلى كاتب واحد ، ولكن أهمية هذه المذكّرات أنها سجّلت يوما بيوم ما حدث ، بقلم شاهد عيان ، عاش أحداثها ، وعاشر خطوبها ، ولمس انتصاراتها وهزائمها ، ومشى فى مواكبها ومياتمها . وحمل على كتفيه أبطالها وحمل على رأسه ضحاياها وشهداءها . هذا الرجل مشى فى المظاهرات يهتف بسقوط الانجليز المحتلين ، ودخل السجون والمعتقلات ، ونام على « برش » السجون ، وحرم الطعام ، ووجّهت إليه التهم الخطيرة عن مؤامرات لقتل الانجليز عقوبتها الاعدام ، وألقى فى السجن ستة أشهر وتعرّض للتهديد والوعيد . وجاءه الرسل يهددونه بحبل المشنقة إذا لم يعلن اعتزاله السياسة ، فاختار المشنقة ، وداس بقدميه على العرض المهين . . !

أحسست وأنا أقرأ هذه المذكّرات أننى أعيش ثورة ١٩١٩ من جديد ، يدوّى فى أذنى صوت شبابها ، وتُغنّى فى مسمعى هتافات نسائها ، وتتكحل عينى برؤية الطلبة ، جنود سعد ، يخوضون المعارك ويهاجمون الدبّابات ويستولون على السيارات البريطانية المصفّحة وهم يهتفون « نموت ويحيا سعد » ! رأيت جثثهم مزروعة فى حديقة « بيت الأمة » وصفية زغلول تمشى بينهم تضمّد جراحهم وتسبل عيونهم ، والجناينى يحتّج على أن أشجار الحديقة تحطّمت ، وزهورها ديست بالأقدام تقول صفية له مشيرة للجثث : هذه هى زهور حديقة بيت الأمة الجديدة ، وكلما كثرت هذه الزهور اقترب يوم الاستقلال !

الوفـــد الأول

روى فخرى عبد النور بك أن سعد زغلول اختار الوفد الأول من زملائه فى الجمعية التشريعية وهم على شعراوى باشا ، ومحمد محمود باشا ، وأحمد لطفى السيد بك ، ومحمد على علوبة بك ، ثم ضمّوا إليهم عبد اللطيف المكبّاتى بك . والذى أعلمه أن الخلاف حدث بين سعد زغلول وأحمد لطفى السيد بشأن ضم عبد العزيز فهمى ، وكان عبد العزيز قال قبل ذلك فى اجتماع عشاء فى بيت محمد محمود « إن شعب مصر لا يستحق الاستقلال » . وثارت بين الرجلين مناقشة عنيفة . واستطاع لطفى السيد ومحمد محمود أن يقنعا سعد زغلول بقبول عبد العزيز فهمى ، وبعد أكثر من ٣٠ سنة أذاعت وزارة الخارجية البريطانية برقية من وزير الخارجية البريطانية إلى المندوب السامى فى القاهرة يقول : اقبضوا على جميع قادة الثورة ما عدا عبد العزيز فهمى بك وسلّم الجهاز السرى هذه البرقية إلى سعد فاشتدّ تمسكه بعدم دخول عبد العزيز فهمى الوفد ، ثم خضع بعد ذلك لرأى الأغلبية وضمّه . ثم أراد سعد أن يضمّ أمين الرافعى وعبد الرحمن الرافعى إلى الوفد لأنه كان يثق بهما ثقة لا حد لها ، وقالا له إنهما عضوان فى اللجنة الادارية للحزب الوطنى ويجب استئذانه ، فرفضت اللجنة الإذن لهما ، فذهبا إلى سعد وقالا له إنهما يقبلان أى عمل فى الثورة ما عدا عضوية الوفد ، وأسند سعد إليهما أخطر عملية : عبد الرحمن الرافعى عضو المجلس الأعلى لاغتيال أعداء الثورة ، وأمين االرافعى سكرتيرا مساعدًا للجنة الوفد المركزية .

وتقرر الاستعانة باثنين من المتعاطفين مع الحزب الوطنى بدلا من أمين الرافعى وعبدالرحمن الرافعى واختار سعد الدكتور حافظ عفيفى ، ومصطفى بك النحاس .

وكثيرا ما كان سعد يردد فى أثناء خلافه مع أمين الرافعى بشأن مقالاته عن ضرورة تعديل الأساس فى المفاوضات بين مصر وإنجلترا « لو بقى أمين الرافعى لأصبح رئيس الوفد» .

والرجل الثانى الذى عارض سعد زغلول فى دخوله الوفد هو اسماعيل صدقى باشا بسبب الظروف التى أُخرج منها من وزارة الأوقاف عندما كان وزيرًا لها فى وزارة رشدى باشا ، ولكن عبد العزيز فهمى ولطفى السيد ومحمد محمود تكتلوا فى تأييد إسماعيل صدقى فنزل سعد على ارادتهم وقال كلمته المأثورة : « اليوم يوم قيامة جديد . ومولد كل

مصرى اليوم ، ولا نحاسبه على ما فات . . ! »

وبعد ذلك ضمّ الوفد حسين واصف باشا وزير الأشغال السابق وحمد الباسل وسينوت حنا وجورج خياط بك ، وعبد الخالق مدكور باشا ، بصفته سرّ تجار القاهرة .

الذين قتلوا أبى والذين قتلوا وطنى !

وتقّدم الأقباط بقائمة منهم لينضمّوا إلى سعد وكان فى مقدمتهم واصف أفندى غالى ابن بطرس باشا غالى رئيس الوزراء الذى اغتاله الانجليز . وكان موجوداً ـ وقتذاك ـ فى باريس ، وعرض عليه سعد ـ بالتلغراف ـ عضوية الوفد . فقبل فى الحال ، ويومها ذهب سفير بريطانيا فى باريس إلى واصف غالى وقال له : كيف تضع يدك فى يد من قتلوا أباك ؟ فقال واصف غالى : هذا خيرٌ لى من أضع يدى فى يد من قتلوا وطنى !

وحدثت فى تلك الأيام مصيبة لم تخطر على بال سعد ، فقد طبع سعد توكيلات الشعب للوفد فى خمس مديريات مختلفة لتكون بعيدة عن عيون المخابرات العسكرية . وكان أن اختار لعضوية الوفد ميشيل بك لطف الله العضو فى الجمعية التشريعية ليمثل السوريّين حتى تكون الحركة ممثّلة للمصريين والسوريين . ووافق ميشيل لطف الله وطبعت مئات الألوف من التوكيلات . وفجأة جاء ميشيل لطف الله إلى بيت الأمة وطلب نزع اسمه من التوكيلات لأن أصدقاءه أخبروه أنه مرشّح «لعرش سوريا » ، وتوقيعه على هذا المنشور الثورى يضيّع مركزه فى المنصب الجديد . واضطّرت الثورة أن تحرق مئات الألوف من المنشورات ، لطبع منشورات جديدة خالية من اسم ميشيل لطف الله (صاحب الأرض التى أقيم عليها الآن فندق ماريوت) !

ويُلاحظ أن سعد زغلول لم يضع فى الوفد الأسماء التى اختارها للجهاز السرى للثورة ، مثل عبد الرحمن فهمى بك وأحمد ماهر والنقراشى وحتى كامل الشيشينى (مدير بنك التسليف الزراعى فيما بعد) . ومحمد شرارة (وكيل وزارة الخارجية فيما بعد) .

ثم انضمّ إلى الوفد ويصا واصف ومحمود أبو النصر ، ورشّح جورج بك ويصا ليكون عضوا فى الوفد ، ثم حُذف اسمه لأنه كان قنصلاً لأمريكا فى أسيوط .

ووضع سعد قائمة سرّية بأسماء « طبقات الوفد » تحت الأرض . لكى تحلّ كل طبقة مكان الطبقة السابقة إذا أعتقلت أو أعدمت ، وسلّم الأسماء التى اختارها إلى أحمد ماهر

والنقراشى ، وأغلب الذين اختارهم سعد قبلوا هذا التكليف الوطنى الخطير . وأقلّية منهم خافوا ، وتخاذلوا أمام المشانق ، والمصادرات والإرهاب والتهديد والوعيد والبطش وأحكام الإعدام .

الصليب مع الهلال

وعند تأليف الوفد سأل جورج خياط بك من أعيان أسيوط سعد زغلول : ما هو مصير الأقباط بعد انضمامهم إلى الوفد ؟

فأجاب سعد : « إطمئن » إن للأقباط مالنا من الحقوق ، وعليهم ما علينا من الواجبات على قدم المساواة » .

ومن ذلك االيوم انضمت الأغلبية الساحقة من الأقباط إلى الوفد ولم يخرج عنه إلا بضعة أفراد . وعندما ألّف سعد زغلول وزارته تقدّم إلى الملك فؤاد بقائمة الوزراء ، فأمسك الملك قلمه وأحصى عدد الوزراء ، ثم قال لسعد : هناك غلط فى العدد ! عدد الوزراء عشرة والتقاليد أجمعت على أن يكون تسعة منهم مسلمون وقبطى واحد وهؤلاء ثمانية مسلمون ومرقص حنا بك وزير الأشغال وواصف غالى أفندى وزير الخارجية .

قال سعد : هذه وزارة ثورة لا وزارة تقاليد . عندما نفى الانجليز زعماء الثورة إلى جزيرة سيشيل ، نفوا أربعة مسلمين ، واثنين من الأقباط . وعندما حكموا على قادة الثورة بالاعدام، حكموا على أربعة أقباط وثلاثة مسلمين . وعندما كانوا يطلقون علينا الرصاص فى المظاهرات لم يراعوا النسبة بين الأقباط والمسلمين ، ولهذا نحن لا نراعى النسبة اليوم . واضطّر الملك فؤاد أن يرضخ ويوقّع المرسوم الملكى بتأليف الوزارة .

القـــارعــــة

وكان سعد زغلول حدّد « ساعة الصفر » للثورة يوم اعتقاله ، وانهالت البرقيات على رئيس الحكومة البريطانية وحكومات الحلفاء يطلب منهم الخروج من مصر ، وكان يتصوّر أن هذه البرقيات العنيفة سوف تحرّك الانجليز المحتلين ويبطشون بالحركة ، فينفجر الشعب . ولكن الانجليز لم يتحرّكوا . وقال يومها المستشار البريطانى « برونيات » : «هذه

الثورة يمكن إطفاؤها ببصقة » ! وقال سعد : « اللّهم ارزقنا بطغيان . إذا بقينا كما نحن سنموت فى مواضعنا لابدّ من قارعة » !

وأرسل سعد زغلول برقية عنيفة إلى السلطان فؤاد محتجًا على قبوله استقالة وزارة حسين رشدى باشا احتجاجا على منع الانجليز للوفد من السفر للمطالبة باستقلال مصر .

وجاء فى رسالة سعد : « كيف فات مستشاريكم أن عبارة استقالة رشدى باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة ووطنية أن يخلفه فى مركزه ؟ كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل » .

وبعد اذاعة هذا البيان رفض أى مصرى أن يؤلف الوزارة ، ولجأ السلطان إلى « اللورد اللنبى » يستغيث به وأصدر « لويد جورج » رئيس الوزارة البريطانية قرارا بنفى سعد زغلول وحمد الباسل ومحمد محمود وإسماعيل صدقى إلى مالطة .

ووقع الظلم الذى تمنّاه سعد زغلول ، وحدثت القارعة التى قوّتها ، وانفجرت الثورة فى كل مكان .

كيف بدأت الثورة ؟

واستطاع فخرى عبد النور أن يسجل أحداث الثورة يومًا بيوم وساعة بساعة ، حينا من مركز القيادة ، وحينا من الشارع السياسى ، وأحيانا من السجون والمعتقلات . فهو لم يذكر رواية بالسماع ، وإنما كان يسجّل بكاميرا حساسة دقيقة كل ما يجرى ويدور وراء الستار ، وصف قوّات الانجليز الضخمة التى انبرت للقضاء على الحركة الوطنية ، وكلما اطفأوا النار فى ناحية ، تأججت من ناحية أخرى ، وكلما واجهوا المتظاهرين بالحديد والنار قابلهم هؤلاء بالقلوب المؤمنة التى لا تعبأ بالرصاص . وصف شهداء الوطن الذين صبغت دماؤهم أرضه ورووت بقاعه ، وكم من شاب قتله الرصاص وهو يهتف من الأعماق « نموت ويحيا سعد ! نموت وتحيا مصر ! » .

وقد وصف كيف بدأت مظاهرات الاحتجاج فى القاهرة والعواصم الكبرى قوامها طلبة المدارس ، ثم انضم إليها الفلاحون والعمال والموظفون وانقلبت ثورة وطنية عارمة قُطعت فيها السكك الحديدية ، وهوجمت دور الحكومة ومراكزها ، واحتلّها المتظاهرون وأعلنوا

«الجمهورية » فى زفتى والمنيا وأسيوط ؟

صمد الشعب للمجازر والمذابح وحمّامات الدم . وارتكبوا فى قرى « العزيزية » والبدرشين » صفحات سوداء مما اقترفوا من جرائم يندى لها الجبين . تعرّض الشعب للسياط فلم يخف ، وانهال عليه الرصاص فلم يفزع ، وسقطت فوقه القنابل فلم يتفرق ، ملأوا السجون بالأبرياء ، دمّروا القرى ، انتهكوا أعراض النساء ورفض الشعب أن يستسلم أو يركع للغزاة الفاتحين .

ذُهل الانجليز لموقف الشعب المصرى الذى لم يتصوروه ، لقد كانت تقاريرهم تؤكد أن المصريين استكانوا وسوف يقبلون الانضام تحت الحماية البريطانية ، فإذا بالأغنام تتحول إلى أسود ، والحمائم إلى نسور ، والمستضعفين فى الأرض المسحوقين تحت أقدام الغاصبين إلى ثوّار شجعان ينتزعون الفرسان الانجليز المدجّجين بالسلاح من فوق خيولهم . !

كيف انتصر الشعب ؟

تحوّلت مصر فى يوم وليلة إلى أمة أخرى ! دماء الضحايا طهّرتها ، دموع أمهات الشهداء غسلتها . الرصاص أيقظها من نومها . القارعة حشدتها فى موكب واحد يهتف «الاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

واضطّرت انجلترا وقوّتها وعظمتها وجبروتها وأسطولها وجيشها أن تنزل على إرادة هذا الشعب الصغير المتّحد المصمّم على أن يبذل حياته فداء للحرية والاستقلال التام ، وأصدرت الحكومة البريطانية أمرا بالافراج عن سعد زغلول وزملائه .

وهكذا اعتقل سعد زغلول يوم ٨ مارس وفى يوم ٧ أبريل قررّت بريطانيا أن تخضع لارادة الشعب المصرى وتفرج عنه ، وتسمح له بالسفر إلى أوروبا لمطالبة «مؤتمر الصلح » باستقلال مصر .

ولم يحدث فى تاريخ العالم أن استجابت بريطانيا لثورة بعد أقل من شهر واحد من اندلاعها !

ورقصت مصر ابتهاجا باطلاق سراح زعيمها ، وأرسل سعد رسالة سرية إلى محمود سليمان باشا رئيس لجنة الوفد فى مصر يقول فيها : « الثورة لم تنته . إنها بدأت . العيد يوم أن يتحقق الاستقلال التام » !

الخلاف الأول ـ سعد يطالب بالحكم الجمهورى

وسافر سعد والوفد إلى لندن وباريس . وبدأت الخلافات فى لندن عندما قدّم سعد زغلول مشروعًا للمعاهدة جاء فيه أنه عندما تحصل مصر على استقلالها يكون من حق الشعب أن يختار الحكم الملكى أو الحكم الجمهورى .

وغضب بعض أعضاء الوفد لأن سعد زغلول طالب بأن من حق الشعب اختيار «النظام الجمهورى » ، مخالفًا رأيهم .

ثم حدث أن كلّف الوفد الأستاذ عبد العزيز فهمى بوضع مشروع دستور لمصر إذا استقلت فوضع دستورا جاء فى مواده الأول : « يكون الملك فؤاد ملكا لمصر ، ويخلفه صاحب السمو الأمير فاروق » .

ويقول عبد العزيز فهمى باشا إن سعد زغلول ألقى فى وجهه مشروع الدستور وقال له موش كفاية جايب لنا الملك فؤاد . . تجيب لنا كمان فاروق ! وحدث عقب المفاوضات مع كيرزون أن قال عبد العزيز فهمى لسعد : « أننى ألاحظ أنك تتكلم مع وزير خارجية بريطانيا بلهجة عنيفة . . تذكر إننا شحاذون . نشحذ استقلالنا » فقال له سعد : « أنا لا أشعر أبدا أمامهم أننى « شحاذ » بل أشعر أننى صاحب حق يواجه لصًا سرق بلاده ، ويطالبه باعادتها إلى أبنائها ! » .

وقد كانت هذه الخلافات هى التى قسمت الوفد إلى أغلبية من « المعتدلين » برياسة عدلى يكن باشا وأقلية من « المتطرّفين » برياسة سعد زغلول .

كان من رأى الأغلبية أن يقبل سعد المشروع المتواضع للمعاهدة الذى وضعه « كيرزون» وزير خارجية بريطانيا ، وكان سعد يصرّ على الاستقلال التام . واستفتى سعد الأمة فأيّديه فى رفض المشروع ووضعت عليه « تحفّظات » وتدخّل الوسطاء . ففشلت الجهود لاصرار سعد على التمسّك بتوكيل الأمة التى تصر على الاستقلال .

وألّف عدلى يكن وفدا رسميا سافر إلى انجلترا للمفاوضة ، وأذاع أن الشعب المصرى يؤيده .

وقام سعد برحلات فى الأقاليم أثبتت التفاف الأمة حوله ، وآخرها رحلة فى الصعيد على ظهر باخرة نيلية . وصدرت أوامر الحكومة بمنع الباخرة من الرسوّ على أى مدينة على

الشاطئ . وتحدى الشعب أوامر الحكومة . وقامت معارك عنيفة أطلق فيها الرصاص وانتصر الشعب على الحكومة وكانت مظاهرة شعبية لتأييد سعد ، وقد وصفهـا فخـرى عبد النور وصفا رائعا يوما بيوم .

وشعر الانجليز فى لندن أن عدلى يكن لا يمثل أحدا فتعنتوا فى مفاوضته وأرادوا أن يقتنصوه بشروط لا يمكن أن ترضاها أمة حرة ، فأصّروا أن يبقى الاحتلال البريطانى فى كل المدن بعد الاستقلال ! وأصرّوا أن تتضمن المعاهدة أن يدخل المستشار الانجليزى القضائى والمستشار الانجليزى المالى على رئيس الوزراء المصرى فى أى وقت بغير استئذان !

مدينــة .. بــلا سكــان !

واضطر عدلى أن يقطع المفاوضات ويعود إلى مصر خائبا فاشلا ، وأراد أنصاره من المحكومين أن يقيموا له استقبالا شعبيا يحشدون له مئات الألوف ووجه سعد زغلول نداء إلى الأمة قال فيه :

« أنصحكم أن تكفوا عن الخروج إلى الشوارع فى اليوم الذى تصل فيه بعثة عدلى يكن إلى مصر . وأن تنصحوا أهليكم ومعارفكم ، وكل من تلقونه ممن تربطكم به أى رابطة ، أن يبقوا فى منازلهم ، وأن لا يخرجوا إلى الطريق الذى تمر البعثة فيه ، لا بصفة مشاهدين متفرجين ، ولا مشاكسين معترضين مثال أولئك المجرمين الذين اتخذوا من الأشقياء عونا لتحطيم الزينات التى أقيمت فى أسيوط وجرجا ، والانهيال على المستقبلين بالضرب والجرح والقتل والتفريق وما إلى ذلك من وسائل الاستبداد والعسف . لأن الوطنية الصادقة احترام الحرية ، والكف عن اجتراح السيئات ضد أى إنسان ولو كان خصما » .

« مهما أقام خصومكم من الزينات والأقواس التى ما تكون إلا أقواس خزى ، فلا تمدّوا أيديكم إليها ، واتركوا البعثة الخائبة تمر فى الشوارع وهى خالية ، كما تمر الجنائز العادية ، واعتصموا دائما بشعارنا الذى هو : « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

وأطاع الشعب أمر سعد زغلول فأصبحت مدينة القاهرة فى ذلك اليوم مدينة الأموات . عربات الترام توقفت . السيارات بقيت فى الجاراجات . المدارس مغلقة . المتاجر مقفولة . الشوارع خالية من المارة . لا أحد يطل من نافذة أو يقف فى شرفة .

كأن الأرض انشقت وبلعت أهل القاهرة جميعا فلم يبق فيها أحد على قيد الحياة .

وسار موكب عدلى باشا فى شوارع المدينة التى هجرها أهلها ، ودهش من هذا الإجماع الغريب .

وقصد عدلى إلى فندق الكونتننتال حيث أقيم له احتفال كبير ، وكان عدلى مكتئبا فلم يخطب وتلا بضعة أسطر ضمّنها شكر الحاضرين .

واعتقد الشعب أنه نفّذ أمر سعد زغلول بالاختفاء ، وأنه آن له أن يخرج من مخابئه ، فانتهزوا ذهاب الوزراء وأنصار عدلى إلى قصر عابدين لتقييد أسمائهم فى سجلّ التشريفات ، فانهالوا عليهم بالبيض الفاسد والطماطم !

وكان منظر الوزراء والأعيان وقد غطّاهم البيض الفاسد والطماطم منظرًا يثير الضحك . . . !

البقية تــأتــى

إن مذكّرات فخرى بك عبد النور اكتفت بنشر الأحداث الهامة ورحمت خصوم الثورة فلم تسجل هتافات الشعب القاسية ضد أعداء الشعب . ولا الأغانى الساخرة التى هزأوا فيها بالحكام ، وكانوا يردّدونها فى الشوارع ويكتبونها على جدران الوزارات وقشلاقات الانجليز . ولم يذكر النكت التى أطلقها الشعب على أنصار الانجليز حتى جعلوا منهم أضحوكة فى المجالس والمجتمعات .

ولكنه سجّل بأمانة صراع الشعب الذى لم يتوقف ، وجهاده الذى لم يضعف وتضحياته بكل غال ورخيص .

ولسوء الحظ أن مذكرات فخرى بك النور توقفت قبل أول انتخابات لمجلس النواب سنة ١٩٢٣ فلم يذكر كيف سقط الباشوات ونجح الأفندية ، وكيف هزم الفقراء الاقطاعيين . وكيف أن الدكتور أحمد ماهر أنفق فى دائرته الانتخابية أربعة جنيهات ونصف وأنفق منافسه عشرات الألوف ، واكتسح أحمد ماهر ـ مرشح سعد زغلول ـ صاحب الملايين !

وتوقف قبل تأليف الوزارة السعدية والأزمات التى حدثت بين الملك ورئيس الوزراء عندما رفض أن يوقع خطاب تأليف الوزارة باسم « عبدكم الخاضع » كما قضت التقاليد

ووضع أمين أنيس باشا وكيل الديوان حلاً وسطا بأن يوقع « خادم سدّتكم » !

ولم يصل إلى مصرع السردار .

وإلى تأليف حزب الاتحاد ، وتزوير الانتخابات ، وانتصار سعد على الملك والمندوب السامى ورئيس الوزراء واضطرارهم إلى حل البرلمان بعد انعقاده بسبع ساعات .

ثم لم يصل إلى وفاة سعد وكيف تم انتخاب النحاس ، والخلاف الذى وقع فى الوفد .

كل هذه الأحداث كان فخرى عبد النور بك شاهدًا من أهم شهودها ولكنه يبدو أنه توفى قبل أن يتم هذه المذكّرات التى تؤكد أنه « جبرتى جديد » !

وأتمنى أن يجىء الشبأن من بعده ليكمّلوا هذه المذكرات التاريخية الهامة الرائعة .

مصطفى أمين

تمهيد

هذه ذكريات دوّنتها عن ثورة الشعب المصرى ، التى انفجرت فى سنة ١٩١٩ ، لرفع نير الحماية البريطانية عن عاتق مصر ولتحقيق استقلالها وسيادتها ، تلك الثورة التى مهّد لغرس بذورها فى نفوس المصريين ما عانوا من ضيْم فى ظلّ الحماية التى فرضتها عليهم بريطانيا منذ بداية الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ ، ثم الاستهتار المزرى بشأن مصر دون سائر بلدان الشرق الأوسط عندما انتصر الإنجليز والفرنسيون والأمريكيون وحلفاؤهم فى خريف سنة ١٩١٨ وشرعوا فى وضع أسس السلام للعالم الجديد . وأبى المصريون أن يقيموا على الضيم والمهانة فقضى هذا الإباء على كل تخاذل واستضعاف بينهم ، وأبرز ما كان كامنا فى جوانحهم من حب لمصر ، وفخر بالانتساب إليها ، ووحّد كلمتهم جميعا على أن يعيشوا أحرارا ، وأن تعيش مصر حّرة من كل تدخل أجنبى .

فلما أصرّت الحكومة الإنجليزية على منع زعمائهم من الذهاب إلى « مؤتمر السلام » فى باريس ، طلبا للاعتراف باستقلال مصر ، وأمرت رجالها العسكريين باعتقال الزعيم سعد زغلول وثلاثة من أنصاره ، فى ٨ مارس سنة ١٩١٩ . وإبعادهم إلى جزيرة مالطة ، كانت تلك هى الشرارة التى أشعلت نيران الثورة .

ولم ينقض طويل زمن حتى أخذت مصر تجنى ثمارها ، فكانت باكورتها إلغاء الحماية البريطانية فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، ثم جلاء الموظفين البريطانيين ـ وما كان أكثرهم ـ فى سنتى ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ بعد ما استأثروا أربعين عاما بالسيطرة على الإدارة المصرية ، وأجريت فى أواخر سنة ١٩٢٣ ـ الانتخابات العامة القومية الأولى ، واجتمع فى ١٥ مارس ١٩٢٤ نوّاب مصر وشيوخها المنتخبون فى البرلمان المصرى الأول .

لا شكّ أيضا ، فى أن الثورة هى التى أفضت إلى بقية المكاسب ـ العظيمة الشأن ـ التى جنتْها مصر بعدئذ . ومنها اعتراف انجلترا باستقلالها فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ وقبول مصر عضوا فى عصبة الأمم ، دولة مستقلة ذات سيادة ، ثم إبطال نظام « الامتيازات الأجنبية » بموجب معاهدة « مونترو » الدولية فى ٨ مايو سنة ١٩٣٧ وإطلاق سلطان مصر فى التشريع ، ثم إزالة آثار الرقابة التى فرضتها الدول على المالية العامة بإلغاء «صندوق

الدين » ، وأخيرا إلغاء « المحاكم المختلطة » وتقرير سيادة القضاء الوطنى ـ وحده ـ على جميع المقيمين بأرض مصر بلا استثناء ، ولأول مرة فى التاريخ الحديث .

والذى دفعنى إلى هذه الذكريات أنه أتيح لى خوض غمار هذه الثورة والاتصال الوثيق بزعيمها « سعد زغلول » .

إذن فإنّى أروى ما قاسيتُه شخصيا وما شاهدتُه عيانا أو تحققتُ منه عن ثقة . ولئن حالت طبيعة ظروف الثورة دون تسجيل كل الحوادث فور وقوعها ، إلا أننى استعنت ببعض المذكّرات ، وبالذاكرة تسندها الوثائق الصحيحة .

وبديهى أن « الذكريات » ليست هى التاريخ ، ولكنّها ـ لما تلقيه على تفاصيل الحوادث من الضوء ـ تُعد من أمتن دعاماته ، خصوصا متى كان أثر الحوادث فى وقتها على الراوى أعمق من أن تعبث به الأيام .

قلت إنى اتصلت بزعيم الثورة سعد زغلول . نعم وكانت هذه الصلة من أعظم بواعث غبطتى وفخرى . وكان منشؤها إعجابى بما جمع فى شخصيته الرفيعة من عقل زاخر جبّار، ورأى سليم قويم ، ووطنية نزيهة متّقدة ، وحماسة فيّاضة وخُلق فاضل كريم ، ورقة جانب جذّابة .

فلما قرّبنى منه عملى فى الحركة الوطنية ، حضرتُ مجلسه فما لبث أن سحرنى ـ بل وأسرنى ـ حتى أصبحت منه فى بادئ الأمر كعبّاد الأبطال . ثم شعرت أنى أخذت أقترب من نفسيته الحساّسة السامية ، وأيقنت أن موقفه منى تطوّر إلى أن غدا بمثابة أبوّة روحية مقرونة بكثير من الإعزاز والإيثار ، تمتّعت بها سبعة أعوام من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٧ .

تلك صلة تفنى الأيام ولا تفنى ذكراها .

وإنى لأرجو أن يكون فى هذه الصفحات ما يُعين الجيل الجديد من الشباب الذين تعتمد عليهم مصر فى حاضرها ومستقبلها ، على إدراك عظمة سعد زغلول ، وفهم حقيقة النهضة القومية التى تزعّمها والتّحول البعيد المدى الذى أحدثته فى كيان مصر ، وفى نفسية المصريين ، منذ قضت على السيادة التركية من جهة ، والحماية البريطانية من جهة أخرى ، وامتيازات الأجانب من جهة ثالثة .

ولا أنسى . وأنا أكتب هذه الصفحات ، تلك الأيام التى اجتازتها مصر ـ حافلةً

بالمحن والأهوال ـ منذ قامت بحركتها الوطنية فى أوائل سنة ١٩١٩ . ولعلّ قارئ هذه الذكريات يستطيع تصوّر الجو الرهيب الذى عاش فيه وطننا المصرى طوال سنوات الثورة لما أنزله البريطانيون بالكثيرين ممن اشتركوا فى إضرام نارها ، بصورة أو بأخرى .

وكنتُ ممن اكتووا بتلك النيران . وإنى لأفخر بإقدامى ـ عن طيب خاطر ـ على تحمّل نصيبى من التضحية فى سبيل حبّى لوطنى وتمسّكى بحقوقه . فقد قاسيت عذاب السجن والاعتقال شهورا عديدة فى ثكنات قصر النيل وسجن الأجانب وسجن مصر (قره ميدان) وعرّضت نفسى لبطش الاستعمار وتنكيله حينما اشتركت فى تأليف طبقة جديدة من « الوفد المصرى » ، إثر نفى الطبقة الأولى إلى جزر سيشيل فى ديسمبر سنة ١٩٢١ ، وصدور الحكم بالإعدام على الطبقة الثانية فى أغسطس سنة ١٩٢٢ . كما تعرّضت مصالحى الخاصّة لكثير من الأضرار . ولم يكن لى فى ذلك من مطمع سوى أن أحظى برضاء الله والوطن ، أو هدف إلا أن أرى بلادى تنعم بالحرّية والاستقلال .

وما أصدق الزعيم العظيم سعد زغلول إذ قال :

« أى شرف أكبر من الشرف الذى يحرزه من يعّرض نفسه لفداء وطنه »

القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ .

فخرى عبد النور

الفصل الأول

كيف عرفتُ سعدا ، ومتى عرفتُه ؟

ينبغى أن يكون أولُ الفصول فى سرد هـذه الذكريات الحديث عن بدء معرفتى بسعد . ولست أقصد بهذه المعرفة ذلك الاتصال الوثيق الذى بـدأ بينى وبينه على إثـر عودته الأولى مـن باريس فى بـدء الحركة الوطنية (٤ أبريل سنة ١٩٢١) فذلك حديث له موضعه . وإنما أقصد إلى المعرفة عن بُعد ، ثم عن قرب ومشاهدة ، ثم مقابلة إن هى أحدثت فى نفسى الأثر البالغ فإنها لم ترق بى إلى الاتصال الذى تطلعتُ إليه زمانا طويلا حتى نلته فتحققت لى به سعادة كبرى .

* * *

كنّا نسمـع عن سعد كثيرا . وكان الحديـث عنه مستفيضاً على صفحـات الصحف . وقد نشأنا ، فإذا بنا نراه على الـدوام ملء الأسماع ، ملء الأبصار . حتى إذا اشتدّت رغبة البلاد فى إنشاء « الجامعة » . ووقع اختيارها عليه لرياسة لجنتها زادت صلتنا به ـ عن بعد ـ وثوقا . وزادت مكانته بيننا سمّوا .

وكان رحمه الله إذ ذاك مستشـارا فى محكمة الاستئنـاف الأهلية . فلـم يمنعه عـبء هذا المنصب الكبير مـن النهوض بتلـك المهمة الخطيرة ، مهمـة إنشاء الجامعـة والدعـوة إليها وإحاطتهـا بما يضمن لها البقاء والاستقـرار . وهكذا سار سعد قـدما فى سبيل تنفيـذ هذا المشروع الذى تـولّى «رياستـه الشرفية » الأمير أحمد فـؤاد ، وعضويتـه زميل سعـد القديـم وصديقه الحميم المغفور له قاسم أمين بك ، وبعض جهابذة المفكّرين .

وكانـت هذه الحركة قـد نبّهت ذوى الشأن إلى ما تجـيش به نفوس أبناء الأمـة من الرغبة الشديدة فى نشر التعليم والتوسّع فى إنشـاء المدارس . وكان لا يتولّى وزارة المعارف فى ذلك الوقت وزيـر يستقل بشؤونها [1]؛ وإنما كـان يتولاهـا وزير بـالإضـافة إلى عملـه فى وزارة أخرى .

وإلى أكتوبـر سنة ١٩٠٦ كان يتـولّى هذه الوزارة المغفور لـه حسين فخرى باشـا (والد صديقى وزميلى فى الـدراسة محمود فخرى بـاشا وزير مصر المفوض فى بـاريس . والأستاذ جعفر فخرى المحامى) ، بالإضافة إلى عمله فى وزارته الأصلية وهى وزارة الأشغال . وقد بقى قائما بشـؤون هاتين الوزارتين فى وزارة المغفور له مصطفـى فهمى باشا مـن نوفمبر سنة

١٨٩٥ إلى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، إذ صدر فى ذلك اليوم (الموافق ١٠ رمضان سنة ١٣٢٤ هـ) أمر عال بتعيين سعد زغلول بك ناظرا للمعارف . وكان هذا الاختيار موفّقا إذ أن البلاد اختارته لرياسة لجنة الجامعة ، فحريّ به ـ آنذاك ـ أن يكون على رأس الوزارة التى تُشرف على شؤون التعليم عامة .

وقد أستقبل تعيين سعد باشا من الأمة بالبشر والسرور ، حتّى من خصوم سعد . ونشرت جريدة « المؤيد » لصاحبها المغفور له الشيخ على يوسف مقالاً إضافيا قالت فيه :

« قد أجمع الناس من جميع الطبقات على استقبال هذا التعيين بالسرور والابتهاج ، وتفاءلوا خيرا لمستقبل الأمة . هذا وإن لكل مصرى ذى لبّ وبصيرة أن يعتبر أمر تعيين سعادة سعد بك زغلول ناظراً للمعارف أحسن مثل للعظة والاعتبار ومقياسا لنتائج الأخلاق الفاضلة والشيم العالية . »

وهكذا كان . وأذكر أنى كنت قد تزوّجت فى تلك الأيام ورأيت أن أسافر مع عروسى فى رحلة نيلية إلى جرجا ، وفيما أنا بإحدى بواخر « شركة كوك » عرفت هذا النبأ . فى أسيوط من الصحف . فكان له فى نفسى أحسن وقع .

ولم أكن حتى هذا الوقت قد رأيتُ سعدا رأى العين . ففى إبريل سنة ١٩٠٧ اعتزل «لورد كرومر » المعتمد البريطانى عمله فى مصر ، كما يعرف المتتبّعون للحركة السياسية . وأقيمت بهذه المناسبة فى يوم السبت ٤ مايو حفلة فى دار الأوبرا ، برياسة مصطفى فهمى باشا رئيس مجلس النظّار ، وكان سعد حاضراً . وهذه هى المرة الأولى التى رأيته فيها إذ كنت من شهود الاحتفال ، إستجابة لدعوة وصلت إلىّ من رئيس الحفلة .

ورأيت فى مقدمة الحاضرين فى هذه الحفلة الأمير حسين كامل ومصطفى رياض باشا رئيس النظار الأسبق .

أمّا لورد كرومر فقد ألقى فى هذا الاحتفال خطبته المشهورة التى أطرى فيها شجاعة رياض باشا ، وأثنى على مصطفى فهمى باشا للطفه ، ولمكارم أخلاقه . وقال عن بطرس غالى باشا « إنه كان يؤدى أعظم منفعة وأجلّ خدمة لبلاده بما أوتى من ثاقب البصيرة وسعة الحيلة العقلية فى حلّ المشكلات التى تنجم عن حالة البلاد السياسية الخصوصية» .

وقال عن سعد باشا : «وأذكر أخيرا اسم رجل لم أشتغل معه إلا من عهد قريب . ولكن معاشرتى القصيرة له قد علّمتنى أن أحترمه احتراما عظيما . وإن أصاب ظنّى ، ولم



صورة عائلية جمعت بين سعد باشا زغلول وزير الحقانية وحرمه السيدة صفية زغلول
كريمة مصطفى باشا فهمى رئيس الوزراء الأسبق

يخطئ كثيرا فسيكون أمام ناظر المعارف الجديد سعد زغلول باشا مستقبل عظيم للمنفعة العمومية . لأنه حائز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده . فهو صادق . مستقيم. كفء . مقتدر. شجاع فيما هو مقتنع به . وقد احتمل الطعن والذّم من كثيرين ، هم دونه فضلا بمراحل ، من أبناء وطنه . فهذه صفات سامية ، فالواجب أن صاحبها يتقدّم كثيرا» .

وأذكر أن هذه الخطبة ألقيت ، مَساء السبت الموافق لليلة عيد القيامة عند الأقباط والطوائف الشرقية . وفى اليوم التالى كان العيد فأشيع فى أوساط البلاد أنه فى يوم رحيل كرومر وهو اليوم التالى ـ شمّ النسيم ـ ستحدث ثورة ، «وحوادث ! ولكنّ اليوم مّر بسلام ، وسافر كرومر صباحا بقطار خاص إلى بورسعيد . وفي الوقت نفسه قام الخديو عباس باليخت « نسيم النيل » فى رحلة بالريّاح التوفيقى ، مستصحباً حسين فخرى باشا وزير الأشغال الذى لم يذكره كرومر بكلمة فى خطبته . وممّا يذكر فى هذا الصدد أنه كان قد اعترض على اختياره رئيسا للنظار سنة ١٨٩٣ ، فلم تبق « الوزارة الفخرية » إلا يومين وهوأقصر وقت قضته وزارة فى الحكم ، فى تاريخ مصر .

وحدث بعد ذلك فى أبريل سنة ١٩٠٨ ، أن توفّى المرحوم قاسم أمين بك ، صديق سعد الحميم وزميله القديم . وأقيمت له حفلة تأبين ـ على رأس الأربعين ـ فى قبّة الغورى يوم الجمعة ٥ يونيو . وحضرتُ هذه الحفلة ، وسمعت سعداً لأول مرّة يخطب فى رثاء صديقه وزميله ويُجهش بالبكاء .

وكانت هذه الحفلة تحت رياسة الأمير أحمد فؤاد . وكان من أعضاء لجنة التأبين حسين رشدى باشا (مدير ديوان الأوقاف حينئذ) وقد ناب سعد باشا عن أسرة الفقيد فى شكر الخطباء والحاضرين . أمّا الخطباء فكانوا أحمد زكى بك (أحمد زكى باشا شيخ العروبة) والشاعر الكبير حافظ إبراهيم بك ، والأستاذ أحمد لطفى السيد بك [٤] والأستاذ عبدالحميد حمدى الذى ألقى قصيدة عصماء . وعبد الله سليمان أباظة بك ، وخليل مطران بك (شاعر الأقطار العربية) .

وحدث فى هذه الأثناء أن استقالت وزارة مصطفى فهمى باشا فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، بعد أن دامت فى الحكم ثلاثة عشر عاما بالضبط . إذ كانت قد ألّفت فى ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٥ . وألف بطرس غالى باشا الوزارة فى ١٣ نوفمبر واشترك معه سعد باشا ناظرا للمعارف . وكان قد أصبح فى حكم المقرر أن حسين فخرى باشا سيشترك فيها

ناظرا للمالية وكان قد أعطى كلمة بالقبول ، ولكنّه عاد فاعتذر فى اليوم التالى باعتلال صحته . وعلى ذلك لم يدخل الوزارة ، كما لم يدخلها من أعضاء « الوزارة الفهمية » المستقيلة إلا سعد باشا فهو الوحيد الذى اشترك فيها منهم .

وبقى سعد باشا فى وزارة المعارف حتى وقعت حادثة مقتل المغفور له بطرس غالى باشا فى يوم الأحد ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ . وكان المظنون أن يتولى سعد رياسة النظّار ، باعتباره أقدمهم عهدا . ولكن ذلك لم يتم . إذ اختير المغفور له محمد سعيد باشالأن الخديو والإنجليز رأوا فى سعد باشا صلابة ، وقوة شكيمة ، وشدة . ومع ذلك . آثر محمد سعيد باشا قبل أن يقبل هذا المنصب أن يستوثق من معاونة سعد باشا له فزاره فى منزله (بيت الأمة الآن) وعرض عليه الاشتراك معه فى الوزارة فقبل . وانتقل من وزارة المعارف إلى وزارة الحقّانية . ومن المصادفة أن كان وكيل هذه الوزارة ، هو أخوه ، القانونى الضليع ، والعالم الكبير المغفور له فتحى زغلول باشا . ومما يُذكر أن الناس لغطوا فى ذلك واستكثروا أن يكون « أخوان » فى وزارة واحدة . أحدهما على رأسها ، والثانى وكيلا له . إذ لم يعهدوا مثل هذه الصدفة فى تاريخ مصر إذ ذاك . وقد كتبت جريدة « اللواء » عن الحكومة تقول أنها « حكومة الزغاليل » .

وبانتقال سعد باشا إلى هذه الوزارة ، سنحت لى فرصة فريدة ، إذ حظيت بالقرب منه ، وذلك بلقائه فى منزلى بجرجا . فقد رأى أن يقوم بجولة تفتيش فى محاكم الوجه القبلى . ففيما أنا فى منزلى هناك فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٠ جاءنى القاضى الشرعى فى المدينة وكان المرحوم الشيخ عبد الحكيم خطّاب وأبلغنى نبأ قدوم سعد باشا إليها بطريق النيل بإحدى بواخرة وزارة الأشغال تصحبه صاحبة العصمة السيدة الجليلة حرمه (أم المصريين) (٥)، والمرحوم سعيد زغلول ، وكان إذ ذاك طالبا بمدرسة الحقوق ، والآنسة رتيبة هانم (قرينة الأستاذ محمد أمين يوسف ـ فيما بعد ـ ووالدة الأديبين الأستاذ مصطفى أمين يوسف والأستاذ على أمين يوسف) . ثم كان لى شرف زيارته إيآى فى منزلى ومعه القاضى الشرعى ، والقاضى توفيق حقى بك (المستشار وعضو مجلس النواب بعدئذ) ومدير الإدارة القضائية محمد علاّم باشا (وزير الزراعة فيما بعد) ثم سكرتيره الخاص فؤاد كمال بك (السكرتير العام لمجلس النواب ثم وكيل وزارة المالية بعد ذلك) .

وكان هذا أول لقاء مع سعد ، وأول حديث دار بينى وبينه . وأذكر أنى دعوته حينئذ أن يجلس على كرسى كان صاحب السمّو الخديو عباس حلمى باشا قد جلس عليه يوم

تكرّم بزيارتى فى منزلى بجرجا يوم الأربعاء ٩ فبراير سنة ١٩٠٩ ، فطلب إلىّ سعد باشا أن أحدثه عن هذه الزيارة . فحدثته عنها وقلت إن الفضل فيها يرجع إلى صاحب العطوفة بطرس غالى باشا ـ رئيس النظّار إذ ذلك ـ نظرا للعلاقة التى كانت بينه وبين المرحوم والدى، ثم علاقتى به شخصيا .

وكانت جلسة ممتعة أدار فيها سعد باشا الحديث بأسلوبه الجميل الساحر الذى يأخذ بمجامع القلوب . وأرى من واجبى أن أدوّن بعض الحديث الذى دار بينى وبينه خلالها . فقد وجّه إلى ، رحمه الله ، عدّة أسئلة عن حالتى ، منها أنه سألنى عن تاريخ الإنعام علىّ « برتبة البكوية » . فقلت إن سمّو الخديو عباس باشا أنعم على برتبة المتمايز الرفيعة فى العام الذى تفضّل فيه بزيارتى فى منزلى ، كما أنعم على أخى لبيب بك برتبة البكوية من الدرجة الثانية . ورددت على سؤال له بأنى وكيل البنك المصرى فى جرجا من سنة ١٩٠٤ .

وأُعجب ، رحمه الله ، بدارى فسألنى من بناها . أهو أنت ؟ فقلت إنى ورثت أرضها ، وأنا الذى بنيتُها من نحو أربعة أعوام . وكان أحد شعراء جرجا وهو الأستاذ الشيخ محمد سالم ـ العالم والمحامى الشرعى ـ مشهوراً بنظم التواريخ الشعرية فنظّم أبياتا أرّخ فيها بناء الدار فوضعناها فى الأساس . وهذه هى الأبيات :

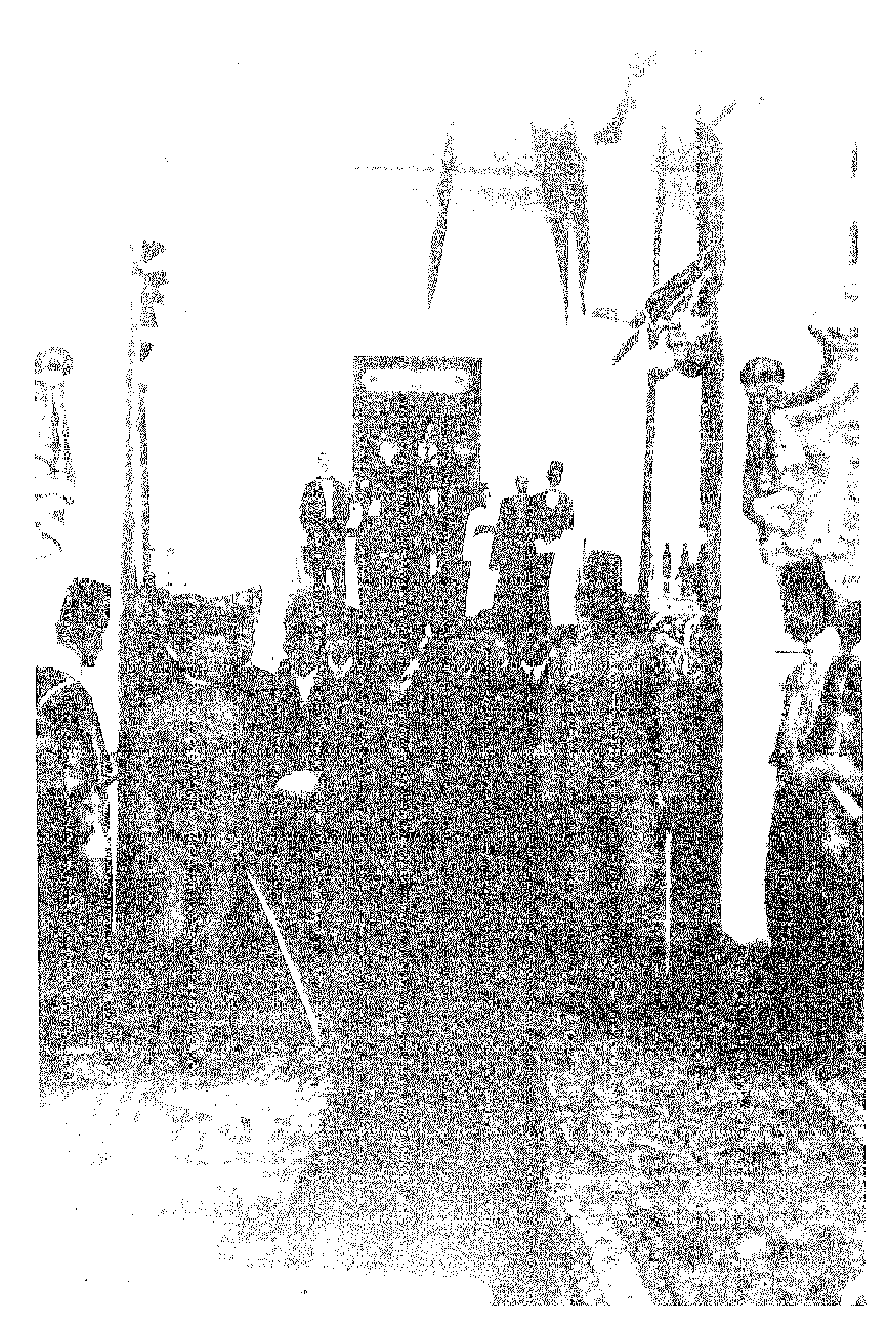
طـالـعُ السعـد وافـى ... وبـدا باليُمـن بـدرى

« وسـراى» العـزّتـمـت ... فى رُبـاها النيـل يجـرى

والهنـا نـادى يـؤرخ ... دار « سعـدٍ » فيها « فخـرى »

وعجز البيت الأخير مجموعه فى حساب الأرقام ١٣٢٤ ، وهى توافق السنة الهجرية التى بُنيت فيها الدار . فُسرّ سعد باشا بهذه الأبيات سرورا كبيرا .

وسألنى أيضا فى أى المدارس تعلمت فقلت إنى أتممت ثقافتى فى مدرسة « الجزويت » بمصر . وأخبرته بأن « الجزويت يفتخرون بأن الوزراء يعلّمون أبناءهم عندهم حتى إن وزير المعارف السابق حسين فخرى باشا علّم ولديه محمود وجعفر فى مدرستهم . وكذلك فعل مصطفى فهمى باشا رئيس النظار إذ علّم حفيده حسين محمود صدقى عندهم ، كما علّم بطرس غالى باشا أولاده عندهم أيضا . وكذلك أحمد مظلوم باشا والقبانى باشا إذ علّما



زيارة الخديو عبّاس حلمي الثاني لصاحب المذكرات في منزله بصرجا يوم الأربعاء ٩ فبراير ١٩٠٩

أولاد إخوتها فى هذه المدارس . فابتسم سعد باشا وسأل هل تُتقن هذه المدارس تعليم اللغة العربية ؟ فأجبت بالإيجاب . وقلت إنه كان لنا فى هذه اللغة أساتذة أعلام أمثال الأستاذ الشيخ إبراهيم اليازجى ، والشيخ محمد زكيّ الدين سند ـ خطيب مسجد السلطان الحنفى ـ والأستاذ داود بركات (رئيس تحرير جريدة الأهرام فيما بعد) ، وفرغلى بك الأنصارى الطهطاوى ، من أصهار رفاعة بك ، وكان مترجماً بوزارة الخارجية وهو صاحب « تشطير وتخميس ديوان ابن الفارض » .

وكان هذا مسك الختام فى الحديث الذى دار فى هذه الجلسة الممتعة .

* * *

وأذكر بهذه المناسبة أنه كان قد زارنى فى هذه الدار قبل ذلك ببضعة أيام إبراهيم نجيب باشا (وكيل وزارة الداخلية ومدير عموم الأوقاف فيما بعد) مع صهره على أبو الفتوح بك مدير جرجا ، وأحمد أبو الفتوح باشا والده . كما زارنى من قبل المغفور لهما إسماعيل سرى باشا وزير الأشغال وأحمد حشمت باشا وزير المالية .

وأذكر أيضا أن حادثاً وقع فى طهطا قبل زيارة سعد باشا لمحاكم جرجا وملخّصه أن حريقا شبّ فى دور آل رفاعة هناك . وفيما كان رجال المطافئ يطفئون النار لاحظ معاون الإدارة وهو عبد الرحمن موسى أفندى نجل المرحوم موسى غالب باشا (شقيق محمود غالب باشا المستشار ووزير الحقانية فيما بعد) أن مضخّات الإطفاء موجّهة إلى أسفل حيث المخازن والدكاكين . أما الدور العلوية حيث كان المعاون ساكنا ـ هو وعائلته ـ فإن النار تشتعل فيها ولا توجّه إليها المضخّات . فلفت المعاون إلى ذلك نظر مأمور المركز المرحوم عبد الرازق حلمى بك ، ولكن المأمور لم يستمع له ورفض طلبه . فحدثت مشادة انتهت بأن وجّه المعاون إلى المأمور كلمة نابية . فصفعه المأمور على وجهه عدة صفعات أمام الجمهور . ثم رفع كل من الاثنين قضية على الآخر ، أمام محكمة الجنح فى طهطا . وكان قاضيها سلامه ميخائيل بك وتولّى الدفاع عن المأمور الأستاذ توفيق دوس المحامى (توفيق دوس باشا) وتولّى الدفاع عن المعاون الأستاذ محمد على بك المحامى (محمد على علّوبة باشا) . أما وكيل النيابة فكان الأستاذ محمود فهمى القيسى (محمود فهمى القيسى باشا وكيل وزارة الداخلية ووزير الداخلية بعدئذ) وكان معاون النيابة الأستاذ هارون سليم أبو سحلى (هارون سليم أبو سحلى باشا وكيل وزارة الداخلية فيما بعد) .

وقد أصدر القاضى حكمه فى القضية فى نوفمبر سنة ١٩١٠ ، وهو يقضى بحبس المأمور شهرين حبسا بسيطا وإلزامه بتعويض قدره خمسون جنيها عدا عشرة جنيهات أتعاب محاماة وعشرة جنيهات كفالة وبتغريم المعاون خمسة قروش وإلزامه بتعويض قدره خمسة جنيهات ، وجنيه واحد أتعاب محاماة .

ولم يُرض الحكم « رجال الإدارة » فى ذلك الوقت ، فقصد على بك أبو الفتوح ـ مدير جرجا إذ ذاك ـ إلى وزارة الحقّانية ، للحديث بشأنه وقابل سعد باشا وفتحى زغلول باشا وكيل الوزارة .

وقد انتهز سعد باشا فرصة مروره بمحاكم جرجا فزار محكمة طهطا فى وقت انعقاد الجلسة ، برياسة سلامة بك ميخائيل . ودخل قاعة الجلسة وجلس إلى منصّة القضاء يستمع إلى المرافعات ويتتبع المناقشات ويُنصت لصدور الأحكام . فلمّا انتهت الجلسة وقف وأعلن اغتباطه بما شاهده ، وتقديره لسلامة بك وثناءه عليه ، فكان هذا العمل مظهرا جميلا من مظاهر الحرص على كرامة القاضى واستقلاله .

وحدث بعد ذلك أن زار على أبو الفتوح بك سعد باشا بمناسبة زيارته سوهاج وردّ له سعد باشا هذه الزيارة ودعاه لتناول طعام الغداء على مائدته فى الباخرة . وقد أثنى سعد باشا على أبو الفتوح بك وأعلن اغتباطه بتقدّم المديرية على يديه وسروره لإنشائه « مدرسة الصناعات » وهى مدرسة كانت قد أنشئت بأموال جُمعت من أعيان المديرية وبنيت على شاطئ النيل بسوهاج . فلما تم بناؤها افتتحها حشمت باشا وزير المعارف ـ إذ ذاك ـ وعُقد اجتماع لانتخاب مجلس إدارة لها . وأسفر هذا الانتخاب عن اختيار على أبو الفتوح بك رئيسا له واختيارى وأمين العارف بك وكيلين .

ومما يُذكر بهذه المناسبة أن سعد باشا إقترن ، وهو مستشار فى سنة ١٨٩٦ ، بصاحبة العصمة « صفية هانم » كريمة مصطفى فهمى باشا ، رئيس النظار إذ ذاك . ونال شهادة الليسانس من جامعة باريس سنة ١٨٩٨ ونالها معه فى السنة نفسها على أبو الفتوح بك ، وأخوه محمد أبو الفتوح والأستاذ محمود فهمى حسين المحامى .

وقد بقى سعد باشا فى الوزارة حتى مارس سنة ١٩١٢ . ثم استقال لحدوث خلاف بينه وبين سمّو الخديو لأنه كان على الدوام يحافظ على كرامته ويحرص على حريته فى المناقشة(٨) .

* * *

وتتابعت الأيام ، ولكن صلتى بسعد لم تزد عمّا كانت عليه . وإن كنت لا أترك فرصة تمّر دون أن أسعى لسماع حديثه . فحضرتُ فى سنة ١٩١٣ حفلة التكريم التى أقيمت لشقيقه فتحى زغلول باشا فى دار االجامعة المصرية القديمة وهى - دار الجامعة الأمريكية الآن - لإخراجه « شرح القانون المدنى » . وفيها ألقى المحتفل به خطبته التى ختمها بقوله «علّموا الأمة . علّموا الأمة » ! وكان سعد باشا فى هذا الاحتفال . ومن الذين خطبوا فيه الدكتور يعقوب صرّوف ، ومحمد شكرى باشا المستشار (والوزير فى وزارة ثروت باشا سنة ١٩٢٢) .

وأنشئت « الجمعية التشريعية » وجرت الانتخابات لها ، وفيها بدأ النشاط الوطنى ينتعش . وقد رشح سعد باشا نفسه فأيّدته طبقات المثقفين تأييدا تاما ، وأقيمت حفلات انتخابية لتأييده ، خطب فيها كثيرون من جميع الأحزاب . وخاصة رجال الحزب الوطنى وحزب الأمة . وقد انتخب سعد باشا نائبا عن دائرتى « السيدة زينب » و « بولاق » . ثم افتتحت الجمعية فى يناير سنة ١٩١٤ . وقد حضرتُ حفلة الافتتاح . وفيها خطب سمو الخديو السابق عبّاس الثانى . وقد عُيّن أحمد مظلوم باشا رئيسا للجمعية وانتخب سعد باشا وكيلاً . كما عُيّن عدلى باشا يكن وكيلاً أيضا . وقد حرصت على أن أشهد أهم الجلسات لأسمع سعداً وهو يجول جولاته البيانية التى أصبحت كلماته فيها مضرب الأمثال، وكان مما سمعته خطبته الرائعة فى مسألة الوكيلين وأيّهما الأولى بالرياسة فى غياب الرئيس . أهو الوكيل المُعيّن أم الوكيل المنتخب ؟

وقد زادنى ما سمعته من سعد باشا ، فى جلسات هذه الجمعية ، إعجابا بشخصه ورغبة قوية فى الاتصال به ، والاستفادة من دروس الوطنية التى يلقيها على مسامع الشعب . ولكن عمر الجمعية التشريعية لم يطل أكثر من دورة واحدة . إذ أعلنت « الحرب الكبرى » فى أغسطس سنة ١٩١٤ . وخُلع الخديو عباّس فى ١٩ ديسمبر وعيّن الأمير حسين كامل سلطانا فى اليوم التالى وانصرف الناس إلى الحدث الأكبر الذى هزّ العالم ودام أكثر من أربع سنوات .

ومما يُذكر أن سعد باشا كان فى أوروبا وقت إعلان الحرب ، ومعه صهره مصطفى فهمى باشا ، فأسرعا بالعودة إلى مصر . وكان مصطفى باشا مريضاً فلم يلبث أن توفّى فى ١٣ سبتمبر سنة ١٩١٤ .

الفصل الثانى

بشائر الثورة

بدء الحركة الوطنية ـ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ـ مقابلة الزعماء الثلاثة للمعتمد البريطانى سير « ريجنلد ونجت » والمطالبة باستقلال مصر ـ تكوين الوفد المصرى ـ إقبال مختلف طبقات الأمة على التوقيع على التوكيلات ـ اشتراك الأقباط فى الوفد المصرى ـ جهر سعد باشا بالمطالبة بحقوق مصر ـ وضع خطة العمل السياسى ـ خطابه فى الاجتماع بدار حمد الباسل باشا ـ محاضرة المستر « برسيفال» وتعقيب سعد باشا عليها.

* * *

فى نوفمبر سنة ١٩١٨ كانت المجالس فى القاهرة تتحدث عن اجتماعات سعد زغلول باشا ببعض إخوانه من أعضاء الجمعية التشريعية وغيرهم ، ورغبتهم فى تأليف وفد يسافر إلى باريس للمطالبة باستقلال البلاد لدى « مؤتمر الصلح » . ثم عن ذهاب الزعماء الثلاثة وهم : سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك إلى دار الحماية البريطانية ، لمقابلة المعتمد البريطاني السير ريجنلد ونجت [١] Sir Wingate غداة عقد الهدنة ، يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ، وقد اتخذ هذا اليوم منذ ذلك التاريخ عيداً وطنيا وسُمّى « عيد الجهاد الوطنى » ، وكانت الأحاديث تدور همسا ، وفى المجالس الخاصة لأن الأحكام العرفية كانت معلنة ولأن الصحف كانت تحت المراقبة . وكان كلّ الناس يودّون الوقوف على ما كان يجرى وراء هذه الحجب الكثيفة .

وكنتُ بطبيعة الحال أحاول ما استطعت الوقوف على ذلك . وشاء الله أن تسنح لى الفرصة فى الأسبوع الذى تلا ذهاب الزعماء إلى دار الحماية البريطانية ، فقد قصدتُ إلى دار « المدرسة الناصرية » لأمر خاص بأكبر أبنائى ـ موريس ـ [٢] وقابلت ناظرها . وكان إذ ذاك سعيد فهمى الروبى بك . وفيها أنا معه فى مكتبه إذ دخل الشيخ الوقور والاقتصادى الكبير على شعراوى باشا ، وكان قد حضر لإلحاق نجل المغفور له عمر سلطان باشا ـ الأستاذ محمد سلطان بك عضو مجلس النواب فيما بعد ـ بالمدرسة ، إذ كان وصيّا عليه . كما كان وصيّا على المغفور له والده من قبله .

وقد حمدنا هذا الظرف الذى أتاح لنا فرصة التحّدث فى هذه الحركة السياسية الجديدة .

ولم يضنّ علينا شعراوى باشا ببيان ما جرى ويجرى فيها ، فأفصح لنا عن كل شيء . وعما دار فى هذه المقابلة التاريخية للمعتمد البريطانى فى يوم ١٣ نوفمبر . وبعد أيام من حديثى مع شعراوى باشا ، نشر الوفد المصرى محضرا للحديث الذى دار فى تلك المقابلة بين الزعماء الثلاثة وبين السير ريجنلد ونجت . وقد جاء فيه أنه بعد حديث قصير عن انتهاء الحرب وموقف مصر منها ، قال سير ونجت :

« يجب على المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا أنه متى فرغت إنجلترا من مؤتمر الصلح فإنها تلتفت لمصر وما يلزمها ولن يكون الأمر إلا خيراً » .

فقال سعد باشا :

« إن الهدنة قد عُقدت . والمصريون لهم الحق أن يكونوا قلقين على مستقبلهم ، ولا مانع يمنع الآن ، من أن يعرفوا ما هو الخير الذى تريده انجلترا لهم » .

فقال المعتمد :

« يجب أن لا تتعجّلوا ، وأن تكونوا متبصّرين فى سلوككم فإن المصريين فى الحقيقة لا ينظرون فى العواقب البعيدة » .

فقال سعد باشا :

« إن هذه العبارة مبهمة المعنى ولا أفهم المراد منها » .

فقال السير ونجت :

« أريد أن أقول إن المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر » .

فقال سعد باشا :

« لا أستطيع الموافقة على ذلك ، فإنى إن وافقت أنكرت صفتى فإنى منتخب فى الجمعية التشريعية عن قسمين من أقسام القاهرة ، وكان انتخابى بمحض إرادة الرأى العام مع معارضة الحكومة واللورد كتشنر فى انتخابى . وكذلك كان الأمر مع زميلىّ على شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك » .

فقال سير ونجت :

« إنه قبل الحرب كثيراً ما حصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من

الحزب الوطنى وكان ذلك بلا تعقل ولا روّية ، فأضرّت ولم تنفعها . فما هى أغراض المصريين؟» .

فقال على شعراوى باشا :

« إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحرّ للحرّ لا العبد للحر » .

فقال سير ونجت :

« إذن أنتم تطلبون الاستقلال ؟ » .

فقال سعد باشا :

« ونحن له أهل ، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقى الأمم المستقلة ؟ » .

فقال سير ونجت :

« ولكن الطفل إذا أُعطى من الغذاء ، أزيد مما يلزم ، تخم » .

فقال عبد العزيز فهمى بك :

« نحن نطلب الاستقلال التام . وقد ذكرتم جنابكم أن الحزب الوطنى أتى من الحركات والكتابات بما أضرّ ولم يفد ، فأقول لجنابكم إن الحزب الوطنى كان يطلب الاستقلال ، وكل البلد تطلب الاستقلال » .

ثم قال عبد العزيز فهمى بك :

« ونحن فى طلبنا الاستقلال التام ، لسنا مبالغين فيه ، فإن أمتنا أرقى من « البلغار » «والصرب » و « الجبل الأسود » وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديما وحديثا » .

فقال سير ونجت :

« ولكن نسبة الأميين فى مصر كبيرة ، لا كما فى البلاد التى ذكرتها ، إلا الجبل الأسود والألبان على ما أظن » .

فقال عبد العزيز بك فهمى :

« إن هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الأمم فإن لمصر تاريخا قديما باهرًا وسوابق فى الاستقلال التام ، وهى قائمة بذاتها وسكّانها عنصر واحد ، ذو لغة واحدة ، وهم كثيرو العدد وبلادهم غنيّة ، وبالجملة فشروط الاستقلال التام متوفّرة فى مصر » .

وأفاض عبد العزيز بك فى الردّ على سير ونجت فيما يتعلق بنسبة الأميين وفى مسألة إعطاء الغذاء للطفل .

ثم فقال سير ونجت :

« قد كانت مصر عبدًا لتركيا أفتكون أحطّ منها لو كانت عبدًا لانجلترا ؟ » .

فقال على شعراوى باشا :

« قد أكون عبدًا لرجل من الجعليين ، وقد أكون عبدًا للسير ونجت الذى لا مناسبة بينه وبين الرجل الجعلى ، ومع ذلك لا تسرّنى كلتا الحالتين . لأن العبودية لا أرضاها ، ولا تحبّ نفسى أن تبقى تحت ذلّها . ونحن كما قدّمت نريد أن نكون أصدقاء لانجلترا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد » .

وفى نهاية الحديث ، قال سير ونجت :

« قد سمعتُ قولكم . وإنى أعتبر محادثتنا غير رسمية ، بل بصفة حبّية . فإنى لا أعرف شيئا عن أفكار الحكومة البريطانية فى هذا الصدد ، وعلى كل فإنى شاكر زيارتكم وأحب لكم الخير » .

فشكره الثلاثة وانتهت المقابلة[٣] .

ومن الإنصاف للتاريخ أن نذكر أن هذا الذى فكرّ فيه سعد باشا وإخوانه من أعضاء الجمعية التشريعية من المطالبة بحقوق مصر ، اقترن بتفكير مثله من بعض الشبّان المصريين . فقد حدث فى الفترة التى كان يجتمع فيها سعد باشا بإخوانه ، أن اجتمع فريق من أعضاء نادى المدارس العليا[٤] ـ الذى كانت السلطة العسكرية قد أغلقته فى أول الحرب ـ وقد تذاكروا فى حقوق بلادهم وضرورة المطالبة بها واتجّهت أنظارهم إلى سعد وإخوانه من أعضاء الجمعية التشريعية ، لتكليفهم القيام بهذا العمل االسياسى . فقصد الأستاذان مصطفى النحاس بك وعلى ماهر بك ـ وكانا قاضيين فى المحاكم الأهلية ـ إلى سعد باشا فى داره وعرضا عليه ما فكروا فيه . فأخفى سعد باشا عليهما ، فى بادئ الأمر ، ما يقوم به هو وزملاؤه من نشاط ، لأن الأوان لم يكن قد آن لإظهاره . إلا أنهما لم يقتنعا . فعاود النحاس بك الكرّة وعاد فقابل عبد العزيز فهمى بك . فلمّا اقتنع بأن حركة هؤلاء الشبّان جدّية كشف له عن الذى كان يجهله من مساعى سعد وأصحابه . وهكذا ألتقت

أفكار الشيوخ بأفكار الشباب عند هدف واحد ، هو ضرورة المطالبة بحق البلاد فى الاستقلال والحرية .

* * *

ولا بدّ لتنسيق هذه الذكريات ، لارتباطها بالمجهود الكبير الذى بذله الوفد المصرى منذ بدء الحركة الوطنية ، أن نخصّص هذا الفصل للكلام عن تكوينه ، أو بالأحرى عن بدء تكوينه فى نوفمبر سنة ١٩١٨ .

لمّا اعتزم سعد زغلول باشا النهوض بعبء المطالبة بحقوق مصر فى مؤتمر السلام بباريس ، اجتمع هو وبعض زملائه من أعضاء الجمعية التشريعية . وهم ، على شعراوى باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك ومحمد على علوّبة بك . وتعدّدت اجتماعاتهم ، وكانت تارة فى عزبة سعد باشا « بمسجد وصيف» ، وتارة أخرى فى القاهرة « ببيت الأمة » . ورأى سعد باشا أن الفرصة سانحة لهذه المطالبة . وأن مصر التى ساعدت الحلفاء أكبر مساعدة أبّان سنىّ الحرب االعظمى ، لابدّ أن تنال ثمار النصر . وأن تتحقق الوعود التى قطعت لها ، وأن ترفع عنها « الحماية » التى فرضت عليها . فتكوّن الوفد من زملائه هؤلاء ، وضمّوا إليهم عبد اللطيف المكبّاتى بك ، العضو فى الجمعية التشريعية إذ ذاك ، ثم انضم إليهم آخرون كما سيجىء الكلام عنهم فى مناسباته . وتوالت اجتماعاتهم فى بيت الأمة للبحث فى الوسائل التى يتّخذونها للقيام بهذا الواجب الذى أخذوه على عاتقهم . وكانت اجتماعاتهم فى بداية الأمر سرّية . غير أنهم علموا من الأستاذ سامى قصيرى مندوب جريدة « المقطم » أن أنباء هذه الاجتماعات تسرّبت إلى السلطة القائمة على تنفيذ الأحكام العرفية . فكان لزامًا عليهم أن يُسرعوا بإعلان تأليف الوفد وأن يواجهوا الإنجليز « بالمطالب المصرية » . فطلب سعد زغلول باشا تحديد موعد لمقابلة السير ونجت المعتمد البريطانى . وحدّد هذا الموعد فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ . وقد ذهب سعد باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك إلى دار الحماية البريطانية . وتمّت المقابلة التاريخية . وقد سجلّنا ما دار فيها على النحو الذى نشره الوفد فى بيانه .

ولما كانت تنقص الهيئة السياسية الجديدة « الصفة القانونية » فى المطالبة بهذه الحقوق ، فقد بدأ الوفد حينئذ يستكتب التوقيعات ، من مختلف أفراد الشعب ، هيئاته وجماعاته ،

بتوكيله فى الدفاع عن القضية المصرية والمطالبة بحرية البلاد واستقلالها . فأقبل الشعب على توقيع « التوكيل » إقبالا منقطع النظير وقد اتّخذت تلك التوكيلات صيغة واحدة فى جميع أنحاء البلاد وكان نصّها :

« نحن الموقعين على هذا أنبنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على بك وعبد اللطيف المكباتى بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك ، ولهم أن يضمّوا إليهم من يختارون ، فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا ، فى استقلال مصر استقلالا تاما » .

وفى هذه الأثناء أيضا . ظهرتْ حركة أخرى لتأليف وفد آخر من رجال الحزب الوطنى . وكان الأمير عمر طوسن يُعضّد هذه الحركة ، ويعاونه فى ذلك محمد سعيد باشا رئيس النظّار السابق ، وأمين يحيى باشا .

فرأى سعد باشا أن يسعى لدى الأمير عمر طوسن ، لتوحيد الكلمة ، وقد رأيته يذهب إليه مرتين فى يوم واحد فى فندق « شبرد » لهذا الغرض ، حتى وفّق فى مسعاه . فضُمّ الأستاذ مصطفى النحاس بك القاضى بالمحاكم الأهلية بصفته من أصدقاء الحزب الوطنى ومن كبار أنصاره ، والدكتور حافظ عفيفى بك بصفته عضوا فى اللجنة الإدارية لهذا الحزب إلى الوفد . وقد ساعد على نجاح هذا المسعى ما تبيّنه رجال الحزب الوطنى من أن الأمة بأسرها تؤيد وفد سعد باشا وتنفر كل النفور من كل ما يظهرها بمظهر يتنافى مع الوحدة الواجبة فى تلك الظروف .

وهنا يجب أن نذكر ، إنصافا للحقيقة ، أن الأمير عمر طوسن كان قد تحدّث مع سعد باشا باعتباره وكيلا للجمعية التشريعية وزعيم المتكلمين فيها ، ومع حسين رشدى باشا باعتباره رئيسا للنظّار ، بأنه يجب التفكير فى تأليف وفد للسفر إلى باريس لحضور « مؤتمر الصلح » والمطالبة بحقوق البلاد . وكان ذلك فى يوم ٩ أكتوبر سنة ١٩١٨ فى حفلة الشاى التى أقيمت بالإسكندرية بمناسبة عيد جلوس السلطان أحمد فؤاد .

ثم ضُمّ إلى الوفد بعد ذلك محمود أبو النصر بك وإسماعيل صدقى باشا وحسين واصف باشا . ثم ضُمّ إليه حمد الباسل باشا باعتباره عضوا فى الجمعية التشريعية ومن زعماء العرب ، وسينوت حنا بك باعتباره عضوا فى الجمعية التشريعية ، وجورج خياط بك، بناء على اقتراح محمد محمود باشا ، لاستكمال تمثيل العائلات القبطية الكبيرة ، وضُمّ

كذلك عبد الخالق مذكور باشا ، العضو فى الجمعية التشريعية ، وسّر تجار القاهرة فى ذلك الوقت [٥] .

ولهذه المناسبة ، أذكر أنى سمعت سعد باشا مراراً يقول فيما بعد ، إنه رغم اعترافه بكفاءة اسماعيل صدقى وقدرته ونشاطه ، بقى مترددا مدّة فى قبوله عضوا فى الوفد .

واستمر الوفد فى مطالبة الإنجليز بالسماح له بالسفر إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح وفى أخذ التوقيعات على توكيله فى الدفاع عن حقوق البلاد .

ولابدّ أن نذكر أيضاً ، إتماما لتصوير الموقف فى هذا الوقت ، أن رشدى باشا رئيس الوزراء وعدلى يكن باشا وزير المعارف كانا يؤيدان حركة التوقيع على التوكيلات . وحينما أراد الجنرال « كلايتون » مستشار وزارة الداخلية أن يمنعها ، لم يقبل رشدى باشا وأصّر على أن تكون حرّة . وبقى يساعد هذه الحركة ، هو وعدلى باشا ، حتى استقالت الوزارة فى ٢ ديسمبر سنة ١٩١٨ .

* * *

وكنت أنا وشقيقى المرحوم لبيب عبد النور بك عضوين فى نادى « رمسيس » وهو ناد يضمّ كبار الأقباط . فلما زرت النادى فى مساء اليوم الذى قابلت فيه المرحوم على شعراوى باشا فى « مدرسة الناصرية » رويت للحاضرين ما سمعته منه ، دار الحديث بينى وبينهم فى هذه الموضوعات التى بدأ الرأى العام يهتمّ بها أكبر اهتمام على الرغم من الرقابة والأحكام العرفية . وكان الحاضرون من أعيان الأقباط ومثقّفيهم ومفكّريهم . فلاحظوا أن أسماء أعضاء الوفد ، التى ذكرت بعرائض التوكيلات التى توزّع فى البلاد ، ليس بينها اسم أحد من الأقباط . ورأوا أن هذا لا ينبغى أن يكون ، وأنه لابدّ من استكمال هذا النقص ، وقرروا انتداب ثلاثة من الحاضرين للذهاب إلى سعد باشا وعرض هذا الموضوع عليه . واختير الثلاثة فعلاً . وكنت أحدهم ، أما الآخران فهما الأستاذان ويصا واصف المحامى وعضو الحزب الوطنى وتوفيق أندراوس من أعيان الأقصر . فطلبنا تحديد موعد لمقابلة سعد باشا فى بيت الأمة للتحدّث معه فى هذا الأمر . وحُدّد لنا هذا الموعد ، فذهبنا إلى هناك فكان فى استقبالنا الأستاذ محمد على علوبة بك عضو الجمعية التشريعية . ورأينا حركة التوقيع بتوكيل الوفد ، قائمة على قدم وساق . وأذكر أنه كان ممن يوقّعون بعض أعضاء الجمعية التشريعية . ويحضرنى ممن رأيتهم فى هذا اليوم إبراهيم سعيد باشا ومحمد

علوى الجزّار بك العضوان فى هذه الجمعية . وعلمنا وقتئذ أن سعد باشا ليس موجودا بالدار وأنه خرج لحضور اجتماع مجلس إدارة « الجامعة المصرية » ، ثم اجتماع مجلس إدارة « الجمعية الخيرية الإسلامية » ، وأنه سيحضر بعد قليل . فانتظرنا حتى حضر وقابلناه ، وأذكر أنه كان بين الذين حضروا هذه المقابلة على شعراوى باشا ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك ومحمد على بك ومحمود أبو النصر بك من أعضاء الوفد .

وقد رحّب بنا سعد باشا ترحيبا كبيرًا ، وأعرب عن اغتباطه بالفكرة التى حضرنا من أجلها . ثم دار الحديث حول اختيار عضو أو أكثر من الأقباط فى الوفد وظنّ سعد أننا جئنا لنرشّح الأستاذ ويصا واصف . فأعرب عن اغتباطه بهذا الترشيح . إلا أن الأستاذ ويصا اعتذر لأن أعماله فى مصر كثيرة وتحول دون سفره إلى باريس ، كما أن ظروفه الخاصة لا تسمح له بذلك .

وأذكر أنه حدث فى أثناء هذا الحديث أن تحمّس الأستاذ توفيق أندراوس ، وكان سعد باشا يشرح لنا أهداف الوفد ، فقال مُعقبًا على كلمة سعد باشا :

« إن الوطنية ليست حكراً على المسلمين وحدهم » !

فُسّر سعد باشا وقبّله على هذه الكلمة . وعاد الأستاذ توفيق فأكّد أن العنصرين اللذين تتألف منهما الأمة ـ المسلمين والأقباط ـ يعملان بتفكير واحد ، ورأى واحد ، فيما يُحقق مصلحتهما فى الحصول على الاستقلال .

وأخيرا أبلغنا سعد باشا ، أن المثقفّين والوجهاء من الأقباط انتدبونا ـ نحن الثلاثة ـ لنبلّغه أن الشخص الحائز للصفات الكاملة المؤهلة لعضويية الوفد ، سواء من وجهة الثقافة ، أو الثروة ، أو الجاه ، هو الأستاذ واصف بطرس غالى ثانى أبناء المغفور له بطرس غالى باشا ، فاغتبط سعد باشا لهذا الاختيار وأعرب عن ثقته وتقديره لعلمه ومكانته . وفى هذه الأثناء قدّم الأستاذ ويصا لسعد باشا نسخة من مجلة فرنسية علمية اسمها (La Revue des deux Mondes) وفيها مقال للأستاذ واصف غالى نشره بباريس سنة ١٩١٧ تحت عنوان « الشرق جدير بالاستقلال أو الإسلام دين الشورى » على ما أتذكّر .

واستقر الرأى على ترشيح الأستاذ واصف غالى . ولما كان موجودا ذاك فى باريس ، حيث كان يقيم منذ قيام الحرب سنة ١٩١٤ ، أرسل له الأستاذ ويصا تلغرافا بترشيحه

واختياره إلا أن هذا التلغراف لم يصل إليه إلا بعد زمن ، لأن الرقابة العسكرية كانت لا تزال مفروضة وقد سلّمته أولا للسفارة الإنجليزية بباريس التى قامت بتسليمه إليه .

ثم رأى الوفد بعد ذلك أن يضّم ، كما ذكرنا ، سينوت حنا بك العضو فى الجمعية التشريعية وجورج خيّاط بك من كبار أعيان أسيوط ، فحلفا اليمين مع حمد الباسل باشا فى جلسة واحدة وكان ذلك فى ديسمبر سنة ١٩١٨ .

وأذكر أن الثرّى الكبير جورج ويصابك ـ جورج ويصا عضو مجلس الشيوخ فيما بعد ـ كان مرشّحا لأن يكون عضوا فى الوفد ، وقد حال دون ذلك أنه كان قنصلا لأمريكا بأسيوط .

ومما يُسجل بأحرف من نور فى تاريخ الحركة الوطنية ، أنه لما طُلب إلى جورج خياط بك أن يحلف اليمين فى هذه الجلسة ، سأل سعد باشا قبل أن يُقسم :

« ما هو مركز الأقباط ، وما هو مصيرهم بعد انضام ممثّليهم إلى الوفد ؟ »

فأجاب : سعد باشا :

« بأنه يسرّه أن يسمع هذا السؤال ثم قال لجورج بك : اطمئن : إن للأقباط مالنا من الحقوق ، وعليهم ما علينا من الواجبات ، على قدم المساواة » .

ولمّا خرجنا من حضرة سعد باشا أخذنا معنا نسخاً من التوكيلات وقصدنا إلى نادى رمسيس [٦] فانهالت التوقيعات عليها من جميع الوافدين على النادى . وكان يتولّى هذا العمل شقيقى لبيب بك . وقد توفّى ، مع مزيد الحزن بعد ذلك بأيام قليلة .

* * *

وقد أخذت الحركة ـ بعد تكوين الوفد ـ تنتعش شيئا فشيئا . ولكنّ الاجتماعات السياسية كانت محظورة تماما ، كما كانت الصحف تحت الرقابة . وشرع سعد باشا يوالى احتجاجاته على الإنجليز لمنعهم الوفد من السفر إلى باريس . كما أرسل إلى الدكتور «ويلسون » رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ، وصاحب « المبادئ الأربعة عشر » المشهورة ، على إثر وصوله إلى باريس ، تلغرافا احتجّ فيه على منع مصر من رفع صوتها فى هذا المؤتمر ، وعلى عدم السماح لوفدها بحضوره [٧] . ثم أرسل إليه برقيات أخرى فى هذا الصدد . إلا أنه لم يتلق ردا عليها . ثم بدأ سعد باشا يذيع نداءات على الشعب يحثّه فيها على المطالبة بالاستقلال ، وعلى النزلاء الأجانب يطمئنهم على مصالحهم .

وفى ١٣ يناير سنة ١٩١٩ عقد حمد الباسل باشا اجتماعا فى منزله بجوار بيت الأمة ، ألقى فيه سعد باشا أول خطاب سياسى فى أول اجتماع وطنى عقد بعد تأليف الوفد ، وقد أعلن فيه أن الحماية باطلة أمام القانون الدولى . ثم شرح خطّة مصر المستقلة بما وضعه لذلك من مبادئ . وكان مما ورد فى هذا الخطاب : (٨)

« إن الحماية أمر باطل بطلانا أصليا أمام القانون الدولى ويخالف مخالفة صريحة للمبادئ الجديدة التى خرجت بها الإنسانية من هذه الحرب الهائلة . فنحن أمام القانون الإنسانى أحرار من كل حكم أجنبى ، فلا ينقصنا إلا أن يعترف « مؤتمر السلام » بهذا الاستقلال » .

ثم قال :

«إن إيماننا بقواعد الحق والعدل هو عدّتنا ، وكفى بها عدّة ، وإن إجماع أمتنا على الاستقلال حجّة قائمة ولا ينقصنا إلا أن يسمع مؤتمر السلام صوت الأمة ولكن سيصله ولو من بعيد . يصله فينصت إليه ، على رغم ما يقال من أن مؤتمر السلام الذى يعقد اليوم أشبه ما يكون بما سبقه من المؤتمرات» .

وقال سعد باشا بعد ذلك :

« ان خُطّة مصر المستقلة هى :

أولا : تريد مصر أن تكون « حكومتها دستورية » وأن تراعى فى تفاصيل النظام حالة البلد الخصوصية ، من جهة ما للأجانب من المصالح ، وأن تقوم بعمل إصلاحات اقتصادية وإدارية واجتماعية تستعين على تحقيقها بذوى العلم من أهل البلاد الغربية كما كانت تلك عادتها فيما مضى .

ثانيا : تعلن مصر أن « امتيازات الأجانب » فيها ستحترم بكل دقة ، وإذا كان العمل أظهر أن بعضها يدعو إلى تحوير أليق بمقتضيات الأحوال فإنها تعرض ما يعنّ لها من وجوه التعديل التى من شأنها المساعدة على تقدم البلاد ، مع صيانة المصالح المنظور فيها ، وتكون فيما تعرضه من ذلك واسعة الصدر غاية فى الإخلاص والمجاملة .

ثالثا : تتعهد مصر بالبحث فى وضع طريقة للمراقبة المالية لا تقلّ أهميتها بالنسبة للبلاد الأجنبية ذوات المصلحة عمّا كان متّبعا قبل اتفاق سنة ١٩٠٤ ويكون أهم قائم بها هو « صندوق الدين العمومى » .

رابعا : تكون مصر مستعدة لقبول كل ما تراه الدول من الاحتياطات مفيدا للمحافظة على « حياد قناة السويس » .

خامسا : تعتبر مصر نفسها حائزة لأكبر شرف لوضع استقلالها تحت ضمان « جمعية الأمم » ، وأن تشترك بهذه المثابة ـ بقدر ما لديها من الوسائل ـ فى تحقيق مبادئ العدل والحق على النمط الحديث » .

وبعد ذلك قال سعد باشا :

« إن من الفضيلة بأن نقرّر بأن كل ما نقوله عن مصر ينسحب على السودان « لأن مصر والسودان كلٌ لا يقبل التجزئة » بل هو كما قال المستشار المالى فى تقريره سنة ١٩١٤ ألزم لمصر من الإسكندرية » .

* * *

هذه هى مبادئ الدستور السياسى الذى وضعه سعد باشا لمصر المستقلة . وقد لوحظ وقتئذ أنها تضمّنت بقاء نظام الامتيازات الأجنبية ، والواقع أن هذه الخطّة أعتبرت براعة سياسية من سعد باشا ، هدف بها إلى كسب تأييد الدول الأجنبية التى تتمتّع رعاياها بهذه الامتيازات ، حتى تعاون مصر فى مؤتمر السلام لنيل استقلالها ، والحيلولة بين الإنجليز وبين فرض سيطرتهم التشريعية والقضائية فى مصر ، كما فعلوا فى السودان بعد توقيع «اتفاقية سنة ١٨٩٩ » .

وأذكر أن الزعيم السورى المعروف الدكتور عبد الرحمن شهبندر كان حاضراً هذه الحفلة فصاح قائلا :

« اذكروا سوريا » !

وفى أواخر يناير سنة ١٩١٩ أراد سعد باشا عقد اجتماع فى بيت الأمة وأُعدّ لهذا الغرض سرادق كبير . إلا أن السلطة العسكرية منعته . فأرسل سعد باشا إلى « مؤتمر الصلح » ورئيس الحكومة الإنجليزية احتجاجا شديدا على هذا المنع [٩] .

ثم انتهز سعد باشا فرصة إلقاء مستر « برسيفال » وكيل محكمة الاستئناف الأهلية محاضرة فى دار « جمعية الاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع » يوم ٧ فبراير سنة ١٩١٩ فوقف فى هذا الاجتماع الذى حضره كثير من كبار المصريين والأجانب ليعقّب على

المحاضرة ، فالقى كلمة عن الحماية البريطانية وفرضها على مصر دون إرادتها وأنها باطلة لاوجود لها قانونا .

وكان مما قاله فى هذا التعقيب :

« إن بلادنا لها استقلال ذاتى ضمنته « معاهدة لندن » سنة ١٨٤٠ ، واعترفت به جميع المعاهدات الدولية الأخرى ، وعبثاً يحاولون الاعتماد على ما حصل من تغيّر هذا النظام السياسى أثناء الحرب ، إنكم أيها السادة تعلمون ، وكل علماء القانون الدولى يقرّرون ، أن الحماية لا تنتج إلا من عقد بين أمتين تطلب إحداهما أن تكون تحت رعاية الأخرى ، وتقبل الأخرى تحمّل أعباء هذه الحماية ، فهى نتيجة عقد ذى طرفين موجب وقابل ، ولم يحصل من مصر ، ولن يحصل منها أصلا » .

« فى سنة ١٩١٤ أعلنت انجلترا الحماية من تلقاء نفسها ، بدون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية ، فهى حماية باطلة لا وجود لها قانونا . بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها ، ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة » .

وقد كان هذا أول صوت يُسمع للحركة الوطنية فى اجتماع رسمى عام ، شهده الأجانب والانجليز أنفسهم ، حتى إن سعد باشا كان يعتز بهذا اليوم أيّما اعتزاز لأنه أول يوم رُفع فيه صوت مصر بالاحتجاج على الحماية وإعلان بطلانها فى حفل رسمى . كما كان يذكر أمامنا أنه يتمنّى أن يجعل من هذا اليوم عيداً قوميا لأنه أعلن فيه ـ لأول مرة بعد بسط الحماية ـ حق مصر فى طلب إلغائها أمام هذا الحفل الكبير .

وقد اشتدّ غيظ الإنجليز الذين حضروا هذا الاجتماع . وروى سعد باشا أن بعضهم أراد إطفاء النور وهو يخطب لمنعه من الكلام . ولكن بعض المصريين والأجانب حالوا دونهم .

هوامش الفصل الثانى

(١) سيرريجنلد فرنسيس وينجت حاكم عام السودان وسردار الجيش المصرى حتى عام ١٩١٧ ثم المندوب السامى البريطانى فى مصر حتى عام ١٩١٩ .

(٢) الاستاذ موريس فخرى عبد النور (١٩٠٧ ـ ١٩٧٠) عضو مجلس النوّاب (١٩٤٤ ـ ١٩٥٢)

(٣) للاطلاع على المحضر الكامل لهذا اللقاء ـ انظر مذكرات عبد الرحمن فهمى ـ اشراف د . يونان لبيب رزق ص ٤٧ ـ ص ٥٢ .

(٤) نادى المدارس العليا .

(٥) تشير الوثائق البريطانية إلى ١٤ اسماً شكلوا لجنة الوفد فى ٢٥ نوفمبر ١٩١٨ وهم : سعد زغلول (وكيل الجمعية التشريعية) ، على شعراوى (عضو الجمعية التشريعية) ، محمد محمود (مدير البحيرة السابق) ، عبد العزيز فهمى (محامى وعضو الجمعية التشريعية) ، محمد على (محامى وعضو الجمعية التشريعية) عبد اللطيف المكباتى (عضو الجمعية التشريعية) ، أحمد لطفى السيد (مدير المكتبة السلطانية) ، حمد الباسل (عضو الجمعية التشريعية) محمود أبو النصر (محامى) ، إسماعيل صدقى (وزير الأوقاف السابق) ، جورج خياط (من اعيان أسيوط) ، سينوت حنا (عضو الجمعية التشريعية) ، د . حافظ عفيفى (من القاهرة) ، مصطفى النحاس بك (قاضى فى محكمة طنطا) .

(٦) نادى رمسيس كان يضمّ اعيان الاقباط ومثقفّيهم .

(٧) ارسل بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩١٨ ويوجد نصه فى مذكرات عبد الرحمن فهمى ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(٨) نص الخطبة : انظر عبد الرحمن فهمى ص ٩٢ ـ ٩٨ .

(٩)يقول القائم بأعمال المندوب السامى البريطانى سير ميلن شيثام عن هذا الاجماع ان سعدًا قد دعا ٦٠٠ من الاعيان لحضوره وان السلطات العسكرية بايعاز منه منعت الاجتماع بدعوى مخالفته لقواعد « منع الاجتماعات العامة » التى سرت خلال الحرب .

F. O. 407 /184 No . 34 Cheetham to Curzon Feb .3. 1919

الفصل الثالث

الثـــــورة

رشدى باشا وعدلى باشا يطالبان بضرورة السماح لوفد سعد باشا بالسفر إلى باريس لعرض القضية المصرية على مؤتمر السلام - إصرار الحكومة البريطانية على الرفض - تمسّك رشدى باشا باستقالة وزارته وقبول السلطان فؤاد لها فى أول مارس سنة ١٩١٩ - احتجاج الوفد على السلطان - « الجنرال وطسن » قائد القوات البريطانية ينذر سعد باشا وزملاءه بمعاملتهم بموجب قانون الأحكام العرفية - رفض سعد باشا للإنذار - اعتقاله مع محمد محمود باشا وحمد الباسل باشا وإسماعيل صدقى باشا فى ٨ مارس ونفيهم إلى جزيرة مالطة - اشتعال الثورة فى جميع البلاد - الإنجليز يرتكبون الفظائع فى محاولتهم القضاء على الحركة الوطنية - النار تزداد اشتعالا - الهلال والصليب يتعانقان فى المظاهرات والشوارع والمساجد والكنائس - سقوط المئات من الشهداء - تراجع الحكومة البريطانية عن موقفها - استدعاء « سيرونجت » إلى لندن وتعيين « اللورد اللنبى » مندوبا ساميا لانجلترا فى مصر - الإفراج عن الزعماء الأربعة والسماح لمن يشاء من المصريين بالسفر إلى الخارج - مظاهرات الابتهاج - إطلاق الجنود الإنجليز النار على المتظاهرين وسقوط عدد آخر من الضحايا .

* * *

وقبل ذلك كنت قد اضطّررت للسفر إلى جرجا ، بسبب وفاة أخى الذى كنت أعزّه والذى كان مضرب المثل فى الوفاء المرحوم لبيب بك عبد النور ، وقد توفّى إلى رحمة الله وهو فى عنفوان شبابه ، فى وافدة « الحمّى الأسبانية » التى كانت قد انتشرت فى مصر فى تلك الأيام. فسافرت فى منتصف ديسمبر سنة ١٩١٨ وبقيت هناك لإقامة المأتم الذى تجرى تقاليدنا فى الصعيد بأن يستمر مدة طويلة ، ثم حالت بعض الظروف دون العودة بعد ذلك إلى القاهرة حتى تطورت الحركة الوطنية واعتقل الزعماء الأربعة : سعد زغلول باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا وإسماعيل صدقى باشا ، ونُفوا إلى مالطة يوم ٨ مارس سنة ١٩١٩ .

ولابدّ لبيان الأسباب التى من أجلها نُفى الزعماء الأربعة إلى مالطة ، أن نذكر أن حسين رشدى باشا رئيس الوزراء وقتئذ ، وعدلى يكن باشا وزير المعارف فى هذه الوزارة ، كان قد طلبا من « السيرونجت » - المعتمد البريطانى - الترخيص لهما وللوفد الذى تكّون ، بالسفر للعمل على تحقيق « الأمانى القومية » . فجاء الرد من الحكومة البريطانية بعدم الترخيص

لوفد سعد باشا بالسفر إطلاقا ، وبتأجيل حضور رشدى باشا وعدلى باشا إلى لندن ، بحجّة أن « لورد بلفور » وزير الخارجية الإنجليزية وصاحب الوعد المشهور ، غاب عن لندن وأنه مشغول بمفاوضات الصلح لقرب انعقاد المؤتمر بباريس . ولمّا رأى رشدى باشا وعدلى باشا أن النيّة مبيتة على تفويت فرصةعرض القضية المصرية على « مؤتمر السلام » أثناء انعقاده ، بادرا بتقديم استقالتهما إلى السلطان فؤاد فى ٢ ديسمبر سنة ١٩١٨ كما أشرنا من قبل ، وبينا أسبابها على هذا التسويف من جانب انجلترا .

غير أن السلطان فؤاد لم يقبل هذه الاستقالة لعلّ الحكومة البريطانية تقبل ما عرضه رشدى باشا بشأن سفره إلى لندن . ولكن الإنجليز أصرّوا على موقفهم من المنع . فظلّت الاستقالة معلّقة دون أن يبتّ فيها . حتى كتب رشدى باشا إلى السلطان ثلاث مرات أوضح فى كل منها موقفه ، مصرّا على أن تسمح الحكومة البريطانية بالسفر إلى أوروبا ، لمن يشاء من المصريين ، كشرط أساسى لسحب استقالته .

وأخيرا لمّا وجدت الحكومة البريطانية أن رشدى باشا مصر على موقفه ، تراجعت فى موقفها وأعلنت موافقتها على سفر الوزيرين إلى لندن ـ دون غيرهما ـ ولكنّ رشدى باشا أصرّ على ضرورة السماح لمن يطلب السفر أيضا إلى أوروبا من المصريين ، فرفض الإنجليز قبول هذا الشرط فتأزّم الموقف واضطّر السلطان فؤاد إلى قبول استقالة الوزارة فى أول مارس سنة ١٩١٩ .

وهنا رأى الوفد أن يتدخّل ، لأول مرة منذ تكوينه باعتباره ممثلا للأمة ، ليعرب عن رأيه فى قبول السلطان لهذه الاستقالة وفى تأليف الوزارة الجديدة ، فكتب فى ٢ مارس إلى السلطان فؤاد كتابا شديد اللهجة [1] يحتجّ فيه على قبول استقالة وزارة رشدى باشا لموقفها الوطنى ، وتأييدها للمطالبين بالسفر لإسماع صوت مصر للعالم ، إذ أن المصريين « حُبسوا داخل حدود بلادهم بقوة الاستبداد لا بقوة القانون وحيل بينهم وبين الدفاع عن قضيّتهم» .

واستطرد الكتاب فقال مخاطبا السلطان : « كيف فات مستشاريكم أن عبارة استقالة رشدى باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة ووطنية أن يخلفه فى مركزه ؟كيف فاتهم أن وزارة تؤلّف على برنامج مضادّ لمشيئة الشعب مقضىّ عليها بالفشل ؟ » .

وأعقب الوفد هذا الكتاب بكتاب وجّهه إلى ممثّلى الدول الأجنبية فى ٤ مارس ضمّنه

الاحتجاج على الإنجليز لمنعهم المصريين من السفر إلى مؤتمر السلام ، في الوقت الذى تصل فيه الأنباء بأن « نوّاب الحجاز وأرمينيا وفلسطين وسوريا ولبنان (الولايات التركية السابقة) يعرضون مطالبهم القومية على هذا المؤتمر » ![٢]

وقد كان لنشر هذين الكتابين ، على الرغم من الرقابة التى كانت تفرضها الأحكام العرفية ، صدى بعيد فى جميع الأوساط . وبدأ الشعور القومى يلتهب . ووقفت الأمة لأول مرة وراء الوفد، أمام خصومها المستعمرين ، وجهاً لوجه .

ولم يلبث الإنجليز أن بدأوا صراعهم السافر ضد الوطنية المصرية . ففى يوم الخميس ٦ مارس استدعى الجنرال وطسن General Watson قائد القوّاتْ البريطانية ـ رئيس الوفد ، وأعضاءه ، لمقابلته بمركز القيادة ، وكان وقتئذ فى فندق سافوى (عمارة بهلر الآن) بشارع سليمان باشا . وهناك تلا عليهم إنذارا باللغة الإنجليزية ثم تُرجم إلى الفرنسية ، وهو يتضّمن تحذيرهم من القيام بأى عمل « يرمى إلى عرقلة سير الإدارة تحت الحماية الإنجليزية » واتهامهم بأنهم يسعون فى منع تشكيل وزارة جديدة ، ممّا يجعلهم عرضة للمعاملة الشديدة بموجب « قانون الأحكام العرفية » .

ولمّا أراد رئيس الوفد وأعضاؤه أن يعلّقوا على هذا الإنذار ، رفض القائد الإنجليزى أن يسمع منهم أى تعقيب وقال : « لا مناقشة . . . »[٣] .

ولم يفتّ هذا الإنذار فى عضد سعد باشا بل كان محكّا لإظهار قوة شكيمته إلى أى مدى متمسك بحقوق بلاده وبالمبادئ التى أخذ يدعو إليها . فم يلبث أن واجه الإنجليز باحتجاج شديد اللهجة أرسله إلى مستر لويد جورج Mr. Lloyd George ـ رئيس الوزارة الانجليزية ـ أعلن فيه أنه يطلب « الاستقلال التام » لبلاده وأنه يرى فى« الحماية » عملا دوليا غير مشروع ، وأنه لا يعبأ بالعقاب العسكرى الذى توعّدته به هو وزملاؤه السلطة العسكرية البريطانية بالقاهرة[٤] .

وهنا تبيّنت الحكومة البريطانية أن الإنذار لم يؤد إلى خنق الحركة الوطنية المصرية فى المهد، كما كانت تؤمّل ، وإنما زادها اشتعالا . فكان من الصعب عليها أن تتراجع عن شدّتها التى أنذرت بها الوطنيين ، وعملت على إرضاء كبريائها التى جرحتها برقية سعد إلى لويد جورج فأمرت فى ٨ مارس باعتقال الزعماء الأربعة وساقتهم إلى « ثُكنات قصر النيل» ، ثم نقلتهم إلى « مالطة » فى اليوم التالى .

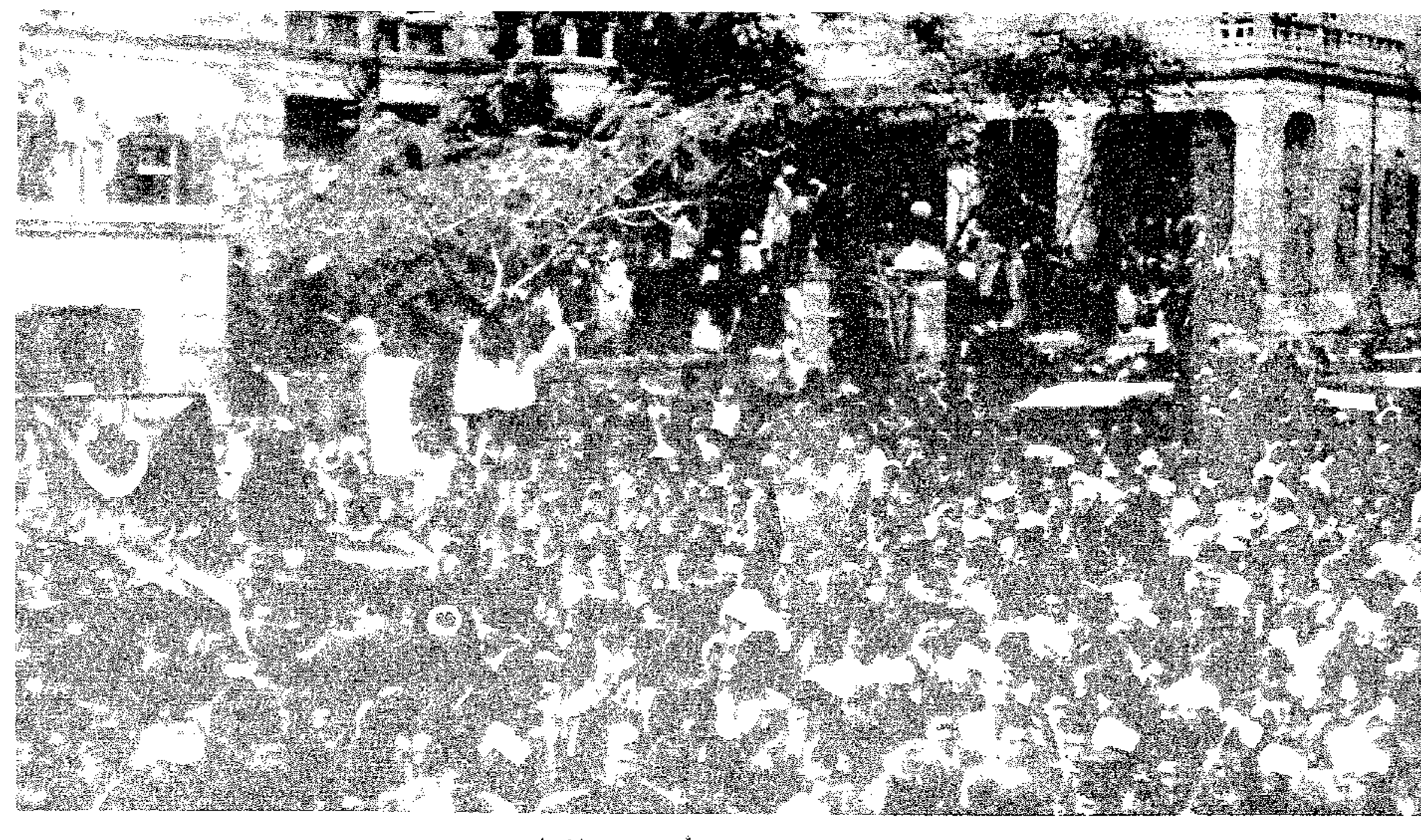
كان اعتقال سعد باشا وزملائه، بمثابة قدح الزناد أو إشعال النار بجانب الديناميت، بل كان فوق هذا محكّا اختبرت به مصر فبرهنت على أنها إن صبرت على البلاء وصابرت الخصوم فإنما تفعل ذلك مستسلمة لطبيعتها كأمة وادعة هادئة ولكنها لا ترضى الضيم بحال . فقد رزحت تحت عبء الأحكام العرفية ووطأة الضغط العسكرى الإنجليزى أربع سنوات كاملة صابرة مصابرة. وكانت ترجو أن تجد من الإنجليز مقابلا لهذا الوفاء إعترافاً بحقها فى الحياة الحرّة. ولكنها وجدت هذا المقابل إنكارا لحقوقها وجحودا لفضلها، وقد تمثّل هذا فى اعتقال الزعماء الذين يطالبون لها بحقها فى الحياة كأمة ناهضة شاركت العالم فى الحرب التى أعلنوا مرارا وتكرارا ، أنها لنصرة العدالة وصيانة الحريات . فلم تلبث ، وهى الوادعة الهادئة المسالمة ، أن انقلبت أسدا هصورا زأر الزأرة فأسمعت العالم صوتها ودوّت فى جوانب الدنيا .

وهكذا لم يتنفّس صبح يوم ٩ مارس سنة ١٩١٩ حاملا معه انباء ترحيل سعد وزملائه إلى « مالطة » حتى بدأت مظاهرات الاحتجاج فى القاهرة والعواصم الكبرى وكان قوامها فى بدئها طلبة المدارس العالية والثانوية ، ثم انضمت إليها جماهير الشعب ، ولم تلبث أن عمّت جميع أنحاء البلاد مدنها وقراها فانقلبت ثورة وطنية عارمة قُطعت فيها السكك الحديدية وهوجمت دور الحكومة ومراكزها واحتلّها المتظاهرون فى بعض الجهات وألّفوا بها إدارات محلية .

وقد جنّد الإنجليز قوّات كبيرة للقضاء على هذه الحركة ولكنّهم باءوا بالفشل . فكانوا كلّما اطفأوا النار فى ناحية ، تأججت فى ناحية أخرى . وكلّما واجهوا المتظاهرين بالحديد والنار قابلهم هؤلاء بالقلوب المؤمنة المتحدة التى لا تعبأ بالرصاص ولا تخشى الموت .

وقد وقع الكثيرون من الشباب ، شهداء للوطن . وخَضّبت دماؤهم أرضه ، ورويت بقاعه ، فكم من شاب قتله الرصاص وهو يهتف من الأعماق بحياة الوطن ، وكم من فتى غضّ الإهاب صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها وهو يهتف للحرية . . !

أمّا الفظائع التى ارتكبها المستعمرون فى محاولتهم القضاء على الحركة الوطنية ، فإن القلم ليعجز عن وصفها ، وإن النفس لتشمئز من ذكراها ، فإنهم لم يتركوا إثما دون أن يأتوه ، ولا كبيرة إلا اقترفوها . وقد سجّل التاريخ لهم فى « العزيزية » و« البدرشين » وغيرهما صفحات سوداء بما ارتكبوه من جرائم يندى لها الجبين (٥) . فقد سيّروا القطارات



جموع المتظاهرين تحيط ببيت الأمة عقب اندلاع الثورة

المدّرعة نحو القرى تصب النار صباً على الأهالى الوادعين ، وأنزلوا جنودهم فيها يهاجمون الدور ويقتلون الآمنين ويهتكون الحرمات ، بلا وازع من رحمة أو ضمير .

كل هذا ، وأكثر من هذا ، فعله الإنجليز محاولين القضاء على الثورة التى ثارتها مصر ضدهم ، ولكنّهم فشلوا . بل وصار فشلهم مضرب المثل . والحق أن العالم جميعاً دهش لمصر وهى تقف ـ وحدها ـ فى ثورتها فى وجه بريطانيا العظمى التى حملت لواء النصر فى أكبر حرب عرفها التاريخ ، وكان الإنجليز أنفسهم أول الذين دُهشوا .

وقد زادت دهشة الإنجليز حين لمسوا بأيديهم أن الثورة فى مصر ليست ثورة جزئية قوامها فئة أو فئات قليلة من الشعب ، وإنما هى ثورة عامة شملت كل طوائف الأمة ، وقامت فى كل ركن من أركان البلاد . أجل لقد شملت الثورة كل من فى مصر فاشترك فيها الطالب والفلاّح والعامل والموظف والتاجر والمحامى والطبيب والقاضى ، بل لقد اشترك فيها الثرىّ بجانب الأجير ، الكل على رأى واحد ، وبقلب واحد ، يتّجهون إلى هدف واحد ، شعارهم كلمة زعيمهم سعد زغلول « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

لقد كان هذا المظهر السامى من أعاجيب الثورة المصرية ، إذ من الصعب أن يتوحّد الهدف عند طوائف الشعوب التى تختلف فى التفكير كما تختلف فى المقاصد والمصالح . وقد رأينا هذا الاتحاد فى « الثورة المصرية » فعرفنا كيف يرتضى الغنىّ أن يُهدّد فى مصادر ثروته ، فى الوقت الذى يرضى فيه الأجير الذى يعيش عيش الكفاف ، أن يفقد أسباب رزقه اليومى .

عرفنا هذا المظهر السامى فى ثورتنا ، وهناك مظهر آخر كان ومازال ، أسمى وأجلّ مظاهر صراع فى سبيل حريتها ، ذلك هو الشعار الذى رسم سعد زغلول وسار وراءه فيه كل المصريين ، وهو أن « الدين لله والوطن للجميع » . فمنذ اللحظة الأولى التى دقّ فيها سعد ناقوس الحركة الوطنية برز اتحاد عنصرَى الأمة ـ المسلمين والأقباط ـ بروزا غطّى على كل مظهر سواه ، ففى المظاهرات كان عُلماء الأزهر وقساوسة الأقباط ، يسيرون فى المقدّمة جنبا إلى جنب ، والأعلام ترفرف فوق رؤوسهم ، يتعانق فيها الهلال والصليب . وفى الأزهر والمساجد الكبرى ، فى القاهرة والمدن والقرى ، كان أبرز الخطباء هم العلماء والقساوسة ، بل لقد كان القساوسة أنفسهم يرأسون بعض الاجتماعات الوطنية التى كانت تُقام فى المساجد ، كما كان العلماء يرأسون بعض الاجتماعات التى كانت تقام فى

الكنائس ، وكان الخطباء بالكنائس فى الأعياد القبطية من المسلمين ، كما كان الخطباء بالمساجد فى الأعياد الإسلامية من الأقباط [٦] .

هذا المظهر كان أبرز كسب « للحركة الوطنية المصرية » ، وهى لم تزل بعد تخطو خطواتها الأولى . ولقد حقّقت به ما عجزت الحركة الهندية عن تحقيق مثله ، فبينما كانت الهند تخوض فى بحار من الدماء بما كان يحدث بين المسلمين والهندوس من أبنائها ، فى أشدّ أوقات صراعهم ضد الاستعمار من النزاعات ، وفى الوقت الذى كان الايرلنديون فى ثورتهم على انجلترا ينقسمون على أنفسهم . كانت مصر تخطّ بيمينها ، فى صفحات تاريخها ، شعارها الرائع فى « الوحدة القومية » .

* * *

واضطّرتنى الثورة للبقاء فى بلدى ـ جرجا ـ وقد قامت هناك المظاهرات العنيفة فطافت شوارع المدينة معربة عن احتجاج الأهالى ، وقد خرجت أول مظاهرة من منزلى وأنا رأسها تهتف « بسقوط الحماية » ثم قصدنا إلى دار المركز وكان فيه مختارحجازى بك وكيل المديرية إذ ذاك (مختار حجازى باشا محافظ القاهرة فيما بعد) فاستمع لاحتجاجى باسم المتظاهرين .

وكان هذا فى يوم ١٥ مارس ، وقد عاد فيه مختار بك إلى سوهاج فى آخر قطار ، لأن السكك الحديدية قُطعت بعد ذلك بين جرجا وبين المديريات التى تليها وبالتالى بينها وبين القاهرة [٧] .

ومن باب الذكرى والتاريخ ، أذكر أن أول شهيد قُتل فى القاهرة برصاص الإنجليز فى الحركة الوطنية هو المرحوم الطالب « ماهر حافظ أمين » وكنت قد عرفت والده مأمورا لمركز الأقصر ، ثم مأمورا لمركز جرجا .

* * *

وكانت الحكومة الإنجليزية قد استدعت ـ قبل اندلاع الثورة ـ « سيرونجت » المعتمد البريطانى إلى لندن . فسافر إلى هناك يوم ٢١ يناير ١٩١٩ . وحاول إقناع حكومته بالسماح للوزيرين المصريين بالحضور إلى لندن لمناقشة مطالبهما ، ولكن الحكومة الإنجليزية لم تصغ لنصيحته ، فبقى فى انجلترا ولم يعد إلى مصر . فلمّا اشتدّت الثورة وعجز الإنجليز عن قمعها ، وفشلت كل محاولاتهم فى ذلك لم يجدوا بدّا من التراجع

والخضوع لمطالب المصريين وغسل الإهانة التى لحقتهم باعتقال زعمائهم . وقد مهدوا لهذا التراجع بتعيين المارشال اللبنى Allenby القائد العام للقوات البريطانية فى مصرمندوبًا ساميًا لا نجلترا فى مصر . وقد صدر بتعيينه فى ٢١ مارس وحضر إلى مصر فى يوم ٢٥ منه، واجتمع بعد وصوله بحسين رشدى باشا ، وأعضاء وزارته . كما اجتمع بالباقين فى البلاد من أعضاء الوفد المصرى ، وبعدد من الأعيان . وتحدّث إليهم فى الثورة وأسبابها وضرورة وضع حد للاضطراب ، وطلب معاونتهم للوصول إلى هذا الغرض .

ولم تمض إلا أيام قليلة حتى ظهرت بوادر السياسة الإنجليزية الجديدة التى عُهد بتنفيذها إلى اللنبى ، وهى الإفراج عن الزعماء الأربعة . إذ أذاع السلطان فؤاد فى ٧ إبريل نداء على الشعب طالبه فيه بالكفّ عن المظاهرات والإخلاد إلى السكينة .

وفى مساء اليوم الذى نُشر فيه هذا النداء أذاع المارشال اللبنى قرارا بالإفراج عن الزعماء الأربعة الذين نفوا إلى مالطة ـ فوراً ـ مع السماح لهم ولمن يشاء من المصريين بالسفر إلى الخارج [٨] .

وبمجّرد إعلان هذا القرار ، قامت فى اليوم التالى مظاهرات حماسية فى القاهرة وفى جميع مدن القطر . وكان المظنون أن تمرّ هذه المظاهرات بسلام ، ولكن مع الأسف أطلق بعض الجنود الإنجليز النار على المتظاهرين فى القاهرة فقُتل منهم كثيرون .

وقد بدأت المظاهرة الكبرى فى القاهرة فى الساعة الثانية بعد ذلك اليوم . وسار فيها العلماء وطلبة الأزهر والآباء الروحيون ورجال القضاء بأوسمتهم ، والمحامون ، والأطباء ، والمهندسون ، وطلبة المدارس ، والعمّال ، وغيرهم من مختلف الطبقات . وبينما هم فى «ميدان الأوبرا » أطلق أحد الجنود الإنجليز الرصاص فقتل عدداً من المصريين ، وكان من بينهم غلام يدعى « رجب إبراهيم » فحمله بعض المتظاهرين واستمروا فى سيرهم حتى قصر عابدين . وأرادوا الدخول به إلى القصر ، فطُلب إليهم اختيار وفد منهم فاختاروا ثلاثة هم : مرقص حنا بك نقيب المحامين ، ومحمد زكى الإبراشى بك من رجال النيابة ، ومحمد توفيق حقى بك من رجال القضاء . وقد قابلوا السلطان فؤاد . فتكلّم مرقص حنا بك شارحا ما حصل ، معلنًا باسم الجماهير استنكار الشعب لتمادى الإنجليز فى ارتكاب الحوادث الوحشية ضد الآمنين . فأظهر السلطان تأثره ، وأمر باستدعاء رشدى باشا ليتصل « بدار الحماية » لوضع حد لهذه الاعتداءات .

ثم خرج إلى الشرفة الكبيرة وأطلّ على المتظاهرين ، فقابلوه بالهتاف ، معربين عن شكواهم ممّا حدث ، وعن مطالبتهم بالاستقلال التام . وكان موجوداً مع السلطان وقتئذ حماه عبد الرحيم باشا صبري ، وأمين يحيى باشا .

هوامش الفصل الثالث

(١) يقول ممثل المندوب السامى فى القاهرة إن سعدًا قد ذهب فى جمهرة من اتباعه (رجال الوفد) إلى عابدين صباح يوم ٣ مارس وطلبوا مقابلة السلطان وعندما لم يؤذن لهم بذلك تركوا له الكتاب المذكور F.O.407/184 No.64 Cheetham to Curzon March 6,1919 نص الكتاب فى محمد كامل سليم ، ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها ص ٩٦ ـ ٩٨ .

(٢) لنص الكتاب المذكور : انظر محمد كامل سليم : المصدر السابق بعد ص ٩٩ ـ ١٠٠

(٣) تضمنت نفس البرقية التى ارسلها ممثل بريطانيا فى القاهرة إلى لندن والتى حوت اخبار هذه المقابلة الرأى بضرورة الاسراع بنفى سعد (لحصر ضرره الذى يمكن ان يمتد للمثقّفين والعناصر المعتدلة»
F.O. 407 / 83 No. 64

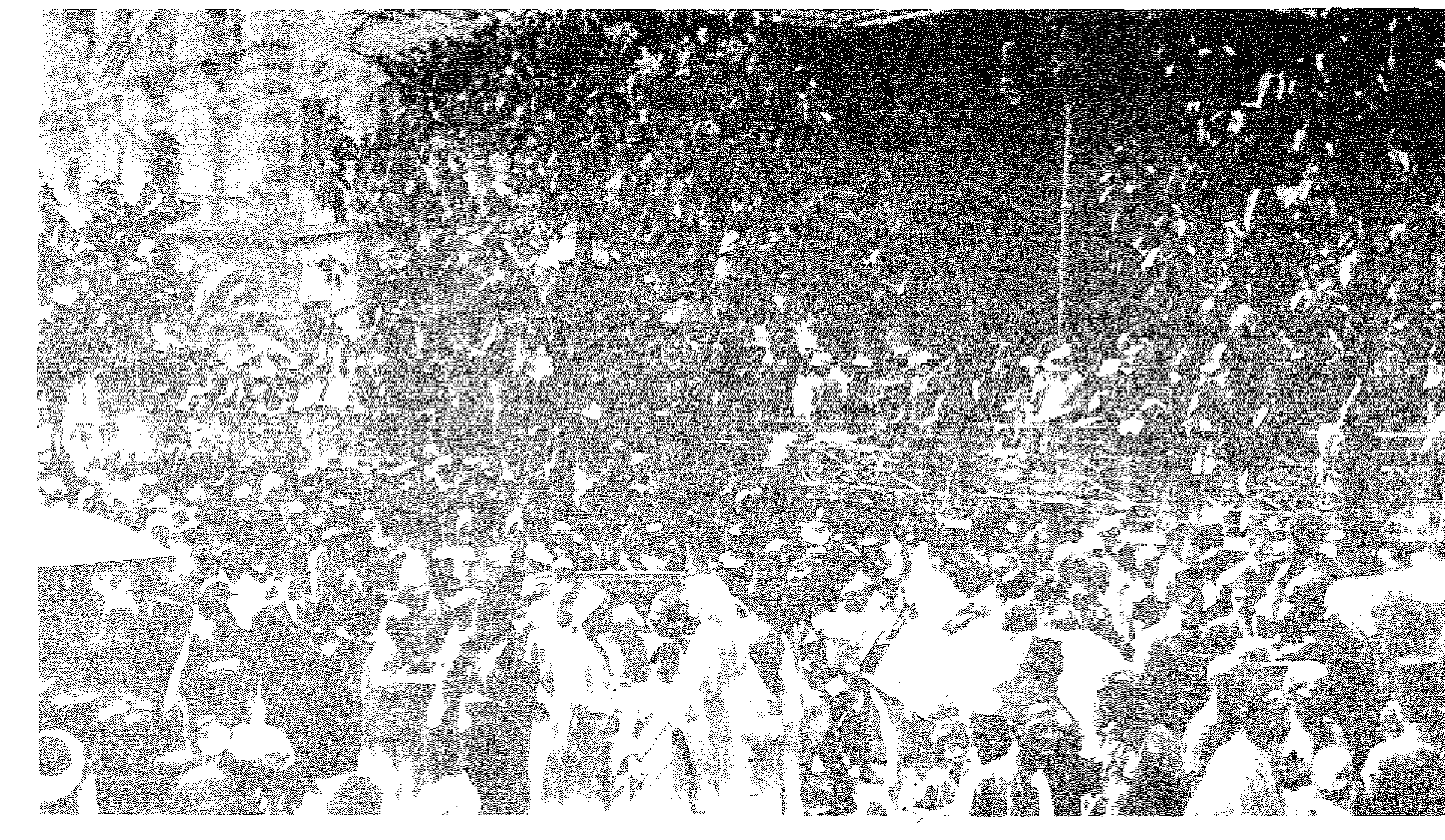
(٤) نص الكتاب : محمد كامل سليم : المصدر السابق ص ١٠٢ .

(٥) لتفاصيل ما جرى فى العزيزية والبدرشين انظر : مذكرات عبد الرحمن فهمى ص ١٧٠ ـ ١٨٧ .

(٦) يقول السير رونالد جراهام فى مذكرة اعّدها يوم ٩ ابريل ١٩١٩ تحت عنوان « الاضطراب فى مصر » عن طبيعة الثورة ما نصه « لقد فوجئ البريطانيون بحجم وعنف الحركة ، وحتى الاقباط (الذين تصرّفوا بحكمة كبيرة) تعاطفوا مع الحركة ، ولم تعد القوات الانجليزية كافية لمواجهتها
F.O>407/184 No. 152

(٧) تقر الوثائق البريطانية بقطع خطوط المواصلات مع مصر العليا منذ هذا التاريخ
F.O.407/184 Nc.

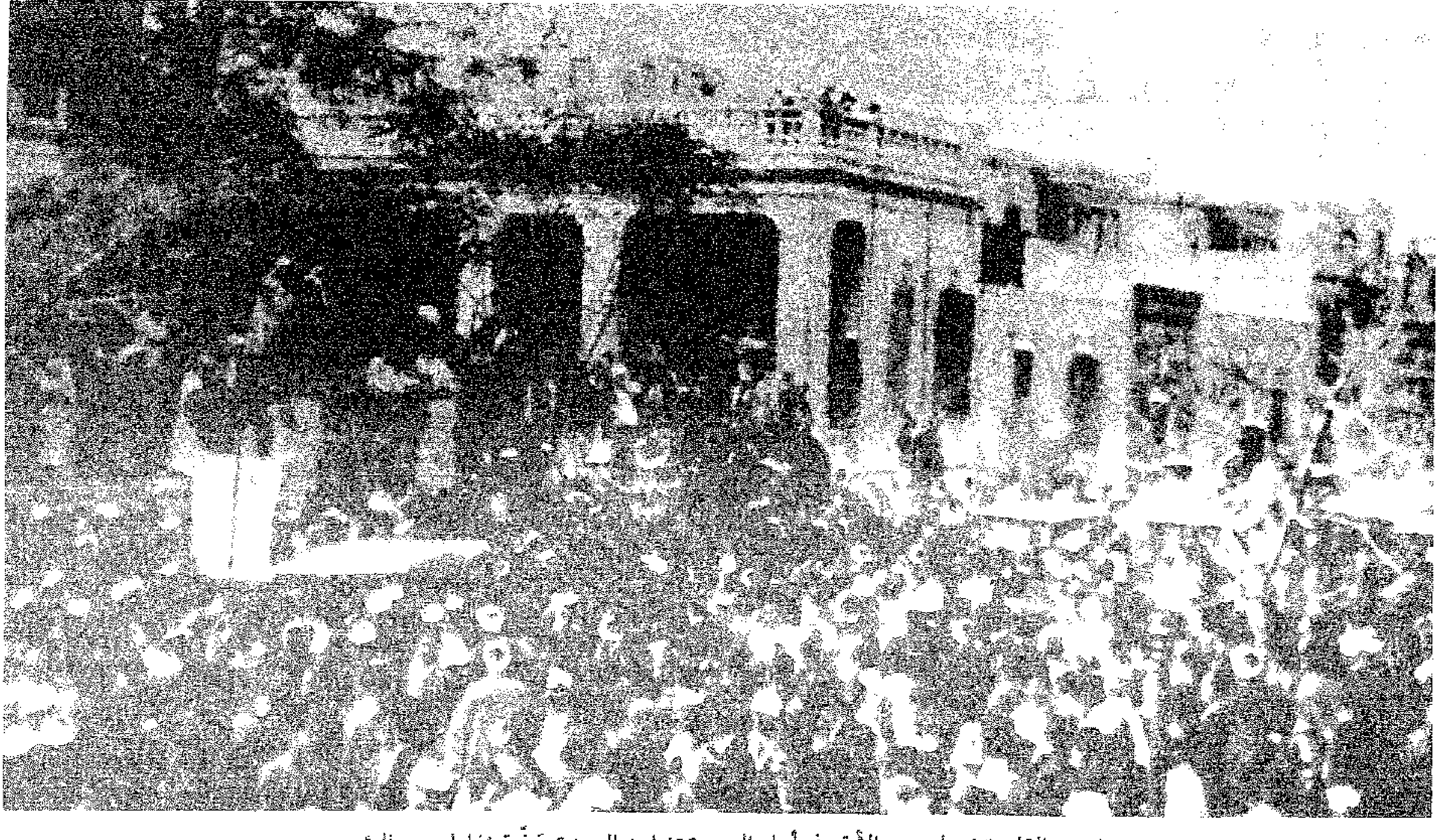
(٨) نص القرار : محمد كامل سليم : مصدر سابق ص ١٢٣ .



المظاهرات تجتاح شوارع القاهرة . وتهتف بسقوط الحماية أمام فندق « شبرد »



المرأة المصرية تشارك فى أحداث الثورة



شعب القاهرة يحيط ببيت الأمة وفى أعلى الصورة تشاهد السيدة صَفّية زغلول حرم الرئيس
والآنسه رتيبة (والدة الأستاذين مصطفى وعلى أمين)

الفصل الرابع

انتصارات الحركة الوطنية

رشدى باشا يوافق على إعادة تأليف وزارته ـ استقالة هذه الوزارة بعد اثنى عشر يوما ـ لورد كيرزون يلقى خطابا يتّهم فيه الموظفين المصريين ـ إضراب الموظفين ـ سعيد باشا يؤلف الوزارة الجديدة ويصفها بأنها « إدارية » ـ سفر أعضاء الوفد إلى مالطة وانضمامهم إلى سعد باشا وسفرهم إلى باريس ـ الرئيس «ويلسون » ينشر إعلانا بموافقة أمريكا على الحماية التى فرضتها بريطانيا على مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ـ سعد باشا يتلقى هذه الصدمة بثبات ـ الوفد يقوم بحملات دعاية القضية المصرية فى عواصم أوروبا وأمريكا ـ تأليف لجنة الوفد المركزية وإسناد رئاستها إلى محمود سليمان باشا ـ جمع التبرعات ـ مظاهر الوحدة الوطنية ـ انجلترا تواصل سياسة التنكيل بالوطنيين وتقرر إيفاد « لجنة تحقيق » عن أسباب الثورة المصرية برياسة « اللورد ملنر » ـ إجماع الأمة على مقاطعتها ـ استقالة محمد سعيد باشا وتكليف يوسف وهبه باشا بتأليف الوزارة ـ الشروع فى اغتياله وعدد من الوزراء ـ وفاة محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى ببرلين ـ الاحتفال بدفنه شعبيا .

* * *

تقدّم أن حسين رشدى باشا قدم استقالته لعدم السماح لأعضاء الوفد بالسفر إلى الخارج ، وأن هذه الاستقالة قُبلت فى ٢ ديسمبر سنة ١٩١٨ . فلمّا أفرج عن الزعماء وأبيح لهم ولمن يشاء من المصريين السفر إلى الخارج ـ كما كان قد طلب ـ عُهد إليه بتأليف الوزارة من جديد فقبل . وقد احتفظ لنفسه فيها بوزارة المعارف مؤقتا ، وأشرك معه عدلى يكن باشا وزيرا للداخلية ، ويوسف وهبه باشا وزيرا للمالية ، وعبد الخالق ثروت باشا للحقّانية ، وجعفر ولى باشا ـ وكيل الداخلية ـ وزيرًا للاوقاف ، وأحمد مدحت يكن باشا ـ محافظ الإسكندرية ـ وزيرًا للزراعة ، وحسن حسيب باشا ـ مدير الغربية ـ وزيرًا للأشغال والحربية والبحرية .

ولم تبق هذه الوزارة فى الحكم إلا اثنى عشر يوما ، فقد حدث أن ألقى لورد كرزون ـ Lord Curon ـ الوزير الإنجليزى المعروف ـ خُطبة عرّض فيها بالثورة المصرية . وكان مما قاله إن «الموظفين لم يشاركوا فى هذه الثورة ولم يتجاوبوا معها ! » فرأى الموظفون أن من واجبهم الردّ على هذه الإهانة التى لحقتهم كمصريين يحبّون وطنهم . فأعلنوا الإضراب عن العمل . وحدّدوا مدته بثلاثة أيام . وانقطعوا فعلاً عن أعمالهم ابتداء من يوم ٢ أبريل

فأصبحت دواوين الوزارات والمصالح الحكومية مُقفرة خالية خاوية ، إلا من الموظفين الإنجليز وغيرهم من الأجانب . وبعث هذا الإضراب فى مختلف طبقات الأمة شعوراً حماسيًا عجيبا ، مقرونا بإكبار لوطنية الموظفين الجريئة ، إذ لم يدر فى خلد أحد من قبل أن الإقدام على مثل هذه الظاهرة الرائعة أمر ممكن . والواقع أن إضراب موظفى الحكومة عامة فى عاصمة البلاد ، انتصاراً لحرية وطنهم فى مواجهة احتلال أجنبى مسلّح ، إنما هو أمر فريد فى تاريخ مصر . ولعلّه لم يُسمع بمثله من قبل فى أى بلد آخر .

وكان من أبهر مظاهر التساند القومى التى صاحبته ، مبادرة العديد من أرباب المتاجر والمصانع والمحلات الأخرى العامة إلى إغلاق محالّ عملهم ، تضامناً مع الموظفين فبدا وجه المدينة مكفهرًا رهيبا (١) .

وهكذا كذّب الإضراب مزاعم « كرزون » وقدّم برهانا علنيا على أن الموظفين لا يقلّون تأييدا للثورة فى سبيل الاستقلال عن سائر مواطنيهم . ومع ذلك فإنهم لم يكتفوا بالأيام الثلاثة التى حدّدوها للاضراب فى بادئ الأمر ، بل قرروا الاستمرار فيه إلى أن يُجاب طلب الأمة برفع كل قيد عن سفر الزعيم سعد وأصحابه ، إلى مؤتمر السلام .

وأجيب طلب البلاد ، فأعلن اللورد اللنبى فى ٧ أبريل إباحة السفر للرئيس وأصحابه وغيرهم ممن يشاءون من المصريين . وألّف رشدى باشا وزارته مرة أخرى فى ٩ أبريل وصرّح فى بيانه أن وزارته تأمل « فى حلٍ يرضى الأمة . . . » ثم حاول فى ١٢ أبريل أن يحمل الموظفين على العودة إلى عملهم فأبوا وقرروا استمرار الإضراب إلى أن تعترف الوزارة بصفة «الوفد » الرسمية ، وتُعلن أن تشكيلها لا يفيد إعترافها « بالحماية » . وأن تُلغى « الأحكام العرفية » وتسحب الجنود البريطانية من شوارع المدن والقرى ليقوم البوليس المصرى ـ وحده ـ بحفظ الأمن والنظام .

وعجز رشدى باشا عن تحقيق هذه المطالب واستقال فى ٢١ ابريل وعزا استقالته إلى «أسباب صحّية » . ولم يعد بعد ذلك محل لإطالة الإضراب فاجتمعت لجنة الموظفين فى مساء ٢٢ . وبعد التشاور ، واستطلاع الرأى السائد فى صفوفهم ، قرّرت فى ساعة متأخرة من ذلك المساء أن تشير بالعودة إلى العمل صباح اليوم التالى وانتشر قرارها بين الجموع المحتشدة فى انتظاره حوالى منتصف الليل ، وسرى خبره فى المدينة ، فعاد الموظفون فى صباح يوم ٢٣ بعدما طال إضرابهم ٢١ يوما وقرّرت الحكومة المصرية أن تكافئهم على

وطنيتهم بحرمانهم من مرتباتهم عن تلك المدة .

وفى ذلك الصباح بالذات ، أصدر المارشال اللنبى إنذارا للموظفين بسوء المصير إن لم يعودوا [٢] . ولكنّهم كانوا قد عادوا بدعوة لجنتهم وبمحض إرادتهم قبل أن يعلموا بإنذاره .

وما من شكّ فى أن إضرابهم الفذّ كان من أنصع صفحات ثورة ١٩١٩ . ومما يجدر ذكره أنه كان من كبار الموّظفين ، المشتركين فى لجنة الإضراب : عاطف بركات بك ناظر مدرسة القضاء الشرعى ومحمد زكى الإبراشى بك وكيل نيابة الاستئناف وعلى ماهر بك مدير الإدارة الحسبية وصادق حنين بك مدير إدارة وزارة الزراعة والأساتذة سلامه ميخائيل بك ومحمد لبيب عطيه بك ومحمد عبد الهادى الجندى بك من رجال القضاء ، والأستاذ حسن نشأت المدرّس بمدرسة الحقوق والدكتور نجيب اسكندر من وزارة الصحة .

وقد بقيت البلاد مرة أخرى بلا وزارة إلى ٢٠ مايو سنة ١٩١٩ إذ ألّف محمد سعيد باشا الوزارة الجديدة وأعلن أنها « إدارية » وأشرك معه فيها إسماعيل سرى باشا للأشغال والحربية ، ويوسف وهبه باشا للمالية ، وأحمد زيور باشا للمعارف ، وعبد الرحيم صبرى باشا للزراعة ، وأحمد ذو الفقار باشا للحقّانية ، ومحمد توفيق نسيم بك للأوقاف (والثلاثة الاخيرون كانوا يتولّون الوزارة لأول مرة) . وقد أنعم على توفيق نسيم باشا ـ لهذه المناسبة ـ برتبة الباشوية .

* * *

وكان أعضاء الوفد ، الباقون فى مصر ، قد سافروا على الباخرة « كاليدونيا » من ميناء بورسعيد يوم الجمعة ١١ أبريل سنة ١٩١٩ قاصدين إلى فرنسا لحضور مؤتمر السلام فى باريس . وهم على شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك وأحمد لطفى السيد بك ومحمد على علوبه بك وعبد اللطيف المكباتى بك وسينوت حنا بك وجورج خياط بك ومصطفى النحاس بك والدكتور حافظ عفيفى ومحمود أبو النصر بك وحسين واصف باشا ، ثم انضمّ إليهم فى باريس الأستاذ واصف بطرس غالى حيث كان يقيم منذ عام ١٩١٤ . وسافر مع الوفد الأساتذة ويصا واصف وعزيز منسى وجورج دومانى ومحمد بدر بك ملحقين ومترجمين لتفوّقهم فى اللغة الفرنسية [٣] ، كما أذكر أن الأستاذ محمود أبو الفتح ، الصحفى المعروف ـ وأحد أصحاب جريدة المصرى فيما بعد ـ سافر أيضا معهم ، مندوباً عن جريدة « وادى النيل » .

وقد عرّجتْ الباخرة « كاليدونيا » وهى فى طريقها إلى مرسيليا على مالطة ـ صبيحة يوم الثلاثاء ١٥ أبريل ـ فانضَمّ الزعماء الأربعة المفرج عنهم إلى أعضاء الوفد . وسافرت بهم الباخرة إلى فرنسا . وما كادوا يصلون إلى مرسيليا يوم الجمعة ١٨ أبريل حتى كتب سعد باشا إلى « الرئيس ويلسون» يطلب أن يحدد له موعداً لعرض قضية البلاد عليه . فإذا بنبأ تذيعه الصحف فى اليوم التالى من وصولهم ، بأن « أمريكا توافق على الحماية التى فرضتها بريطانيا على القطر المصرى فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ » وهى الحماية التى ما فتئ الوفد ـ بلسان رئيسه ـ ينادى ببطلانها من ناحية القانون الدولى ، وبعدم شرعيتها . إذ هى فرضت على البلاد إبّان اضطّرام الحرب العظمى من جانب واحد هو بريطانيا . فكان نشر هذا الإعلان(٤) ، غداة وصول الوفد المصرى إلى فرنسا ، لطمة شديدة قابلها سعد باشا بكثير من الثبات . ولكن آخرين من أعضاء الوفد ظَنّوا أن بذل الجهود فى هذا السبيل بعد نشر هذا الإعلان مقضيّ عليه بالفشل . وكان منهم إسماعيل صدقى باشا ومحمود أبو النصر بك . فما لبثوا أن تحّينوا الفرصة وعادوا أدراجهم إلى مصر .

ولّما وصل الوفد المصرى إلى باريس ، وجد أبواب « مؤتمر فرساى » مغلقة فى وجهه وأن كل مسعى من جانبه لدى ممثلى دول الحلفاء لا يلقى أقل عناية . فلم يجد أمامه ـ والحالة هذه ـ إلا أن يوجّه جهوده للدعاية لمصر فى صحف فرنسا وانجلترا بالمقالات بنشرها والردود على ما ينشر فيها . إذ كانت السياسة الإنجليزية قد أوعزت إلى بعض الكتّاب بنشر ما يشوّه حركة مصر باختلاق الأكاذيب والمفتريات عليها .

* * *

وقد عمد الوفد أيضا ، إلى الاتصال برجال الفكر والقلم فى العواصم الأوروبية ، لكسب عطفهم وتأييدهم لقضية البلاد . كالكاتب الفرنسى أناتول فرانس Anatole France صاحب المبادئ المعروفة فى الحرية والديموقراطية وسير فالنتين شيرول Sir Valentine Chirole (٥) . وغيرهما ، كما اتّصل أعضاؤه أحمد لطفى السيد بك وواصف غالى، وويصا واصف ـ وكان قد تقرّر ضمّه عضوا رسميا فى الوفد ـ بكثير من المحافل والجمعيات الدولية وفى مقدّمتها جمعية « حقوق الإنسان » ـ ومقرّها فى باريس ـ لعقد اجتماعات عامة وإلقاء محاضرات سياسية ، الغرض منها تنبيه الرأى العام وإظهار مدى الحيف الذى ارتكبه ساسة الحلفاء حينما قرروا إغلاق الباب أمام ممثّلى مصر وعدم

الاستماع إلى صوتها فى مؤتمر السلام . وفى نفس الوقت قرّر الوفد إيفاد محمد محمود باشا إلى أمريكا للدعاية فيها فسافر إليها فى شهر أكتوبر ١٩١٩ وقام بنشاط واسع فى محافلها السياسية ، وكان مما وفّق فيه ، توكيله أحد كبار المحامين هناك ـ المستر فولك ـ للقيام بهذه الدعاية وانتقاد إعلان «الرئيس ويلسون» موافقته على الحماية البريطانية ، ولفت نظر «الكونجرس» إلى ما ينطوى عليه هذا الإعلان من مخالفة صريحة « للمبادئ الأربعة عشر » التى كان قد دعا إليها الرئيس الأمريكى ـ أثناء الحرب ـ ومنها مبدأ « حق الشعوب فى تقرير مصيرها » .

ومما يُذكر ، أن العمل كان قد أظهر الحاجة إلى شخص يشغل وظيفة السكرتير الخاص لسعد باشا ويقوم فى الوقت نفسه بأعمال الترجمة والنشر فى الجرائد الإنجليزية . فكتب سعد باشا بذلك إلى عبد الرحمن فهمى بك (السكرتير العام للجنة الوفد المركزية) ـ كما سيجىء ـ فوقع الاختيار على الأستاذ محمد كامل سليم ـ وكيل المدرسة الإعدادية الثانوية بالقاهرة وقتئذ ـ إذ شهد له الجميع بالكفاءة والامتياز ، والتفوّق فى اللغتين الإنجليزية والعربية ، فضلا عن تمتّعه بأخلاق عالية . فسافر إلى باريس فى منتصف شهر نوفمبر سنة ١٩١٩ . وظلّ منذ ذلك الوقت سكرتيراً خاصاً لسعد باشا يترجم له كل ما ينشر فى الصحف الإنجليزية من مقالات وأخبار إلى اللغة العربية ، ويترجم إلى اللغة الانجليزية الردود التى يرى رئيس الوفد نشرها فى صحف انجلترا وأمريكا .

أما عن الدعاية فى فرنسا ، فقد كان الأستاذان واصف غالى وويصا واصف هما اللذان يقومان بها ويُشرفان عليها ، بما عرف عنهما من تضلّع فى اللغة الفرنسية ودراية تامة بها ـ كتابةً وخطابة ـ وقد بذلا فى هذا الشأن نشاطاً كان موضع تقدير سعد باشا وزملائهما من أعضاء الوفد .

* * *

وأوصى سعد باشا وقتئذ بأن تؤلف « لجنة مركزية للوفد » فى القاهرة ، من ذوى الرأى والمكانة فى البلاد لتكون همزة الوصل بين الوفد والأمة . تعمل على تبليغ نشاط الوفد للشعب ، وإذكاء الروح الوطنية ، وتتولّى تنظيم الجهاد فى داخل البلاد ضد الاستعمار ، فى الوقت الذى يتولّى فيه الوفد العمل فى الخارج . وقد أُلّفت هذه اللجنة وضمّت إلى عضويتها خلاصة أعيان البلاد والمثقفين فيها ، برياسة الشيخ الوقور محمود سليمان باشا[٦] ـ والد محمد محمود باشا عضو الوفد (ورئيس الوزراء فيما بعد) ووكالة الشيخ

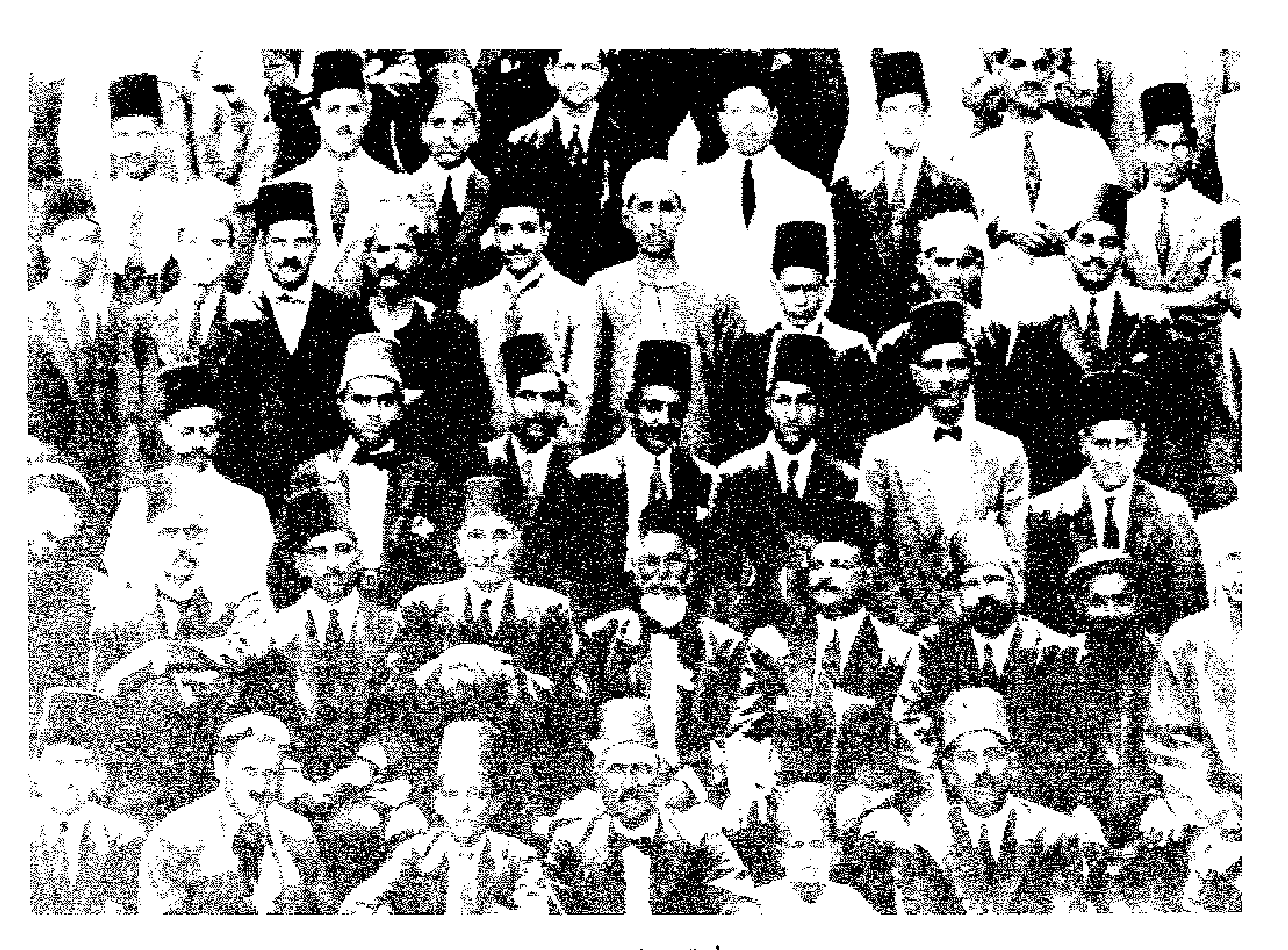
الجليل إبراهيم سعيد باشا ـ والد الدكتور عبد الحميد سعيد عضو الحزب الوطنى ورئيس جمعية الشبّان المسلمين ، وسكرتيرية الأستاذ عبد الرحمن فهمى بك [٧]. فلّما انتظمت المواصلات ، وعدت إلى القاهرة ، كان لى شرف عضويتها . وبقينا فيها ونبذل جميع التضحّيات حتى عاد سعد باشا إلى مصر فى ٤ ـ أبريل سنة ١٩٢١ .

وقد بقيت لجنة الوفد المركزية تواصل عملها فى إحكام الصلة بين الوفد وبين البلاد ، وبينها وبين الوفد فى باريس . وتجمع الإعانات بواسطة لجانها الفرعية التى انبثت فى الأقاليم . كما أقبلت الأمة على التبّرع بالمبالغ الطائلة لخدمة القضية المصرية ونشر الدعوة لها . وبذل الجميع فى ذلك بذلا لم تفلح معه أوامر السلطة العسكرية التى هدّدت كل من يدعو للتبّرع بكل صنوف التهديد والوعيد . وبالرغم من المنشور الذى كان قد أذاعه المارشال اللنبى يمنع جمع هذه الأموال . وأذكر على سبيل المثال أننا بينما كّنا مجتمعين فى اللجنة إذا بحسنين بك عبد الغفار أحد أعضائها (من كبار أعيان المنوفية وعضو مجلس الشيوخ فيما بعد) يدخل علينا ثم يفكّ صديريته وقميصه ويخرج من بين ثنايا ثيابه مبلغ ألف جنيه . ثم ينزع عن ساقه أحد جوربيه ويخرج ألفا أخرى ، ثم ينزع عن فى ساقه الثانية الجورب الآخر ويخرج ألف جنيه ثالثة ، فدهشنا لهذا وسألناه عن السبب فى هذا التحّوط الشديد فقال إنه حضر من « تلا » بمديرية المنوفية بالسيارة ، وخشى أن يضبطه أحد من رجال السلطة العسكرية الإنجليزية ويفتشه فيصادر هذا المبلغ الكبير (!)

كذلك أذكر المبالغ الطائلة التى كانت تنهال على اللجنة من مديرية الغربية والتى جمعها الدكتور حسن بك كامل ، يعاونه كبار رجال هذه المديرية والموظفون . كما كانت بقية المديريات تتنافس فى جمع التبرعات .

وقد اختير أمينا لصندوق اللجنة فى بادئ الأمر وكيلها إبراهيم سعيد باشا ، ثم اختير الدكتور فؤاد سلطان بك (أحد مديرى بنك مصر فيما بعد) أميناً ثانياً للصندوق لتسلّم التبرعات .

وكانت اللجنة تغذّى الأمة على الدوام بما يلهب فيها نار الوطنية ، والأمة من ورائها عاملةً مجدّة تعقد الاجتماعات اليومية فى الأزهر والمساجد والكنائس ، فى المدن وفى القرى ، فيحضرها الآلاف المؤلفة ليستمعوا إلى كلمات الخطباء وقصائد الشعراء فى تمجيد الحرية والاستقلال .



لجنة الوفد المركزية

ويرى فى وسط الصورة : الشيخ الوقور محمود باشا سليمان (رئيس اللجنة) وعلى يمينه الدكتور عبد الحميد سعيد والأستاذ على ماهر والأستاذ عاطف بركات والقمص بولس غبريال وعلى يساره عبد الرحمن فهمى بك (سكرتير اللجنة) والدكتور محجوب ثابت

وصفوة القول أن الأمة كانت كلها كتلة متحدة وراء الوفد تترقب نشاطه وجهاده فى الخارج بمنتهى اليقظة وتتبع توجيهات لجنته المركزية فى الداخل ، ولا تترك فرصة دون أن تعبّر عن شعورها الوطنى المتأجج أو أن تظهر اتحادها متينا قويا . وأذكر أنه حلّ عيد الفصح فى يوم ٢٠ أبريل سنة ١٩١٩ فازدحمت دار البطريركية على اتسّاعها بالعلماء وطّلاب الأزهر والمدارس العالية والثانوية والأهالى من مختلف الطبقات لتبادل التهنئة بالعيد . وألقى الأستاذ محمد أبو شادى بك المحامى والأستاذ الشيخ مصطفى القاياتى والأستاذ الشيخ على سرور الزنكلونى والأستاذ الشيخ محمد بك الخضرى ، خطبا فياضّة بمعانى الاتحاد بين عنصرى الأمة . وردّ عليهم الأستاذ إبراهيم تكلا ـ ناظر المدارس القبطية ـ والواعظ فرج جرجس بكلمات فى هذا المعنى أيضا .

وكذلك ازدحمت دار البطريركية المارونية بوفود المهنئين . وخطب الأستاذ محمد حلمى عيسى بك مدير الإدارة القضائية الأهلية (محمد حلمى عيسى باشا الوزير فيما بعد) والدكتور محجوب ثابت ، فردّ عليهما الأستاذ داود بركات والأستاذ أنطون الجميّل والأستاذ الشاعر خليل مطران (٨) .

وفى هذه الأثناء ، واصل الإنجليز سياسة التنكيل بالوطنيين من أبناء الأمة . مما أدّى إلى زيادة اضطراب الحالة ، وعُقدت المحاكمات العسكرية فى جميع أنحاء البلاد لمحاكمة القائمين بالحركة الوطنية انتقاما لما حدث فى شهر مارس ، ففى أسيوط حكم بالإعدام على البكباشى محمد كامل محمد مأمور البندر ونفّذ فيه الحكم فى ١٠ يونيو سنة ١٩١٩ ، كما قبض على المرحوم محمد حمدى بك وكيل مديرية المنيا بتهمة أنه حاول الاستيلاء على مقاليد الأمور فى المنيا فى ثورة مارس ، وقد انتحر وهو فى السجن . وكان رحمه الله من المشهود لهم بالكفاية إذ كان أول فرقته بمدرسة الحقوق سنة ١٩٠٦ .

وحُكم على كثيرين بالأشغال الشاقّة فى جهات كثيرة . كما حُكم على عدد من الشبان من أهالى « دير مواس » وغيرها بالإعدام وعمّت المحاكمات بلاد القطر . وشملت المئات من أبناء الشعب ، كما امتلأت المعتقلات بالأحرار فى « رفح » « وسيدى بشر » « والقلعة » وغيرها ، فاستبّد القلق بالشعب ، وسادته ثورة نفسية بعيدة المدى . وبقى الأمر على هذه الحال حتى جاءت وزارة محمد سعيد باشا . فاتفقت مع الإنجليز على نقل المحاكمات من المحاكم العسكرية إلى المحاكم المصرية .

ومما يُذكر أن كثيرين من الذين حكم عليهم خلال ثورة ١٩١٩ بقوا فى السجون

والليبانات حتى ألّف سعد باشا « الوزارة الشعبية » الأولى فى سنة ١٩٢٤ ، فأفرج عنهم .

* * *

وتحرّكت السياسة الانجليزية لتوجيه الأمة وجهة أخرى غير وجهة الوفد ، فقرّرت إيفاد ما اسمته « لجنة التحقيق عن أسباب الثورة المصرية » برياسة لورد « ملنر » Lord Milner وزير المستعمرات وقتئذ ، وعضوية بعض الإنجليز الخبراء بالشؤون المصرية ، لسابق إتصالهم بها فى العهود الماضية كالسير رينل رود Sir Rennell Rodd والجنرال مكسويل General Sir John Maxwell والسير سيسيل هيرست Sir Cecil Hurst (٩) وعُرفت هذه اللجنة فيما بعد باسم « لجنة ملنر ». وأعلن أخيرا أنها ستصل إلى مصر لتتّصل بالمصريين لمباشرة المهمة الموكولة إليها . فسرعان ما سرت فى الشعب المصرى موجة عنيفة تدعو إلى مقاطعتها مقاطعة تامة . لأن الأمة وكّلت عنها « الوفد المصرى » فهو وحده الذى يتكلم باسمها ، وهو وحده الذى يمكن للجنة أن تخاطبه فى شؤون مصر . أما أن تقدم اللجنة إلى مصر وتطمع فى مخاطبة المصريين عن غير طريق الوفد ، فدون ذلك خرط القتاد .

سرت هذه الموجة االعنيفة فى أنحاء البلاد ، تغذّيها لجنة الوفد المركزية وتدعو إليها ، وترسل الخطباء ليخطبوا بها فى المحافل والأندية . حتى أصبحت « مقاطعة لجنة ملنر » العقيدة التى لا تتزعزع لكل المصريين ، لا يشذّ عنهم فرد واحد . إلى أن وصلت اللجنة إلى مصر فى ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩ ، فوجدت أن ما سبقها من أنباء الإجماع على مقاطعتها حقيقة لا مبالغة فيها . فقضت فى البلاد ما قضت ، لا تسمع إلا جوابا واحدا هو « أن الأمة وكّلت « الوفد المصرى » برياسة سعد زغلول وهو وحده الذى يتكلم باسمها » . سمعت اللجنة هذا من أفواه العامة ، بل سمعته من الفلاّحين فى حقولهم ، ومن العمال فى مصانعهم . كما سمعت من حسين رشدى باشا حين طلبت منه دعوة المصريين للاتصال بها أنه « لو دعا إلى مخاطبتها ما تبعته فى مصر قطّتان . . . . » .

ومما يجب أن يُذكر فى هذه المناسبة ، تقديراً لموقف محمد سعيد باشا ـ وكان رئيسا للوزارة وقتئذ ـ أنه استقال فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ ، براً بوعده الذى كان قد صرّح به وهو أنه يستقيل إذا أصرّت الحكومة الإنجليزية على حضور « لجنة ملنر » إلى مصر . وقد كان له الفضل فى تحويل كثير من القضايا السياسية من المحاكم العسكرية الإنجليزية إلى

المحاكم الأهلية كما سلفت الإشارة ، وكذلك فى الإفراج عن معتقلى « مالطة » الذين كانوا قد نفوا إليها فى سنة ١٩١٤ . وكذلك فى الإفراج عن معتقلى « رفح » . ولكن هذا لم يمنع سينوت حنا بك عضو الوفد من أن يكتب المقالات الشديد اللهجة فى الصحف الوطنية ضده بعنوان « إنى أتهم . . . » على الرغم من صداقته الشخصية له ، وذلك بسبب تشتيته الموظفين الوطنيين ، وإبعادهم . وفى مقدّمتهم بعض قادة الحركة .

وقد ألّف الوزارة بعد قبول استقالة سعيد باشا فى ٢١ نوفمبر يوسف وهبه باشا (والد مراد وهبه باشا وصادق وهبه باشا الوزيران فيما بعد) وكّونها من أعضاء الوزارة السابقة فيما عدا عبد الرحيم صبرى باشا . وضمّ إليها محمد شفيق باشا للزراعة ويحيى إبراهيم باشا للمعارف وحسين درويش للأوقاف .

غير أن الأمة لم تقابل تأليف هذه الوزارة بالرضا ، لأن أغلب أعضاء الوزارة ورئيسها لم يتضامنوا مع سعيد باشا فى موقفه من مقاطعة « لجنة ملنر » . فضلاً عن أن فى تأليف الوزارة برياسة وزير قبطى مكيدة يهدف الإنجليز من ورائها إلى إظهار عدم تضامن الأقباط مع المسلمين فى المطالب الوطنية ، ولذلك سرعان ما تنّبه الأقباط إلى هذه المناورة الخبيثة ، فعقدوا الاجتماعات التى أعلنوا فيها استنكارهم لقبول يوسف وهبه باشا تأليف هذه الوزارة .

أمّا شباب الوطنيين فلم يكتفوا بمجّرد الاحتجاج على الوزارة ، بل قرنوا ذلك بأعمال العنف ومنها الاعتداء على حياة أعضائها . وقد وقع الاختيار على الشاب القبطى عريان يوسف سعد [١٠] (الموظف بمجلس الشيوخ فيما بعد) ليتولى الاعتداء على حياة يوسف وهبه باشا . فشرع فى إغتياله يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٩ بإلقاء قنبلة على سيّارته ، ولكنه نجا منها . وحوكم عريان يوسف وحُكم عليه بالأشغال الشاقة ولم يُفرج عنه إلا فى عهد وزارة سعد زغلول سنة ١٩٢٤ ، كما اعتدى آخرون على سائر الوزراء إذ ألقيت القنابل على محمد شفيق باشا وتوفيق نسيم باشا وإسماعيل سرى باشا وحسين درويش باشا .

وهكذا كان الإجماع رائعا على « لجنة ملنر » ، والمؤيدين لحضورها إلى مصر . كما كان محكّا عرف منه الساسة الانجليز قوة الوفد فى مصر وشدة تمسّك الأمة به ، وتأييدها لزعيمها الأكبر سعد زغلول باشا ، والتفافها حوله . كما عرفوا منه النجاح الذى تلقاه لجنة الوفد فى القاهرة فى تسيير دفة الحركة الوطنية نحو الوجهة الصحيحة لخدمة البلاد . حتى

إن السلطة العسكرية شعرت بأن اللجنة هى السبب وراء مقاطعة اللجنة فأمرت بإبعاد محمود سليمان باشا رئيسها إلى الصعيد ، وإبراهيم سعيد باشا وكيلها إلى عزبته فى مديرية الغربية[11] . ففى الحال أنتخب مرقص حنا بك (نقيب المحامين وقتئذ) نائبا للرئيس ، وزادت اللجنة نشاطها فى المهمة التى تقوم بها .

وإزاء هذه الروح الوطنية العظيمة ، وهذا الإجماع من مختلف طبقات الأمة ، أخفقت «لجنة ملنر » فى الاتصال بالمصريين . واضّطرت أن تحّول وجهها شطر الوفد المصرى فى باريس لتدعوه إلى مفاوضتها . فكان منها اعترافاً ـ أى اعتراف ـ بوكالة الوفد عن مصر . واعترافا ـ أى اعتراف ـ بتصميم مصر على الوصول إلى حقّها الطبيعى فى الحّرية والاستقلال .

وهكذا ، حقّقت الحركة الوطنية انتصارها الثانى . فقد أرغمت الإنجليز على الإفراج عن الزعماء والسماح لهم بالسفر ، ثم اضطّرتهم إلى الاتصال بهم والاعتراف بصفتهم ، فى التحدث باسم مصر .

وأذكر بهذه المناسبة أن محمود سليمان واصل سفره إلى الأقصر بعد إبعاده . فلمّا وصل إلى جرجا استقبله أهلها بمظاهر الحفاوة والحماسة . وقد زارنى فى منزلى كعادته السنوية التى درج عليها منذ عام ١٩٠٦ نظرًا للعلاقات القديمة التى كانت تربط بينه وبين المرحومين جدّى ووالدى ، وألقى أمامه الأستاذ الشيخ محمد عبد الرحمن سالم القاضى الشرعى ، كلمة ترحيب وتأييد وطنية .

وكنت قد جمعتُ من جرجا مبلغ ألفى جنيه مصرى للمساهمة فى نفقات الوفد المصرى، وذلك بمعاونة الأستاذ سلامه بك ميخائيل ـ قاضى محكمتها وقتذاك ـ وأحمد هشام بك ـ وكيل نيابتها ـ فانتهزت فرصة مروره وأبلغته بذلك فأشار بتسليمه للأستاذ فؤاد سلطان بك أمين صندوق لجنة الوفد المركزية بالقاهرة ففعلت .

وقد أتاحت لى عضويتى فى هذه اللجنة ، الاتصال عن كثب برجالات مصر الذين اشتركوا معنا فى الحركة الوطنية من بدء عهدها . وكنت أعرف كثيرا منهم من قبل ، معرفة ترتقى إلى درجة الصداقة . ولكن هناك شخصية فذّة كنت أعرف صاحبها عن بعد وأتتبع خطواته فى حياته العامة، وخاصة فى مجلس شورى القوانين والجمعية التشريعية ، فكان يملأ نفسى إعجابا ، بحسن بيانه ، ولباقته ، وعصاميته التى ارتقت به من عمدة فى قرية

لم يُكمّل دراسته الثانوية ، وعين من أعيان الأقاليم فى عهد الاحتلال ، إلى مركز الزعيم الكبير والسياسى المحنّك ، ثم إلى تلك المكانة السامية التى كانت له فى نفوس الشعب .

ولاشكّ أن القرّاء الذين أدركوا تطوّرات الحركة الوطنية من بدئها حتى وفاة المغفور له سعد زغلول باشا ثم إلى ما بعد وفاته بخمس سنين ـ فى ٢ فبراير سنة ١٩٣٣ ـ عرفوا أننى أعنى بتلك الشخصية العظيمة المغفور له محمد فتح الله بركات باشا عضو لجنة الوفد المركزية[١٢]، ثم أحد المنفيين إلى سيشيل ، ثم عضو الوفد المصرى ، ووزير الزراعة ووزير الداخلية ، وزعيم حركة « التعاون الزراعى » وحلاّل الكثير من المعضلات السياسية التى واجهتها البلاد فى هذه الفترة من تاريخها .

فلمّا تلاقينا فى لجنة الوفد تعارفنا ، وتزاملنا ، وارتقت المعرفة والزمالة إلى صداقة متينة دامت أكثر من اثنى عشر عاما . وائتلفنا على السّراء والضرّاء . وتكشّفت لى نفسه عن عظمة قدرتُها ، كما قدّرها كل عارفيه ، وخبرت فيه عن قرب ما كنت أسمعه عنه من بعد ، وزادنى وثوقا به وبإخلاصه وصلاحه وتقواه وقوة إيمانه الوطنى ما هيأته لى الفرص ، فى الاجتماعات الوطنية التى كنا نحضرها أو نقيمها بحكم عضويتنا فى لجنة الوفد .

* * *

وفى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ نُعى إلى الأمة المصرية المغفور له محمد فريد بك رئيس «الحزب الوطنى» . وقد توفّى بعيدا عن وطنه فى برلين ، والحركة الوطنية فى عنفوانها ، والوفد المصرى يجاهد فى سبيل الحرية قريبا من مؤتمر الصلح فى باريس . والحوادث تتابع فى البلاد بسبب صراعها مع الإنجليز . وقد ضرب فريد بك ـ رحمه الله ـ أروع مثل فى التفانى والتضحية . فكان واجباً على الأمة أن تكرّم فيه هذا المثل العالى وأن تحتفل بتشييع جثمانه وأن يُدفن فى الأرض التى أحبّها ، وضحّى من أجلها بكل ما يملك . فلم تله الحوادث الأمة عن أداء هذا الواجب . وتطوعّ عضو من أعضاء لجنة الوفد المركزية هو الحاج خليل عفيفي ، التاجر فى الزقازيق ، بأن ينقل الجثمان من برلين إلى القاهرة على حسابه الخاص لا يبتغى من ذلك إلا رضاء الله والوطن . وقد سافر لهذا الغرض إلى المانيا ونجحت مساعيه فى نقل الجثمان حتى وصل به إلى الإسكندرية على الباخرة « حلوان » صباح يوم الثلاثاء ١٨ يونيو سنة ١٩٢٠ . وقرّرت لجنة الوفد الاشتراك فى استقباله بالميناء وندبت عنها لهذا الغرض لجنة من : فتح الله بركات باشا وعبد الخالق مدكور باشا والدكتور

محجوب ثابت ومنى . فسافرنا نحن الأربعة إلى الإسكندرية ، وكنّا فى رمضان . وقصدنا إلى الميناء وكان قد أقيم سرادق كبير امتلأ بالجماهير فصعدنا إلى دار « الفنارات » حيث وجدنا الأمير عمر طوسون وأعضاء لجنة الحزب الوطنى . واشتركنا فى الاحتفال المهيب بتشييع الجثمان من الجمرك حتى محطة الإسكندرية مخترقين أهم شوارع المدينة بين مظاهر من الحماسة التى تجلّ عن الوصف . وصفوف متراصّة من الشعب تهتف من أعماق القلوب لذكرى فريد بك ، وبحياة الوفد ورئيسه سعد والاستقلال والحرية ، وكان يتقدّم المشيعين صاحب السمو الأمير عمر طوسون ومحمد سعيد باشا وأحمد يحيى باشا وعبداللطيف الصوفانى بك (١٣) وأعضاء الوفد المنتدبون ورجال الحزب الوطنى . وقد تبّرع الأمير عمر طوسون بجميع نفقات الجنازة .

ولست أنسى ما لقيناه من الحفاوة والتكريم وحسن الاستقبال ، باعتبارنا ممثلى الوفد ، فى هذا الاحتفال الشعبى العظيم . فقد كانت الأنظار تتّجه إلينا بنوع خاص لهذا الاعتبار.

ولمّا عدنا من تشييع الجنازة ، دعانا الدكتور أحمد عبد السلام والأستاذ البشبيشى المحامى إلى حضور الحفلة الخطابية الوطنية التى كانت تُقام كل مساء فى مسجد « المرسى أبى العباس » ، كما كانت تقام نظيرتها فى « الجامع الأزهر» بالقاهرة لإذكاء الشعور الوطنى، فذهبنا إلى هناك قبل العشاء . ولا تسل عن الترحيب والتكريم والحفاوة التى لقيناها من المجتمعين فى المسجد وعلى طول الطريق إليه ، فإنّ أبلغ وصف، ليعجز عن الإفصاح عن هذا الشعور الوطنى الذى كان يملأ قلوب الإسكندريين فتدوّى أصواتهم فى الفضاء تردد الهتاف للحرية والاستقلال .

وأقيمت صلاة العشاء فى المسجد . وأعقبتها صلاة « التراويح » . وكان مما أكبرته فى فتح الله بركات باشا أنه أدّى الصلاة الأخيرة ـ مع إرهاقه وعلى طولها ـ مع المصلّين . وزاد إكبارى له ما عرفته من أن هذه عادته لا يقطع صلاة التراويح فى رمضان ، كما يحرص على ألاّ يفوته فرض فى موعده (١٤) .

وبعد الصلاة تعاقب الخطباء . وطلب المجتمعون إلى فتح الله باشا أن يخطبهم فألقى خطابا حافلا بالمعانى الوطنية . وقد ذكرنى فيه لمناسبة وجودى فى المسجد ، بالخير . وذكر كثيرا من المُثل الحّية على قوة الارتباط والاتحاد بين المسلمين والأقباط مما كان له أحسن وقع فى نفوس السامعين ، ثم قدّمنى للحاضرين بكلمة ثناء مشجّعة . فطلبوا منى أن أقول

كلمة فلبيّت هذا الطلب . وارتجلت كلمة فى معنى التضامن والاتحاد بين عنصرى الأمة قوبلت من الجميع بالاستحسان والهتاف للوحدة . ثم طلبوا إلى الدكتور محجوب ثابت أن يخطبهم فارتجل كلمة فيّاضة .

وأخيرا عدنا إلى القاهرة فى القطار الذى نقل فيه جثمان فريد بك وقد برح الإسكندرية فى منتصف الليل . ووقف فى جميع المحطات فكانت مظاهرة شعبية على طول الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة . إذ خرج الأهالى ، من قراهم وبلدانهم ، فى هذه الساعات المتأخرة من الليل يُحيّون جثمان فريد بك ، كما يُحيّون ممثلى الوفد فى تشييعه ومرافقته ، ويذكرون جهاد الوفد فى باريس .

ومما يذكر بهذه المناسبة أن الوفد المصرى كان قد احتفل بنقل رفات اثنى عشر طالبا من الطلبة المصريين كانوا قاصدين إلى ألمانيا لطلب العلم فى مارس سنة ١٩٢٠ ، فخرج القطار الذى يحملهم عن الخط وقضوا نحبهم ، فلما جىء برفاتهم إلى مصر اجتمعت «لجنة الوفد المركزية » وقررت تشييع جنازتهم باحتفال وطنى مهيب ، باعتبارهم « شهداء العلم » . وقد سار فى الاحتفال الأمراء والوزراء والعظماء وجموع غفيرة من مختلف طبقات الشعب .

هوامش الفصل الرابع

(١)يقول اللنبى ان عددًا من موظفى الحكومة اضرب يوم ٢ ابريل غير انه فى اليوم التالى أصبح هذا الاضراب شاملاً . وفى يوم ٥ ابريل عقد اجتماع كبير فى جامع ابن طولون قرر فيه الموظفون عدم العدول عن الاضراب . F.O> 407/183 Allenby to Curzon , April 6,1919.

(٢) كان مما جاء فى هذا المنشور : « اصدر أمرى الآن إلى جميع موظفى الحكومة ومستخدميها اللذين غابوا عن مراكزهم بدون اذن ليعودوا إلى مراكزهم . . وكل موظف أو مستخدم لايعود إلى مقر شغله فى اليوم التالى لتاريخ هذا المنشور ويؤدى بعد ذلك الواجبات المطلوبة المطلوبة منه بالدقة يعد من كل وجه . مستعفيا ويحذف اسمه من كشف موظفى الحكومة مذكرات عبد الرحمن فهمى ص ٢٦٥ .

(٣) تتفق الوثائق البريطانية مع هذه الاسماء بالضبط F.O. 407/ 183 No.167 غير انها تشير فى وثيقة لاحقة إلى انضمام على حافظ رمضان للوفد .

(٤) انظر نص الاعلان فى مذكرات عبد الرحمن فهمى ص ٢٧٤ .

(٥) فالنتين شيرول الف كتابًا صدر فى لندن ١٩٢٠ تحت عنوان « المشكلة المصرية The Egyptian Problem » محمد كامل سليم : مصدر سابق

(٦) رئيس حزب الأمة السابق وعضو جميع المجالس النيابية فى عصر الاحتلال وقبله وعميد عائلة سليمان بأسيوط ومن اكبر ملاك الاراضى الزراعية فى الصعيد .

(٧) احد كبار رجال الإدارة المصرية قبل ثورة ١٩١٩ بدا شخصية عسكرية ووصل فى مناصبه إلى مدير مديرية الجيزة ووكيل الاوقاف العمومية

(٨) يصف عبد الرحمن فهمى فى مذكراته ماجرى فى هذا اليوم بانه « انقلب إلى عيد قومى عام ظهر فيه التضامن بأجلى مظاهره فقد ذهبت وفود المسلمين إلى دار بطريركية الاقباط الارثوزكس . . مهنئين اخوانهم الاقباط بعيدهم وهناك خطب الخطباء من العنصرين فاكدوًا بذلك روابط المودة والآخاء بينهم » .

(٩) للتشكيل الكامل للجنة ملنر: انظر محمد كامل سليم : مصدر سابق ص ١٤١ .

(١٠) كان طالبا بمدرسة الطب وقتذاك .

(١١) يقول اللنبى انه طلب من كل من محمود سليمان باشا وإبراهيم سعيد باشا وعبد الرحمن فهمى بك الخروج من القاهرة إلى « عزبهم » ولما رفض الاولان تم اعتقالهما يوم ٢٤ نوفمبر F.o. 407/185 No. 324.

(١٢) فتح الله بركات باشا ابن شقيقة سعد زغلول ، الناطق بلسان حزب الأمة فى مجلس شورى القوانين قبل الحرب العالمية الأولى لعب دورًا هامًا خلال الثورة فى اثارة الطلبة ، نفى إلى سيشل بعد أن رفض

الاستجابة لطلب الليني بالكف عن نشاطه السياسى . كان اخطر منافسى النحاس فى زعامة الوفد بعد وفاة زغلول ١٩٢٧ .

(١٣) يلاحظ ان غالبية كبار المشيعين كانوا من رجال الاسكندرية .

(١٤) رغم ان التقرير البريطانى عن جنازة فريد بك يتفق فى مجمله مع ماجاء فى المذكرات إلا انه يختلف فى بعض التفاصيل فيشير إلى ان الوفد أرسل من لجنته المركزية خمسة وليس اربعة . وان عدد الذين حضروا الصلاة فى مسجد سيدى إبى العباس ثمانية آلاف فيهم عدد من الأقباط وان الهتافات كانت تتردد بحياة زغلول طوال الخطب التى ألقيت F.o. 407/187 Enc . cin .43.

الفصل الخامس

مشروع ملنر وموقف الوفد

عرض « مشروع ملنر » على الأمة ـ قضية عبد الرحمن فهمى بك وزملائه ـ الاحتفال بالذكرى الثانية لعيد الجهاد الوطنى ـ اختلاف وجهات النظر بين أعضاء الوفد على أسس المفاوضة ـ عودة بعض أعضاء الوفد من باريس ـ استياء الشعب من موقف المعتدلين ـ محاولة رأب الصدع ـ نشر بيان باتحاد الكلمة ـ تصريح مستر تشرشل بأن « مصر داخل الأمبراطورية المرنة » ـ احتجاج سعد باشا على هذا التصريح ـ وصول تشرشل إلى مصر ـ الأمة تظهر سخطها ـ تأييد الأمراء لمطالب الأمة ـ عودة الأمير محمد توفيق من الخارج.

* * *

وتتابعت الأحداث السياسية بعد تأليف وزارة يوسف وهبه باشا وحضور « لجنة ملنر » وإجماع الأمة على مقاطعتها . إذ عادت هذه اللجنة إلى انجلترا واضطرّت إلى خطب ودّ الوفد المصرى والاعتراف بكيانه كهيئة ممثلة للأمة المصرية ، فأرسلت إليه فى باريس أحد أعضائها وهو مستر هورست ، يدعوه إلى مفاوضتها فى لندن فى المسألة المصرية ، فلّبى الدعوة [1] . وتمخّضت المفاوضات عن مشروع عرضه ملنر على الوفد فرفضه ثم مشروع مقابل عرضه الوفد على لجنة ملنر فرفضته ، وأخيرا توسّط عدلى يكن باشا ، وكان قد حضر من مصر إلى لندن ليكون على مقربة من المفاوضين . فعرضت اللجنة مشروعا لم يرضه سعد ، وإن كان قد وجد فيه « مزايا لا يُستهان بها » ـ على حد تعبيره ـ غير أنه رأى ألا يستأثر برفضه ، وأن يعرف فيه رأى الأمة التى وكّلته للمطالبة بحقوقها ، فأوفد أربعة من أعضاء الوفد لعرضه عليها ، هم محمد محمود باشا وعبد اللطيف المكباتى بك وأحمد لطفى السيد بك وعلى ماهر بك ، على أن ينضّم إليهم ثلاثة آخرون من أعضاء الوفد كانوا فى مصر ، وهم مصطفى النحاس بك والدكتور حافظ عفيفى والأستاذ ويصا واصف .

وقد أذاع سعد باشا على الأمة ـ فى هذه المناسبة ـ نداء دعاها فيه إلى إبداء رأيها صراحة فى المشروع الذى قدمته « لجنة ملنر » . وأبدى فى هذا النداء أنّ هذا المشروع غير واف بمطالب البلاد فلم يسعه قبوله ، لخروجه عن التوكيل الذى يحمله وأنه أظهر للجنة ملنر عدم رضاه به « غير أنه نظرا لاشتماله على مزايا لا يُستهان بها وتغيّر الظروف التى حصل

التوكيل فيها ، وعدم العلم بما يكون من الأمة بعد معرفتها بمشتملاته وقياس المسافة بينه وبين أمانيّها ، رأى إخواننا معنا ، خروجا من كل عهدة ، وحرصاً على كل فائدة ، واستبقاء لكل فرصة ، أن يبتّوا فيه رسمياً بما يقتضيه توكيلهم قبل عرضه عليكم ، أنتم نواب الأمة المسئولين وأصحاب الرأى فيها ، وبناء عليه اتفقنا مع لورد ملنر على تأجيل القرار النهائى إلى ما بعد هذا الاستئناس » .

ووصل الأعضاء الأربعة إلى مصر فى سبتمبر سنة ١٩٢٠ وانضم إليهم الثلاثة الآخرون وعرضوا المشروع على طبقات الأمة ـ طبقة طبقة ـ فى اجتماعات كانت تُعقد فى منزل محمود سليمان باشا . فأجمع الكل على ضرورة إدماج بعض « التحفّظات » فيه . الأمر الذى ارتضاه سعد باشا ووافق رأيه . وكان انتصارا له على رأى بعض أعضاء الوفد ممن كانوا يرون فى مشروع لجنة ملنر ما يحقق مطالب البلاد .

وعاد أعضاء الوفد الأربعة ومعهم الأعضاء الذين انضمّوا إليهم إلى باريس فودّعوا باحتفال باهر فى ميناء الإسكندرية يوم ١٥ أكتوبر . ثم استؤنفت المفاوضات مع « لجنة ملنر » فتمسّك سعد باشا « بالتحفظات » لأنها رأى الأمة ، ولكن اللجنة لم تقبلها . فقُطعت المفاوضات وعاد سعد باشا من لندن إلى باريس .

وكانت لجنة الوفد قد رأت ـ قبل سفر أعضاء الوفد ـ أن تقيم احتفالا لهم حتى تتاح الفرصة للاجتماع بهم ومناقشتهم فى تفصيلات مشروع ملنر ، ثم تحدث إلىّ فى هذه الفكرة فتح الله بركات باشا فأقررته عليها واتفقت معه على أن نقيم حفلة عشاء فى فندق شبرد ، وأقيمت الحفلة فعلا فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٠ ودعوت إليها أكثر من مائتى مدعو من ذوى الرأى والمكانة فى الأمة قبلوا الدعوة وكان يتقدّمهم عبد الخالق ثروت باشا وأحمد حشمت باشا وجعفر ولى باشا وإسماعيل صدقى باشا وغيرهم .

وقد خطب فى هذه الحفلة اثنان من أعضاء الجمعية التشريعية هما محمود أبو حسين باشا والأستاذ كامل صدقى بك [٢] ، كما خطب فتح الله بركات باشا والشيخ محمد بخيت[٣] ، وألقيت كذلك كلمات أخرى .

* * *

وكان الإنجليز يعلمون أن « لجنة الوفد المركزية » هى لسان الوفد الناطق فى مصر وأنها هى التى هيمنت على حركة مقاطعة « لجنة ملنر » ، وأنها نجحت فى هذه الحركة نجاحا

دلّ على أن التشكيلات التى بثّتها فى جميع أرجاء البلاد تُعدّ من الطراز الأول من التشكيلات السياسية . ولذلك كان وجودها يتنافى مع المصالح الاستعمارية . ولمّا كانت المفاوضات تجرى بين الوفد ولجنة ملنر ، وكان الإنجليز يعلّقون أهمية كبرى على أن تنتهى بما يثبّت سيطرتهم على مصر ، فإن الأمر فى اعتبارهم أصبح يقتضى أن يستخدموا أساليبهم المعروفة . كانت المفاوضات تدور فى لندن ، وكان الإنجليز فى مصر يستخدمون هذه الأساليب إذ اعتقلوا عبد الرحمن فهمى بك سكرتير لجنة الوفد المركزية وعددا من الشبان طلاّب المدارس العالية والمحامين . ووجّهوا إليهم تهمة تأليف جمعية باسم « جمعية الانتقام » لقلب نظام الحكم ، ثم قدّموهم إلى المحاكمة أمام محكمة عسكرية عليا (٤) . وكانوا يرمون من وراء خلق هذه القضية إلى بثّ الرعب فى نفوس المفاوضين المصريين ، وبالتالى فى نفوس المصريين جميعا ليحملهم هذا على التساهل فى المفاوضات ، وقبول المشروع الإنجليزى وشلّ حركة لجنة الوفد التى لقوا منها الأمّرين فى السنتين الماضيتين .

وكان لهذا الحادث وقع كبير ، إذا اهتزت له جميع الدوائر السياسية . وكاد سعد باشا أن يقطع بسببه المفاوضة مع لجنة ملنر ، ولكّن الوفد ، ومن ورائه الأمة ، صمد لهذا الحادث صمود الجبال الراسيات . فمضت لجنة الوفد فى طريقها لا تلوى على شىء واستمسك الوفد بحقوق البلاد غير آبه بتهديد أو وعيد .

وكان لهذه القضية علاقة كبيرة بما لقيتُ ـ فيما بعد ـ من الاضطهاد والسجن والاعتقال المتكرر طوال أيام الحركة الوطنية . أمّا ما حدث بشأن هذه القضية فيمكن إجماله فى أن الأحكام العرفية كانت مفروضة على البلاد ، والرقابة شديدة على الصحف ، فلم يكن يتيسّر للناس معرفة ما يجرى وراء الجدران ، فلمّا أعتقل عبد الرحمن فهمى بك وزملاؤه لم يعرف ذلك أحد فى بادئ الأمر إلا الخاصّة . فبينما أنا فى منزلى دعانى محمود سليمان باشا رئيس لجنة الوفد المركزية إلى مقابلته وأبلغنى الحادث ، وأفهمنى أنه حدث فى الصباح أن أقبل بيكر بك مساعد الحكمدار وسليم زكى بك ـ الضابط بالقسم السياسى وقتئذ ـ على منزل عبد الرحمن فهمى بك وقبضا عليه وأخذاه إلى حيث لا يعلم أحد . ثم طلب محمود باشا أن أذهب إلى المحافظة للسؤال عن سبب الاعتقال ، فلما قابلت مصطفى صبرى بك وكيل المحافظة ـ وكنت أعرفه من قبل ـ وجدته يجهل الحادث وأسبابه ، ولا يعرف المكان الذى أرسل إليه المعتقلون .

وأخيراً عرفنا وعرف الناس كل شىء عن ظروف هذا الاعتقال . فقد ذهب الضابطان

إلى منزل عبد الرحمن بك وبعد أن اعتقلاه فتّشا المنزل حجرة حجرة . ما عدا حجرة المكتب فإن بيكر بك إمتنع عن تفتيشها وأمر بإغلاقها .

ثم أخذ عبد الرحمن بك فى سيارة إلى « ثكنات قصر النيل » ، حيث خُصّصت له غرفة مطلة على النيل فى الدور الأعلى . وأما الآخرون من أعضاء الجمعية فقد سجنوا فى سجن الاستئناف بالمحافظة ، وقرّرت السلطة الإنجليزية تقديم الجميع إلى المحاكمة العسكرية .

وكانت أخبار هذا الحادث تصل أولا بأول إلى الوفد المصرى فى باريس . وقد احتج سعد باشا على اعتقال سكرتير لجنة الوفد المركزية فى الوقت الذى تجرى فيه المفاوضات مع لجنة ملنر (٥). ولكن اعتبارات وطنية جعلته يفضّل الانتظار إلى أن يعرف نتيجة هذا الإجراء مكتفيا بالاحتجاج . واهتم فى الوقت نفسه بإظهار براءة المعتقلين مما هو منسوب إليهم . واتفق مع اثنين من كبار المحامين الإنجليز للدفاع عنهم وكان أحدهما يحمل لقب « مستشار الملك » وهو مستر « متشل أنس » . والآخر هو « الكابتن هدلى » . فحضرا إلى مصر بالطائرة فى الأسبوع الأول المحّدد لنظر القضية . وانضمّا إلى المحامين الذين عُهد إليهم بالدفاع عن المعتقلين ومنهم « مستر ديفونشير » ومصطفى النحاس بك والأستاذ كامل البنداري والأستاذ توفيق دوس والأستاذ أمين يوسف والأستاذ أمين عز العرب وغيرهم كثيرون ، ومنهم الأستاذ محمد جمال الدين المحامى الذى كان قد تخرّج حديثا ، وكان مكتب الأستاذ البنداري هو ملتقى المحامين يتردّدون عليه يوميا لبحث القضية وإعداد الدفاع ، كما كنا نتردّد عليه أيضا .

وكما اهتم الوفد بهذه القضية ، اهتمّت لجنته المركزية فى القاهرة بها أيضا . فعملت على تيسير وسائل الراحة للمحاميين اللذين قاما من انجلترا وعلى تسهيل مهمتهما الكبيرة . وقبل ذلك كنت اضطررت للسفر إلى بلدى ، فأرسل إلى محمود سليمان باشا خطابًا يقول فيه « إن الإيجارة لا تتمّ إلا بحضورك فسارع بالعودة » فحضرتُ إلى القاهرة . ولمّا قابلته طلب إلىّ أن أنوب عن لجنة الوفد فى حضور جلسات المحاكمة من بدء القضية إلى نهايتها فواظبت على القيام بهذه المهمة ، عاملاً على تأديتها على الوجه الأكمل . بحيث كنت فى نهاية كل جلسة أذهب إلى محمود باشا فى « ذهبيته » على النيل وألّخص له ما دار فيها .

وطالت أيام المحاكمة وأنا أذهب كل يوم إلى قاعة الجلسة فى دار محكمة الاستئناف ولا أنصرف إلاّ آخر الناس حتى لفت ذلك أنظار رجال البوليس ففيما أنا خارج بعد انفضاض إحدى الجلسات قبض على ضابط إنجليزى وأخذنى إلى سجن « التخشيبة » فبقيت فيه

ساعات . ثم أخذت لمقابلة اللواء « رسل » باشا حكمدار بوليس القاهرة وكان يعرفنى من قبل . فوجدت معه المرحوم محمد الشريعي باشا أحد الأعيان المعروفين ، وكان مشهورًا بصداقته للجنرال كلايتون ، مستشار الداخلية حينذاك والمسيطر على تنفيذ الأحكام العرفية .

وكنت أمام رسل باشا موضع تحقيق [٦] عن أسباب مواظبتى على حضور الجلسات واهتمامى بالقضية ، وكانت وسيلتى فى الإجابة على ما وجّه إلى من الأسئلة الصراحة التامة التى لا لفّ فيها ولا دوران . فقلت إننى مصرى قبل كل شىء ، وهؤلاء المتّهمون مصريون مثلى أعرف أنهم أبرياء فيجب أن أهتمّ بهم وبمصيرهم . ثم إننى عضو فى لجنة الوفد المركزية ، وكبير المتهمين فى القضية سكرتير هذه اللجنة ، فكيف لا أهتم به ؟ وكيف لا أواظب على حضور الجلسات ؟ وفضلاً عن ذلك فإن بعض المتّهمين من أبناء الصعيد الذين تربطنى بهم وبأسرهم صلات قوية .

وهكذا انتهى التحقيق معى . ولكن التذكرة التى تبيح لى حضور المحاكمة سُحبت منى . فعارضت فى ذلك معارضة شديدة حتى ردّت إلى بشرط أن أجلس بعيدًا عن المتهمين لكى لا أحاول الاتصال بواحد منهم . وهكذا عدت إلى حضور هذه الجلسات ، كما عدت إلى تأدية المهمة التى كلّفنى بها رئيس اللجنة .

وكان من بين شهود الإثبات فى القضية أربعة من أبناء الصعيد وكانوا طلاّبا فى الأزهر وأحدهم من « المنشاة » بمركز جرجا . واثنان من « جهينه » بمركز طهطا والرابع من مركز «أبو تيج » . وفى أثناء نظر القضية امتنع هؤلاء الأربعة عن أداء الشهادة . وعلم البوليس أنهم مختبئون بمنزل بالعباسيّة فحضرت قوة من رجال الأمن وفتّشوا المنزل تفتيشًا دقيقًا فلم يعثروا على أحد . وفى الوقت نفسه وجد البوليس أحدهم يخرج من مستوصف الدكتور محمود ماهر بك « ابن شقيق عبد الرحمن فهمى بك » [٧] وكان يقع فى شارع عماد الدين ـ بجوار دار بنك مصر الآن ـ فاستدعت المحكمة الدكتور ماهر بك ووجّهت إليه تأنيبًا شديدًا وكاد يقدم إلى المحاكمة أيضاً .

وكان نائب الأحكام فى القضية مستر « ثوربى » عبوس الوجه ، غليظ الطبع ، حتى إنه كان يستعمل القسوة والشدّة فى العبارات التى يوجّهها إلى المتهمين أو المحامين . وقد استعمل مع الأستاذ توفيق دوس المحامى غاية ما يتصور إنسان من الخشونة ، وأمّا المدّعى فكان مستر « مكسويل » .

ومما يُذكر أنه كان بين شهود الإثبات ، فضلاً عن الشيخ عبد الظاهر السمالوطى ـ شاهد الملك الذى يمثّل منتهى الجرأة فى الادعاء ـ زكى حنفى المغربى . وقد عمد هذا الشاهد ـ فى مبدأ الأمر ـ إلى الإنكار ، ولكنّه لم يلبث أن اتهمنى بأنّى أغريته على إنكار الشهادة ، وأنى شرعت فى تسميم شهود الإثبات بوضع السُم فى طعام لهم .

وقد كان تفتيش منزلى سببًا فى لفت أنظار السلطة العسكرية الإنجليزية إلّى ، كما كان ذلك فاتحة اختلافات زكى المغربى فى اتهامى واتهام غيرى من الأبرياء . فإن هذا المخلوق لم يلبث غير قليل ، حتى كان شاهد « الملك » فى قضية أعتقلتُ بسببها شهورًا عديدة فى ثكنة « قصر النيل وسجن الأجانب، وسجن الاستئناف » وسجن « قره ميدان » ، بادعائه بأننى أعطيت المتهمين نقودًا وسلاحًا قتلوا به الإنجليز مما سيأتى بيانه . وفى هذه القضية أعدم من أعدم « كخليل مظهر » وأمثاله ممن ذهبت دماؤهم فداء للوطن وصعدت أرواحهم إلى ربّها تشكو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، وسُجن من سُجن كالأستاذ «الشافعى البنا» الذى حُكم عليه بالإعدام ثم استبدلت به الأشغال الشاقة المؤبدة فقاسى من العذاب ألوانا ، ومن التنكيل الشىء الكثير . وقد رفض بإباء وكرم أن يشهد ضدى ، وكذلك فعل زميله « محمد بدر » .

وقد انتهت قضية عبد الرحمن بك يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٢٠ ، ثم أعلنت الأحكام فيها بعد ذلك . وقد حُكم ببراءة خمسة هم الشيخ عبد المعطى الحجّاجى والأستاذ قرياقص ميخائيل ـ الصحفى والمراغى[٨] المشهور ـ وناشد أفندى غبريال وكيل دائرة الشريعى باشا ومنير أفندى جرجس عبد الشهيد وأنيس أفندى سليمان الموظف بالسكة الحديد . أما الآخرون فقد حُكم على بعضهم بالإعدام وهم عبد الرحمن فهمى ومحمد حسن البشبيشى وحامد المليجى وعلى هنداوى ومحمود عبد السلام ومحمد لطفى المسلّمى ومحمد يوسف ، وعلى البعض الآخر بالسجن مددًا متفاوتة وهم الأساتذة إبراهيم عبد الهادى وتوفيق صليب وكامل جرجس عبد الشهيد وحسنى الشنتناوى ومحمد عبد الرحمن الجديلى وعبد الحليم عابدين وياقوت عبد النبى ومحمد إبراهيم سليمان ومحمد على الجبّار وعازر غبريال ومحمد المصيلحى وصالح حسن شلبى ومحمد سامى وعبد العزيز حسن هندى وحافظ عواد . ولكن حكم الإعدام أستبدل بالسجن ١٥ سنة .

ومما يُذكر أن جريدة « الأخبار » ، التى كان يصدرها أمين الرافعى بك ، عُنيت بنشر أنباء هذه القضية ، وكان مندوبها فيها هو الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى . فلم يكن

يترك كبيرة ولا صغيرة مما يدور فى الجلسة إلا دوّنها . وكان الجمهور ينتظر الجريدة بفارغ الصبر ويُقبل عليها إقبالاً لم يكن له مثيل ، مما كان له أكبر الأثر فى إذكاء روح المقاومة .

* * *

سافر أعضاء الوفد المصرى الذين عرضوا « مشروع ملنر » على البلاد ، عائدين إلى باريس فى أكتوبر سنة ١٩٢٠ لعرض نتيجة هذه المهمة على سعد . وقد ودّعوا وداعًا وطنيًا حافلاً فى الإسكندرية كما أسلفنا . وخرج أعضاء لجان الوفد وكثير من المودّعين معهم إلى عرض البحر . وأذكر من بينهم فتح الله بركات باشا وإسماعيل صدقى باشا .

ثم استؤنفت المفاوضات بين الوفد « ولجنة ملنر » كما تقدم وانتهت إلى رفض المشروع مادام لم يقترن « بالتحفّظات » التى طلبت الأمة إدماجها فيه . ثم قُطعت المفاوضات على إثر ذلك . وعاد سعد باشا وزملاؤه إلى باريس مرة أخرى .

وحدث بعد ذلك أن تلقت جريدة « الأخبار » من الأستاذ محمد نجيب ، مكاتبها فى لندن ، تلغرافًا يؤخذ منه أن خلافًا فى وجهات نظر المفاوضين المصريين دبّ بين سعد وعدلى ، وأن بعض أعضاء الوفد يؤيدون عدلى . فسعى بعض ذوى النفوذ فى لجنة الوفد المركزية حتى لا يُنشر هذا التلغراف إشفاقًا على الوحدة ، وأملا فى زوال هذا الخلاف . فنجح فى مسعاه وبقى الأمر مكتومًا إلى حين .

وحان حينئذ موعد الاحتفال بالذكرى الثانية ليوم ١٣ نوفمبر الذى سمّى « بعيد الجهاد الوطنى » فألفت لجنة كبيرة برياسة محمود سليمان باشا وعضوية عبد الخالق ثروت باشا ومحمد شكرى باشا وفتح الله بركات باشا وعبد الحليم العلايلى بك وإسماعيل صدقى باشا والأستاذ كامل البندارى ومنّى . وكنّا ـ كلجنة تنفيذية للجنة الاحتفال ـ نجتمع فى مكتب الأستاذ البندارى . وطلبت اللجنة إلى الحكومة ـ وكان رئيس الوزراء وقتئذ نسيم باشا الذى تولّى الوزارة إثر استقالة وزارة يوسف وهبه باشا فى ١٩ مايو سنة ١٩٢٠ ـ أن يُقام الاحتفال فى حديقة الأزبكية حتى يظهر شعبيًا بمعنى الكلمة ، وأرسلنا تلغرافًا إلى نسيم باشا موقّعًا عليه من جميع الأعضاء . إلا أن هذا الطلب رفض . فوجدت اللجنة أن أحسن مكان يمكن أن يقام فيه الاحتفال هو فندق شبرد[٩] .

وقد أقيمت الحفلة فعلاً فى هذا الفندق يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٠ وتزعّمها الأمير يوسف كمال ، وألقى فيها خطبة فيّاضة بلغة عربية فصحى أدهشت الحاضرين . وأعقبه

حسين رشدى باشا ، ثم فضيلة الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية الأسبق .

وخُتمت كلمات الخطباء بكلمة من فتح الله بركات باشا ، ولم يفته أن يشيد بجهاد سعد ، يقول فى صراحة تامة إنه « الوكيل المفوّض من الأمة وإنه زعيمها الأوحد الذى هو موضع ثقتها » .

وكانت هذه الحفلة من أروع الحفلات التى أقيمت لإحياء هذا العيد الوطنى العظيم . ولم تقم قبلها لهذا اليوم إلا حفلة واحدة فى منزل محمود سليمان باشا سنة ١٩١٩ .

ومما يذكر ، أننا عند خروجنا من الاحتفال سمعنا أنه قُتل إنجليزى اسمه مستر «نايت» فى شبرا[١٠] . وقد اتهمنى بالتحريض على قتله شاهد الملك زكى حنفى المغربى كما سيجىء فيما بعد .

وحدث بعد ذلك أن ورد تلغراف إلى محمود سليمان باشا من بعض أعضاء الوفد الموجودين فى باريس وهم حمد الباسل باشا وعبد العزيز فهمى بك ولطفى السيد بك ومحمد على بك بأنهم برحوا مرسيليا فى يوم ٢٠ يناير سنة ١٩٢١ على الباخرة « سفنكس » ، وأن زميلهم الأستاذ عبد اللطيف المكبّاتى عائد بطريق إيطاليا . وقالوا فى تلغرافهم إنهم «عائدون للعمل فى مصلحة مهمة الوفد فى أوروبا » . وبهذه العودة لم يبق من أعضاء الوفد مع سعد باشا فى باريس سوى على ماهر بك والأستاذ واصف بطرس غالى وسينوت حنا بك .

فاجتمعت لجنة الوفد المركزية على إثر وصول هذا التلغراف وقررت استقبال الأعضاء العائدين فى ميناء الإسكندرية ، وندبت لهذا الغرض لجنة كنت أحد أعضائها ، وكان من بين أعضائها فتح الله بركات باشا وأحمد بك الشيخ وإبراهيم بك الطاهرى والدكتور محجوب ثابت وعلى بك محمود سليمان والأستاذ عبد الحميد إبراهيم صالح والأستاذ عبد الجليل أبو سمره وأمين إسماعيل بك .

كما ندبت نقابة المحامين لهذا الغرض مرقص حنا بك نقيب المحامين والأستاذ محمد كامل حسين وكيل النقابة ومحمد أبو شادى بك وإبراهيم الهلباوى بك وأحمد مصطفى بك . وكان قد ورد قبل وصول العائدين إلى مصر تلغرافان من فرنسا يؤخذ منهما أنهم اتفقوا على العودة إلى مصر ليعاونوا عدلى باشا فى خطّته » وقبل وصولهم بيوم واحد أرسل سعد باشا إلى أمين الرافعى بك مدير جريدة الأخبار تلغرافًا أثبته بنصه نظرًا لأهميته فيما استتبع

ذلك من حوادث . قال سعد باشا فى برقيته :

« لمّا أبت لجنة ملنر أن تبحث معنا « التحفظّات » التى أبدتها الأمة فى مشروعها . وأشارت إلى إمكان بحثها فى المفاوضة الرسمية التى تكون على أساس هذا المشروع ، صرّحنا لها أنه لا يمكن لنا ولا لأى إنسان يكون للأمة أقل ثقة فيه ، أن يدخل فى هذه المفاوضة على أساس هذا المشروع ، قبل تعديله بالتحفّظات المذكورة » .

« وقد استحسنت الأمة هذه الخطّة وأقرتنا عليها . وجدّدت بنا ثقتها ، كما جدّدنا العهد بالمثابرة عليها . غير أن فكرة نبتت الآن فى بعض النفوس ترمى إلى أن الوفد مع تمسّكه بهذه الخطة فى خاصة نفسه لا يمنع الغير من الدخول فى المفاوضة على خلاف هذا الشرط . بل يلزمه أن يؤيده ويعلن ثقته فيه متى كان من أصدقائه . وهى فكرة أقل ما فيها أنها غير مفهومة ، ولا قابلة للفهم . ولا يرتب على العمل بها إلا إفساد خطة الوفد نفسه لأن تقييد المشروع بالتحفظات قبل الدخول فى « المفاوضات » إما أن يكون فى اشتراطه مصلحة أولاً . فإن كان فيه مصلحة فلا يصح تأييد من يخالفه ، وإن لم يكن فيه مصلحة فلا معنى لاشتراطه . كما لا معنى لأن يؤيد الوفد عملاً منع نفسه منه سوى أنه يسعى لتأييد خطة منافسة لخطّته . وأن يتحمل مسئولية أمام الأمة عن عمل لا دخل له فيه ولا هو متفق مع مبادئه » .

« لهذا أظهرتُ لجميع أبناء وطنى ، أننى لا أوافق على هذه الفكرة أصلاً وأحذّرهم منها ومن تصديق أى قول لم يصدر منى بقبولها . أو بتعديل الخطّة التى كررت بيانها للأمة . وهى أنى لا أدخل فى مفاوضة على أساس مشروع ملنر قبل تعديله « بالتحفظات » . ولا أؤيد من يدخل بدون هذا الشرط مهما كانت علاقته بشخصى ، ومهما كانت ثقتى به » .

« وأملى فى وطنية كل مصرى أن يفهم المركز الدقيق الذى نحن فيه وأن يحافظ على « الاتحاد » الذى هو أساس قوتنا . والمُعوّل عليه فى نجاح قضيتنا . ورجائى فى الله قوىّ فى أنه ما دام هذا الاتحاد متينًا فلا بد أن نصل إلى تحقيق الآمال » .

ولمّا نشر هذا التلغراف فى الصحف أحدث دويًّا كبيرًا فى نفوس أفراد الشعب لما أدركوه من أن الأعضاء العائدين يخالفون سعد باشا فى الخطّة التى رسمها لمفاوضة الإنجليز . ولذلك لم يكن مستغرباً أن يُقابل هؤلاء الأعضاء بفتور[11] . وأذكر فى هذا الصدد ، أنه لما وصلت الباخرة التى قدموا عليها صعدنا إليهم لتهنئتهم بسلامة الوصول . فلما حّييناهم قال عبد العزيز فهمى بك لفتح الله بركات باشا الذى كان يتقدمنا « الحمد لله خلصنا من خالك . . الحمد لله وصلنا لبّر السلامة وبعدنا عن وجه خالك » . فابتسم فتح الله باشا ابتسامة لها معنى وقال له « مهلاً يابك . هذى أعصابك » . . .

وقد اجتمع الناس على أعضاء الوفد العائدين ، فى الميناء وفى المحطات التى مرّ بها القطار الذى أقلّهم ، يستوضحونهم موقفهم من سعد باشا . ويعلنون فى وجوهم تأييدهم للخطّة التى أعلنها . لأنها هى التى أعربت الأمة عنها حين عُرض عليها « مشروع ملنر » بإصرارها على ضرورة إدماج « التحفظات » فيه ، فاضطّر لطفى السيد بك وعبد العزيز فهمى بك إلى الخطابة بفندق « سافوى » بالإسكندرية فى الجمهور الساخط ، ولكن هذا لم يجد فى تخفيف سخطه .

وأذكر أننا فى عودتنا وعند وقوف القطار فى محطة طنطا ، وقف عدد كبير من طلبة المعهد الدينى بها ، أمام الأعضاء العائدين . وألقى أحد الطلبة كلمة كان فيها شىء من العنف ، وشىء من التهديد للأعضاء المخالفين كما كان فيها كثير من التأييد لسعد .

ولمّا وصل القطار إلى القاهرة اضطّر الأعضاء إلى الخروج من الباب الخلفى حتى لا يواجهوا الجمهور الغاضب لموقف « الاعتدال » الذى يقفونه . ولكن وفودًا عديدة قصدت إليهم فى دورهم تستفسر منهم عن رأيهم وتطلب منهم مؤازرة سعد باشا فيما رآه . فأفضى حمد الباسل باشا ومحمد محمود باشا ومحمد على بك بتصريحات حاولوا فيها طمأنة الشعب . على أنى أذكر تسجيلاً للتاريخ ، أن حمد باشا كان بالغ الصراحة فى ردوده على ما كان يوجّه إليه من إستفسارات .

إلاّ أن هذه التصريحات التى قصد بها تهدئة الخواطر لم تبلغ الغاية المقصودة منها . وبقى قلق الأمة مستبدًا بها . فاضطرّ الأعضاء العائدون إلى اصدار بيان قالوا فيه أنهم «متمسّكون إلى النهاية بإلغاء الحماية إلغاء صريحًا ، وبجميع « تحفظات » الأمة التى اتخذها الوفد شرطًا أساسيًا لدخوله فى المفاوضات .

وبعد ذلك اجتمع أعضاء الوفد الموجودون فى مصر وأصدروا فى ٢٩ يناير سنة ١٩٢١ بيانًا جاء فيه أنه :

« نظرًا لما لوحظ من أن البعض أراد أن يفسّر قدوم الأعضاء الذين حضروا أخيرًا من أوروبا تفسيرًا لا يتفق مع الواقع . رأينا أن نصرّح بأن الوفد بأجمعه وعلى رأسه رئيسنا الجليل سعد زغلول باشا على أتم وفاق وأكمل اتحاد . وأنه ثابت كل الثبات ، ومتشدد كل التشدد فى التّمسك بما قرّره من أنه لا يدخل المفاوضات الرسمية إلا إذا قبلت « التحفظّات » التى طلبتها الأمة . وفى أولها النص على إلغاء الحماية لتكون من القواعد الأساسية التى تبنى عليها المفاوضات . وأنه لا يؤيد أى هيئة أخرى تتقدم للمفاوضات الرسمية إلا إذا كانت متفقة معه على المبدأ والخطّة . على أننا نتتهز هذه المناسبة لنصرح بأن المصلحة تقضى فى هذه الظروف الدقيقة بالكف عن المناظرات والأبحاث الفرضية . لأن هذه الأبحاث مع كونها لم يُملها على كل من المتناظرين إلا حبّ مصلحة البلاد ، فقد اتخذت فى الخارج علامة من علامات تفرّق الكلمة وشتات الميول . ولا يخفى على أحد أن الخطوات التى خطتها المسألة المصرية ليس لها عامل آخر غير قوة الاتحاد فى الرأى والثقة بالنفس فى الوصول إلى الغاية. ويسرّنا أن نسجّل أن فرصة قدوم الأعضاء كانت مظهرًا جديدًا من مظاهر الأمة وثقتها بوفدها والتفافها حوله . وبرهانًا جديدًا على فساد ما أذاعته بعض الصحف فى الخارج عن انصراف الأمة عن الاشتغال بتحقيق أمانيها إلى ما دونه» .

« ندعو الله أن يكلأ مصر بعين عنايته ويسدد خطى كل عامل للاستقلال التام» .

وقد وقّعه محمد محمود باشا ، وحمد الباسل باشا ، وعبد العزيز فهمى بك ، وأحمد لطفى السيد بك ، ومحمد على بك ، وعبد الخالق مدكور باشا ، وجورج خياط بك ، وحافظ عفيفى بك ، والأستاذ ويصا واصف ، كما وقّعه مصطفى النحاس بك بصفته سكرتيرًا للوفد .

ولاشكّ أن هذه الحوادث والبيانات المتقدمة كانت تُشعر بأن أعضاء الوفد . العائدين اضطروا ـ أو بعبارة أخرى اضطّرهم الرأى العام ـ إلى يعلنوا تضامنهم مع سعد باشا فى

خطّته وتأييدهم له فى منهجه ، وقد كان الكثيرون يشعرون ، بل يلمسون أن عددًا ممن وقّعوا البيان المتقدم إنما وقعوه تورّطًا ، أو حذرًا من أن ترميهم الأمة بأنهم دعاة فرقة وتردد . والواقع أن كلمة الفرقة فى ذلك الوقت كانت كلمة ينفر منها الشعور الوطنى كل النفور ، وقد بلغ من تأججه أنه كان يرمى بالخيانة كل من يحاول الخروج على الإجماع فقد نجحت الأمة فى حركتها الوطنية بفضل وحدتها واتحاد كلمتها وسيرها صفًا واحدًا وراء قادتها .

ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إن الأمة كانت تحسّ بأن وراء الأفق غيماً ، وتشعر فى الوقت ذاته بأن عليها أن تقول كلمتها صريحة مدوّية ، فبينما كانت المحاولات تجرى فى مصر لجمع الكلمة ، وبينما كانت دوائر الوفد ولجنته فى القاهرة تشتغل بتلك المحاولات التى نجحت إلى حين ، كانت طبقات الأمة تعرب عن رأيها الصريح القاطع بالانحياز إلى جانب سعد باشا ، مؤيدة خطّته ، مقرّة برنامجه . يدل على ذلك هذا السيل المنهمر من التلغرافات التى تلقاها سعد باشا فى باريس من جميع أنحاء مصر بالتأييد ، والدعاء له بالتوفيق .

وفى هذه الأثناء إجتمعنا ـ نحن أعضاء لجنة الوفد ـ فى « بيت الأمة » برياسة محمود سليمان باشا . وحضر الاجتماع أعضاء الوفد وتقرر إرسال تلغراف إلى سعد باشا بإعلان الثقة الإجتماعية به والسرور « بالتفاف الأمة حول رئيس وفدها المحبوب وإغتباطها بما أعلنه حضرات الأعضاء العائدين من أنهم متفقون معكم كل الاتفاق فى المبدأ والخطّة » .

وقد أرسل سعد باشا إلى محمود سليمان باشا تلغرافا أعرب فيه عن « تقديره لما تقرر من بيان الخطّة التى أملاها علىّ ضميرى والمصلحة المقدسة لوطننا العزيز » . ثم جدّد العهد على « التّمسك إلى النهاية بتلك المبادئ التى كانت لنا دائماً نبراسا سأهتدى به فى جميع خطواتنا » .

كما أرسل سعد باشا إلى مصطفى النحاس بك سكرتير الوفد تلغرافًا طلب فيه تبليغ شكره للأمة « لمظاهر إعلان الثقة التى أعربت عنها من جديد » ثم أكّد أنه « مهما كانت الأحوال فإنّا سنحتفظ بالأمانة التى عُهدت إلينا سليمة من كل أذى يمسّها» .

* * *

وكان مستر « تشرشل » الوزير البريطانى المعروف ، الذى خلف « لورد ملنر » فى وزارة المستعمرات ، قد أدلى بتصريح فى فبراير سنة ١٩٢١ قال فيه « إن مصر داخل الإمبراطورية

المرنة »[11] . وقد احتجّ سعد باشا وهو فى باريس على هذا التصريح . كما احتجّت عليه لجنة الوفد المركزية . وفى شهر مارس أشيع أنه قادم إلى مصر لزيارتها وزيارة فلسطين وتحققت هذه الإشاعة بوصوله إلى مصر فعلاً فى ١٠ مارس . فهيأت لجنة الوفد الناس لمقابلته مقابلة تشعره بأن مصر ليست فى دائرة الإمبراطورية ، وأنها لا تبغى إلا الاستقلال التام . وفى يوم وصوله ذهبنا على رأس الآلاف من الجماهير إلى المحطّة لإظهار هذا الشعور وأحسّ رجال السلطة بهذه المظاهرة فصدرت الأوامر بوقف القطار فى محطة شبرا ونزل مستر تشرشل وقرينته خفية وقصدا بالسيارة إلى فندق « سميراميس » ، اتقاء ثورة الشعب وسخطه[13] .

كما أذكر أن جريدة التيمس الإنجليزية كانت قد نشرت ـ وقتذاك ـ تصريحًا للأمير إبراهيم حلمى إستنكره المصريون جميعًا وقد انضّم إليهم الأمراء فى هذا الاستنكار . وأذاعوا على الأمة بيانًا نشر فى ٢١مارس ١٩٢١ قالوا فيه إنهم مع الأمة فى أمانيّها ، وأنهم يستنكرون هذا التصريح .

وقد وقّع هذا البيان من الأمراء كمال الدين حسين وعمر طوسون ويوسف كمال وعزيز حسن وإسماعيل داود وعباس حليم .

وفى يوم ٢٧ مارس وصل إلى مصر الأمير محمد على توفيق ، شقيق الخديو السابق عباس حلمى . بعد أن غاب عنها بضع سنين منذ خلع شقيقه فى ديسمبر سنة ١٩١٤ . وقد استقبل استقبالاً حافلاً ، ووصل إلى القاهرة ومعه الأمير يوسف كمال الذى كان قد استقبله فى الإسكندرية .

هوامش الفصل الخامس

(١) تمت دعوة زغلول فى لقاء حضرة كل من عدلى باشا والمستر هرست والمستر وولرز عصر يوم ١٢ مايو ١٩٢٠.

نص اللقاء مذكرات سعد كراسة ٣٦ ص ١٩٧٨ - ١٩٩٢.

نص المشروع فى قانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٣٦ ص ٢٥٤ - ٢٦٢.

(٢) كامل صدقى باشا محامى قبطى انتخب لتسع مرات وكيلاً لنقابة المحامين ، مثل مصر فى المؤتمر البرلمانى الدولى عامى ١٩٢٨ ، ١٩٣٠ عضو فى المجلس المحلى لعشرين عاما متتالية ، اختير عضوا فى الوفد عام ١٩٣٢ ووكيلاً لمجلس النواب ١٩٣٦ ثم نقيبا للمحامين فى نفس العام خلفا لمكرم عبيد، ووزيرا للتجارة والصناعة (١٩٤٢) ثم وزيرا للمالية (١٩٤٢ - ١٩٤٣)

(٣) الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية وقد اشتهر بفتواه التى اصدرها فى ٢٤ يوليو ١٩١٩ بتحريم « البلشفية » .

(٤) تم القبض على عبد الرحمن فهمى فى أول يوليو ١٩٢٠ .

(٥) التقى سعد زغلول مع ملنر يوم ٣ يوليو واحتج على القبض على عبد الرحمن فهمى اشد الاحتجاج (مذكرات سعد كراسة ٣٦ ص ٢٠٤٥) كما أرسل الوفد احتجاجا على التصرفات التى حصلت فى قضية عبد الرحمن فهمى .

نص الاحتجاج نفس الكراسة ص ٢٠٥٢ وبالفرنسية F.o. 407 / 184 No

(٦) كوماسى وينتوريث رسل باشا حكمدار بوليس القاهرة ١٩١٨ - ١٩٤٦ .

(٧) وشقيق كل من على ماهر والدكتور أحمد ماهر .

(٨) أى من المراغة فى الصعيد بمحافظة سوهاج .

(٩) يقول الفيلد مارشال اللنبى عن هذا الاحتفال إنه عقد بحضرة فى شبرا بيتى بحضور ٤٤ من الشخصيات الوفدية الهامة . وان النيّة كانت متجهة لعقد الاحتفال فى حديقة الازبكية غير ان السلطات رفضت ذلك .F..o. 407/187 Fnc. in No. 390

(١٠) الكابتن نيت Knight ضابط بالسكك الحديدية اطلق عليه عامل النيران فى شبرا وفر هاربا فى الساعة الثامنة من مساء يوم ١٣ نوفمبر ١٩٢٠ . F.o. 407/ 187 No. 342

(١١) حول الملابسات التى ادت إلى عودة هؤلاء : انظر محمد كامل سليم : « ازمة الوفد الكبرى سعد زغلول وعدلى » ص ١١ - ص ١٢٤ .

تقول التقارير البريطانية إنه لم يكن فى انتظارهم على رصيف الميناء فى الاسكندرية أكثر من مائتى شخص - F.o. 407/88 Fnc 8 in No. 89.

(١٢) القى الخطبة فى حفل غذاء فى دار اللورد Reading يوم ١٢ فبراير ١٩٢١ .

(١٢) تعترف الوثائق البريطانية ان احتشاد المصريين فى محطة السكك الحديدية بالقاهرة تم على طول الطريق بين المحطة وفندق « سميراميس » الذى كان مزمعًا ان ينزل به تشرشل قد دفع سلطات الأمن إلى انزاله فى محطة شبرا F.o. 407/188 No. 125

الفصـــل الســـادس

عـودة سعـد

استقالة وزارة محمد توفيق نسيم باشا فى ١٥ مارس سنة ١٩٢١ ـ السلطان يعهد إلى عدلى باشا يكن بتأليف الوزارة ـ برنامج الوزارة الجديد ـ ترحيب الأمة بها وإطلاق اسم « وزارة الثقة » عليها ـ سعد باشا يقرر العودة إلى مصر ـ تأليف لجنة لاستقباله ـ وصوله الإسكندرية فى ٤ أبريل ـ مصر تخرج لتهنئته بسلامة العودة ـ دخوله القاهرة فى ٥ أبريل سنة ١٩٢١ دخول الفاتحين ـ زيارة سعد باشا باشا لقبور الشهداء ـ الأمة بمختلف هيئاتها تحتفل بعودته وتؤكد له الثقة بزعامته .

* * *

كانت الوزارة القائمة فى الحكم وقتئذ هى وزارة محمد توفيق نسيم باشا : فلمّا عاد بعض أعضاء الوفد إلى مصر ، وعاد كذلك عدلى يكن باشا وكان قد حضر المفاوضات التى دارت بين الوفد المصرى « ولجنة ملنر » فى لندن إنتهت بإصرار الوفد المصرى على إدماج «التحفظات » فى مشروع الاتفاق ، جرت مقابلات وأحاديث بين ذوى الشأن فى القصر السلطانى ودار الحماية البريطانية ، لاستئناف هذه المفاوضات بصفة رسمية . وانتهت هذه المقابلات والأحاديث بأن عُهد إلى عدلى باشا بتأليف وزارة جديدة تضطلع بهذه المهمة بالاشتراك مع الوفد المصرى الذى صدر له توكيل من الأمة ، للتكلّم باسمها .

وعلى أثر ذلك قدمّت وزارة توفيق نسيم باشا استقالتها . أما كيف أوعز إليها بتقديمها ، فإن السكرتير الشرقى فى دار المندوب السامى أقام مأدبة دعا إليها نسيم باشا وآخرين وجرت فيها أحاديث انتهت باعتزام الوزارة الاستقالة لتفسح المجال للنظام الجديد ، فاستقالت الوزارة يوم الثلاثاء ١٥ مارس سنة ١٩٢١ [١]

وقد أشيع وقتذاك أن أحمد مظلوم باشا رئيس الجمعية التشريعية سيؤلف وزارة ائتلافية فيها رشدى باشا وعدلى باشا ولكن تأليفها تعذّر ، لأنه لم يكن متفقاً عليه بين مختلف السلطات [٢] . واتجهت الأنظار إلى عدلى باشا لأنه كان مرتبطًا بأعضاء الوفد المخالفين لسعد باشا ، والذين أطلق عليهم اسم « المعتدلين » .

وألّف عدلى باشا الوزارة فعلاً فى ١٦ مارس واشترك معه فيها رشدى باشا نائب رئيس ، وعبد الخالق ثروت باشا وزيرًا للداخلية ، وإسماعيل صدقى باشا وزيرًا للمالية . ولم يختر

من أعضاء الوزارة السابقة إلا محمد شفيق باشا وزير الأشغال وكان غائبا حينئذ فى السودان فخابره تلغرافيًا لينضم إلى الوزارة فقبل .

وحرص عدلى باشا فى برنامج وزارته الذى قدمه إلى السلطان فؤاد على أن يذكر « أن الوزارة ستجعل نُصب عينيها فى المهمة السياسية التى ستقوم بها لتحديد العلاقات الجديدة بين بريطانيا وبين مصر ، الوصول إلى اتفاق لا يجعل محلاً للشك فى استقلال مصر . وستجرى فى هذه المهمة متشبعة بما تتشوق إليه البلاد ، ومسترشدة بما رسمته إرادة الأمة وستدعو « الوفد المصرى » الذى يرأسه سعد زغلول باشا إلى الاشتراك فى العمل لتحقيق هذا الغرض » .

وقد قابلتْ الأمة برنامج هذه الوزارة بالاغتباط ، واستقبلت تأليفها بمظاهر الترحيب الكبير وأطلقت عليها اسم « وزارة الثقة » .

وكان أول عمل عمله عدلى باشا بعد تأليف الوزارة أن أرسل إلى سعد باشا تلغرافًا يخبره فيه بتأليفها ، ويسأل عن رأيه فى المفاوضات ، فكان رد سعد باشا أنه قادم إلى مصر [٣].

* * *

وما أن ذاع نبأ هذه العودة فى أنحاء البلاد حتى إهتزّت له أركانها ، ابتهاجًا بعودة الزعيم الذى رفع صوت بلاده ولم يرهب أكبر قوة فى العالم . بل خاطر بروحه و« وضع رأسه على كفّه » كما قال هو عن نفسه . وقد جرت الاستعدادت على قدم وساق لاستقباله ذلك الاستقبال الخالد الذى سُجّل فى تاريخ مصر حدثًا من أروع الأحداث الوطنية فى تواريخ الأمم ، فقد دخل سعد باشا مصر دخول الفاتحين ! . . ولا عجب فإنه ملك القلوب واتجهت إليه الأبصار والبصائر ، وامتلأت بحبه الأحاسيس والمشاعر ، والتفت حوله الملايين تمنحه التأييد والثقة وتقتضيه ثمنها تضحية غالية وجهادًا متتابعًا . والحق أنه ما قصّر يومًا فى أداء ذلك الثمن منذ خروجه من معتقل مالطة إلى يوم تأليف الوزارة العدلية ، فلم يعش إلا ليعمل لمصر . ولعل أهم ما يطالعنا فى هذه الفترة هو ما كسبته مصر من خروج « القضية المصرية » من الحيز الضيق الذى أراده لها الإنجليز ، إلى المعترك الدولى الفسيح الذى نقلها إليه سعد . ومن إبرازه « القومية المصرية » مستقلة بكيانها ، واضحة بمعالمها ، بعد سقوط السيادة العثمانية بهزيمة تركيا فى الحرب العالمية . ففى الدوائر السياسية فى باريس ـ عاصمة العالم السياسى وقتئذ ـ وفى غيرها من العواصم الكبرى ،

وعلى مقربة من أعضاء مؤتمر السلام ، كان صوت « مصر » يرتفع عاليًا بطلب الحرية والاستقلال وإعلان بطلان الحماية البريطانية عليها . وفى أمريكا أيضًا كان هذا الصوت يدوّى فيسمع « العالم الجديد » مطالب أبناء وادى النيل [٤] ، ورغبتهم فى أن يقروا مصيرهم السياسى بأنفسهم .

ولا ينبغى أن ننسى أن الإنجليز ، رغبة منهم فى تثبيت أقدامهم فى مصر ، كانوا قد استقبلوا الوفد فى باريس بهذا التصريح المشؤوم الذى إستصدروه من مستر « ويلسون » رئيس الجمهورية الأمريكية ، وصاحب المبادئ الأربعة عشر المشهورة بالاعتراف بالحماية التى ضربوها على مصر سنة ١٩١٤ . ثم لم يلبثوا أن ضمّنوا مبادئ « معاهدة الصلح » مع ألمانيا الاعتراف بهذه الحماية [٥] . فكان جهاد سعد وزملائه فى باريس الشعلة التى بددت هذا الظلام . فلم يلبث المستعمرون أن تراجعوا مرغمين عن سياستهم ، ومدّوا أيديهم للزعيم الذى حاربوه فنفوه إلى مالطة . واضطّروا مكرهين بعد فشل لجنة ملنر إلى الاتصال بالشعب المصرى عن طريق ممثليه الحقيقيين ، لا عن طريق حكومة كانوا يفرضونها هم أنفسهم عليه فرضًا . وليس هذا فقط ، بل لقد اضطر الإنجليز لأن يعلنوا صراحة أن «نظام الحماية على مصر لا يُكوّن علاقة مرضية » . قالوا هذا فى تبليغ وجّهه « المارشال اللنبى» إلى السلطان فؤاد فى يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٢١ ، وكان مقدمة لتأليف « الوزارة العدلية » التى دعت « الوفد المصرى » للاشتراك فى المفاوضات الرسمية التى اعتزمت الدخول فيها .

يُضاف إلى هذا ، ما ثبت بالدليل الذى لا يقبل الجدل ، من أن الحركة الوطنية كانت «استقلالية » فى صميمها ، ولم تكن حركة « متعصبين » ، وأن الأجانب الذين يقيمون فى هذه البلاد من مختلف الجنسيات لمسوا ذلك ، ولذلك شاركوا المصريين أمانيّهم فى الحرية ، وعاونوهم ما استطاعوا .

هذه المعانى البارزة فى تاريخ جهاد مصر ، فى الفترة بين نفى سعد باشا إلى مالطة والإفراج عنه وذهابه إلى باريس ، ثم اعتزامه العودة أخيرًا ، هذه المعانى السامية هى التى حملت المصريين على أن يستقبلوا سعدًا هذا الاستقبال التاريخى الحافل وأن يتخذوا منه مظهرًا لأمانيّهم القومية ، حتى يشعروا العالم بأنهم ماضون فى جهادهم الوطنى لنيل الحرية الكاملة والظفر لبلادهم بالاستقلال التام .

يُضاف إلى هذا كله ، أن المصريين كانوا يعلمون أن فريقًا من أعضاء الوفد لم يكونوا متمسكين بالفكرة التى يمثلها سعد باشا فى المفاوضات . وهى تحقيق استقلال البلاد التام وعدم الاعتراف بأى سلطان للإنجليز عليها ، وإنما كانوا يقنعون بها دون ذلك ، ولذلك سُمّوا . « بالمعتدلين » . ولمّا كان الرأى العام يؤمن بالمبادئ التى يمثلها سعد باشا ويدعو إليها ، فإن روعة الاستقبال الذى استقبل به إنما كانت لتعزيز هذه الفكرة ولإقامة الدليل على أن الشعور العام يؤيدها .

من أجل هذا شرعت مصر جميعها تستعد لاستقبال زعيمها العظيم ، وسرعان ما ألفت لجنة رئيسية للاعداد لهذا الاستقبال برياسة إبراهيم سعيد باشا ، وكيل لجنة الوفد المركزية ، وكان لى شرف عضويتها مع فتح الله بركات باشا وعبد الخالق مدكور باشا وعبد الله وهبى باشا واللواء على فهمى باشا واللواء عبد الرحيم فهمى باشا وعاطف بركات بك وعلوى الجزار بك وحسنين عبد الغفار بك والأستاذ أمين عز العرب وأحمد الشيخ بك وعبد الحليم العلايلى بك وإبراهيم الطاهرى بك وطاهر اللوزى بك ومحمد يوسف بك وحمدى سيف النصر بك ومحمد أمين واصف بك وأبو بكر راتب بك وتولّى سكرتيريتها إبراهيم دسوقى أباظة .

وتفرّعت من هذه اللجنة عدة لجان تقوم كل لجنة منها بمهمة مُعينة ، وكان نصيبى من المشاركة فيه رياسة « لجنة السكك الحديدية » التى تتولى السعى لإعداد القطارات الخاصة بالاستقبال ، وتحديد مواعيد سفرها من الإسكندرية ومواعيد عودتها إلى القاهرة وكان معى فى هذه اللجنة عبد الحليم العلايلى بك والدكتور محجوب ثابت وأحمد بك الشيخ .

وكانت هناك لجنة لتنظيم « الاستقبال فى محطة مصر » . وقد ألفت برياسة اللواء على فهمى باشا ، ولجنة أخرى « لتنظيم المرور وحفظ النظام » على طول الطريق من المحطة إلى بيت الأمة . وقد ألفت برياسة اللواء عبد الرحيم فهمى باشا ، ولجنة للسرادق برياسة عبد الله وهبى باشا وعضوية أمين واصف وتوفيق اندراوس وفؤاد شرين بك وأبو بكر راتب بك .

وكان طبيعيًا ، أن تسعى اللجنة لحمل الحكومة على إعداد قطار خاص للزعيم ، يسافر فيه المسافرون لاستقباله ويعودون فيه معه . ولهذا قابلتُ الجنرال « بلاكنى » مدير السكك الحديدية إذ ذاك (٦) . ثم قابلت أحمد باشا وزير المواصلات وتحدثت إليه فى هذا

الشأن فأحالني على عدلي باشا رئيس الوزراء فأسرعت إلى مقابلته . وقد حضر المقابلة عبد الخالق ثروت باشا وزير الداخلية . فأجاب الطلب بإعداد القطار وجعله تحت تصرف اللجنة .

ولم نكتف بهذا ، بل طلبنا إعداد قطار خاص لوفود الطلبة يسافر بهم إلى الإسكندرية ويعود بهم إلى القاهرة . فأجيب هذا الطلب أيضًا .

وأذكر بهذه المناسبة أنه كان لطلبة الأزهر والمدارس الثانوية لجنة تسمى « اللجنة التنفيذية » للطلبة ، وكان من أعضائها وقتئذ حضرات حسن يس (رئيس اللجنة) والحسيني زعلوك وعبد المجيد بدر ومحمود سليمان غنام ومحمد إبراهيم وعبده نور وعبد الفتاح الحكيم والحسين إبراهيم والشيخ على درويش .

وفي يوم ٢٢ مارس ورد تلغراف من سعد باشا يتضمن أنه هو - وأعضاء الوفد المصري الموجودين في باريس - سيعودون من مرسيليا يوم السبت ٢٣ على الباخرة « كاليدونيا » ويصلون إلى بور سعيد يوم ٣٠ . فما وصل هذا النبأ حتى أبرق إليه أحمد يحيى باشا باسم أهل الإسكندرية والدكتور حسن كامل بك رئيس لجنة الوفد في طنطا وجعفر فخري بك وغيرهم يطلبون بإلحاح أن تكون عودته عن طريق الإسكندرية ، ليمر القطار بدمنهور وطنطا وغيرهما . فوصل رده إلى زعيم الإسكندرية يحيى باشا[7] بأنه وصحبه إجابة لهذه الرغبة عدلوا عن البيفو بالطريق الأول وسيسافرون من « تريستا » على الباخرة « فينا » يوم ٣١ فيصلون إلى الإسكندرية يوم ٤ أبريل .

ومما يذكر أن الأستاذ محمد سليم - السكرتير الخاص لسعد باشا - لم يعد معه عن طريق الإسكندرية ، وإنما أخبرنا سعد باشا تلغرافيًا أنه عائد عن طريق بورسعيد على نفس الباخرة التي كان مزمعًا أن يعود عليها من قبل سعد باشا وبقية أعضاء الوفد وهي الباخرة « كاليدونيا » . وعلمنا بعد ذلك الحكمة في هذا الترتيب ، إذ حضر الأستاذ كامل سليم ومعه جميع المحاضر والوثائق الخاصة بالمفاوضات والأوراق المهمة ومذكرات سعد باشا ، وقد كان هذا مما يحرص عليه سعد باشا ويخشى أن تمتد يد إليه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان وصوله قبل سعد باشا بيوم أو يومين فرصة ليحيط فيها سعد باشا تلغرافيًا باتجاهات الرأي العام في الموقف السياسي ووجهات النظر المختلفة . وقد أرسل فعلاً تلغرافًا مطولاً بهذا المعنى إلى سعد باشا تسلمه على ظهر الباخرة قبل وصوله بساعات .

ولمّا وصل سعد باشا وصحبه إلى « تريستا » وأقلعوا منها بالباخرة « فيينا » ، أرسل الأستاذ واصف بطرس غالى إلى النحاس بك سكرتير الوفد يوم ٣١ مارس التلغراف الآتى :

« يخفق العلم المصرى على السارية الكبرى للباخرة . والوقت بديع والرئيس وأصدقاؤه متمتعون بصحة جيّدة . ونهديكم سلامًا وطنيًا » .

ثم وردت الأنباء بأن سعد باشا يصل إلى الإسكندرية صباح يوم الاثنين ٤ أبريل سنة ١٩٢١ ، فأعدّ القطار الخاص . وسافرنا فيه إلى الثغر يوم الأحد ٣ أبريل ظهرًا . وكان يقل المدعوين للاستقبال وفى مقدمتهم أعضاء الوفد جميعًا ، ما عدا على شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك . كما كان يقل أعضاء لجنة الوفد المركزية ، وأعضاء لجان الاستقبال ، وأعضاء الجمعية التشريعية ، وكثيرًا غيرهم من الكبراء والعظماء .

ولمّا وصلنا الإسكندرية دهشنا للزحام الهائل الذى لمسناه بسبب الوفود التى وفدت عليها من جميع أنحاء البلاد لتحية الزعيم الأكبر والإعراب عن تقديرها لجهاده . فقد كانت شوارع المدينة تزخر بهذه الوفود حتى إن المرء لم يكن يجد مكانًا يبيت فيه أو يتناول الطعام إلا بشق النفس . واضطرّ كثيرون ممن لم يجدوا أمكنة فى الفنادق ، أو ممن لم يكن لهم أصدقاء فى المدينة ، إلى اتخاذ العربات والسيارات أماكن للنوم حتى الصباح .

وكان معروفًا أن الباخرة التى تقل الزعيم تصل فى الساعات الأولى من الصباح فبكرنا فى الذهاب إلى الميناء . فإذا به يعجّ عجيجًا بالألوف المؤلفة من الجماهير المحتشدة ، والكل متلهفون على رؤية سعد ، مترقبون بفروغ صبر ساعة لقائه .

وكان قد أعدّ لنش كبير ركب فيه أعضاء لجنة الوفد المركزية وبعض كبار المدعوين فوقف بنا فى البحر بجوار الرصيف . وأعدت لنشات أخرى ركب فيها أعضاء الوفد ومندوب من قبل الأمير محمد على توفيق وفتح الله بركات باشا وأحمد يحيى باشا ومحمد سعيد باشا رئيس الوزراء الأسبق وإبراهيم سعيد باشا ومحمد العبّانى باشا والأستاذ كامل سليم والأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى (مندوباً عن جريدة الأخبار) وأعدّ لنش آخر للسيدات ، وذهب الجميع للقاء سعد باشا بالباخرة والعودة معه .

وما أن شاهدت الجماهير المحتشدة فى الميناء الزورق الذى يقل سعدًا ، حتى إهتزت أجواز الفضاء بهتافها الذى بلغ السماء . وما كاد يصل إلى الرصيف حتى اندفعت الجماهير

تحيّيه وتحيط به فاستحالت أرصفة الميناء كتلاً بشرية متراصة . واشتد الزحام وتدافع الناس بالمناكب ، كل يريد أن يكون السابق إلى تحية الزعيم حتى لقد كاد يغمى عليه . فأسرع بعض أعضاء لجنة الاستقبال إلى شقّ طريق له إلى « ديوان الفنارات » فلم يتيّسر ذلك إلا بعد بذل مجهود كبير واستطاع سعد أن يصعد إلى هذا الديوان ليستريح قليلاً . ولم يلبث أن استعاد نشاطه فأطل من إحدى الشرفات يحيّي هذه الحماسة بكلمة شكر . فما رآه المحتشدون حتى اشتدت حماستهم وتعالى هتافهم . فرفع ـ رحمه الله ـ كلتا يديه وقال بصوت جهورى « أشكركم أشكركم » ثم هتف « ليحيا الاستقلال التام لتحيا مصر ، لتحيا الإسكندرية لتحيا بورسعيد ، ليحيا الوطن » فكان الجميع يرددون هذه الهتافات .

وأخيرًا ، وبعد عناء كبير فُتح الطريق إلى خارج الجمرك ليجتاز موكب الزعيم سبيله إلى فندق كلاريدج » . فركب سعد باشا سيارة وإلى يساره فيها أحمد يحيى باشا وخلفها سيارة أخرى ركب فيها محمد سعيد باشا . وتلتها سيارة ثالثة ركبتها مع فتح الله بركات باشا . ثم سيّارات أخرى عديدة تقل كبار المستقبلين [٨] .

ودخل سعد باشا الإسكندرية دخول الفاتحين ، فى موكب لم تقع العين على نظيره ، ولم تشهد الإسكندرية مثله فى تاريخها الطويل . ومئات الألوف من المصريين والأجانب على جانبى الطريق وفى شُرفات المنازل وفوق أسطحها يحيونه فى حماسة ، حتى وصل إلى الفندق وصعد إلى غرفته ليستريح .

وبعد قليل نزل من الباب الخلفى ومعه فتح الله بركات باشا وقصد إلى زيارة الأمير عمر طوسون . ثم عاد والجماهير تملأ ساحة الفندق والشوارع المحيطة به والموصلة إليه تهتف من أعماق القلوب لبطل الحرية والاستقلال .

وقبل غروب شمس هذا اليوم أقامت لجنة الطلبة حفلة شاى كبرى ـ تكريمًا له ـ فى فندق « ماجستيك » ، حضرها الكثيرون وفى مقدمتهم الأمير عمر طوسون . وقد ألقى فيها سعد باشا خطبة أثر عنه فيها قوله « إذا رأيتمونا خرجنا عن مبادئكم فى طلب الحرية والاستقلال فأسقطوا سعدا وأصحاب سعد » . ثم تحدث عن الحركة الوطنية ، والحوادث التى تلت اعتقاله ، ونفيه إلى جزيرة مالطة . وما جاء على لسانه ذكر الشهداء الذين استشهدوا فى هذه الحوادث حتى أغرورقت عيناه بالدموع . وقال : « إنى بكل قوة أحتجّ على قول حضرات أبنائى أنى أنا الذى فعلت هذا وحدى ، أحتج بكل قوتى . لأنى لست

وحدى بل للأمة أثر فيه » . ثم استطرد فقال : « أرى فى وسط هذه المظاهرة الحافلة أن أوجه شكرى إلى الذين اشتركوا فى تأسيس مجدنا ، وتوفير سعادتنا ، وتحقيق آمالنا . أتوجه والخشوع يملأ جوارحى إلى تلك الأرواح الطاهرة ، أرواح الأبطال الذين نادوا بالحق، والحق منكر. والخصم يرسل الموت عليهم حاصدًا فلم يهابوا الموت ، بل ماتوا وألسنتهم تردد الهتاف (وهنا أجهش بالبكاء وخنقته العبرات) ماتوا وشرفونا باحترامهم . وألزموا الكل باحترام مصر واسمها فبيضوا وجوهنا . والآن فليهنأوا فقد انبلج فجر الاستقلال مصبوغًا بدمائهم : أسكنهم الله فسيح جناته وأرضى عن أعمالنا أرواحهم ، وأراحهم بتحقيق آمالنا » .

« لله در الشبيبة وما فعلت . فالشبيبة عماد الحركة الوطنية . . . » ثم قال : « أشكر العلماء والقسس الذين أبطلوا باتحادهم فرية كانوا يتخذونها حجة . ففشلوا وإن رجال الدين فى الوطن سواء . وأشكر الأمراء الذين حملهم حب الفخر المتوارث وحب المجد الذى ورثوه عن أجدادهم أن ينزلوا إلى صفوفكم . وينضموا إلى الزارع والصناع وكل من يُخفى تحت الثياب الزرقاء نفسًا أبية وقلبًا طاهرًا » .

ثم أضاف : « الحق ، أن كل إنسان من المصريين قد قام بالواجب عليه . وكل نافس أخاه فى القيام بهذا الواجب وزاد عليه بأن حاول أن يكون ممتازًا عن أقرانه فى خدمة الوطن . فكلكم شاكر . وكلكم مشكور » . . !

وأذكر أنه كان بين الذين خطبوا فى هذه الحفلة عبد الحميد السنوسى الطالب بالحقوق . وقد ألقى قصيدة بصوت جهورى ، والطالب الشيخ بشير الشندى ـ أمين القسم العربى فى مكتبة الإسكندرية الآن ، وقد ألقى خطبة استشهد فيها بالبيت الآتى :

ملك القلوب وأنت المستقل به أبقى على الدهر من ملك ابن داود

وفى المساء أقيمت مأدبة عشاء فى فندق « كلاريدج » وقد أقامتها لجنة الوفد بالإسكندرية . وتصدرها سعد باشا ، وإلى جانبه سعيد باشا وإسماعيل سرهنك باشا (وكيل الحربية سابقاً وعديل سعيد باشا) [٩] . وافتتح أحمد يحيى باشا الحفلة بكلمة ترحيب بصفته زعيم الإسكندرية ورئيس لجنة الوفد فيها . وأعقبه الأستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان بالنيابة عن العلماء . والقمص يوحنا إلياس نائبًا عن غبطة البطريرك الأنبا كيرلس الخامس ، وكان مما قاله : « إن وقفتى هذه برهان ظاهر على أن المصريين واحد ،

لهم سعد واحد » . ثم أضاف : « من ١٣٣٩ عامًا اعتاد أن يروا « ليلة القدر فى رمضان . ولكنها جاءت هذا العام من العجب فى شهر رجب » فضحك الناس وصفّقوا إذ أن موعد وصول سعد باشا فى ٥ أبريل سنة ١٩٢١ وافق يوم ٢٥ رجب سنة ١٣٣٩ .

وألقى أمين يحيى باشا ـ نجل أحمد يحيى باشا ـ خطبة إفتتحها بقوله : « قدوم مبارك ياسعد ومرحبًا بكم يا أصحاب سعد » . ثم قال مخاطبًا سعد باشا : « إن الأمة تلتف حولك التفاف الجيش حول العلم » . وكذلك ألقى المؤرخ المعرف محمد لبيب البتانونى بك خطبة أخرى .

وأذكر كذلك أن المرحوم يوسف رفعت بك القاضى بالمحاكم الأهلية أنشد فى هذه الحفلة درّة من الشعر يحضرنى منها الأبيات الآتية :

جموع تحت أعلام كجيش	يروع جلال موكبه العيونا
ثغور باسمات عند ثغر	تحيىّ بالهتاف القادمينا
تكاد قلوبهم يا سعد شوقًا	تطير إليك إذ لمحوا السفينا
ولو أن القلوب تكون جسرًا	تمرّ به ، لودّوا أن تكونا
رددت على الهلال بمصر مجـ	ـدًا تقلص بعد عهد الراشدينا
وأعززت الصليب بمصر حتى	كأن « القبط » فى أيام مينا
وكان لنا من اسمك خير فأل	وكنت على النجاح لنا معينا

وأخيرًا وقف سعد باشا وألقى خطبة سياسية كانت بيانًا ساحرًا ، إذ شملت عبارات خلبت الألباب كقوله : « أقوى بعزائمكم عزمى وأشد باتحادكم أزرى » وقوله : « أنا قوىّ بكم ، والفضل كل الفضل يعود إليكم (١٠) » .

وهكذا من الآيات البيانية التى أصبحت مضرب الأمثال والتى أبرزت سعد باشا كخطيب من طراز نادر له على جمهور المستمعين تأثير أى تأثير .

وبقيت الإسكندرية ساهرة طول هذه الليلة . وأقيمت فيها حفلات كثيرة إعرابًا عن الابتهاج والفرح ، حتى إذا كان الصباح استعد الجميع لتوديع الزعيم فى سفره إلى القاهرة . فامتلأت الشوارع على طول الطريق من الفندق إلى المحطة على النحو الذى وصفناه فى الطريق من الجمرك إلى الفندق . وإزدحمت المحطة بالألوف حتى لم يبق فيها موضع لقدم . ولقى المنظّمون أكبر عناء فى إخلاء طريق فى الرصيف له ولمرافقيه . فلّما أقبل أخذ

طريقه إلى القطار بين مظاهر الحفاوة .

وتحرّك القطار إلى القاهرة فبلغها فى نحو سبع ساعات أى فى ضعف الزمن الذى يقطعه القطار السريع . فقد كان الفلاّحون على طول الطريق يقفون فى سبيل سيره، ويأبون إلا أن يقف أمام قراهم ليؤدوا واجب الوفاء والشكر لزعيمهم المحبوب .

وأذكر أن أهل محطة « دفرة » وقفوا معترضين القطار على القضبان طالبين وقوفه . شأنهم فى هذا شأن الأهالى فى جميع المحطات التى مررنا بها . فلما وقف القطار تقدم المرحوم عبد الله رشدى من سعد باشا وقدّم له نسخة من القرآن الكريم وأخرى من الإنجيل المجيد فاغتبط رحمه الله بهذه الهدية الثمينة ، وخاصة لما انطوت عليه من دلالة عظيمة فى تأكيد وحدة الأمة .

وقد قدمت لجنة الاستقبال الغداء لجميع المدعوين فى االقطار . وكان سعد باشا يجلس فى صالونه يحيط به كثير من الكبراء . غير أن هذا لم يكن ليمنعه من استقبال الكثيرين الذين كانوا يفدون من العربات الأخرى لتحيته .

وفى هذه الأثناء قدّم له الأستاذ ويصا واصف عضو الوفد الأستاذ الشاب « وليم مكرم عبيد » . وكان وقتئذ مدرسًا بمدرسة الحقوق . فحيّاه سعد باشا وأثنى عليه وأعرب له عن اعجابه الكبير بمذكّرته القيمة الجليلة التى كتبها باللغة الإنجليزية ردًا على مشروع المستشار القضائى « برونيات » ، وكان وقت أن كتب هذه المذكرة سكرتيرًا له ، وقد ترجمها إلى اللغة العربية الأستاذ محمد لبيب عطيه مدير الإدارة القضائية إذ ذاك (١١) . (ورئيس محكمة النقض والإبرام فيما بعد) .

ولّما وصل القطار إلى محطة القاهرة واستقر أمام الرصيف ، نزل سعد باشا (١٢) . فكان أول مستقبليه عدلى يكن باشا رئيس الوزراء وحسين رشدى باشا نائبه وقد عانقه وعانقهما ثم طلب إليهما أن يصحباه فى طريقه إلى المستقبلين ، فاعتذرا . وسار هو بين صفوف المحتشدين يحيّهم شاكراً (١٣) . ولم نلبث غير قليل حتى رأينا بعض كبار الضباط يحملونه على أكتافهم بين الهتافات العالية والتصفيق حتى وصلوا به إلى السيارة . وكان الشيخ الجليل محمود سليمان باشا رئيس « لجنة الوفد المركزية » قد قدم إلى المحطة ، ونظرًا لشدة الزحام ، ولشيخوخته ومرضه ، لم يستطع اقتحام الجماهير ودخول المحطة . فبقى بجانب السيارة فلمّا وصل سعد باشا إلى خارجها ، تقدمتُ فلفتُ نظره إلى ذلك فذهب إليه



استقبال شعب القاهرة للزعيم سعد زغلول فى ٥ أبريل ١٩٢١ استقبال الفاتحين
سيارة الزعيم يقودها الوجيهان أبو أصبع وأبو بكر راتب تخترق الحشود
فى طريقها من محطة مصر إلى بيت الأمة

وعانقه ثم عاونه على الصعود إلى السيارة فتأثر الحاضرون وسُرّ نجله محمد محمود باشا لما حصل ، وأعرب لى عن سروره وشكره لهذه الحركة الجميلة .

أما وصف إستقبال القاهرة لسعد باشا فإنه ليعُجز أبلغ كاتب ، وإن أى بيان وأى وصف وأى تعبير مهما تسمو به الفصاحة وترتفع به البلاغة ورصانة الأسلوب لهو دون الحقيقة بألف مرحلة ومرحلة . فقد خلدت القاهرة هذا اليوم العظيم - يوم ٥ أبريل سنة ١٩٢١ - وكتبته بتاريخ من نور فى تاريخها الحديث . وإلا فأى بيان يستطيع أن يفى هذه الحماسة حقها من الوصف والتدوين ، تلك الحماسة التى كشفت فى جميع طبقات الشعب عن وطنية سامية توحى بكل معانى الإخلاص للوطن ولخادمه الأمين ، ودفعت كل إنسان فى مصر إلى أن يقوم بواجبه فى تحيته .. بل لقد دفعت اللصوص والنشّالين إلى أن يكفوا عن جرائمهم فى هذا اليوم إجلالاً للقادم العظيم ، فلم تقع فى القاهرة طول اليوم حادثة سرقة واحدة ولم يسجل فى دفاتر البوليس محضر لأى حادث جنائى .

وكان الاستقبال كما قال الشاعر أحمد نسيم :

أركبُ « رمسيس » يجرى فى ميادنها ... أم ركب « عمرو » ويوم الفتح مشهود

وهكذا مضت سيارة الزعيم يقودها الوجيهان أبو إصبع وأبو بكر راتب ، مجتازة ميدان المحطة ، فشارع إبراهيم باشا ، فميدان إبراهيم باشا ، فشارع قصر النيل ، فميدان سليمان باشا ، فشارع سليمان باشا ، فميدان الخديو إسماعيل ، فشارع قصر العينى فشارع سعد زغلول باشا . وقد امتلأت هذه الشوارع والميادين وشرفات المنازل والأسطح بكتل بشرية كلها تهتف بلسان واحد « لسعد » و « للحرية » و « الاستقلال »[(١٤)] . وسعد باشا واقف فى السيارة منصوب القامة ، مرتفع الهامة . يتلقى هذه التحيات المباركات بكلتا يديه حاملاً منديله الأبيض يشير به إلى الجماهير يميناً ويساراً شاكراً ممتناً[(١٥)].

وكان فى مكان ضريح سعد الآن ، فى مواجهة شارع سعد زغلول باشا ، أرض فضاء . وكان قد أقيم سرادق كبير إمتلأ بالكثيرين من الكبراء والعظماء . أما السيّدات والآنسات فخصّص لهن المدخل الخلفى « لبيت الأمة » وأقيم فيه سرادق خاص اتسع لعدد كبير منهن . فلمّا وصل سعد باشا قصد أولاً إلى سرادق السيدات والآنسات ومعه محمود سليمان باشا الذى أخبرنى فيما بعد بأنه لم يتأثر لمنظر تأثره من رؤية « المرأة المصرية » تشارك الرجل فى الإعراب عن تقدير خدمات زعيم الوطن . ثم انتقل إلى سرادق الرجال وكان

مليئًا بالألوف ، فما أهلّ عليهم حتى دوّى المكان بالتصفيق والهتاف ثم استمع إلى كلمات الشيخ محمد الخضرى بك مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف وقتئذ ، والشيخ مصطفى القاياتى العالم بالأزهر وعضو الوفد المصرى فيما بعد ، وصاحب النيافة الأنبا يوساب مطران جرجا (١٦) . ثم ألقت السيدة فكرية حسنى كلمة كان لها تأثير شديد .

ومما يُذكر أن هذا السرادق بقى مقامًا بضعة أيام استقبل فيها الرئيس الجليل وفودًا من جميع أنحاء البلاد ومن جميع وزارات الحكومة ومصالحها ، كلهم يعربون عن تأييدهم له وإخلاصهم لمبادئ الوفد . وكان القليلون يلمّحون فى خطبهم إلى تأييد الوزارة العدلية . كما أن آخرين كانوا يشيرون إلى ذلك . أما الأكثرون فكانوا يقتصرون على تأييد سعد باشا ، ووضع ثقتهم التى لا حدّ لها فيه (١٧) .

وصفوة القول إن هذا السرادق كان بمثابة « سوق عكاظ » تبارى فيه الخطباء فى عرض المبادئ السياسية المختلفة ، حتى إنه ليُمكن أن يقال بأن مصر لم تشهد مثل هذه الحلبة الوطنية التى كانت تُعقد فى السرادق ، فى أى عهد من العهود .

وقد عادت بالباخرة مع سعد باشا حرمه المصون السيدة صفيّه زغلول « أم المصريين » التى استقبلت استقبالاً خاصًا كان فى غاية الروعة . وكذلك عاد معه الأستاذ واصف غالى والسيدة قرينته ، وعلى ماهر بك وسينوت حنا بك وعبد الستار الباسل بك .

وكانت عودة الأستاذ واصف غالى بعد غياب استمر سبع سنين ، إذ اضطرته ظروف الحرب العظمى ، ثم مشاركته لأعضاء الوفد فى الدعوة للقضية المصرية ، إلى البقاء فى أوربا طيلة هذه المدة وكانت السيدة قرينته ـ وهى فرنسية المولد ـ تشاركه مشاركة فعالّة فى نشاطه السياسى والوطنى وتُعنى كل العناية بتكريم أعضاء الوفد أثناء إقامتهم بباريس والحفاوة بهم . وقد أثر عنها أن وطنيتها المصرية شديدة التطرف . فقد شاركت السيدات المصريات فى حركتهن ومظاهراتهن ، ولم يوهن من عزمها الحكم بالإعدام على زوجها ـ فى أغسطس سنة ١٩٢٢ ـ كما سيأتى .

وفى اليوم التالى أى فى يوم الأربعاء ٦ أبريل خرج سعد باشا فى الصباح فزار مقابر الشهداء فى « الإمام الشافعى » . وصحبه فى هذه الزيارة الأستاذ واصف غالى وعاطف بركات بك وأمين يوسف بك وسينوت حنا بك . فكان هذا أول عمل قام به بعد عودته . وقد وقف أمام هذه القبور وحيّا الراقدين فيها بقوله :

« سلامٌ على هذه الأرواح الطاهرة التى وهبت لمجد الأمة ونصرتها . سلامٌ على تلك الأرواح التى فاضت وكتبت وثيقة مجد الأمة بالدماء ، وأثبتت لمن يأتى بعدها أن الحياة رخيصة ، إذا جدّ الأمر وعزّ الفداء . ورحمة الله عليهم . ووفّقنا جميعًا لخدمة الوطن ، وليهنئوا فى مراقدهم فقد خلفوا أثرًا صالحًا » .

وعلى أثر انتهاء هذه الزيارة قصد إلى زيارة قبر أحد الشهداء الأقباط فى دير «الأنبارويس » بالعباسية فزاره ، وحيّا صاحبه بقوله :

« إنى أتوجّه إلى هذا القبر الذى يضمّ تلك النفس الكريمة ، والذى أعتبره رمزًا لجميع تلك الأرواح الطاهرة التى فاضت وشرّفتنا ، وأعلت قدرنا وبيّضت وجوهنا ورفعت ذكرانا . فيا أيتها الأرواح الطاهرة نامى هادئة فقد خلّفت من ورائك رجالاً ، يعملون على رفع لواء الوطن وتأييد اسمه وإنالته الاستقلال التام . حيّاكم الله وبيّاكم وأسكنكم أعلى الجنان » .

ثم رجع سعد باشا إلى السرادق الذى كان مكتظًا بالجماهير ، والوفود من كل الطبقات .

وفى اليوم التالى ـ الخميس ٧ أبريل ـ بدأ زياراته . فزار مثلّث الرحمات الأنباكيرلس الخامس بطريرك الأقباط . وكان يعتقد فيه الصلاح والتقوى ، وكم كان المنظر مؤثرًا حين عانقه البطريرك ودعا له وقال له « أنت تعبت كثيرًا » فقال سعد باشا « سُينسى هذا التعب بنجاح قضيتنا ، وأطلب منك الدعاء » . فردّ البطريرك قائلاً « الله يساعدك ويقويك » فشكر له سعد باشا بقوله « إن شاء الله ببركتك » فقال البطريرك « ببركة الله تنجح وتفوز» .

وغادر سعد باشا دار البطريركية بشارع الدرب الواسع ، مودّعا من البطريرك ومن رجال الدار أحسن وداع . وكانت الجماهير قد اصطفّت فى الشوارع المحيطة بالدار فى انتظاره . فلّما خرج حيّته بالتصفيق ، وتعالت أصواتها بالهتاف (١٨) .

وقد أرادت الأمة أن تعرب مرة أخرى عن تأييدها لسعد باشا بعد ذلك الاستقبال الحافل . وتجلّى هذا التأييد فى الحفلات المتتابعة التى أقيمت لتكريمه . ونحن إذا أردنا أن نذكر كل تلك الحفلات وما يجرى لاحتجنا إلى مجلّد ضخم إذ لم تبق هيئة من الهيئات لم تشارك فى إظهار شعورها الوطنى . غير أننا نذكر منها حفلة التجّار فى فندق سميراميس يوم ١٢ إبريل وكان بين خطبائها طلعت حرب بك ـ مؤسس بنك مصر ـ وعبد القادر

الجمال ، وعبد الغنى سليم عبده ، والسيد أحمد أبو السعود . وقد ردّ عليهم سعد باشا بكلمة حيًّا فيها جهاد المرأة المصرية بقوله :

« كنت أود أن أبدأ خطبتى بقولى سيدّاتى وسادتى ، لأن للسيدات دخلاً كبيرًا فى نهضة الأقوام عمومًا ، وأن لهنّ فى نهضة مصر خصوصًا ذلك الأثر الجميل . فآمل أن يأتى يوم نسمع فيه خطباءنا يبتدئون خطبهم بتلك الكلمة التى كنت أودّ من صميم فؤادى أن أبتدئ بها « السيّدات » أظهرن فى النهضة الحاضرة من الشجاعة والإقدام ما أعجب به كل واحد منا » .

كما نذكر أنه فى يوم ١٤ أبريل أقيمت حفلة علماء الأزهر وطُلّابه ، بدار « السادة البكرية » بالخرنفش . وقد امتازت بحضور شخصيات بارزة ، لم تكن قد شاركت فى مثل هذه الحفلات من قبل . فقد حضرها الأمير كمال الدين حسين نجل السلطان حسين والأمير محمد على توفيق والأمير عزيز حسن وعدلى باشا رئيس الوزراء والأستاذ الأكبر الشيخ أبو الفضل الجيزاوى ـ شيخ الأزهر إذ ذاك ـ والأستاذ الأكبر الشيخ الظواهرى ـ شيخ المعهد الأحمدى إذ ذاك وشيخ الأزهر فيما بعد ـ ومندوب من قبل غبطة البطريرك والحاخام الأكبر للطائفة الإسرائيلية وغيرهم . وكان من بين خطباء هذه الحفلة الأستاذ الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية الأسبق ، والسيد عبد الحميد البكرى شيخ مشايخ الصوفية السابق ، والشيخ مصطفى القاياتى الخطيب المفوّه .

وختم سعد باشا هذه الحفلة بكلمة ردّ بها على الخطباء والشعراء ، وتحدّث عن الحفاوة التى يلقاها باعتباره ممثلاً للفكرة الوطنية ، وقال إن هذه الحفاوة تدلّ على مدى تمسك الأمة بهذه الفكرة وأنها معه قلبًا وقالبًا . ومن طريف ما يذُكر أنه افتتح كلمته بقوله : « ما حيّرتُ الشعر ولكن الشعر حيرّنى » . يشير إلى بيت فى قصيدة ألقاها أحد الشعراء فى هذه الحفلة مطلعه « حيّرتم الشعر » .

وأقامت الهيئات النيابية فى البلاد ، أى الجمعية التشريعية ومجالس المديريات والمجالس البلدية والمحلية حفلات أخرى منها حفلة تكريم لسعد باشا فى فندق شبرد ، وفيها دارت مناقشة سياسية حادة بين سعد باشا وعلى المنزلاوى بك والدكتور رشيد عبد الله ، بشأن المفاوضات . ولم ترض هذه المناقشة جمهورًا من المحتفلين فكادوا يعتدون على المنزلاوى بك لولا تدخل بعض الحاضرين [19] . ومنهم بشرى حنا بك وإخوانه ، فقد

أخرجوا المنزلاوى بك من الباب الخلفى للفندق . وكان من خطباء هذه الحفلة أحمد مظلوم باشا رئيس الجمعية التشريعية .

وخطب سعد باشا خُطبة تصدى فيها للمناقشة التى دارت وقال : « كما أنه ليس فينا أثر للطغيان ، كذلك لا أثر عندنا مطلقًا لاختلاف الأديان . فمن يوم أن ظهر فجر النهضة الحاضرة رأينا فى أفق مصر الصليب يعانق الهلال . رأينا هذا التعانق رمزًا للسلام والإخاء » .

وفى مساء يوم الجمعة ١٥ أبريل أقام المحامون لتكريم سعد باشا مأدبة كانت فريدة فى بابها ، ارتجل فيها النقيب مرقص حنا بك (مرقص حنا باشا وزير الأشغال وعضو الوفد فيما بعد) خطبة رائعة . فردّ سعد باشا عليه فى الحال بكلمة امتلأت دعابة وظرفًا . ثم عرض للمسألة المصرية التى هى شغل الجميع وأعلن أنه « يتفق مع كل هيئة تساعد على أن يكون إلغاء الحماية عامًّا فى جميع العلاقات بين الدول لا نسبيًّا بين مصر وانجلترا فقط . بل يكون الاستقلال تامًّا فى الداخل والخارج » .

وفى الأحد ١٧ ابريل أقام عبد الخالق مدكور باشا فى منزله حفلة خاصة حضرها الأمير محمد على والأمير عزيز حسن وجميع الوزراء وأعضاء الوفد ، ما عدا عبد العزيز فهمى بك . وكانت حفلة سمر ألقيت فيها منولوجات وطنية من بعض الشبان ، كما أنشدت المغنية « منيرة المهديّة » بعض الأغانى الوطنية .

وفى يوم الإثنين ١٨ أبريل أقيمت حفلة طلبة المدارس فى فندق شبرد . وقد حضرها الأمير محمد على وعدلى يكن باشا وخطب فيها الأستاذ حسن يس (وكان إذ ذاك طالبًا فى مدرسة الحقوق) عن المدارس العالية ، وعبد الرحمن عباس افندى (الطالب إذ ذاك بالمدرسة الإعدادية الثانوية) عن المدارس الثانوية .

وفى يوم ١٩ ابريل أقمنا بصفتنا لجنة الاستقبال حفلة فاخرة برياسة إبراهيم سعيد باشا رئيس هذه اللجنة ، وقد جلس فيها فى الصدر ، وعن يمينه سعد باشا وعن يساره عدلى باشا . وكان من خطباء هذه الحفلة إبراهيم سعيد باشا . وخطب سعد باشا خطبة رنّانة تحدث فيها عن إجماع المصريين على التمسك بالفكرة الوطنية وتفانيهم فى الإخلاص لها . وضَمّنها كثيرًا من عبارات الوحدة ، مما حمل عدلى باشا على أن يمد إليه يده مصافحًا ،

شاكرًا له إحساسه ، وشعوره ، مهنئًا إيّاه بها ألقى من كلمات فيّاضة .

ومن طريف ما يروى على هامش هذه الحفلة ، أن إبراهيم سعيد باشا كان قد أرسل إلى أحمد يحيى باشا رئيس لجنة الوفد بالإسكندرية خمسين تذكرة بيضاء ليدعو إلى الحفلة من يشاء . فتضايق يحيى باشا من ذلك وقال إن هذه طريقة منافية للكرامة ، وأن الواجب إرسال الدعوة بالأسماء فإن لم تكن الأسماء معروفة تُسأل عنها اللجنة بالإسكندرية ثم ردّ التذاكر لهذا السبب . وبلغ هذا النبأ سعد باشا فتأثر له . وبينما نحن فى مساء يوم ١٨ ابريل ـ اليوم السابق على إقامة الحفلة ـ نتناول الطعام مع سعد باشا فى بيت الأمة ، تحدث سعد باشا فى هذا الموضوع معربًا عن أسفه لما وقع ، وضيقه إذا غاب يحيى باشا عن الحفلة ، لما له من الفضل الكبير على الحركة الوطنية . ورأى إيفاد من ينوب عنه إلى الإسكندرية ليعود مع يحيى باشا إلى القاهرة ويحضر الحفلة فى مساء اليوم التالى . واختارنى للقيام بهذه المهمة فقبلت ووعدت بالسفر فى صباح غد ، فأبى إلا أن يكون السفر حالاً فى قطار الليل الذى يصل إلى الإسكندرية فجرًا . فنزلت على ما رأى ، وسافرت ليلاً وذهبت على أثر وصولى إلى القصر الفخم الذى كان يقيم فيه يحيى باشا فى « زيزينيا » بالرمل ، وتحدثت إليه فى المهمة التى جئت من أجلها وأعربت عن أسف الجميع لما حصل فارتاح لذلك واتفقنا على السفر معًا بقطار الظهر إلى القاهرة لحضور الاحتفال . ولمّا حضر يحيى باشا الحفلة فى المساء إستقبله سعد باشا معانقًا مرحبًا .

ومن الحفلات التى أقيمت لتكريم سعد باشا أيضًا حفلة الجمعية الخيرية القبطية وحفلة جمعية ثمرة التوفيق القبطية ، وقد أقيمت بحديقة الجزيرة يوم الأحد ٢٤ ابريل . وألقى فيها المرحوم وهبى بك مدير المدارس القبطية قصيدة امتدح فيها سعد باشا وعدّد مناقبه ، وجعل نصف أبياتها منطبقًا على التاريخ الهجرى والنصف الآخرى منطبقًا على التاريخ القبطى . وأراد بذلك تسجيل اتحاد العنصرين اتحادًا وثيق العرى كأبيات القصيدة الواحدة .

وقد تبرّع سعد باشا بمبلغ مائة جنيه للتلاميذ الفقراء فى مدارس الجمعية فكان ذلك عملاً جليلاً مشكورًا دلّ على طيبة قلبه وميله للخير إذ لم ينس وهو فيما هو فيه من مظاهر هذه الحفاوة البالغة ، البّر بالفقراء والمساكين . وتبرع كذلك الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية بمبلغ عشرة جنيهات ، فكان هذا مظهرًا من مظاهر التعاون على البر بين أبناء الأمة شأنهم فى الاتحاد من أجل الفكرة الوطنية .

ولمّا كان الشيء بالشيء يذكر . فإننا نقول إن سعد باشا كان طول حياته كثير الحدب على أبناء بلدته « أبيانه » ، فلما حضر إلى مصر لم ينسهم وتبرَّع لفقراء البلدة بمبلغ أربعمائة جنيه .

* * *

هوامش الفصل السادس

(١) السبب الرئيسى وراء استقالة نسيم التبليغ الانجليزى للسلطان فى ٢٦ فبراير ١٩٢١ « بان العلاقة لم تعد علاقة مرضية » ، وما استتبع هذا التبليغ من ضرورة التخلص من وزارة نسيم « الإدارية » لتحل محلها « وزارة سياسية » قادرة على تقديم البديل من خلال المفاوضات مع الانجليز .

(٢ ، ٣) ادت زيادة الهجمات على سعد زغلول اثناء غيابة من العدليين وانصار الاعضاء العائدين إلى قراره بالعودة إلى مصر ، وكما صرّح لسكرتيره « ان عودتى اصبحت لازمة وانى لقادر على تحطيم كل هؤلاء الغادرين والمنحرفين »

محمد كامل سليم : المصدر السابق ص ١٦٢ ـ ١٦٣

(٤) يقصد هنا الدور الذى قام به محمدمحمود فى الولايات المتحدة الامريكية .

(٥) معاهده فرساى .

(٦) يلاحظ انه حتى ذلك الوقت كان مدير السكك الحديدية وكبار موظفيها من الانجليز .

(٧) أحمد يحيى باشا من كبار تجار القطن فى الاسكندرية والذى خلفه فى هذا الميدان ابنه أمين يحيى بينما تدرج ابنه الثانى عبد الفتاح يحيى فى عدد من المناصب الوزارية حتى تولى رئاسة الوزارة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ .

(٨) يصف التقرير البريطانى وصول سعد فيقول : « وصل سعد زغلول باشا إلى الاسكندرية صباح يوم الاثنين ٤ ابريل . استقبله على ظهر السفينة عدد كبير من اتباعه وكان محمد سعيد باشا من أول من تقدموا لتحيته . وعند نزوله من السفينة كانت هناك وفود عديدة جاءت لاستقباله من سائر انحاء مصر واخذ موكبه فى اختراق الشوارع فى طريقه إلى فندق كلاريدج حيث كانت الجماهير الضخمة المتحمسة تهتف له وكان سلوك هذه الجماهير عمومًا منظمًا ويدعو للتقريظ » .

F.o. 407/189 Inc in No49.

(٩) تشير الوثائق البريطانية ان عدد الذين حضروا المأدبة كانوا ثلاثمائة وان محافظ الاسكندرية كان فى طليعتهم. F.o. 407/189 Inc. No. 49

(١٠) من الغريب ان يقتصر صاحب المذكرات على هذه العبارة من خطبة سعد بينما ساقت المذكرة البريطانية التى تضمنّت وصفا لما جرى مقتطفات كبيرة من الخطبة وفيما يلى ترجمة لمطلعها . .

« لاسعد ولا اصدقاؤه انبياء يصنعون المعجزات . كما انهم ليسوا أولياء أو قد يسين يقومون بالاعمال النبيلة لكم . انهم مواطنون بسطاء منكم ولكم . انهم خدّام مبادئكم . . . »

F.o. 407/ 189 Fuc. No. 49.

(١١) نص المذكرة . . مذكرات عبد الرحمن فهمى ص ٢٦٥ ـ ص ٢٧٣ .

(١٢) يلاحظ المندوب السامى البريطانى ان عددًا من الاوربيين كانوا ضمن حشود المنتظرين فى محطة مصر. F.o. 407/189 Inc. in No. 49

(١٣) تقول الوثائق البريطانية ان الأمر استغرق نصف ساعة لانزال خمسمائة شخص من المصريين المتحمسين الذين تسلقوا اسقف عربات القطار .

(١٤) تؤكد الوثائق البريطانية ان الجماهير التى وقفت فى الشوارع كانت فى انتظار مرور الموكب قبل ساعات طويلة . F.o. 407/ 189 Inc No. 49

(١٥) يعجب المندوب السامى من نجاح الوفد من خلال لجانه فى السيطرة على الجماهير الكبيرة وانجاح هذا الاستقبال الشعبى الكبير دون اية حادثة تعكر صفوه .

(١٦) بطريرك الاقباط فيما بعد (١٩٤٦ ـ ١٩٥٦) .

(١٧) تلاحظ الوثائق البريطانية ان الهتافات فى مجموعها كانت لسعد وفى قليل منها للوزارة وفى بعضها ضد توفيق نسيم الذى تخلف عن المشاركة فى استقبال سعد .

(١٨) يقول التقرير البريطانى ان طلاّب واساتذة مدرسة الاقباط قد شكلوا جمهورا فى استقبال سعد فى دار البطريركية F.o. 407/ 189 Inc. in No.

(١٩) التقرير البريطانى الذى سجلّ الحادثة ذكر ان على بك المنزلاوى عضو الجمعية التشريعية وأحد أعيان سمنود ومن انصار الوزارة العدلية قاطع زغلول بقوله « ان المثقفين يريدون ان يعلموا ماهية سياسة سعد » فهاج عدد من الطلاب الذين كانوا يستمعون الى الخطبة من خارج القاعة . تبع ذلك اخراج المنزلاوى بك بينما ادت الهتافات المتبادلة بين الحضور إلى انسحاب سعد وإلى اعلانه انه مستعد لاستقبال من يريد مقابلته فى بيته ليشرح له سياسته F.o. 407/ 189 Inc. in No. 77

الفصل السابع
بدايات الخلاف

الخلاف يدبّ بين سعد باشا وعدلى باشا ـ نشر أسبابه على صفحات الجرائد ـ حديث سعد باشا للأهرام فى ٢٣ ابريل سنة ١٩٢١ بالشروط التى يشترطها الوفد لمفاوضة الإنجليز ـ عدلى باشا يرد عليه فى اليوم التالى ـ صدى هذا الرد ـ « خطبة شبرا » ـ سعد باشا يشرح أسباب الخلاف ويطلق عبارته المشهورة «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » ـ الأمة تؤيد سعد باشا فى موقفه ـ الوزارة العدلية تطلب من الإدارة « تزييف عرائض الثقة بها » ـ إنقسام أعضاء الوفد .

* * *

إستمرت هذه الاستقبالات الرائعة أيامًا عديدة ، وعلى الرغم من أن سعد باشا أذاع بيانًا على الشعب شكر له فيه هذه الحفاوة التى استقبله بها وطلب إلى كل فرد أن يوجّه التفاته إلى عمله « تاركًا القضية الوطنية لليد الأمينة عليها ، ليؤدى كلّ واجبه نحو بلاده » على الرغم من هذا ، استمرت أفراح الاستقبال ، وتعدّدت حفلات الهيئات والجماعات .

ولا أرى بدًّا من الإشارة بشيء من التفصيل إلى حفلة موّظفى الحكومة بظروفها الفذّة وكان الباعث على إقامتها هو نفس السبب الذى حملهم على الإضراب العام الذى شلّ مصالح الحكومة ، مدى ثلاثة أسابيع فى شهر إبريل سنة ١٩١٩ ، وكبّدهم حينئذ خسارة مرتب واحد وعشرين يومًا ولكنه عاد عليهم بفخر وطنى كبير . إذ أثبتوا للملأ عامة ، وللساسة الإنجليز خاصة ، أنهم لا يقلّون حماسة واستعدادًا للبذل عن أية فئة أخرى من الأمة ، فى سبيل تأييد وكلائها المطالبين برفع الحماية عن مصر وبتحقيق سيادتها واستقلالها .

ذلك كان موقفهم فى إبريل سنة ١٩١٩ ، أما احتفاؤهم فى ابريل سنة ١٩٢١ برئيس الوفد وأصحابه فإن لجنة كانت مؤلفة من سبعة عشر موظفا من مختلف الوزارات ذُكرت أسماؤهم فى الصحف فى ٢٢ ابريل . غير أن حديث الرئيس نُشر فى اليوم التالى وأعقبه ردّ رئيس الوزارة (على ما سيأتى تفصيله بعد) فتحرّجت الأمور علانية بين الوفد والحكومة . وأخذ الوزراء يضغطون على أعضاء لجنة الاحتفال لحملهم ـ تارة بالوعد وتارة بالوعيد ـ على العدول عمّا شرعُوا فيه . واستاء الموظفون لذلك ، وأعربوا عن استيائهم بكتاب قدموه إلى

رئيس الوزراء فقابلهم ، وبعد مناقشة طويلة أخبرهم « أن الوزارة لا يسعها أن تنظر بعين الرضا إلى حفلة يكون مغزاها مناصرة رجل سياسى . . . يجهر بالعداء لحكومة بلاده . . . فإن لم يعدل أعضاء اللجنة عن الحفلة ويؤجلوها كانت عليهم مسئولية عملهم » . وعلى أثر هذه المقابلة تخلى عن اللجنة ثمانية من أعضائها ـ لا عن ضعف فى الإيمان الوطنى بل عن وهن فى المقاومة ـ ومضى التسعة الباقون فى تنفيذ الرغبة العامة السائدة بين إخوانهم فى سائر الوزارات . وهم : صادق حنين بك مدير إدارة وزارة الزراعة والقاضى أحمد خشبة بك والقاضى سلامة ميخائيل بك والأستاذ محمود النقراشى من رجال التعليم والأستاذ مكرم عبيد من رجال القانون والتعليم والأستاذ حسين فتوح من رجال التعليم والدكتور نجيب إسكندر من وزارة الصحة والأستاذ فؤاد شيرين من الإداريين والأستاذ زكى جبره من الإداريين .

غير أن الرئيس شقّ عليه أن يتعرضوا للتنكيل الذى توعّدهم به الوزراء فحاول ـ ولكن على غير طائل ـ أن يثنيهم عن عزمهم بكتاب رقيق العبارة وجّهه إلى صادق حنين بك فى ٢٧ إبريل ، قال فيه :

« علمت أن الوزارة غضبت من حفلة التكريم التى شرعتم مع إخوانكم فى إعدادها ونبهت بالعدول عنها وأنكم صممتم على عزمكم رغم تهديدها لكم فكتبت هذا شاكرًا حسن قصدكم ، وجميل صنعكم ، راجيًا بكل إلحاح أن تعدلوا عن عزمكم خشية أن تتكدر خواطركم بسببى ، وهو ما يؤلمنى ألمًا شديدًا » .

« وأؤكد لكم أن شعوركم المضغوط عليه بتلك السلطة ، أرقى فى نظرى من كل شعور آخر . وأنه إذا حجبت القوة مظاهر الترحيب بى فلا تستطيع أن تحجب ما انطوت عليه جوانحكم من عواطف الحب والإكرام التى يشعر قلبى برقتها وتمتلئ نفسى سرورًا بلطفها . وإنى أحيى ذلك الشعور الكامن وأقدم لكم عليه الشكر الوافر والسلام » .

وأقيم الاحتفال فى فندق الكونتنتال فى ٦ مايو . فاشترك فيه أكثر من سبعمائة موظّف وحضره أيضاً نحو مائة مدعو من غير الموظفين [1] وخطب فيه من أعضاء اللجنة القضاة أحمد خشبه وسلامة ميخائيل والأستاذ مكرم عبيد . وألقى الرئيس خطابًا رائعًا فنّد فيه مرة أخرى وجهة نظر رئيس الوزراء ثم أبدى إعجابه بشعور الموظفين فقال : « إنهم أقاموا هذا الاحتفال وسيوف الإرهاب مُعلّقة فوق رؤوسهم فلم يبالوا بها » .

وبعد يومين نفّذت الحكومة وعيدها بإحالة أعضاء اللجنة التسعة إلى المحاكمة التأديبية . فأقام لهم جمهور كبير من إخوانهم حفلة تكريم وتضامن فى ٣١ مايو ، كان من خطبائها صادق حنين بك، فجاهر بحق الموّظفين فى تأييد الوفد ورئيسه وناقش تصريحات رئيس الوزراء الأخيرة إظهارًا لضعف حجّتها . ونادى بأن الموظفين أحرار فى الإعراض عنها، والأخذ برأى زعيم الأمة ونصرته . فقوبلت هذه الأقوال بموافقة حماسية . وفى ظهر يوم ٢ يونيو عُقدت الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف العليا للنظر فى الدعوى التأديبية المقامة ضد القاضى سلامة ميخائيل فأصدرت حكمًا بتبرئته . وبعد ساعتين إجتمع مجلس الوزراء وقرر إحالة صادق حنين بك إلى المعاش وإن كانت قضية التأديب وقتئذ لا تزال منظورة . فكان خرقًا متعمدًا لقواعد سير القضاء التأديبى ، يُراد به أن يدخل فى روع الموظفين أن لمجلس الوزراء سلطانًا مطلقًا للبطش بهم ، تتلاشى أمامه سائر السلطات الأخرى . وقد تساءل الناس لم اختصت الوزارة الأستاذ صادق حنين وحده بنقمتها دون إخوانه فقيل إن مقصد الوزارة كان مزدوجًا ، أولاً إرهاب الموظفين وردعهم عن المجاهرة برأيهم فى القضية القومية متى كان مخالفًا لرأيها . وثانيًا الانتقام شخصياً منه لرئاسته لجنة تكريم سعد باشا من جهة ولجرأته فى نقد رأى رئيس الوزراء وتسفيهه علنًا من الجهة الأخرى .

ولنعد الآن إلى تفصيل الأحداث التى تتابعت منذ عودة الرئيس إلى القاهرة ، فإن الاتصالات دارت بينه وبين رئيس الوزراء حول المفاوضات واشترك الوفد فيها . وكنا نحن القريبين من سعد باشا نلمح فى الجو غيمًا يتكاثف كلما مرّت الأيام ، كما كان غيرنا من أفراد الشعب يحسّون بأن الحُجب شيئًا ، على الرغم من أنهم أولوا الوزارة العدلية ثقتهم وتأييدهم حتى لقد أطلقوا عليها إسم « وزارة الثقة » كما تقدّم . وكانت مظاهر هذا الإحساس تتجلّى فى الحفلات الوطنية التى أقيمت لتكريم سعد باشا ، وكان أكثر تجلّيها فى الحفلات التى يحضرها عدلى باشا وأعضاء وزارته حين يسمعون بآذانهم الهتافات « بحياة الوزارة » متحدة « مع الوفد » .

أما سبب هذا الحماس فمرجعه إلى ما عرفه الشعب ، أيام المفاوضة مع لجنة ملنر ، من أن فريقًا من أعضاء الوفد يجنحون إلى مسالمة الإنجليز والرضا بالقليل ، وأن هذا الفريق الذى أطلقوا عليه اسم « المعتدلين » يحاول أن يسيطر على المفاوضات ، وأن عدلى باشا يستند إلى تأييد هؤلاء المعتدلين فى مفاوضة الإنجليز .

ولم تمض إلا أيام قليلة حتى تحوّل هذا الإحساس إلى أحاديث تروى فى المجالس بأن الخلاف دبّ بين سعد وعدلى حول تأليف الوفد الرسمى الذى يتولى المفاوضة مع الحكومة الإنجليزية ، وأن بعض الكبراء أمثال الأمير عمر طوسون والأمير عزيز حسن والشيخ محمد بخيت والسيد عبد الحميد البكرى يسعون فى سبيل التوفيق بينهما ويترددون عليهما ولكنهم لم ينجحوا فى مسعاهم . وهذا ما حدث فعلاً ، وبه صار ما كان يحّسه الشعب حقيقة واقعة .

أما أسباب هذا الخلاف فمردّها إلى أن الوزارة العدلية لم تقبل المطالب التى طلبها سعد باشا منها لإتمام المفاوضة . ويمكن أن نلّم تفصيلاً بهذه المطالب ورأى عدلى باشا فيها بقراءة حديثين صحفيين جرى أولها بين سعد باشا والأستاذ داود بركات رئيس تحرير «جريدة الأهرام» ونشر فى عددها الصادر يوم السبت ٢٣ ابريل سنة ١٩٢١ . وثانيهما لعدلى باشا نُشر فى نفس هذه الجريدة بعددها الصادر يوم الإثنين ٢٥ ابريل سنة ١٩٢١ ، متضمنًا رأيه فى المطالب التى طلبها سعد . وفيما يلى نص كل من هذين الحديثين ، نثبته كاملاً توضيحًا للموقف ، وبيانًا لأسباب هذا الخلاف الذى كان له أثر بالغ فى اتجاهات السياسة المصرية فى علاقاتها مع الإنجليز ، فيما بعد .

أما الحديث الأول فقد جاء فيه :

دواود بركات : هل اتفق الوفد مع الوزارة ؟

سعد باشا : لم يتم حتى الآن أي اتفاق بين الوفد وبين الوزارة .

داود بركات : وهل يمكن أن أعرف شيئًا عن الشروط التى اشترطتموها ؟

سعد باشا : أنا لا أرى الآن بأسًا من التكلم على تلك الشروط . لقد اشترطنا أن تعّين مهمة المفوّضين الرسميين وتحدّد بمرسوم سلطانى تحديدًا يتفق مع مطالب الأمة ومبادئ الوفد. أما هذه المهمّة ، مهمة المفاوضين ، فيجب أن تكون :

١ ـ الوصول إلى إلغاء الحماية إلغاء تامًا صريحًا ، أى إلغاء الحماية التى وضعت على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ والتى وردت فى «معاهدة فرساى» ومعاهدات الصلح الأخرى التالية لها .

٢ ـ الاعتراف باستقلال مصر استقلالاً دوليًا تامًا سواء فى الداخل أو الخارج . مع مراعاة إرادة الأمة التى أبدتها «بالتحفظّات» المدخلة

على مشروع اللورد ملنر عندما عرض عليها قبل الدخول فى المفاوضات .

٣ ـ إلغاء الأحكام العرفية والمراقبة الصحافية قبل الدخول فى المفاوضات .

٤ ـ أن تكون غالبية المفاوضين الرسميين للوفد ، وأن تكون رياسة الهيئة المفاوضة من الوفد .

هذه هى الشروط التى قرّر الوفد اشتراطها للاشتراك فى المفاوضات ، وقد بُلِّغت للوزارة .

داود بركات : هل تقرر شىء بشأنها حتى الآن ؟

سعد باشا : للآن لم يتقرر شىء فيها جميعًا . والقول بأن الوزارة قبلتها ما عدا الشرط الأخير لهو قول فى غير محله ، لأننا لم نتفق مع الوزارة على شىء منها .

داود بركات : وهل يرى الوفد أهمية كبرى لرياسة المفاوضين ؟

سعد باشا : نعم . لأن الوفد هو المسئول أمام الأمة عن المفاوضات ونتيجتها . فيجب أن يكون بيده إدارتها حتى يتصرّف فيها بإبداء كل ما يراه صالحًا ويوصلها ويقطعها حسب الأحوال . ولا يمكنه أن يتمكن من ذلك إذا كانت الرياسة بيد غيره .

داود بركات : ولكن هذا ليس منطبقًا على التقاليد المرعيّة ؟

سعد باشا : أى التقاليد تريدون ؟ إن لكل بلد تقاليده الخاصة به . ولم يقع لمصر حادث كالحادث الذى نحن بصدده حتى تكون لنا فيه تقاليد سابقة يرجع إليها ، ويُقال بالتمسك بها . إن حادثتنا نادرة فى بابها ، ولصاحب السلطان أن يجرى فيها طبقًا لما تقتضيه المصلحة . ومادامت سلطة المفاوضين تُمنح من السلطان والأمة ، فما المانع الذى يمنع عظمة السلطان من أن يعهد بهذه الرياسة لمن كملت ثقة الأمة به (فإذا منحها عظمة السلطان للوفد فمن ذا الذى يتضرّر من ذلك وينتقده ؟ أهم الإنجليز وليس لهم فى ذلك من شأن كما صرّحوا . . . أهى الأمة المصرية وهى تودّ ، بل تحتّم أن تكون الرياسة فى الوفد لنائبها ومحل ثقتها . فمن يكون له الحق بعد ذلك فى الشكوى ؟

داود بركات : هل الدخول فى المفاوضة والقضية على ما هى عليه الآن لا يكون مضرًا بمصر ؟

سعد باشا : إنى لا أرى منه ضررًا . ولا أخشى الضرر إلا من جهة واحدة ، وهى حدوث إنشقاق فى الوفد الذى يُعيّن للمفاوضة . ونحن نأمن هذا الانشقاق بأن يكون المفاوضون من مبدأ واحد ومن الذين يرمون إلى غاية واحدة هي غاية الأمة . إذا توافر ذلك لا يكون من وراء المفاوضة أدنى ضرر لأن المفاوضة بعد تحديد غايتها بالأمر السلطانى إن لم تفد فلا تضرّ .
إنى لم أسع ولن أسعى فى أن أكون مفاوضًا . ولكن الحكومة رأت ضرورة لاشتراك « الوفد » فى المفاوضات ، فرأى أنه لا يمكنه قبول الاشتراك بدون تلك الشروط . كما أنى لا أستطيع أن أؤيد أى مصرى يدخل هذه المفاوضة إذا لم تُحدّد مهمته بالمرسوم السلطانى على الوجه الذى تقدم ، حتى أكون واثقًا بأن الغاية التى يسعى إليها هى غاية الأمة . وأنا أقول فوق كل ما تقدم إن الوقت قد حان لتعلن الوزارة رأيها . إما بقبول هذه الشروط وإما برفضها لأن الأمة قلقة . والوفد أيضًا قلق .

داود بركات : إذا لم تقْبل هذه الشروط . وماذا يكون موقف الوفد ؟

سعد باشا : يكون موقف الوفد إن لم تقبل شروطه ، المحافظة على حقوق الأمة وإرشادها إلى ما فيه مصلحتها .

داود بركات : وإذا انفردت الوزارة بتولّى المفاوضات ، ماذا يكون موقف الوفد منها ؟

سعد باشا : إذا فاوضت الوزارة على غير شريطة الوفد أى بغير مرسوم سلطانى يعين مهمتها تعيينًا دقيقًا كما بيّنتُ لك ذلك فيما تقدم ، فإن الوفد لا يؤيدها ، بل لا يمكنه تأييدها أيضًا إذا عُيّن للمفاوضة من لا يكون حائزًا لثقة الأمة حيازة تامة [٢] .

وأما الحديث الثانى ـ حديث عدلى باشا ـ الذى نُشر فى ٢٥ ابريل ١٩٢١ فقد دار على النحو التالى :

داود بركات : لابدّ أن تكون دولتكم قد اطلعتم على حديث معالى سعد باشا فى « الأهرام» وقد أعلن فيه معاليه شروطه لدخول الوفد فى المفاوضة الرسمية . فهل

تسمحون دولتكم بالإبانة عن رأى الحكومة فى هذه الشروط ؟

عدلى باشا : إنى إذا أجبتكم إلى ما طلبتم فليس ذلك رغبة فى إثارة مناقشة صحفية بل لأبين للرأى العام خُطّة الحكومة فيما يتعلق بالمفاوضة المقبلة . تعلمون أنى إنما دُعيت لتأليف هذه الوزارة للقيام بمهمة المفاوضات الرسمية وقد قبلت هذه المهمة ، بعد أن قررت أنا وزملائى المبدأ والخطة اللذين نسير عليهما وأعلنّا ذلك للأمة فى برنامجنا السياسى . وتذكرون مبلغ ما أظهرته الأمه بجميع طبقاتها وهيئاتها السياسية من السرور والاغتباط وما أعربت عنه من تمام الثقة والتأييد . وعلى أثر ذلك حضر معالى سعد باشا وتحادثنا معه فى أمر اشتراك الوفد معنا فى المفاوضات الرسمية تنفيذًا لذلك البرنامج . وقد كان مدار الحديث بيننا على النقط الأربع التى ذكرها فى حديثه معكم .

الأولى : الوصول إلى إلغاء الحماية إلغاءً تامًا صريحًا أى الحماية التى وضعت على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ والتى وردت فى « معاهدة فرساى » ومعاهدات الصلح الأخرى التالية لها .

الثانية : الاعتراف باستقلال مصر استقلالاً دوليًا عامًا سواء فى الداخل أو بالخارج ، مع مراعاة إرادة الأمة التى أبدتها بالتحفّظات المدخلة على « مشروع اللورد ملنر » عندما عرض عليها قبل الدخول فى المفاوضات .

الثالثة : إلغاء الأحكام العرفية والمراقبة الصحفية قبل الدخول فى المفاوضات .

الرابعة : أن تكون غالبية المفاوضين الرسميين للوفد وأن تكون رياسة الهيئة المفاوضة من الوفد .

فكان جوابى على النقطتين الأولى والثانية أن ما يطلبه خاصًّا بهاتين النقطتين داخل فى برنامج الوزارة إذ أن إلغاء الحماية الذى ورد فى هذا البرنامج لا يحُتمل أن يكون له معنى آخر غير معنى الإلغاء التام الصريح . ليس فقط بين مصر وانجلترا ، بل إزاء الدول الأخرى أيضًا . كما أنه لا يمكن أن يكون هناك إستقلال لاشكّ فيه إلا إذا كان متحققًا فى الداخل والخارج . أما « التحفّظات » التى قدّمها الوفد « للجنة ملنر » ، فإننا لم نغفلها فى برنامجنا بل أعربنا عن عزمنا الأكيد على تحقيقها وذلك بقولنا فى برنامجنا إننا سنعمل فى أداء مهامنا

مسترشدين بما رسمته إرادة الأمة .

على إننى أظهرت لسعد باشا إستعدادى لأن أبيّن الأغراض التى ذكرها بهاتين النقطتين فى التقرير الذى سأرفعه إلى عظمة السلطان بطلب تعيين المفاوضين الرسميين . ولأن أصرحّ بأن الوزارة متفقة مع الوفد على أن تلك الأغراض هى التى يجب على المفاوضين العمل على تحقيقها . ثم أوضحت أن هذا التقرير يُنشر فى الجريدة الرسمية مع المرسوم الذى يصدر بتأليف هيئة المفاوضين . أما ما يطلبه سعد باشا من أن يكون تعيين مهمة المفاوضين الرسميين بمرسوم سلطانى ، فإن هذا يتنافر تنافرًا كليًّا مع التقاليد الدستورية . لأن مسئولية الخطط السياسية يجب أن تتحملها الوزارة وحدها .

أما عن النقطة الثالثة وهى الخاصة بإلغاء الأحكام العرفية والرقابة ، فإن الوزارة صرّحت فى برنامجها بأن ذلك من أعز أمانيّها . وهى قد مضت فى تحقيق هذه الأمنية ومهّدت السبيل للرجوع إلى القوانين العامة فيما يتعلق بحفظ النظام ولا شىء أدعى إلى تحقيق هذه الغاية من المحافظة على الهدوء والسكينة واحترام حرية الآراء .

أما فيما يتعلق بجعل أكثرية المفاوضين الرسميين من أعضاء الوفد ، فقد قلت إن المسألة ليست مسألة تحقيق أغلبية لجانب على آخر فإننا لا نمضى لمفاوضة انجلترا فى تقرير مستقبل مصر أحزابًا وشيعًا ، بل يجب أن نمضى متفقين على خطّة واحدة متشبعين بمبدأ واحد . وما دام الأمر كذلك فإنه يكون من السهل جدًّا الاتفاق على الأشخاص الذين تتألف منهم هيئة المفاوضين .

أما النقطة الرابعة وهى طلب الرياسة ، فقد أجبت عنها سعد باشا أن التقاليد السياسية فى جميع البلاد لا تسمح بحال من الأحوال أن يدخل رئيس حكومة فى مفاوضة سياسية ولا يكون رئيس الهيئة الرسمية التى تتولاها من قبل بلاده . على أننى مع تمسكّى بهذا المبدأ ، لا أقول بما قال به سعد باشا ولا أذهب إلى الحد الذى ذهب إليه من أن لرئيس المفاوضين إدارة المفاوضات « حتى يتصرف فيها بإبداء كل ما يراه صالحًا ويصلها ويقطعها حسب الأحوال » . فإن التصرف بالمفاوضات ووصلها وقطعها هو بالبداهة من حق الهيئة لا من حق الرئيس بمفرده . فإذا كان طلب سعد باشا الرياسة هو لتمكينه من هذا الحق فلا معنى إذن لاشتراك أحد معه فى المفاوضات .

هذا رأى الحكومة فى الموضوع الذى تسألنى عنه . والحكومة لا تزال تأمل أن يشترك

الوفد معها فى المفاوضات . على أننا قد عقدنا النية ، طوعًا لما عاهدنا عليه الضمير والوطن ، على العمل لتحقيق الغرض الأسمى الذى تصبو إليه البلاد .

* * *

كان لهذا الحديث الذى أدلى به عدلى يكن باشا دوىٌّ كبير فى مختلف الأوساط ، بل أنالا أغلو إذا قلت إنه كان له أسوأ تأثير فى النفوس . فقد كان الجميع يُعلّقون أكبر الآمال على هذه الوزارة التى تقدّمت إليهم ببرنامج وطنى خَلاّب يجعل منها وزارة تقوم على إرادة الأمة ، الأمر الذى لم يعهدوه من قبل . وكانوا يُشيّدون قصور الأمانى على تضامنها مع «الوفد المصرى» الذى وكّلوه للمطالبة بحقوقهم والتكلم باسمهم ، فلما قرأوا حديث عدلى باشا تساءلوا أين هذا الموقف من ذلك البيان الخلاّب الذى أعلنت فيه الوزارة أنها إنما تعمل « وفق مشيئة الأمة» . وهل العمل وفق مشيئة الأمة يتفق ورفض الوزارة جميع مطالب سعد باشا وكيل الأمة ؟ وهل يمكن أن يقول أحد إن الأمة ترضى من الوزارة ذلك التهديد الذى يهدد به عدلى باشا ، من عقده النية على العمل فى المفاوضات منفردًا ، دون سعد باشا ؟

كل هذا تساءل الناس عنه وهم يقرأون حديث عدلى باشا : وكان من الطبيعى أن يؤمنوا بأن القطيعة بدأت تدب بين سعد وعدلى ، أو بالأحرى بين عدلى والأمة كلها ، وأن يتوقّعوا من سعد باشا بيانًا يحدد به موقفه من الوزارة ، بعد أن أعلن رئيسها رفضها لمطالبه . كان هذا من الطبيعى . كما لم يكن من اليسير أن تبقى مثل هذه الأمور معلقة وقتًا ما قصيرًا أو طويلاً . وهذا ما حدث فعلاً وسنحت له الفرصة فى اليوم نفسه ، ففى مساء هذا اليوم زار رشدى باشا وأبلغه أن الوزارة قررت رفض مطالبه ، وكان سعد باشا مدعوًّا لحضور حفلة وطنية أقامها لتكريمه الأعيان والأهالى فى حى « شبرا » فذهب فى المساء إلى هذه الحفلة وفيها ألقى خطبته التاريخية المشهورة .

وقد نالت خطبة سعد باشا فى هذه الحفلة من الشهرة ما لم تنله خطبة قبلها لأى زعيم سياسى فى مصر . ففيها جاهر برأيه فى حكومة مصر على « عهد الحماية » ، كما بيّن بإسهاب لماذا يصرّ على أن يكون رئيس المفاوضين من الوفد المصرى . فلنستمع إليه وهو يردّ على دعوى عدلى باشا ، أن التقاليد جرت بأن رئيس الحكومة تكون له رياسة بعثة المفاوضة بقوله :

« إذا صحّ فى البلاد الأوروبية أن رئيس الحكومة يجب أن تكون له الرياسة دائمًا ، فلا يصح ذلك فى مصر مطلقًا بالنسبة للمهّمة السياسية التى نحن بصددها ، فإن مصر ليست بلدًا دستوريًا ، ووزاراتها لا ينتخبها الشعب . بل هى معيّنة من طرف الحاكم فلا يمكنها أن تدّعي أنها وزارة دستورية » نائبة عن الأمة ، فهى مُعيّنة من عظمة السلطان ، بل أجاهر بالحقيقة الآتية ـ المندوب السامى أيضًا . ومتى كان المرسوم السلطانى ممضى من رئيس الوزارة والوزراء فإنهم يكونون هم المسئولين عنه لأن عظمة السلطان يُمثل سلطة الحماية المضروبة عليكم رغم أنوفكم » .

بهذا التحليل الذى لا تنقصه الصراحة رد سعد باشا على عدلى باشا ، بل لم يكتف به إنما أضاف إليه قوله : « ليس لمصر وزارة خارجية الآن[٣] وسياستها الخارجية بيد الدولة الحامية . فلا يمكن لرئيس الوزارة أن يدّعى أنه يدير سياسة مصر الخارجية حتى يكون له وجه فى أن يكون رئيسًا للمأمورية سياسية متعلقة بمستقبل الأمة وبعلاقتها مع الحكومة الإنجليزية ، ورئيس الوزارة ليس إلا موظفًا من موظفى الحكومة الإنجليزية يسقط ويرتفع بإشارة من المندوب السامى ، وهو بهذه الصفة لا يمكنه أن يكون بإزاء رئيسه ، وزير خارجية انجلترا ، حرًا فى الكلام لأنه مدين له بمركزه » .

أرأيت إلى هذه الصراحة فى القول ؟ بل أرأيت هذه الحجّة البالغة يقرع بها سعد باشا دعوى عدلى باشا؟ ثم أرأيت لماذا يصرّ سعد باشا على أن يكون رئيس المفاوضين من الوفد فيكون حرًا « مرتكزًا على قوة لا تهاب شيئًا مطلقًا ، وهى قوة الأمة لا قوة مُستمدة من الحكومة الإنجليزية » .

ومضى سعد باشا فى خطبته التاريخية مبينًا أن « المفاوضة » إذا رأس وفدها رأس وفدها رئيس الوزارة كان معناها أن الحكومة الإنجليزية تفاوض الحكومة الإنجليزية نفسها . ثم أشار إلى أنه ليست هذه هى المرة الأولى التى يردد فيها هذا المعنى « ولكنى رفعتُ الصوت به فى وزارة المستعمرات الإنجليزية فى لندن ، فقلت للجنة « ملنر » فى جلسة ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٠ من الذى يُعيّن المفاوضين المصريين ؟ فأجاب : الحكومة المصرية . فقلت إذن « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » . !

وإذن لم يكن موقف سعد باشا من رياسة رئيس الوزارة المصرية للوفد الذى يفاوض الإنجليز موقفًا مبعثه الهوى والرغبة فى الانفراد بهذه المهمة ، كما لم يكن موقفًا مرتجلاً أو

صدر الرأى به عفو الساعة كما أراد خصومه السياسيون أن يصوّروه فيها بعد ، وإنما كان موقفًا مدروسًا ، محسوبًا حسابه ، وقائمًا على الاعتبارات الوطنية والأسانيد الدستورية السليمة ، قبل أن يخطر فى بال أحد من ذوى الشأن فى مصر أو فى انجلترا أن عدلى باشا سيُدعى لتأليف الوزارة وأنه سيدعو الوفد المصرى للاشتراك فى المفاوضة ، إذ يتضح من كلمة سعد باشا للورد ملنر أن عبارته « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » قد قصد بها كل رئيس للوزارة فى مصر يتولى مفاوضة الإنجليز ، تحت ظلّ الحماية .

وما من شك فى أن سعد باشا فى موقفه هذا إنما كان مقيدًا « بالوكالة » التى صدرت له من الأمة ، ملتزمًا حدودها ، ولو أنه لم يفعل ذلك كان هذا منه تنحيًا عن حمل أعباء هذه الوكالة ، وإهدارًا لرغبة الأمة ، وتعريض القضية الوطنية لأشد الأضرار . إذ كيف يُطمأن إلى حرية رئيس الوزراء المصرى المعيّن من جانب الإنجليز إذا ما جلس لمفاوضتهم حول مائدة واحدة ؟

وهكذا كانت خُطبة شبرا المشهورة « جهيزة التى قطعت قول كل خطيب » إذ حسمت الأمر وبها صارت الأمة فى واد ، والوزارة العدلية فى واد آخر .

وقد انحازت الأمة كلها لسعد فى هذا الخلاف ، إلا أقلية ضئيلة جدًّا ، ولم تبق هيئة من الهيئات الشعبية إلا أعلنت رأيها صريحًا ضد عدلى باشا وموقفه من الوفد ، وقد تجلّى ذلك فى كل مناسبة سواء فى الاجتماعات العامة والخاصة التى كانت تُعقد فى هذا الحين ، وفى التلغرافات التى انهمرت كالسيل على بيت الأمة ، وعلى صفحات الصحف ، على الرغم من الرقابة التى أحكمت عليها . ولم تفد أية محاولة لكسب ود الأمة أو إستمالتها إلى جانب الوزارة ، ولم تجد القوة فى تحويل الرأى العام عن تأييد سعد باشا ، فقد جَنّدت الوزارة الأداة الحكومية كلها لجذب الأمة نحوها فباءت بالفشل ، وألّبت كل قواها لجمع الأنصار واغتصاب الثقة ، فرجعت بالهزيمة . وكانت « عرائض الثقة » التى زيّفها رجال الإدارة بأمر الوزارة محل تندر الناس لا فى مصر وحدها بل فى انجلترا نفسها . إذ قالوا فى معرض السُخرية إن الذين وقّعت أسماؤهم بتأييد عدلى باشا كانوا « أكثر من عدد المصريين حسب التعداد العام » . . . !

وكذلك كانت الهزيمة تلاحق كل من يحاول التصدّى لإرادة الأمة . فمن ذلك مثلاً أن بعض المحامين ، وقيل وقتئذ إن عددهم لا يتجاوز أحد عشر محاميًا ، أقاموا حفلة تكريم

لعبد العزيز فهمي بك ، وهى مأدبة عشاء فى فندق شبرد ، فوقف رجال البوليس أمام الفندق لمنع كل إنسان من الدخول ما لم يكن حاملاً تذكرة دعوة ، وكان الاحتياط شديدًا . وصادف أن كنت فى الفندق فى ذلك الوقت ووصلت إلى البهو الداخلى حيث قاعة العشاء . فرأيت عبد العزيز فهمى داخلاً ، وحوله بعض الأشخاص يحيطون به خوفًا من الاعتداء عليه أو إهانته إذ كانت الجماهير مزدحمة أمام الفندق تهتف لسعد باشا وضد خصومه [٤] .

* * *

ولا يستطيع المُعقّب السياسى ، بعد أن انقضى على هذا الخلاف عشرون عامًا ، تعاقبت فيها الأحداث السياسية على مصر ، أن يترك هذا الحدث الجسيم يمرّ دون أن يقف منه موقف المُسجّل لخطورته ، ومدى تأثيره على السياسة المصرية كلها فيما بعد . إذ كان بداية إختلاف المصريين فى معالجة قضية بلادهم ، وتباين وجهات نظرهم فى مواجهة قوى الاستعمار . « فالمتشدّدون » منهم تكتلوا وراء سعد يشحذون همّة الشعب ، ولا يعبئون بتهديد أو يبخلون بتضحية . و« المعتدلون » يقفون من الإنجليز موقف المتهاون ، ومن الوطنيين موقف المتفرّج . ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى رأى هؤلاء المعتدلون أن يستقلّوا عن النشاط الوطنى العام ويؤلفوا حزبًا سياسيًّا أطلقوا عليه اسم حزب « الأحرار الدستوريين»، وقد أسندوا رياسته بادئ الأمر إلى عدلى يكن ، ولكنه لم يلبث أن تركهم ، فخلفه فى هذه الرياسة عبد العزيز فهمى .

هوامش الفصل السابع

(١) يقول التقرير البريطانى عن هذا الحفل انه كان مدعوًا له ستمائة موظف ولكن لم يحضره سوى ثلاثمائة بالاضافة إلى عدد من الأعيان F.o. 407/ 189 Inc. in No. 148.

(٢) تصف دار المندوب السامى ما جاء فى حديث سعد بانه انذار للوزارة

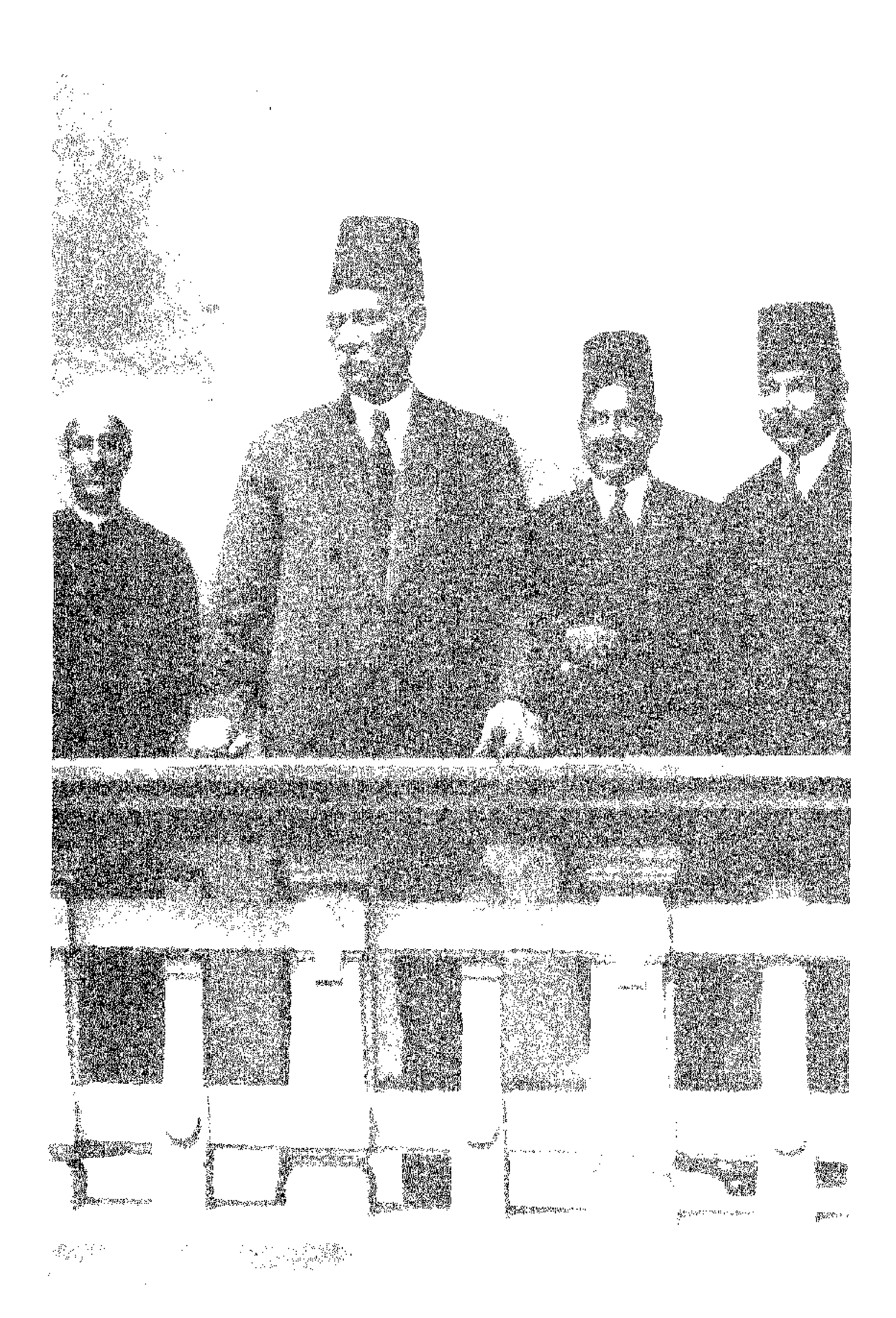
F . o . .407/189 Inc. in No 95 - ultimatum

(٣) ألغيت وزارة الخارجية المصرية مع اعلان الحماية البريطانية على البلاد فى نوفمبر ١٩١٤ ، واصبحت إدارة « شئون مصر الخارجية » خاصة ماتعلق منها بالاتصال بممثلى الدول الاجنبية فى القاهرة من اختصاص دار المندوب السامى فى العاصمة المصرية .

(٤) هذا الحفل الذى انعقد مساء الثلاثاء ٢٦ ابريل فى فندق شبرد احاط به المتظاهرون الذين قدرتهم دوائر دار المندوب السامى بأربعمائة متظاهر اغلبهم من الطلاّب وأمام الهتافات الصاخبة ضد خصوم سعد اضطرت الشرطة إلى التدخل واعتقال بعضهم غير ان ذلك لم يمنع المتظاهرين من التقدم بعد ذلك إلى دار عدلى يكن وهم مستمرون فى ترديد هتافاتهم F .o. 407/189 Inc. in Ivo. 95.



أمراء الأسرة المالكة المؤيدين للحركة الوطنية على اليسار : الأمير كمال الدين حسين وعلى اليمين : الأمير يوسف كمال



الزعيم سعد زغلول فى شرفة بيت الأمة يستقبل جموع الشعب وإلى يساره مصطفى بك النحاس
والأستاذ نجيب الغرابلى ويرى فى الصورة الشيخ الجزيرى السكرتير الخاص

الفصل الثامن
تفاقم الخلاف

الوزارة العدلية تفقد ثقة الأمة ـ سعيد باشا يؤيد سعدًا فى موقفه ـ أحمد مظلوم باشا يوضح أسباب تنحيه عن قبول تأليف وزارة ائتلافية ويبين رأيه فى الخلاف القائم ـ مظاهر سخط الأمة على موقف عدلى ـ مظاهرة طنطا ـ إطلاق الرصاص على المتظاهرين ـ الأقباط يمتنعون عن الاحتفال بالعيد حزنًا على شهداء طنطا ـ سعد يزور قبر « بطرس غالى » ويزور أعيان الأقباط ـ توالى الاجتماعات لتأييد سعد باشا ـ خطبة لسعد باشا فى المدرسة الإعدادية ـ اجتماع فى دار السادة البكرية ـ عدلى باشا يعلن انفراده بالعمل واستمراره فى الخطة التى رسمها ـ توالى وفود المؤيدين على بيت الأمة .

* * *

تبيّنت الأمة بوضوح أن الحق مع سعد باشا فانحازت إلى جانبه كما قدّمنا ، ولم يكن فى هذا غرابة ، بل كان هو المنتظر فعلاً . فإن موقف الصلابة الذى وقفه سعد باشا متجاوبًا فيه مع رأى الأمة التى لم تكن لترضى بالفُتات الذى كان يرضاه لها بعضهم ، وكان من الطبيعى بعد ذلك أن تفقد الوزارة العدلية ثقة الأمة التى كانت قد منحتها إيّاها بسبب إعلانها عن تكونها أنها تعتزم دعوة « الوفد المصرى » للاشتراك فى المفاوضات .

صحيح أن الوزارة وعمّالها بذلوا كل جهد لمحاولة ستر موقفها المتخاذل أمام الإنجليز ، بدعوى أن الأمة لا تزال تؤيدها وتمنحها ثقتها ، مستدلّة على ذلك بما كان رجال الإدارة يزيّفونه من عرائض تتضمّن إعلان هذه الثقة ، وبما كانوا يسوقونه لعدلى باشا من وفود المنتفعين وذوى المطامع . صحيح كل هذا ، ولكنه لم يجد فى حجب الحقيقة التى سفرت للعيان ، وهى أن سعدًا حائز لثقة الأمة كلها ، على مختلف طبقاتها .

وما أشبه الليلة بالبارحة كما يقولون . . . فقد وقفت الأمة من الوزارة العدلية ، موقفها من « لجنة ملنر » حينما حضرتْ إلى مصر متجاهلة سعدًا ومركزه فيها ، فكان نصيبها الإعراض عنها والاحتجاج عليها ومقاطعتها تلك المقاطعة التاريخية التى فرضت عليها فى النهاية الاتصال بسعد والاعتراف بزعامته .

وهكذا تجلّت طبيعة كامنة فى هذا الشعب الكريم الذى إذا ما أحب ظل وفيًّا لمن يحب . وإذا ما أخلص منح ثقته مطلقة لمن ائتمنه عليها ، لا يعرف فى ذلك نفاقًا ولا

تذبذبًا ، وإنما يمضى وراءه متفانيًا فى تأييده دون أن تؤثر فيه المؤثرات .

ولم يكن موقف الأمة من سعد فى هذا الخلاف مقصورًا على العامة دون الخاصة ، ولا على الأميّين دون المتعلمين ، كما ادّعى خصوم سعد حينما رأوا انصراف الأمة عنهم ، وإنما كانت ثقة عامة عارمة شملت كل طبقات الشعب : علماءه وطلابه وشبابه وعماله وموظّفيه وفلاّحيه ، لم يشذ منهم عن هذا الإجماع إلا حاسد سعدًا على زعامته ، أو من انتابه خور فى إيمانه الوطنى أو نفعى يرجو من الوزارة القائمة مغنمًا . . . !

فلنستمع فى هذا الصدد إلى محمد سعيد باشا ـ رئيس الوزارة الأسبق ـ حينما سُئل عما إذا كان من الممكن أن يتنازل عدلى باشا عن « رياسة » المفاوضين لسعد باشا فيقول ـ فى حديث له نُشر بجريدة وادى النيل ـ « إن ذلك ممكن بلا شك ، وماذا يمنع عدلى باشا من التنازل عن هذه الرياسة وهى لا تُذكر أمام مصلحة الوطن » ؟ .

فمصلحة الوطن فى تقدير هذا الرجل الكبير ، هى المناط ، وهى التى يجب أن تكون لها الغلبة فى النزاع على الأمر بين الزعيمين .

ولم يكن سعيد وحده ، من بين كبار رجالات مصر الذين تولّوا مناصب الوزارة أو غيرها من المناصب الرفيعة ، هو الذى جاهر بتأييد سعد باشا . بل لقد وقف غيره مثل موقفه هذا. ولعل من الواجب أن نذكر مثلاً لذلك ، التصريحات التى أفضى بها أحمد مظلوم باشا رئيس الجمعية التشريعية والوزير السابق . ففضلاً عن أنها كانت تؤيد سعد باشا فى موقفه فى تأليف وفد المفاوضة ، فإنها تكشف عن التيارات التى ذهبت بمشروع تأليف « الوزارة الائتلافية » التى كان قد عهد بتأليفها إلى أحمد مظلوم باشا ، كما قلت من قبل . تلك التيارات التى حملت مظلوم باشا على الاعتذار من عدم تأليفها ، وبهذا تحولت الأنظار إلى عدلى باشا ليجد « المعتدلون » ثغرة ينفذون منها لمحاولة السيطرة على الموقف . . . فقد أوضح أحمد مظلوم باشا فى حديثه مع جريدة « المقطم » أن السلطان فؤاد أوعز إليه فى بادئ الأمر بتأليف « هيئة » لا وزارة مع بقاء وزارة نسيم باشا فى مناصبها ، ثم أبلغه عدلى باشا بعد أن قابل السلطان أن الرأى استقر على تأليف « وزارة ائتلافية » برياسته . ثم قال مظلوم باشا : « رأيت أن بعض الذين يتحتمّ علىّ العمل معهم لا ينظرون إلى المسألة من الوجهة التى أنظر إليها فاضطررت إلى التنحى عن العمل ورفعت إعتذارًا بذلك إلى الأعتاب السلطانية » .

وهذا الذى يجمله مظلوم باشا فى بيان أسباب تنحيه يوضحه فى خطاب الاعتذار الذى وجّهه إلى السلطان فؤاد . إذ يقول فيه :

« تفضلتمْ عظمتكم وعهدتم إلىّ فى تأليف وزارة جديدة برياستى وتشكيل وفد يسافر إلى لندن لتبادل الآراء مع الحكومة الإنجليزية فى القضية المصرية . وإن شعائر الولاء وتقدير ما أوليتمونى إياه عظمتكم من الجميل بهذا الدليل الجديد على الثقة بى ، وتشريفى ، تحملنى على قبول هذه المهمة مع ما يعترضها من المصاعب التى كنت أرجو أن أتمكن من تذليلها . ولكنى رأيت لسوء الحظ أن هذه المصاعب فوق ما قدّرت . وألفيت نفسى أمام تضارب آراء وانتقادات واحتجاجات ومطامع شخصية واجتماعات ظهر لى أنها ملفّقة مدبّرة . أما والحالة على ما ذكرت ، فأرانى مُضطرا بالأسف الشديد إلى عدم قبول المهمة التى تفضلتم عظمتكم وعهد تم إلىّ فيها . وإنى فى غنى عن الإعراب عن رغبتى الشديدة فى خدمة شخصكم المُعظّم وهذه البلاد ، فى هذا الوقت الدقيق . ولكن وجود المصاعب التى يتعذر تذليلها والتى لقيتها فى سبيلى ، اضطّرتنى إلى اتخاذ القرار الذى أرفعه إلى عظمتكم » .

ونحن إذا فسرّنا ما جاء فى هذا الخطاب الذى كتبه مظلوم باشا فى ١٤ مارس ، بما حدث بعد ذلك من إبعاد سعد باشا عن المفاوضة ليسيطر « المعتدلون » على الموقف ، إذا فسرنا هذا بذلك ، أدركنا سر ما أوضحه مظلوم باشا من « المصاعب وتضارب الآراء والمطامع الشخصية والاجتماعات المدبّرة » ، إذ أدرك القوم أن مظلوم باشا ضالع مع سعد باشا فى موقفه ، وأنه ليس بالرجل الذى يستهين بإرادة الأمة أو يتحدّاها ، ومن هنا كان فشل مشروع « الوزارة الائتلافية » ليؤلف الوزارة عدلى باشا ثم ينفرد بالمفاوضة دون سعد ، مؤيدًا من الأقلية الضئيلة التى أطلقوا عليها اسم « المعتدلين » .

إزاء هذا أضّطر « المعتدلون » من أعضاء الوفد ، وقد انكشفت الخطّة المدبّرة لكى يرأس عدلى باشا وفد المفاوضة ـ مؤيدًا منهم ـ أن يرفعوا القناع عن أنفسهم وأن يظهروا على الملأ ، معلنين أنهم لا يوافقون سعد باشا فيما رأى . وأنهم لا يضنّون بثقتهم على عدلى باشا ، مخالفين بذلك إجماع الأمة . وقد حدث هذا على أثر اجتماع عقده فى يوم الخميس ٢٨ ابريل سنة ١٩٢١ استمر وقتًا طويلاً تحاجّ فيه الطرفان ، ولم ينته بنتيجة حاسمة تجمع بين الرأيين .

غير أن « المعتدلين » خرجوا على الأمة فى صبيحة اليوم التالى ـ الجمعة ٢٩ ابريل ـ ببيان

أذاعته الصحف الصباحية بأن سعدًا لا يحترم رأى الأكثرية وأنهم لا يرون لتصلبه مُبررًا وأنهم يؤيدون الوزارة العدلية .

وقد وقّع هذا البيان من أعضاء الوفد : أحمد لطفى السيد ، ومحمد على علوبة ومحمد محمود وعبد اللطيف المكباتى وحمد الباسل ، ثم انضم إليهم فيما بعد عبد العزيز فهمى والدكتور حافظ عفيفى وعبد الخالق مدكور[1]. ثم أعقب هذا البيان بيان آخر فى اليوم التالى ـ السبت ٣٠ ابريل ـ أذاعه سعد باشا بالرد عليه . عاتب فيه موقعى البيان من أعضاء الوفد لنشرهم الخلاف على صفحات الجرائد . مبينًا أنه أفرغ جميع الوسائل فى تلافى الخلاف معهم ، استبقاء للوحدة . وأنه لم ينجح فى ذلك لرفضهم إلا الاستمرار فيه ، مما يتنافى مع التضامن فى العمل الذى وضعه الوفد عند تأسيسه وأقسم الأعضاء الإيمان على إحترامه ، وأنه إزاء هذا الموقف لا يسعه إلا أن يعتبرهم « خارجين على الوفد » منفصلين عنه ، ثم بيّن أنه اعتمادًا على « الثقة الإجماعية » التى شرّفته بها الأمة فى جميع المناسبات بتأييد توكيلها إياه ، سيستمر الوفد فى العمل ، رئيسه وأعضاؤه المتفقون فى المبدأ والغاية .

وختم سعد باشا هذا البيان بعبارته الوطنية المأثورة « فلا تهنوا ولا تحزنوا فإن قضيّتكم عادلة ومصركم خالدة ، والله معكم » .

وقد وقّع هذا البيان مع سعد باشا ، أعضاء الوفد الذين أيّدوه فى موقفه ، وهم مصطفى النحاس وواصف بطرس غالى وسينوت حنا وويصا واصف .

* * *

وقد اجتاحت البلاد عقب نشر هذا الخلاف على صفحات الجرائد ، مظاهرات وطنية شملت مختلف طبقات الشعب وعمّت أنحاءها وكان المتظاهرون يهتفون لسعد ويعلنون سخطهم على الوزارة القائمة وسحبهم الثقة منها ، فأصدرت الوزارة أوامرها بقمع هذه المظاهرات والقضاء عليها بأى ثمن ، مما أدّى إلى اشتباكات عنيفة سالت فيها الدماء ، وسقط كثير من المتظاهرين صرعى المطالبة باحترام رأى الشعب فى اختيار المتكلمين باسمه .

وتعدّدت هذه المظاهرات وكثرت الاصطدامات بين الأهالى والبوليس ، وزاد عدد القتلى والجرحى ، إلى أن حدث حادث فى طنطا قوبل بالاشمئزاز من الجميع .

ذلك أنه بينما كنا جالسين مع سعد باشا فى مكتبه « ببيت الأمة » ، يوم الجمعة الكبيرة

عند الأقباط (الموافق ٢٩ أبريل سنة ١٩٢١) دخل أحمد الشيخ بك وأنبأ سعد باشا بأن محمود صدقي بك حكمدار الغربية أمر باطلاق الرصاص على جماهير الشعب والطلبة التي كانت تتظاهر في مدينة طنطا معلنة عن تأييدها له ، فُقتل من قتل وجُرح من جرح[٢] . . .

وقد تأثر سعد باشا بالغ التأثر لفعلة هذا الحكمدار وترّحم على القتلى وأرسل يواسي الجرحى . وعمّ الحزن أنحاء البلاد ، وكان « عيد الفصح » عند الأقباط في اليومين التاليين . وكانت « جمعية التوفيق » قد دعت إلى احتفال كبير تقيمه في مساء اليوم الأول ـ السبت ـ لتكريم سعد باشا برياسة كامل بك عوض سعد الله رئيسها ، فألغيت هذه الحفلة بسبب ذلك الحادث . وأرسلت أنا والأستاذ واصف غالي وسينوت حنا بك وجورجي خياط بك تلغرافًا بأن الأقباط لا يتبادلون التهاني بالعيد إحتجاجًا على سفك الدماء ، وحُزنا على الضحايا . وقد نُشر هذا التلغراف في جريدة « الأخبار » ، فأجمع الأقباط على الحداد وانقضى العيد في حزن وألم .

وحلّ شم النسيم في يوم الاثنين ٢ مايو ، وكان الدكتور علي إبراهيم بك ـ وزير الصّحة ومدير الجامعة فيما بعد ـ قد حضر إلى منزلي لطارئ استدعى حضوره فلما تأهب للخروج وعلم أني خارج على أثره للذهاب إلى « بيت الأمة » طلب إلى أن أصحبه في عربته لأنه ذاهب إلى منزله في شارع « الإنشا » القريب من بيت الأمة ، فركبت معه . وفي الطريق عرفت أنه يؤيد عدلي باشا . ووقفت بنا المناقشة عند وصولنا إلى بيت الأمة ، فنزلت أنا وسار هو بعربته إلى منزله .

ولما دخلتُ على سعد باشا سألني كعادته عمّا لديّ من الأخبار . فأخبرته بنبأ تناقلته بعض المجالس وهو أنه « معتقل » في منزله . فنفى هذا الخبر نفيًا باتًّا وقال إنه خرج أمس الأحد صباحًا وزار ضريح المغفور له « بطرس غالي باشا » زميله القديم ، بمناسبة « عيد القيامة » . وقال أيضًا إنه سأل عني لأرافقه في هذه الزيارة فلم يجدني ، وقد لحق به في الضريح الأستاذ واصف غالي ليكون في استقباله .

وفي اليوم التالي ، أي في يوم الثلاثاء ٣ مايو رأى سعد باشا الخروج لزيارة بعض كبراء الأقباط وتهنئتهم بالعيد ، ومنهم سينوت حنا بك وجورجي خياط بك ومرقص حنا بك والدكتور نجيب إسكندر والأستاذ ويصا واصف والأستاذ مكرم عبيد وآخرون . ثم جاء لزيارتي في منزلي بالعباسية لتهنئتي بالعيد وبمولد أصغر أنجالي وكنت قد أسميته « سعداً »

تيمّناً باسمه (٣) . وكان قد اجتمع فى المنزل جمهور كبير يتقدّمهم أعضاء « لجنة الطلبة » فلما وصل استقبلوه بحماسة بالغة وتعالى الهتاف بحياته وحياة المبادئ الوفدية . وفى أثناء الزيارة رحبت به بكلمة ألقيتها وأعربت فيها عن اغتباطى بهذا القدوم وفخارى به ، ثم تحدثت عن المبادئ الوطنية التى تجمعنا وتمسّك الأمة بها ثم قلت فى نهاية كلمتى « إن دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة » .

فردّ سعد باشا بكلمة شكر كان فيها كثير من اللطف والتكريم ، وقد أشاد فيها بغيرتى الوطنية ، كما شكر حبّى لشخصه ، إذ سمّيت ابنى باسمه . وأعرب عن اغتباطه بمظاهر الحفاوة التى استقبل بها من أهالى حىّ « العباسية » .

وبعد إنتهاء هذه الزيارة غادر سعد باشا منزلى بين مظاهر حماسية من الجماهير حتى وصل إلى « حى الظاهر » . وهناك وجدنا ألوفًا من الطلبة بينهم طلبة « المدرسة الاعدادية» ـ مكان مدرسة التجارة المتوسطة الآن ـ فاعترض هؤلاء الطلبة سيارة سعد باشا ، هاتفين مصفّقين . وطلبوا إليه النزول ودخول المدرسة وألحفوا فى هذا الطلب ولم يجد تدخل المحيطين بسعد باشا لإفساح الطريق له ، فنزل ودخل المدرسة واعتلى مرتفعًا فى فنائها ، وألقى فى الطلبة خطبة نارية أعلن فيها أنه سوف يواصل الجهاد ضد الإنجليز مهما تكن التضحية وأنه سيبذل هو وإخوانه الملتفّون حوله كل مرتخص وغال فى سبيل تحقيق مطالب الأمة ، ثم بيّن أنه يستند فى هذا الجهاد إلى تأييد الشعب له « لأننى كلما رأيت جماعة تتكلم ، تتجدد عندى القوّة وما أقول عنها إلا أنها قوة إلـهية يمنحنى إيّاها الله الكريم(٤) .

وتوالت الاجتماعات السياسية بعد ذلك ، وانطلقت المظاهرات فى القاهرة وعواصم المديريات والمحافظات والمراكز وكلها تعرب عن تأييد سعد باشا وسحب الثقة من وزارة عدلى باشا وإعلان أن الوفد الرسمى الذى شرع عدلى باشا فى تأليفه لا يمثل الأمة ولا يحق له التكلم باسمها (٥) .

وقد عقد سعد باشا ـ وقتذاك ـ اجتماعًا كبيرًا فى دار « السادة البكرية » بالخرنفش حضرته ألوف من كافة الطبقات وفى مقدمتهم الأمير عزيز حسن . وقد ألقى سعد باشا فى الاجتماع خطبة تعرّض فيها للأحاديث التى دارت بينه وبين عدلى باشا فى صدد تأليف « الوفد الرسمى » ، والشروط التى إشتراطها ، لكى يضمن للمفاوضين المصريين حريتهم فى المفاوضة .

وكان من المرجوّ بعد أن أفصحت الأمة عن رأيها فى الموقف السياسى - أيّما إفصاح - وأعربت عن كامل ثقتها وتأييدها لسعد باشا . كان من المرجو أن يعدل عدلى باشا عن المضىّ فى السعى لتأليف « الوفد الرسمى » لمفاوضة الإنجليز ، نزولاً على الإرادة العامة واحترامًا لها . ولكنه على ما يظهر كان متأثرًا بآراء المحيطين به الذين صوّروا له الأمر كأنه أمر كرامة . وأن فى تراجعه جرحًا لها وإهدارًا لشخصيته السياسية ، وامتهانًا لمكانته التى كان شديد الحساسية فى الاعتزاز بها ، ولهذا أذاع على الأمة أنه لن يتراجع عن موقفه وأنه شرع فى تأليف وفد « للمفاوضين الرسميين » تحت رياسته ونشر بيانًا جاء فيه أنه :

« نظرًا لأن الخطّة التى انتهجها سعد باشا قد سدّت كل طريق للاتفاق معه ، فقد قررت الوزارة السير فى عملها الذى أخذته على نفسها وعرضت على عظمة السلطان ، فصدر نطقه الكريم لى بتأليف وفد المفاوضين الرسميين تحت رياستى » .

وقد أحدث هذا البيان خيبة أمل شديدة لدى الذين كانوا يسعون ، منذ أن دبّ الخلاف ، لرأب الصدع فى صفوف الأمة .

وفى يوم السبت ٧ مايو أقام سعد باشا حفلة فى فندق الكونتننتال دعا إليها ممثلى الهيئات التى احتفلت بتكريمه بمناسبة عودته من الخارج . وبعد تناول الشاى انتقلنا إلى البهو الكبير فى الفندق فجلس سعد باشا وإلى يساره الأمير عزيز حسن وعلى ماهر بك وإلى يمينه أحمد مظلوم باشا ومصطفى النحاس بك والأستاذ واصف غالى وسينوت حنا بك . وكان ممن حضروا الشيخ محمد بخيت والسيد عبد الحميد البكرى وأحمد يحيى باشا ومصطفى ماهر باشا وإبراهيم سعيد باشا . وكنت أتولى مع فتح الله بركات باشا استقبال المدعوين . وكان الزحام شديداً إذ بلغ الحاضرون عدّة آلاف [٦] .

وظلّت بعد ذلك مظاهر التأييد الشعبى لسعد باشا تتتابع . وسنحت الفرصة بحلول «عيد الفطر » فأقبلت الوفود من الأقاليم ، فكان بيت الأمة يمتلئ بهم وكان سعد باشا يستقبل هذه الوفود ويلقى فيها من شرفة « بيت الأمة » كلمات وطنية تلهب الشعور وتزيد الحماسة . وقد برزت خلال هذه الأيام مواهبه الخطابية النادرة حتى أنه مضتْ ثلاثة أشهر وهو يلقى فى كل يوم خطبة أو اثنتين أو ثلاثًا ، كان فى كل خطبة منها معنى جديد ، ورأىٌ يصارع به مخالفيه فى الرأى فيلزمهم الحجّة ، ويقطع عليهم السبيل .

وكنا نحن القريبين منه فى هذه المعركة نشفق على صحته ، ونعجب بقدرته على هذا

الصراع الشديد وهو الرجل الذي جاوز الستين ، ولكنه كان يضحك من المشفقين عليه ويقول إن صحته تتقدم ، وحيويته تتجدد ، في مثل هذا الصراع . . !

كما كان يوالي الكتابة في الصحف ويُدلي للصحفيين بأحاديث يبيّن فيها وجهة نظره في مسألة المفاوضات ورياستها . يتحدث في ذلك إلى الأستاذ عبد القادر حمزة في جريدة «الأهالي» ، والأستاذ داود بركات في « الأهرام » والأستاذ أمين عز العرب في جريدة «النظام» وغيرهم من أصحاب الصحف ومحرّريها أو المتصلين بها (٧) .

هوامش الفصل الثامن

(١) سبق هذا بيان من على شعراوى باشا يعلن فيه استقالته .

(٢) جاء فى التقرير البريطانى عن هذه الحادثة أن المظاهرات بدأت بعد صلاة الجمعة وانها استمرت لأربعة أيام متوالية وشارك فيها الطلبة وجماهير المدينة وأن صداما واسعا حدث بين المتظاهرين ورجال البوليس ، الأمر الذى أدى إلى الاستنجاد بالقاهرة وقدوم المدد من رجال الشرطة وتمخضت الاحداث عن مقتل أربعة واصابة ٢٣ بطلقات نارية بالاضافة إلى ٣٣ مصابا آخرين .

.F. o. 407/ 189 Inc. in. 118

(٣) تعريف هنا عن سعد فخرى عبد النور .

(٤) يرى المندوب السامى البريطانى ان تلك الزيارة كانت مقصودة من سعد سواء لأن تلك المدرسة كانت من معاقل التأييد للوفد أو لأنه أراد إعادة تجميع الطلاب حوله باعتبارهم جنود سعد

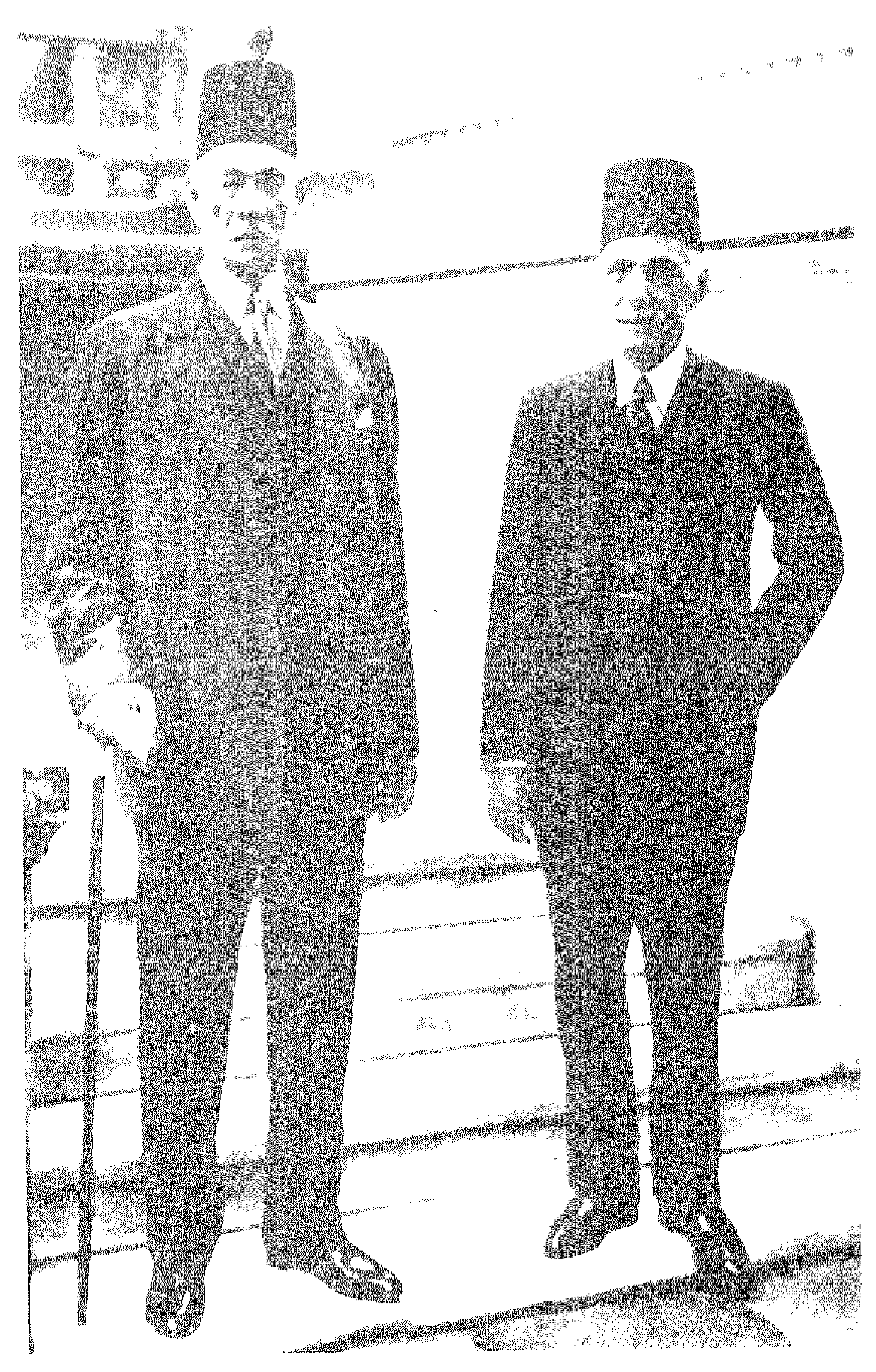
.F. o. 407/189 Inc. in No. 118

(٥) تقول الوثائق البريطانية ان المظاهرات والاضرابات قد امتدت بالاضافة إلى طنطا لكل من الاسكندرية وبورسعيد وجرجا وتلقى المسئولية بالنسبة للمدينة الأخيرة على سينوت حنا تعاونه مجموعة من الأزهريين F.o . 407/189 Ibid .

(٦) يقول التقرير البريطانى عن هذه الحفلة انه بالرغم من أن الوزارة قد حذرت الموظفين من حضورها فان عددا كبيرا منهم قد قصدها (بين ٣٠٠ و ١٠٠٠ موظف حكومى)

.F. O.407/189 Inc. in No. 143

(٧) من الصحف التى كانت تصدر وقتذاك واتخذت موقفًا أو آخر من الهتاف : المقطم ، الوطن ، الأخبار ، الاهرام ، مصر الأهلى ، وادى النيل ، النظام ، المحروسة ، الأمة .



سعد زغلول وفتح الله بركات على درج سلّم بيت الأمة

الفصل التاسع

إعلان تأليف الوفد الرسمى ـ تبادل وثائق تأليف هذا الوفد بين الوزارة والسلطان ـ حوادث الإسكندرية الدامية ـ سعد باشا يحتج على الوزارة ويطلب من السلطان فؤاد تأليف « لجنة لتحقيق الحوادث» ـ سعد باشا يطلب من الأمة الإخلاد إلى السكينة ـ رأى سعد باشا فى وثائق تأليف الوفد ـ حفلة الموظفين لتكريم سعد باشا ـ تكريم الموظفين ـ توالى الحوادث بين الأهالى والبوليس ـ تأليف الوفود الإدارية لتأييد عدلى ـ تعرّضى لوفد جرجا الحكومى ـ عبد الخالق ثروت يأمر بمحاكمتى والقضاء يحكم ببراءتى ـ ازدياد الاضطهاد والعسف بالوطنيين وتأليف لجنة وطنية لتلقى الشكاوى .

* * *

وألّف « الوفد الرسمى » للمفاوضة فى يوم مايو سنة ١٩٢١ ، برياسة عدلى باشا ، على الرغم من احتجاجات الشعب ، بل على الرغم من سخطه وغضبه . وما كاد يُعلن عن تأليفه حتى عَمّت المظاهرات العدائية للوزارة أنحاء البلاد ، وحدثت حوادث مفجعة . إذ أعتدى على المتظاهرين وأطلق الرصاص عليهم واتخذ البوليس الكثير من الوسائل العنيفة ضد الأهالى .

وقد تألف هذا الوفد من عدلى باشا رئيساً ، وحسين رشدى باشا وإسماعيل صدقى باشا ومحمد شفيق باشا وأحمد طلعت باشا ويوسف سليمان باشا أعضاء ، كما ألحق به الأساتذة إبراهيم وجيه وعبد الحميد مصطفى وتوفيق دوس وأحمد أمين ومحمود فايد وعبد الحميد سليمان وعبد المجيد عمر ويوسف قطاوى باشا ومحمد أبو الفتوح باشا والدكتور يوسف نحاس وإلياس عوض بك واللواء محمود عزمى والقائم مقام محمد يوسف بصفة مستشارين فنيين . وتألفت هيئة السكرتيرية من الأستاذ محمد شريف صبرى (الوصى على العرش فيما بعد) وإبراهيم فهمى وحسن فريد وأحمد كامل وحامد العلايلى وإبراهيم دسوقى أباظه ومحمد خطّاب وحسن نصيف وعبد القوى أحمد وعباس سيد أحمد وأحمد محمد حسنين (رئيس الديوان الملكى فيما بعد) .

وقد رفع عدلى باشا إلى السلطان فؤاد كتاباً لمناسبة تأليف هذا الوفد الرسمى ، ضمّنه الخطة التى سوف ينتهجها فى مفاوضة الإنجليز قال إنه : « سيكون الغرض الرئيسى للمفاوضين المصريين وأول همّهم أن يصلوا إلى اعتراف بمصر دولة مستقلة فى الداخل وفى

الخارج وإلغاء الحماية إلغاء صريحاً لا فى علاقات مصر وبريطانيا العظمى وحدها، بل فى علاقات مصر والدول الأخرى أيضا . أما ما يتعلق بمذكرة « ملنر » المؤرخة ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٠ فسيحرص المفاوضون على تحقيق « تحفّظات » الأمة بشأنها » .

ولم يستطع عدلى باشا أن يتجاهل خلافه مع الوفد ، باعتباره الهيئة الموكّلة من جانب الأمة للسعى فى سبيل استقلالها ، فقال « ولقد تبيّنا أن المبادئ التى أشرت إليها تتفق تمام الاتفاق مع مرامى « الوفد المصرى » ، ولكنه وهو يعلم أنه مرتبط بما وعد به فى كتاب تأليف الوزارة من حيث دعوة الوفد المصرى للاشتراك فى المفاوضة ، استدرك على هذه العبارة بقوله « غير أنه للأسف استحال الحصول على اشتراكه معنا ، تحقيقاً للرغبة التى أبدتها الوزارة فى برنامجها ، وكان ذلك بسبب خلاف على كيفية تشكيل الوفد الرسمى » .

ولا شكّ أن موقف عدلى باشا فى هذه النقطة كان يتّسم بالتناقض ، إذ أنه فى الوقت الذى ينادى فيه بتمسّكه بتحقيق الأهداف التى تكّون « الوفد » من أجلها ، يقرر حرمان هذا « الوفد » من مباشرة مهمته الرئيسية التى وكّلته الأمة للاضطلاع بها ، وهى مفاوضة الإنجليز . ويتولاها هو منفردا مع بعض أصحابه .

ولعلّ عدلى باشا خشى من مواجهة الأمة ممثّلة فى وفدها ، بما قد تسفر عنه المفاوضات، فنوّه فى ختام كتابه بأن « القول الفصل سيكون للأمة ممثلة فى « جمعية وطنية»، وأن الوزارة « ستُعنى ببحث وتحضير مشروع قانون الانتخاب لتلك الجمعية ومشروع دستور يعرض عليها » .

وجديّر بالتنويه أن ذكر « الدستور » فى هذه الوثيقة الرسمية ، والدعوة إلى تأليف «جمعية وطنية » لإقراره ، كان للمّرة الأولى منذ قيام الحركة الوطنية .

* * *

وكان يهمّ الأمة أن تعرف رأى سعد باشا فى الوفد المسافر وفى الخطّة التى سوف ينتهجها لمفاوضة الإنجليز . فرأى سعد باشا أن يدلى بحديث فى هذا الشأن لجريدة الأهرام «ضمّنه» آراءه فى الموقف ، قال فيه :

س ـ ما رأى معاليكم فى الخطاب الذى رفعه دولة رئيس الوزراء إلى عظمة السلطان بشأن تعيين المفاوضين الرسميين ؟

جـ ـ إن هذا الخطاب إستند إلى الدعوة الإنجليزية بتأليف وفد للمفاوضة وإلى وعود

لاتتفق مع مرمى الدعوة ، خصوصا ولم يصدر من الطرف الإنجليزى ما يدلّ على إمكان قبولها . والسياسة الإنجليزية تقضى بأن لكل طرف أن يقول ما يشاء ولا يرتبط الطرف الثانى بقوله إلا إذا صرّح بقبوله . على أن الوزارة العدلية أتمّت فى عهدها القصير ما نفّر الناس منها ، وجعلهم يعتبرونها مُضيّعة لآمالهم ومضرّة بمستقبلهم ، فهم لا يرتاحون لأى وعد منها مهما كان جميلا ، ولا يثقون بأى عهد يصدر منها مهما كان وثيقًا ، بل أصبحوا يعتقدون بالاستناد إلى هذه الأعمال أنها سوف تأتيهم بمشروع لا يتفق مع أمانيّهم ، ثم التمهيد فى حملهم على قبوله بمثل ما تستعمله الآن من وسائل الشّدة البالغة والاستمالة الخادعة .

وهم لم يروا فى تشكيل وفد للمفاوضة ما يضعف اعتقادهم ، بل لم يجدوا فيه إلا تأييدا لرأيهم ، لأنه تأليف ممن ليس لهم موقف ثابت فى المطالبة بالاستقلال التام ولا يتفق مع ماضى أغلبهم وحاضرهم . وكلهم ممن أيّدوا « مشروع ملنر » المُثبت لأركان الحماية فى أخصّ معانيها .

والوزارة لشعورها بعدم ثقة الأمة بها لم تشر إليها فى هذا الخطاب ، ولكنها أشارت إلى ثقة عدد كبير من أعضاء الوفد « المنشقين » . فهل ترى أنها لحيازة ثقة هؤلاء تكتسب ثقة الأمة أيضا ؟ . إن الأمر أكبر من أن يعالج بالإيهام أو بوعد خَلاّب أو بعبارة طلّية ، إنه مصير أمة بتمامها لا يمكنها أن تسمح بأن يتولاه إلا من أعلنت بهم ثقتها ، فليذهب وفد الوزارة للمفاوضة إن كانت لا ترى ضرورة ثقة الأمة بهم . ولتعلم الحكومة الإنجليزية أنها إذا تفاوضت معهم فإنها تتفاوض مع وفد لا يمثل إلا أشخاص أعضائه ، ولا يمكن أن ترتبط الأمة بنتائج أعمالهم .

س ـ ولكن الوزارة تعتمد على ما عندها من قرارات الهيئات النيابية وغير النيابية بتأييدها . أفلا يكفى ؟

جـ ـ إن الهيئات النيابية لم تبد جميعها ثقتها بها لأن كثيرا لم يعطها ثقته . ثانيا إن ذلك كان قبل تأليف الوفد الرسمى ، أما بعد تأليفه ، فإن من هذه الهيئات ما عدل عما بذل . وثالثا أن المديرين تدخلوا فى حمل هذه الهيئات على تأييد الوزارة . وعندى أدلة قاطعة على ذلك . وفضلا عن هذا ، فإن آلافا مؤلفة من موكّلى هذه الهيئات أعلنوا إلىّ صراحة ، أنهم لا يقرون نوابّهم على ما أبدوه . وأنهم لم يكونوا فيه إلا مُعبّرين عن آرائهم الشخصية . فلتحترم الوزارة الحقيقة لأن الأمر أصبح واضحاً لا يحتمل الإبهام .

س ـ إن برنامج الوزارة فى عملها بالمفاوضة ، هو نفس البرنامج الذى بسطه معاليكم يوم السعى للاتفاق مع الوزارة .

جـ ـ إن اتحاد البرامج لا يكفى ، بل يجب العزم على تنفيذه . وكل الدلائل تدل على أن العزم غير موجود ، وأن هذه الوعود لا يمكن تنفيذها ، لأن أعمالهم الماضية والحالية أثبتت بكل جلاء أنهم لا يوفون بوعودهم . ولهذا أصبحت الأمة لا تركن بحال من الأحوال إلى وعود من هذا القبيل .

س ـ ما رأيكم إذا سافر المفاوضون وقد انقطع الأمل فى الاتفاق مع معاليكم ؟

جـ ـ فليسافروا غير موثوق بهم ، وليسافروا على حسابهم لا على حساب الأمة .

* * *

ثم كان أن وقع تصادم خطير فى الإسكندرية يوم الأحد ٢٢ مايو قُتل فيه كثير من الوطنيين والأجانب والجنود ، وقُدّر فيه عدد القتلى والجرحى بالمئات وأفلت الزمام من يد قوات الأمن الداخلية فاستنجدت الحكومة المحلية بقوات الاحتلال البريطانية .[١] وكنّا وقتئذ ملازمين لسعد باشا وقت ورود أنباء هذه الحوادث المفجعة إليه فما رأيناه تأثر لشىء مثل تأثره لها وتأسفه عليها ، واستنكاره لما وقع من اعتداءات على الأرواح والأموال بلا سبب . وبادر فرفع إلى السلطان فؤاد تلغرافا احتجّ فيه على الوزارة لتعدّيها على الأهالى الآمنين واستعمال القوة متهما ايّاها ، بأن الغرض الحقيقى من ذلك هو إخفاء غضب الأمة عليها وكبت شعورها من الظهور بطريقة واضحة ، مع تحميل الوزارة مسئولية ما حدث وما سوف يحدث . وطلب تأليف « لجنة لتحقيق هذه الحوادث » تكون مُنتخبة من الجمعية التشريعية .

ومما يستدعى الالتفات أن مستر « انجرام » ، وهو ضابط إنجليزى فى البوليس المصرى ، مشهور بالغلظة والقسوة والوقيعة بين المصريين والأوروبيين ، كان يشغل ـ وقت هذه الحوادث ـ وظيفة مأمور الضبط فى محافظة الإسكندرية ، مما خلق جوّا من الريبة حول تصرّفاته . سّيما وأن مستر « تشرشل » وزير المستعمرات ، أدلى بتصريح ـ عقب وقوع هذه الحوادث ـ حاول فيه استغلالها لصالح انجلترا ، مستنداً إليها فى تبرير بقاء الاحتلال حماية لأرواح الأجانب[٢] . . . . ! وهو أسلوب اشتهر به هذا السياسى الاستعمارى البريطانى كلما أعوزته الحجّة فى مواجهة الوطنيين فى البلاد المحتلة أو المستعمرة .

ثم رأى سعد باشا ، وهو الذى يعلم مدى تعلق الشعب به أن يدعو أفراده إلى ترك المظاهرات ، حقناً لدمائهم من أن تراق ظلما وبلا موجب . فأذاع بياناً ناشد الأمة فيه الوطنية الصادقة والإخلاص الصحيح ، وأن تقابل الحالة الخطيرة التى أوجدتها الوزارة بتدخلها . بما عهد فيها من الرزانة والسكينة وأن تستمر فى إكرام « ضيوفها الأوروبيين » .

وكنت قد أسلفت الإشارة تفصيلا إلى الحفلة التى أقامها موظفو الحكومة فى ٦ مايو سنة ١٩٢١ ، تكريما لرئيس الوفد ومناصرة له فى موقفه إزاء رئيس الحكومة حول موضوع تمثيل مصر فى مفاوضات الاستقلال الوشيكة الحصول . وبيّنت ما أحدثته تلك الحفلة من الأثر فى النفوس لما كان لها من طابع الجرأة واستقلال الرأى والكرامة القومية كما لو كنّا لم نتوقع بروز هذه الصفات العالية وإذا بها قد فاجأتنا فبهرتنا وانتزعت إعجابنا . كما استفزت غضب الوزارة العدلية فطاش حلمها وأنزلت نقمتها بأولئك الموظفين .

وكان رد الفعل الطبيعى لهذا الاضطهاد مبادرة النزعة الوطنية إلى تكريمهم . فكانت أولى الحفلات التى أقيمت لذلك الغرض يوم الأحد ١٩ يونيو فى الأرض الفضاء التى تقع فى مكان العمارة المواجهة للمدرسة السنّية بشارع المبتديان لتكريم صادق حنين بك بمناسبة صدور قرار مجلس الوزراء بفصله من خدمة الحكومة [٣] ، ومن أروع مظاهرها أن الداعين إلى إقامتها كانوا ٧٦ موظفا من رجال القضاء والنيابة والطّب والهندسة والتعليم والإدارة ، نُشرت أسماؤهم جميعا فى الصحف فى جرأة وطنية وجّهت هذا التحدى العلنى للحكومة جواباً على وسائل الإرهاب التى لجأت إلى استخدامها ضد الموظفين الأحرار . وحضر الحفلة بضعة آلاف من الموظفين وسواهم . وخطب فيها الزعيم سعد وأحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وغيرهم .

كما ألقى المحتفل به كلمة شكر كان مما جاء فيها « إن الحرية لازمة لكل شعب فى كل زمان ومكان ولكنها اليوم أشد لزوماً لنا منها فى أى زمان آخر . . . وكل يوم ينقضى يأتينا ببرهان جديد على أن المصريين قد خلعوا عن نفوسهم رداء الوهن العتيق ، واتشّحوا بحلّة القوة المعنوية التى تجلّت فى المحاسبة على كل صغيرة وكبيرة تتصل بحقوق الوطن حسابا دقيقا . كما تجلّت فى التّمسك بحرية الرأى قولا وعملاً . وما دامت نار الحرية المقدسة تذكو فى قلوبنا فإنها ستكفل لنا الظفر بتحقيق كل أمانّينا القومية » .

وفى يوم ٢١ يونيو أقيمت فى نفس هذا المكان حفلة أخرى لتكريم الموظفين التسعة وقد رأسها الأمير عزيز حسن ، وكان فى مقدمة من حضرها سعد باشا وأحمد مظلوم باشا

وآلاف من الوجهاء والشباب . وقد افتتح الأمير عزيز حسن الحفلة بقوله « السلام عليكم، باسم الله أفتتح الحفلة التى تقام لتكريم الموظفين التسعة » . ثم وقف الأستاذ محمد أبو شادى بك وارتجل خطبة بليغة وأعقبه الأستاذ محمد نجيب الغرابلى [٤] ـ المحامى بطنطا إذ ذاك ـ ثم عبد العزيز الغريانى بك وهو من كبار الإسكندريين ، وقد ألقى كلمة عن أهل هذه المدينة أعرب فيها عن مشاركتهم فى تكريم هؤلاء الموظفين ثم تلاه الأستاذ الشيخ محمد على ندا القاضى الشرعى (ومما يذكر أن الوزارة جازته على هذه الخطبة بنقله من السنطة إلى إسنا) . ثم الأستاذ أمين عز العرب .

وكان قد طلب منى أن ألقى باسم لجنة الوفد المركزية خطبة فى تكريم هؤلاء الموظفين الأبطال الذين تحدوا قوة الوزارة فلم يرهبهم سيف المعز ولم يستهوهم ذهبه ، فهاجمتُ الوزارة العدلية هجوها شديدا لاعتمادها على القوة وتحديها رغبة الأمة .

وأضفت :

« إنه كان من مظاهر اعتداء القوة التى التجأت إليها رغبة فى إسكات صوت الحق ، أنها أمرت الموظفين أمرا بأن يتخلوا عن ضمائرهم ويسلكوا سبيل سياستها دون سواه من السبل . فأنذرتهم بأنهم ليس لهم أن يبصروا إلا بأعينها أو يسمعوا إلا بآذانها فإن خالفوا جازتهم شر جزاء . وكأنّى بها ، نسيتْ من هم أولئك الموظفين الذين تخاطبهم بهذا اللسان. أو تناست الدور العظيم الذى قاموا به منذ بداية النهضة الاستقلالية أو توهمت أن حميّتهم . وعزائمهم قد خارت . وماتت فيهم الكرامة الشخصية وتلاشت الكرامة القومية . أخطأ ظن الوزارة وانجلى الاغترار بالقوة هذه المرة أيضا عند انتصار الحق وياله من نصر مبين » .

ثم أشرت إلى « أن الوزارة ها لها أن يكون الموظفون ، على الرغم من تهديدها ، مع زعيم الأمة وأحالتهم إلى مجالس التأديب ، وفاتها أن فى مصر قضاة . فلّما صدر الحكم ببراءة القاضى النزيه سلامة بك كان قضاءً مبرما على القوة وعلى الخطّة التى اتخذتها الوزارة ، ولكنّ الوزارة بدلا من أن تقدم البلاد مثلا حسنا فى احترام استقلال القضاء أبت إلا أن تسترسل فى خطّتها . وانتقمت لنفسها من الوطنى المخلص صادق حنين بك ففصلته من وظيفته ، بعد صدور حكم أكبر هيئة قضائية بساعة واحدة وبغير أن تنتظر حكم مجلس التأديب الذى كان قد أحيل إليه فكانت نتيجة ذلك أن ازدادت الأمة إكبارا لهذا الموظف الأمين » . ثم قلت .

« إن الوزارة قد أدركت عكس ما أرادت ، فإن لجنة التسعة الأحرار استحالت إلى لجنة من سبعة وسبعين موظفا كبيرا من رجال القضاء والنيابة والتعليم والطب والهندسة والإدارة ، والسبعمائة موظف الذين حضروا حفلة الكونتننتال قد بلغوا ثلاثة آلاف فى حفلة يوم الأحد الماضى فما أقدر القوة على إعلاء منار الحق وبسط ظله على القلوب . وما أشد خطأ المتكلين على القوة فى صراعهم مع الحق فإنهم كلما ازدادوا عليها اعتمادا زادتهم خذلانا» .

ثم تحدثت عن المفاوضات « وأن الوزارة عملت على إبعاد الوفد عنها وعملت على هدم ذلك الطود الشامخ المتمثل فى شخص سعد باشا زغلول وهو الذى لمّ شتاتنا ، وجمع كلمتنا وصدم القوة بوحدتنا وذاد عن حوض استقلالنا وجاهر بحريتنا . وهو أرحب القوم صدراً وأصدقهم إيمانا . وأثبتهم جنانا ، وأطلقهم لسانا ، وأقواهم إرادة ، وأصلبهم عزيمة . وهو البناء العظيم الذى بذلنا أرواحنا ودماءنا وأموالنا فى تشييده . وهو الصرح الذى عجزت القوة الإنجليزية عن أن تمسّه بسوء . فجرى ذكره فى مشارق الأرض ومغاربها مجرى الأمثال فى الدلالة على قوة الاتحاد . ولكن محال أن ينالوا منه شيئا ، فإن فيه من روحه القوية ووطنيته المتينة ، ومن تأييد أمته التى أولته ثقتها وإخلاصها ما يكفل له الفوز على القوة فى نهاية الأمر . » .

ثم اختتمت الخطاب بقولى :

« فليسافر وفد الوزارة ، وليفاوض منفرداً برأيه غير مؤيد من الأمة ولا يعبّر عن رأيها ، ولا يتكلم باسمها . ونحن على جهادنا دائمون ، وبحبل الله معتصمون ، وبالنصر واثقون . فإنّا على الحق . ومن كان على الحق فالله معه . ومن كان الله معه فالنصر حليفه . والله خير الناصرين » .

وبعد أن انتهيت من إلقائها تفضّل سعد باشا بتهنئتى عليها .

وانصرفت بعد ذلك بكلّيتى إلى نشر الدعوة لتأييد سعد باشا ، بين أبناء بلدى بمديرية جرجا . وأذكر أنّى فى هذه الأثناء استأذنت سعد باشا فى السفر إليها لحضور انتخابات المجلس المحلّى . لأن رجال الإدارة ، وعلى رأسهم المدير عبد العزيز يحيى ، الذى اشتهر بالعداء لسعد باشا والتنكيل بأنصاره بكل الطرق والوسائل ، كانوا يعملون على إسقاطى فى الانتخابات نظراً لانضمامى إليه . وقد فزت فى هذه الانتخابات بالإجماع . واجتمعنا

عقب ظهور هذه النتيجة فى منزلى وأرسلنا إلى سعد باشا تلغرافا ضمّناه تأييد أعضاء المجلس المحلى الجديد والمحامين والأطباء والأعيان والتجار والمزارعين وثقتهم التامة به وعاهدناه على السير من ورائه فى سبيل تحقيق الأمانى القومية ، فرد سعد باشا علّى بتلغراف شكرنى فيه أنا ومن اشتركوا معى على هذا الشعور وهنأنى بفوزى فى الانتخابات .

وقد انتهزنا فرصة الاحتفال فى أكبر مسجد بجرجا ، بإحياء ذكرى محمد على باشا الكبير ليلة ١٣ رمضان لعقد اجتماع وطنى ضد الوزارة . وأذكر أنى صعدت المنبر وألقيت خطبة سياسية تحدثت فيها عن سعد باشا وأن الواجب الوطنى يحتم على كل فرد أن يلتف حوله وأن يؤيده بكل قواه . ودعوت الناس إلى القيام معى إلى مصر لإعلان تأييده ، وفعلا قام وفد كبير من جرجا إلى القاهرة قوامه أكثر من ثلاثمائة من أعيان المدينة ومثقّفيها وذهبنا إلى « بيت الأمة » وقابلنا سعد باشا وأعربت له باسم هذا الوفد عن تأييد البلاد له وثقتها به .

ومما يُذكر أن البوليس أحاط بمنزلى فى هذا اليوم بأمر عبد العزيز يحيى بك المدير لمنعى من السفر ، وكاد أن يحدث مالا تُحمد عُقباه بسبب إحتكاك البوليس بالأهالى لولا حكمة غالب كفافى بك وكيل المديرية ، ولولا عملنا على تهدئة الخواطر .

وقد حاول رجال الإدارة أن يردوا على هذه الحركة بأن جمعوا « وفدا لتأييد الوزارة » ، فألّفوه من بعض ضعاف النفوس الذين يسيرون مع كل ريح ، طمعاً فى الرتب والألقاب والذين يؤيدّون كل نظام قائم . وقصد هذا الوفد إلى مصر برياسة المدير ، وقد نزل فى فندق شبرد وجلس فى شرفته ومعه بعض الذين حضروا من هذا الوفد الحكومى . وصادف أن مررت بهم وأنا فى عربتى ، وبدرت منى حركة إحتقار لهم واشمئزاز منهم ، كانت نتيجتها أن المدير ذهب إلى عبد الخالق ثروت وزير الداخلية وشكانى عنده فأصدر الوزير أمره إلى قسم الأزبكية بفتح تحقيق معى . واتُّهمت حينئذ بإهانة « وفد جرجا الحكومى » . ورفعت النيابة علىّ قضية جنحة بهذه التهمة وكان موعد نظرها يوم الإثنين ٢٠ يونيو وخصّصت لها جلسة بعد الظهر ، برياسة المرحوم توفيق حقى بك (المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية وعضو مجلس النواب فيما بعد) وقد دافع عنى الأستاذ سامى نجيب المحامى . وكان دفاعه مجيداً فنّد فيه كل ما قيل ضدى . وكذّب التهمة التى نسبت إلىّ . وأثبت أن بينى وبين المدير خصومة سببها أنى أرسلت إليه عدة تلغرافات أعلنته فيها بأن كل محاولة يسعاها ضد تأييد سعد باشا عبث ، وأننا مجمعون على تأييده للنهاية . كما

شهد لصالحى فى القضية صديقى المرحوم أمين أبو ستيت بك العضو فى الجمعية التشريعية .

وقد نطق القاضى الحكم بالبراءة . فقوبل ذلك بالهتاف للعدالة والقضاء ولسعد باشا . وكانت قاعة الجلسة غاصّة بالجماهير العديدة ومنهم كثير من طلبة المدارس العليا وعلى رأسهم لجنة الطلبة .

وعلى أثر صدور الحكم ذهبت إلى « بيت الأمة » حيث كان سعد باشا ينتظر نتيجة القضية التى دبّرها ضدى أعوان « الوزارة العدلية » . فعانقنى وخطب فى جموع الطلبة التى كانت حاضرة ، معربا عن اغتباطه بعدالة القضاء واستقلاله ، وأضفى على شخصى كثيراً من عبارات العطف والتقدير . وفى نهاية الاجتماع طلب منى أن أصحبه للرياضة فى إحدى ضواحى القاهرة فركبت معه عربته ، وأذكر أنه حدث ، ونحن فى هذه الرياضة ، أن التقت عربة سعد باشا بعربة الأمير عمر طوسون فنزل هو وسعد باشا وتبادلا التّحيات .

وبدا للوزارة واضحاً انصراف الناس عنها انصرافا تاما فاشتد اضطهادها وتحمّل الأهالى من الإرهاق والعسف الشىء الكثير ، فرؤى لجنة« لتلقى الشكاوى » والعمل على نشرها . وكانت هذه اللجنة مؤلفة من الأمير عزيز حسن وفتح الله بركات باشا نائب رئيس . والأستاذ أمين عز العرب سكرتيرا . وضمّت إليها كثيرا من الأعضاء ، كان من بينهم السيد حسين القصبى (من كبار أعيان طنطا وعضو الوفد المصرى فيما بعد) .

هوامش الفصل التاسع

(١) بدأت المصادمات بعد خروج المظاهرات من مسجد سيدى المرسى أبو العباس يوم الجمعة ٢٢ مايو وهى المصادمات التى أدت إلى وقوع ستة قتلى من المصريين . فى يوم الأحد اتسعت المصادمات وتحولت من جانب منها إلى أحياء الا يطاليين واليونانيين الذين فتحوا النيران على المصريين مما أدى إلى تدخل القوات البريطانية التى نجحت فى احتواء الموقف وكانت نتيجة المصادمات ٥٨ قتيلا منهم ٤٣ مصريا ، ١٢ يونانيا ٣ من جنسيات أوروبية أخرى والمصابين ٢١٠ منهم ١٢٩ مصريا ، ٤٦ يونانيا ، ١٨ من الأوروبيين الأخرين بالاضافة إلى يهوديين ومالطيين

F.O.07/189 Inc. in No. 169

(٢) الخطبة ألقاها تشرشل فى « جمعية زراع القطن » البريطانية جاء فيها انه لو كانت قد سحبت القوات البريطانية من القاهرة والاسكندرية لتم القضاء على الجاليات الأوروبية فى المدينتين والقضاء كذلك على ما انجزته الإدارة البريطانية خلال أربعين عامًا .

(٣) اعيد صادق حنين لخدمة الحكومة فى عهد وزارة سعد ١٩٢٤ وكيلا لوزارة المالية ثم انخرط فى السلك الدبلوماسى وزيرا مفوضا فى مدريد ثم لندن .

(٤) لعب دورا كبيرا فى قيادة الحركة الوطنية فى طنطا خلال ثورة ١٩١٩ .

الفصل العاشر

سفر الوفد الرسمى إلى لندن ـ مقاطعة الشعب له ـ سعد يذيع بيانا سياسيا ـ سعد يقول « إنا ها هنا قاعدون » ـ عبد الخالق ثروت ينفرد بالأمور الداخلية وينكّل بالأحرار ـ نفى الأمير عزيز حسن وتوديع سعد له ـ سعد باشا يكتل الأمة وراءه للمحافظة على حقوقها ـ مظاهر الجهاد الداخلى ـ مشاركة سعد الجالية الفرنسية فى احتفال ١٤ يوليو «عيد الحرية » ـ سعد يسافر إلى « مسسجد وصيف » ـ إقبال وفود البلاد عليه لتحيته والإعراب عن ثقتها به ـ بدء التعارف بين سعد باشا والشيخ أبو الوفا الشرقاوى ـ سفر الأستاذ مكرم عبيد إلى لندن لمراقبة تطوّر الموقف السياسى هناك ـ سير المفاوضة بين الوفد الرسمى واللورد كيرزون وزير الخارجية الإنجليزية ـ الاحتفال الوطنى « بعيد النيروز » ـ خطبة سياسية هامة لسعد باشا .

* * *

وفى يوم الجمعة أول يوليو سافر « الوفد الرسمى » برياسة عدلى باشا إلى لندن عن طريق الإسكندرية ، بين مظاهر السخط العام والكراهية الشديدة من الشعب ، على مختلف طبقاته . وعلى الرغم من إجماع الأمة على عدم الثقة به وضنّها بالتأييد له مماجعل إطلاق لفظ « وفد الحماية » ، أو « الوفد الحكومى » عليه ، حقيقة واقعة ملموسة لا شك فيها .

سافر الوفد الرسمى محروماً من هذه الثقة وذلك التأييد والكل يتساءلون باسم من سوف يتكلم ؟ وبلسان من سوف ينطق ! إذا ما جلس لمفاوضة الإنجليز ؟ وأى سند يستند إليه من الواقع والقانون فى مهمته ؟ . . . أيتكلم باسم « الفلاحين » الذين يمثّلون سواد الأمة . وقد أعلنوا جميعا أنهم لم يوكّلوا عنهم إلا « فلاحًا » مثلهم هو سعد ؟ .

أم باسم أبناء الطبقة الكادحة من « العمّال » الذين لم يعرفوا فى عدلى يكن وأعضاء وفده إلا أنهم من « أبناء الذوات » الذين لا يشعرون بشعورهم ولا يحسّون إحساسهم ؟ .

أم باسم « الطلبة » وقد أعربوا فى كل المناسبات عن حبّهم لسعد وإيمانهم بدعوته ؟ .

أم باسم « الموظفين » وقد نالهم من الوزارة العدلية ما نالهم من عسف وتشريد ؟ .

أم باسم « العلماء » و « رجال الدين » وقد وجدوا فى سعد رمزاً للحرية ومظهرا للتآلف والوئام الوطنى ؟ .

أم باسم « المحامين » و « الأطباء » و « المهندسين » وغيرهم من الصفوة المثقفة فى الأمة، وقد بهرهم سعد بمنطقه السديد الخلّاب ، ووطنيته المتفانية ، وحرصه الشديد على مصلحة البلاد ورعايتها ؟ .

باسم مَنْ من هؤلاء كان الوفد الحكومى يزمع الكلام ؟

حقًا لقد كانت مهمة الوفد المسافر شاقة وعسيرة ، بل محكوما عليها بالفشل مُقدّما . وقد صدقت الأيام هذا الحدس ، إذ استهان الإنجليز بهذا الوفد لما يعرفونه من أن الأمة التى يدّعى أنه يتكلم باسمها منصرفة عنه ، غير مؤيدة له .

وقد كان الجدير بعدلى باشا ، ونحن لا ننكر ما كان يتصف به من الصفات الخُلقية الكثيرة ، أن يكون بعيد النظر السياسى أيضا ، فلا يقبل على نفسه أن يذهب ضحية مؤامرة ، أرادها الانجليز لبثّ الانقسام والفرقة فى صفوف المصريين . ويوفّر على الأمة جهادا داخل صفوفها أضطرّت إليه واستمر زهاء سنتين ، تحملت فيهما الكثير من التنكيل والقهر، وأصاب زعماءهما خلالهما بشتى العذاب من النفى والتشريد، وظلمات السجون .

أمّا موقف سعد باشا من الوفد المسافر ، فقد كان متفقا مع شعور الأمة ، ينكر عليه الكلام باسمها ، دون وكالة منها . ويرفض منه أن يقيّد البلاد بمعاهدة لا ترضاها ولا تتفق مع مصالحها . وينذره بأنه باق بين أبناء الشعب يبادلهم آمالهم ، ويشاركهم جهادهم ، ويبصّرهم بكل ما يحيكه لهم الاستعمار ، ويطالب لهم بعيشة الأحرار .

وقد أذاع غداة سفر هذا الوفد ، بياناً ضمّنه أن هذا الوفد سافر « وسيوف الأحكام العرفية تقطر من دم الأحرار ، وسجون الحكومة تزدحم بالأبرياء ، والجنود الأقوياء تحميه من صيحات السخط وتخفيه عن نظرات الاحتقار ، وبعد أن جرحت الوزارة الأمة فى عزّتها وضيّقت الواسع من حريتها » .

وازداد الوعى السياسى فى مصر انتشارا ، وتقاطرت وفود الشعب على بيت الأمة تستفسر من سعد وأصحابه عما يجب أن تفعل ، بعد أن تحدّت الوزارة إرادتها ، وتجاهلت شعورها العام بسفر الوفد الرسمى على غير رضاها . فكان سعد باشا يخرج إلى هذه الوفود ويتحدث إلى أفرادها فيسحرهم ببيانه ويأخذ بألبابهم ، ويوضّح أن الأمر بينه وبين عدلى لم يكن طمعاً فى رياسة ، إذ يكفيه من الأمة تشريفها إيّاه بزعامتها ، وهى عنده أغلى وأسمى من كل رياسة ، وإنما الأمر هو خوف تعرّض مصالح البلاد للمخطر ، بأن يعرض

الإنجليز « نظاماً يناقض الاستقلال الذى تنشده » ، والحرية السياسية التى تسعى إليها فيضيع جهادها ويذهب سدى . ثم يطالبهم بالاستمساك بالوحدة القومية والتكتل والتكاتف ، ذاكرا أنهم ماداموا متحدين متآلفين فلا خوف على قضيّتهم ، وكان يختم خطابه بعبارة تبلور فيها الموقف السياسى إذ ذاك وهى قوله : « إنّا ها هنا قاعدون » . . !

وعُهد إلى عبد الخالق ثروت باشا بمنصب نائب رئيس الوزراء ، أثناء غياب عدلى باشا فى الخارج فضلاً عن توليه منصب وزير الداخلية ، فعزّ عليه أن تنصرف الأمة عن الوزارة التى أصبح مسئولا عنها هذا الانصراف الظاهر . كما عزّ عليه أن تبقى الأمة على ولائها لسعد زغلول ومناصرتها له ، وغضبها على خصومه ومعارضيه ، عزّ عليه هذا فأصلت سيف النقمة والتنكيل فوق رقاب المصريين ، مهددا إياهم بأشد ضروب العسف إذا ما أظهروا شعورهم لسعد . ولا شكّ أن هذه السياسة نالت من الإنجليز الرضاء ، بل التأييد. فقد كانت كفيلة بقتل الشعور الوطنى ، فى نظرهم على الأقل ، جديرة بتوليد الأحقاد السياسية بين أبناء الوطن الواحد .

* * *

ونظرًا لاشتراك الأمير عزيز حسن فى جميع المناسبات والمظاهر الوطنية ، ولاندماجه فى الشعب ، وتردّدنا عليه فى قصره « بشبرا » ، وملازمته لسعد باشا فى غدواته وروحاته ، ورياسته لجنة الدفاع ، أرسلت إليه السلطة العسكرية الإنجليزية فى يوم الأحد ٣ يوليو تبليغًا ، مع أحد الضباط الإنجليز ومندوب من وزارة الداخلية ، تكلفه فيه السفر إلى الخارج قبل يوم ١٠ يوليو[1] . كما أبلغته أنها حجزت له مكاناً فى إحدى البواخر يوم ٨يوليو . وقد قوبل هذا التصرّف بالاستنكار . وأذاع الأمير بيانًا على الأمة قال فيه :

« أمّا وقد حالت القوة بينى وبين البقاء فى صفوف المدافعين عن حقوق الوطن العزيز ، إذ قد صدر أمر السلطة العسكرية بمغادرة البلاد قبل اليوم العاشر من هذا الشهر ، فإنى أدعو جميع حضرات أعضاء اللجنة ـ رياستى ـ لحضور الاجتماع المحدد له يوم ١٤ الجارى بمنزل سعادة فتح الله بركات باشا لمواصلة عملهم السياسى فى خدمة بلادنا بالطرق المشروعة وأن يحافظوا على المصلحة العامة ، المحافظة كلها . فإننا على الحق . ومادمنا كذلك فالله معنا ، والنجاح حليفنا .

هذا وقد أنبنا عنا حضرة صاحب السعادة فتح الله بركات باشا فى أعمال اللجنة حتى نعود بمشيئة الله إلى الوطن العزيز .

والله المسئول أن يحقق آمالنا باستقلال بلادنا استقلالاً تامًّا ، بفضل اتحادنا وتصميمنا والتفافنا حول وكيل الأمة الأمين ورئيس الوفد المصرى حضرة صاحب المعالى سعد زغلول باشا وصحبه المخلصين » .

وقد سافر الأمير عزيز من محطة القاهرة فى مساء يوم ٧ يوليو[٢] ، فكان فى توديعه عدد كبير من العظماء وجماهير كثيرة من الشعب يتقدم الجميع سعد باشا الذى صافحه مودعًا، ولبث معه حتى قيام القطار . وقبيل قيامه أشرف الأمير على الجماهير من النافذة وقال : «ليحيا سعد باشا » « لتحيا مصر » «لا تفرّطوا فى حقوقكم » . فقالت الجماهير : «سافر عزيزًا أيها العزيز » وكم كان منظرًا مؤثرًا ، وقوف عائلة الأمير فى « شبرا » فى عرض الطريق، وعلى مقربة من قصره ، فى انتظار مرور القطار ليتزوّدوا منه بنظرة واحدة قبل رحيله .

وقد سافرتُ مع الأمير إلى الاسكندرية فلّما وصلنا إلى محطة سيدى جابر كان فى مقدمة مستقبليه الأمير عمر طوسون . كما سافر مع الأمير جمع غفير من أعضاء لجنة الدفاع ولجنة الوفد المركزية وأعضاء الوفد والمحامين والمهندسين . وقد قبضت السلطة على أحد المسافرين وهو الضابط حمدى الرشيدى أفندى ، وأجرت معه تحقيقا [٣] . كما كانت المدافع الرشاشة والسيّارات المدرّعة فى انتظار قطار الأمير عند وصوله [٤] .

ومما يُذكر ، أن الأمير عزيز حسن كان يشارك الشعب شعوره الوطنى مشاركة فعّالة . وكان له من المواقف الوطنية الجريئة ما يسجل له بالحمد والثناء . ومن ذلك أنه لما رأى تكرار الحوادث المؤسفة واصطدام الأهالى بالبوليس والتنكيل بالأبرياء عقد اجتماعًا كبيرًا دعا إليه كثيرًا من ذوى الرأى والمكانة وانتهى اجتماعهم برفع احتجاج إلى السلطان فؤاد طلبوا فيه أن يتدخل لوضع حد لهذه الحالة .

ونذكر أنه فى يوم سفر الأمير صدر قرار من وزارة الداخلية بتعطيل جريدة « النظام » التى كان يصدرها المرحوم الأستاذ سيّد على[٥] ، أحد الصحفيين البارزين الذين جاهدوا طويلاً فى خدمة الصحافة المصرية وقضية البلاد ، ولم يكن تعطيلها لسبب سوى مناداتها بمبادئ الوفد والتفافها حول زعيم الأمة سعد زغلول ، ونشرها أنباء ما ترتكبه الوزارة من أعمال العنف والاضطهاد .

واستمر الصراع سافرًا خطيرًا بين الوزارة وسعد باشا . الوزارة تبغى قتل الشعور الوطنى وتشكيك الأمة فى سعد وزعامته ، وحملها على الانصراف عنه بدعوى أنه جعل من القضية المصرية مسألة خاصة ، وأن خلافه مع عدلى لم يكن إلا خلافًا على « رياسة » الوفد المسافر للمفاوضة ، وسعد باشا يواجه هذا كله بالعمل على تأجيج هذا الشعور وإبقائه حيًا بين الجوانح . وإظهار الخلاف الذى وقع بينه وبين عدلى على حقيقته وتفنيد الاتهامات التى كانت تكال له من الوزارة وصنائعها . فلم يكن سعد باشا يترك فرصة دون أن ينتهزها لحث المصريين على المطالبة بحقهم فى الحرية والاستقلال كاملاً . كما كان يحرص على تنبيه الرأى العام وتقوية وعيه السياسى ، ليفهم ما يحاك له من أحابيل السياسة الاستعمارية الإنجليزية ، فلا يخدع بما قد يعرض عليه من اتفاقات ، ظاهرها الاستقلال . وباطنها الحماية .

وهكذا انقضت أسابيع طويلة ، من يوم سفر الوفد الحكومى إلى لندن حتى تاريخ عودته ، وسعد وأصحابه يوالون السهر على تنفيذ هذه الخطّة ، لا يكلّون ولا يدخرون جهدًا للمضى بها فى سبيل الهدف المنشود .

* * *

وكان من مفتريات السياسة البريطانية على الحركة الاستقلالية التى يتزعمها سعد ، أن هذه الحركة قوامها « التعصب » ضد الأوروبيين وكراهية الأجانب ، وإثارة النعرة الدينية بين الطوائف . أمّا دعوى إثارة النعرة الدينية فقد كان فى التفاف الأقباط حول سعد وتفانيهم فى تأييده أبلغ تكذيب لها ، وأما دعوى كراهية الأجانب والسعى لإيذائهم فى أرواحهم وأموالهم فلم يفت سعد باشا أن يقيم الدليل على نقيضها ، سواء أكان هذا ببياناته التى كان يلقيها على الشعب ، أم فى مختلف المناسبات التى كانت تعرض وقتئذ . وأذكر من ذلك ، مشاركته للجالية الفرنسية فى مصر الاحتفال « بعيد الحرية » مساء ١٤ يوليو سنة ١٩٢١ .

ففى هذه الليلة كنا نتناول طعام العشاء مع سعد ببيت الأمة ، وكانت مائدته لا تخلو فى يوم من الأيام من بعض خواصّه وأصدقائه الذين يحبّهم ويأنس إليهم . فإذا به يتكلم عن احتفال فرنسا « بعيد ١٤ يوليو » وهو العيد الذى يصادف ذكرى سقوط سجن « الباستيل » بباريس سنة ١٧٨٩ وقيام الثورة الفرنسية ، والذى بات رمزًا لتطلع الشعوب

إلى تحرّرها من الاستعباد والظلم ، وطلب الحرية . وروى كيف شاهد أهل باريس وهم يحتلفون بهذا العيد . يشاركهم فى ذلك المقيمون فى هذه المدينة ، على اختلاف جنسياتهم . ثم سأل عمّا إذا كانت الجالية الفرنسية فى القاهرة قد احتفلت بهذا العيد سنتى ١٩١٩ و١٩٢٠ . فكان ردّى بالإيجاب ، وأن العادة جرت على أن هذا الاحتفال يجرى مساء فى «حديقة الأزبكية » بين مظاهر كبيرة . فدعانى إلى أن أصحبه فى حضور هذه الحفلة . وفعلاً ركبنا العربة وقصدنا إلى الحديقة فدخلناها من باب ميدان الخازندار وصارت العربة بنا فى داخلها حتى وصلت إلى مكان الاحتفال . وكان غاصًا بالآلاف من المدعوين من الأجانب من مختلف الجنسيات والمصريين كالمعتاد . ولم يكد الجمهور يرى سعد باشا بينهم حتى انقلبت الحفلة إلى حفلة مصرية وطنية إذ أخذت الحماسة المدعوين فأخذوا يصفقون ويهتفون بالفرنسية ليحيا زغلول Vive Zaghloul لتحيا الحرية Vive La Liberté ليحيا الاستقلال Vive L'independance وكان سعد باشا يتلقى هذه المظاهر بالترحيب به والهتاف باسمه برفع كلتا يديه ، وقد بدا على وجهه التأثر.

وبعد انتهاء الحفلة خرجنا بالعربة من شارع فؤاد ـ أى من الباب الرئيسى ـ بين حماسة جماهير الشعب التى كانت قد اجتمعت لمشاهدة الزينات وإطلاق الصواريخ وأصرّت الألوف من الناس على أن تصحبنا وسط هذه المظاهرة البديعة حتى عدنا إلى بيت الأمة بعد أن انتصف الليل [٦] .

وكانت لهذه الحركة من سعد باشا رنة ارتياح فى جميع دوائر الجاليات الأجنبية . وقد اعتبرها الفرنسيون ـ وكان لجاليتهم من النفوذ المالى والسياسى فى مصر ما يجعلها فى مركز الصدارة ـ مجاملة من مصر لهم ، فى شخص زعيمها المحبوب . وتكذيبًا لما كان يفتريه الإنجليز على الحركة الوطنية من أنها حركة « متعصبين » ، سيّما بعد وقوع « حادثة الإسكندرية » . كما كانت مظاهر الحماسة الشعبية فى هذا الاستقبال ضربة شديدة للوزارة ، التى ما فتئت تنادى بأن الشعب قد انصرف عن تأييد سعد .

* * *

وكان من عادة سعد باشا أن يقصد فى بعض الأوقات إلى عزبته فى «مسجد وصيف»[٧] للراحة وتغيير الهواء لأن الجو هناك يوافقه . وقد حلّ عيد الأضحى فى يوم الأحد ١٤ أغسطس سنة ١٩٢١ فذهب ـ رحمه الله ـ قبل العيد إلى العزبة لقضاء العطلة وبعض

الأيام فيها . وفى هذه الأثناء كان يتلّقى تلغرافات من الأستاذ مكرم عبيد فى لندن ، وكان قد سافر إليها بمناسبة سفر الوفد الرسمى للمفاوضات - كما سيجىء وكانت هذه التلغرافات تتضمن أنباء هذه المفاوضات وتشدّد لورد « كيرزون » وزير الخارجية البريطانية فى معاملته للوفد الرسمى ولعدلى باشا . تلك المعاملة التى أدّت إلى أن يُصاب رشدى باشا بالفالج من شدة التأثر .

وكانت العزبة فى ذلك الوقت محطّ الوفود العديدة التى كانت تأتى من مختلف أنحاء البلاد لتحية سعد باشا والإعراب عن تأييده فى موقفه .

وقد بقيتُ مع سعد باشا بعض الأيام التى قضاها فى مسجد وصيف ، وكنّا نقضى كل يوم وقتًا طويلا نتبادل الأحاديث ، بين قديم وحديث . وكان يقيم معه المغفور له الشاب النابه سعيد بك زغلول وهو ابن أخته وقد كان موضع تقديره . كما كان معه أيضًا الأستاذ كامل سليم سكرتيره الخاص .

وأذكر وأنا موجود معه ليلة عيد الأضحى ، أنه رآنى على مكتبه أكتب بعض التلغرافات والرسائل لتهنئة أصدقائى المسلمين بالعيد . فسألنى عما أكتب وتصادف أنى كنت أكتب رسالة لصديقى الحميم صاحب الفضيلة العالم الورع الأستاذ الشيخ أبو الوفا الشرقاوى ، فقال سعد باشا : « لقد سمعت عن الشيخ أبو الوفا . ولكن لم يكن لى حظ رؤيته . فهل هو صديقك ؟ وهل تعرفه جيدًا ؟ . » فأخبرته بأنى صادقته طويلاً ، وأنى من أشدّ المعجبين به وبآدابه وعلمه وفضله . فسألنى أن أزيد فى الحديث عنه فوصفته بأنه رجل عالم فاضل ، واسع الاطلاع ، وكل من حادثه يزيد احترامًا له ، وهو بعيد النظر، ثاقب الفكر ، ناضج الرأى ، عظيم المكانة فى نفوس أهالى الصعيد ، وبخاصّة مديريات جرجا وقنا وأسوان . وأكدّت له أنه لو كان من رجال السياسة لكان له فيها باع طويل ، ومقام يُذكر .

وقد إندهش سعد باشا لهذا الوصف وقال : « زدتنى تشوّقًا لرؤيته والتعرف عليه ، فبلّغه فى خطابك تحيّتى » .

ولّما عدت إلى القاهرة وجدت كتابًا من فضيلته يخبرنى فيه بأنه أرسل إلى سعد باشا كتابًا ولم يصل إليه منه رد . وطلب إلىّ بلطف أن أستفسر بشكل غير محسوس إذا كان الكتاب وصل أم لا ؟ .

فلما قابلت سعد باشا على أثر ذلك بلّغته تحية الشيخ أبى الوفا وسألته عما إذا كان قد وصل إليه كتاب منه فدهش وأجاب بالنفى واستدعى سكرتيره الأستاذ كامل سليم وطلب منه البحث بدقّة عنه فبحث بين مئات الخطابات التى كانت ترد كل يوم على سعد باشا حتى وجده . وهو خطاب يحتوى على عبارات التأييد والدعاء . وقد ردّ سعد باشا عليه بالاعتذار والشكر والامتنان . وكان هذا بدء التعارف بينهما ، ذلك التعارف الذى توطّد وتوثّق إبّان الرحلة المشهورة التى سافر فيها سعد إلى الصعيد بالباخرة « نوبيا » كما سيجىء .

وعاد سعد باشا بعد ذلك إلى القاهرة (٨) استعدادًا لاستقبال مستر « سوان » وزملائه . من النواب الإنجليز الأحرار فى مجلس العموم البريطانى ، الذين وفدوا إلى مصر لتعرّف رغبات المصريين .

* * *

ولابدّ هنا أن نقف قليلاً ، فنترك سعد باشا وأنصاره ويؤججون الشعور الوطنى حول «الفكرة الاستقلالية » التى ترنو الأمة لتحقيقها ، لنشخص بأبصارنا إلى لندن حيث يواجه عدلى باشا لورد « كيرزون » والمستعمرين ، وهو محروم من ثقة الشعب الذى سافر للتكلم باسمه على الرغم منه .

سافر عدلى باشا ، فكان استقبال المصريين المقيمين فى باريس ولندن له ، يوحى بانصراف مصر كلها عنه . إذ هتفوا ـ فى المحطات والموانئ ـ ضده وضد بعثته وضد وزارته . ثم بدأ أحاديثه مع لورد كيرزون ، فلم يمض أسبوع واحد حتى تعثّرت المفاوضات ووقفت دون نجاحها العقبات الكأداء . ففى يوم الأربعاء ١٣ يوليو كان الاجتماع الأول لهما ، وبعد جلسة أو جلستين كان الحديث الذى يدور بينه وبين أعضاء بعثته هو : هل هم يقطعون المفاوضات ويفوزون من الغنيمة بالإياب ؟ أم يواصلونها ، لعلّ معجزة تحدث فى اللحظة الأخيرة فيعودوا ولو ببعض النجاح ؟ . . !

كانت أنباء المفاوضات وتعثرها ترد إلى مصر . ولم يكن المصريون يكترثون لها لأنهم كانوا يعرفون مقدماً أن عدلى لن ينجح فى مهمته لاستهانته بالرأى العام ، وأن الإنجليز خدعوه حين قبلوا مفاوضته . وهو المحروم من ثقة الأمة . وأن أنصاره غشّوه حين أدخلوا فى روعه أن المسألة أصبحت مسألة كرامة شخصية وأن عليه أن يمضى فى خُطّته بتحديه لسعد .

ومما زاد موقف عدلى باشا حرجاً أن بعثة من النواب الإنجليز المنتمين « لحزب العمال » أعربوا عن اعتزامهم زيارة مصر لتعرّف آراء المصريين والتأكد من مدى استمساكهم بزعامة سعد ، وتفويضهم إيّاه - دون غيره - فى عقد المعاهدة مع انجلترا .

وتغلّب الرأى القائل بعدم قطع المفاوضات وانصاع عدلى باشا له فى لندن كما انصاع للذين غشوه فى القاهرة ، ثم مضى فى المفاوضة والجو يسوده التشاؤم . وفى كل يوم تظهر آية جديدة على تعنّت الإنجليز . وكان عدلى باشا ، وأعضاء بعثته ، يلقون من صلف الإنجليز ما يزيد البلادة والوجوم فى جّو المفاوضات . بل لقد لقوا منهم ما جعل رجلاً صريحاً كرشدى باشا يقول عقب إحدى الجلسات « إنى أنتحر انتحاراً أدبيًا فى هذا المكان» . ! أى والله لقد صدق رشدى باشا ، فقد سقط صريع الصلف الإنجليزى ، فقد حدث ما يؤسف له أشد الأسف ، إذ أصيب بالفالج فى مساء يوم ٢٠ أكتوبر وهو فى لندن .

وهكذا استمر عدلى باشا فى مفاوضات ميئوس من نتيجتها ، حتى أيقن فى النهاية أن لا مفرّ من قطعها بعد أن تسلّم من لورد كرزون مشروعاً للمعاهدة وصفه هو لاعضاء بعثته بأنه « مشروع وقح » . ثم غادر لندن فى أواخر نوفمبر بعد أن أمضى حوالى خمسة أشهر بين فرنسا وانجلترا محاولاً الوصول إلى نتيجة دون جدوى ، وأدرك أخيراً أنه إذا كان محروماً من «ثقة الأمة » فقد جرّد نفسه من أمضى سلاح يمكن أن يُشهر فى وجه الإنجليز .

أما هذا المشروع « الوقح » الذى قدّمه لورد كيرزون لعدلى باشا ، فإليك الخطوط الرئيسية التى تضمّنها وهى :

١ - رفع الحماية والاعتراف بمصر دولة ملكية دستورية على أن يكون ذلك فى مقابل إبرام المعاهدة .

٢ - يكون لممثل بريطانيا فى مصر مركز استثنائى ويكون له كذلك حق التقدّم على ممثلى الدول الأخرى .

٣ - يجب أن توجد أوثق الصلات بين وزارة الخارجية المصرية وممثل بريطانيا الذى يقدم كل المساعدة الممكنة فيما يتعلق بالمعاملات والمفاوضات السياسية .

٤ - لا تدخل مصر فى أى اتفاق سياسى مع دولة أجنبية دون أخذ رأى انجلترا .

٥ - تستمر انجلترا فى تولّى المفاوضة لإلغاء الامتيازات الأجنبية وتقبل مسئولية حماية المصالح

المشروعة للأجانب فى مصر وتتداول مع الحكومة المصرية قبل البت فى هذه المفاوضات رسمياً .

٦ ـ تتعهد انجلترا بمساعدة مصر فى الدفاع عن مصالحها وسلامة أراضيها ، ولذلك ، ولحماية المواصلات البريطانية ، تكون للقوات البريطانية حرية المرور فى مصر والاستقرار فى أى مكان باراضيها لأية مدة يحَدّدها الطرفان ويكون لها أيضًا فى كل وقت مالها الآن من التسهيلات لإحراز واستعمال الثكنات وميادين التمرين والمطارات والموانئ البحرية .

٧ ـ لا تعّين مصر ضباطًا أو موظّفين « أجانب » . فى الجيش المصرى ، والمصالح العمومية قبل موافقة ممثل بريطانيا .

٨ ـ يكون لبريطانيا فى مصر « قوميسير مالى » توكل إليه حقوق أعضاء « صُندوق الدين » ويجب أن يُحاط إحاطة تامة بجميع الأمور الداخلية فى دائرة وزارة المالية .

٩ ـ ليس لمصر عقد قرض خارجى أو تخصيص إيرادات مصلحة عمومية دون موافقة انجلترا .

١٠ ـ تعينّ مصر قوميسيرا قضائيًا إنجليزيا لمراقبة تنفيذ القانون فيما يمسّ الأجانب ويجب أن يحُاط إحاطة تامة بجميع الأمور التى تمسّ الأجانب .

١١ ـ تستمر مصر فى تقديم المساعدات الحربية للسودان أو تقدم بدلاً منها لحكومة السودان إعانة مالية . وتتعهد بريطانيا بأن تضمن لمصر نصيبها العادل من مياه النيل .

وكان من البديهى أن يرفض عدلى باشا أن يقيِّد بلاده بمثل هذه الاتفاقية التى تتنافى مع معانى الاستقلال الصريحة ومبادئ الحرية . إذ أن نصوصها عنيت ـ واقع الحال ـ «بتنظيم الحماية الإنجليزية » على مصر ـ وليس استقلالها ـ فى نواحيها السياسية والعسكرية والمالية والقضائية ولم يبق لمصر فيها سوى ثوب الاستقلال ومظهره بإعلان أنها دولة ملكية دستورية . . !

* * *

وقبل أن نتحدث عن وصول مستر « سوان » وزملائه من الإنجليز ، لا يفوتنا أن نذكر الاحتفال الوطنى الذى أقيم بمناسبة حلول «عيد النيروز » أو رأس السنة القبطية فى ١١

سبتمبر سنة ١٩٢١ ، فقد ألّفت لجنة لهذا الاحتفال برياسة إبراهيم سعيد باشا وقد أقيمت الحفلة تحت رعاية الأنبا كيرلس الخامس البطريرك . وكانت حفلة جميلة إمتلأ المكان الذى أقيمت فيه (فى ملك دبّانة وشلبى) بشارع إبراهيم باشا (نوبار سابقاً » بعلية القوم ، وغيرهم من طبقات الشعب (٩) . يتقدم الجميع الأمير محمد على توفيق وسعد باشا وأحمد مظلوم باشا وأحمد يحيى باشا وأعضاء الوفد ، وقد افتتحها إبراهيم سعيد باشا بكلمة قال فيها :

« نحتفل اليوم بعيد من أعيادنا القومية هو عيد النيروز المصرى أو عيد رأس السنة المصرية الزراعية . ولا شك أن اهتمامنا بالاحتفال بأعيادنا القومية مما يشعر بقوة نماء الوطنية فى النفوس ، وتشبّعها بالاتحاد والتضامن وتقديم مصلحة الوطن فوق كل مصلحة ، وهذا مما يبشّرنا بنيل آمالنا القومية لنتبوأ مركزنا بين الأمم الحرة المستقلة بفضل اتحادنا وتضامننا » .

وألقى بعده الأستاذ مرقص حنا بك ، نقيب المحامين ، خطبة سياسية هامة كان موضوعها شرح الحركة الوطنية ، وأسباب قيام الوفد المصرى ، ومبادئه ، وسفره ومفاوضاته ، ثم انتقل إلى الموقف الأخير بين الوزارة والوفد ، وبرّر الخطة التى سلكها سعد باشا حيال الوزارة والوفد الرسمى .

وكان من المقرر فى برنامج الحفلة أن يخطب سعد باشا فى نهايتها ، أى بعد أن ينتهى جميع الخطباء من إلقاء كلماتهم ، إلا أن خطبة مرقص حنا بك أثارت حماسته ، فوقف فى الحال لتكون خطبته شرحًا لما جاء فى الخطبة الأولى . وقد تناول فى هذه الخطبة أطوار المسألة المصرية منذ سفر الوفد الرسمى إلى لندن واضطهاد الوزارة للوطنيين فى مصر ومحاولتها عرقلة بعثة النواب الأحرار من القدوم لمصر . ونحن نثبت هنا أهم فقراتها حتى يعيش القارئ الجو السياسى الذى ألقيت فيه .

قال سعد باشا :

« أقدم وافر شكرى لحضور صاحب السعادة رئيس لجنة الاحتفال وحضرات أعضائها الذين هيأوا لنا هذه الحفلة ، وجهّزوا لى هذه الفرصة ، لأحدّثكم بعض الشىء عما يجول بخاطرى بالنسبة لهذا العيد السعيد . ولقد أخجل حضرة الأستاذ مرقص بك حنا تواضعى ، بما نسبه إلىّ من الفضل الذى أشعر به

فى نفسى بالنسبة للقضية المصرية ، حقيقة أخجل تواضعى ، وجعل العبرة تخنقنى مما قال وما أملاه عليه لطفه وضميره لأن أعمالى التى أشاد بذكرها اليوم لم تكن شيئًا مذكورًا بالنسبة لأعمال المصريين جميعًا . صنعها الذين قدّموا أنفسهم ضحايا لحريتنا واستقلالنا ، كلما قارنتم بين عملى وعمل أولئك الذين كانوا يعرضون صدورهم لنيران خصومنا ويقولون اضربوا هذه الصدور المملوءة بالوطنية فلن نترك بلادنا ذليلة لكم . كلّما قارنتم بين هؤلاء الأبطال من رجال ونساء وبين عملى ، إستحييتُ وأخذنى الخجل من قول الأستاذ مرقص حنا بك أننى كنت العامل فى هذه النهضة العالية . لا . إن العمل هو عمل جميع المصريين ، بل هو كما أعتقد الإله العظيم الذى أودع هذه الروح قلوب المصريين جميعًا . وهى علامة على أن الله سبحانه وتعالى سينيلنا بغيتنا ولو كره الظالمون . قد تكلم الأستاذ مرقص حنا فى المفاوضات وما وقع فيها بين المصرى وغيره . وشفى الغليل بما قال . وإنى أؤكد لكم أن منازعى فى هذه المفاوضات، لو كان استمد قوته وسلطته من الأمة لكنت شاكراً له ولجعلت نفسى فى ركابه . ولكن الذى ينازعنى فى خصائصى لم يأت من قوة الأمة ولا من سلطتها ولا بتوكيل منها . ولكنه أتى من طريق الحماية . اختارته الحماية وعيّنته مفاوضًا . وما هى تلك الحماية ؟ هى خصمنا وهى التى تنازعنا استقلالنا . تُعّين لنا مفاوضًا . فيأتى أولئك المفاوضون ويقولون نحن وكلاء الأمة تسلّمنا صفتنا منها ؟ يأتى أولئك من قبل خصومنا ويقولون نريد أن نترأس عليكم فى المفاوضات لنصل بكم إلى الاستقلال التام ؟ شىء غريب جدًا. خصومنا يعّينون المفاوضين عنا فالنتيجة أن خصومنا يتفاوضون مع خصومنا . كما قلت من قبل وأكرر القول الآن « إن جورج الخامس يتفاوض مع جورج الخامس » لهذا لم يكن منى ، وأنا الأمين على حقوقكم ، أن أنزل عن إرادتكم وأسلّم الرياسة لمندوب الحماية فتصبحون ولا مفاوض لكم ويتحتم أن تقبلوا ما يفرضه عليكم خصومكم . هذا هو السبب فى أنى لم أقبل . فلم يكن السبب طمعًا فى الرياسة كما تفضل ببيانه حضرة مرقص بك حنا . حقيقة لأن المنزلة التى تشرّفتُ بها بين الأمة أعلى منزلة فى العالم والاستقبال الذى استقبلتم به شخصى الضعيف لم يسبق له مثيل . بعد هذا ، ما يكون لى من مطمع ؟ لم يبق لى إلا مطمع واحد هو تحقيق تلك الثقة التى كان هذا الاستقبال مظهرها . ولكن خصومنا اتخذوا القضية هزؤا ولعبًا ، وجعلوها من المسائل التافهة التى

يتنازع فيها الناس لشهوات وأغراض. كلا ليس الأمر كذلك . إنها مسألة حيوية حقيقة ، ولا يمكنني ولا يمكن لواحد من زملائي الذين يعملون معي أن يفرط فيها لمجاملة أو لمحاباة . إن حقوق البلاد لا تقبل مجاملة ولا محاباة ولا مراعاة خواطر . بل يجب أن يكون الإنسان فيها متشددًا وإلا كان خائنًا لبلاده، كما قال الأستاذ مرقص بك حنا ، وأنا لا أريد أن أكون خائنًا » .

ثم تعرّض للحرب التي يلقاها من الوزارة في جهاده فقال موجهًا الخطاب إلى عبد الخالق ثروت باشا وزير الداخلية :

« اليوم نُشر منشور وزير الداخلية - ثروت باشا - ينبّه فيه إلى منع الناس من إلقاء خطب سياسية وتنفيذ هذا المنع بالقوة في المساجد حفظًا للنظام العام . هذا المنشور أصدرتموه عقب الخطبة التي ألقيتها في الأزهر الشريف ، يساوي عندي ألف خطبة وخطبة ، لأنه يدلّ على أنكم تأخذون الطريق على الحرية أن تظهر ، وعلى الشعور أن يبدو ، وعلى الأمة أن تقول رأيها فيكم . ولكن إذا منعتم الأمة من أن تسمع الخطب في مسجد فستسمعها في كل مكان . في بيوتنا ، في خدورها ، في ملاهيها ، في كل مظاهرها ، تبدي السخط عليكم وتستمطر اللعنات على أيامكم .

« ولما شعرتم أن قوماً من الأحرار يسعوْن للمجيء إلينا[١٠] ، ليروا مبلغ الحركة القومية فينا ، والدرجة التي وصلنا إليها من المدنية والرقيّ ، وذلك الاتحاد الذي نباهي به والذي هو عدّتنا وعمادنا . أخذتم تفرّقون الكلمة وتقسّمون الوحدة ، وتحملون الناس على أن يقولوا إن « الوفد » ليس وكيلكم . وأن أولئك الذين ينتصرون لنا لا يودون لنا إلا استعمارنا ، وأنهم إنما يحضرون للاطّلاع على شئوننا وليقولوا عنا إننا لسنا أهلاً للاستقلال . هكذا قالوا ، وبئس ما قالوا . ولقد دلّوا بما قالوا على سوء نيّتهم . هؤلاء الأحرار قوم مبادؤهم حرية الإنسان والأقوام . يعرفون أنه لا حق لقوم أن يستعبدوا قومًا آخرين ، ولا حق لانجلترا على الخصوص أن تمدّ سلطانها على أمم أخرى لأن ذلك يجعلها في حرب دائمة مع تلك الأمم ولأنه يحمل الأمة الإنجليزية ضرائب لا قبل بها . ولهذا السبب يكرهون أن يمتد سلطان أمتهم علينا . فهم يسعون جهدهم ليل نهار في أن يقنعوا حكومتهم بكل الوسائل بأن لا تطمع في

الاستيلاء على الأمم الأخرى وأن تترك الشعوب أحرارًا فى البت فى مصيرها .
هذه هى مبادؤهم ، لذلك رأينا ، بل يجب علينا أن نطلب مساعدة هؤلاء كما تساعدنا بغيرهم من جميع الأقطار . فنصرونا وكّنا بانتصارهم لنا مباهين ومفاخرين وأن سرورنا سيكون أكثر . وفخرنا أعظم إذا أوجدنا فى بلاد خصومنا من ينتصر لنا . هذا هو الذى عملت أنا وإخوانى عليه قبل انشقاقكم . فسعينا لأن نتعرف «بالأحرار » من كل أمة وملّة . فوجدنا فى كل البلاد من قام بمساعدتنا . كما وجدنا فى انجلترا نفسها من الأحرار عددًا كنّا نتمنى أن يكون كبيرًا . يرفع صوته فى وجه حكومته فى كل مناسبة مطالبًا بدفع الحيف عنا وبرد حريتنا التى هى حق طبيعى للأمم » .

ثم تلا سعد باشا بعد ذلك نص منشور أذاعه النواب الأحرار فى انجلترا عن الأغراض الحقيقية التى حدت للحضور إلى مصر [١١] وعن تصرّفات الوزارة العدلية فى محاولة منعهم من الحضور ومساندة هذه الوزارة للاستعماريين من الإنجليز فى سياستهم . . . ووجّه الخطاب للوزاريين فقال :

هذا هو المنشور الذى أذاعه أولئك النواب الأحرار . ولئن صح للوزاريين وأتباعهم أن يدّعوا بأن هؤلاء مستعمرون ، فمن هم الأحرار إن كان أصحاب هذه العبارات من المستعمرين ؟ إنما أنتم أيها الوزاريون المظاهرون للمستعمرين لاأولئك الأحرار . . !

واستأنف سعد باشا خطبته عن المناسبة التى أقيمت من أجلها الحفلة فقال :

بعد ذلك أرجع إلى عيدنا . هذا العيد الذى نحتفل به هو عيد قديم كان يحتفل به آباؤنا الأقدمون منذ آلاف السنين . وكان يوم عيد للجميع . وحكى المقريزى أن اتخاذ هذا اليوم يرجع إلى الحفيد الخامس لسيّدنا نوح . أى من زمان بعيد جدًّا . ولكن العلماء يتساءلون لم يحمّلون هذا العيد ـ وهو مصرى ـ اسمًا غير مصرى ؟ أى اسمًا فارسيًا مركبًا من كملتين (نيو) ومعناها جديد و (روز) ومعناها يوم . فنيروز معناها « يوم جديد » . ولقد تساءل العلماء فيما بينهم كيف أن كلمة فارسية يتسمى بها عيد مصرى يرجع الاحتفال به إلى أسبق العصور ؟ فلم يهتدوا إلى حل . ولكن حضرة الفاضل زميلى واصف غالى بك وجد حلاًّ لهذه المسألة . وتواضعه لا يجعله ينسب هذا الأمر لنفسه .

قال إن هذا ـ كما يظن ـ يرجع إلى التسامح والكرم اللذين امتاز المصريون بهما من قديم الزمان . فكما أعددنا لضيوفنا منزل الإكرام فى قلوبنا ، كذلك أعددنا لألفاظهم مكانًا فى لغتنا . هذا هو التفسير الذى أعطاه هذا الفاضل . وهو تفسير يروقنى كما يروقكم لأنه مطابق لأخلاقنا وعاداتنا . نكرّم الضيوف وننزلهم عندنا منزلة الأمانة والسلام ، ولكن المجاورة والعشرة تقضى فى بعض الظروف بأن تحدث بعض الحوادث التى لا يرتاح لها كل طرف » .

وقد ختم سعد باشا خطبته بقوله :

ولا أطيل القول عليكم . لقد اطلع حضرة زميلى الفاضل غالى بك على مؤلف أقام صاحبه فى مصر من سنة ١٨٦٣ إلى ١٨٧٥ وقال بمناسبة عيد النيروز إنه فى هذا العيد كانت العادة القديمة أن كل قرية وكل بلد تنتخب ملكًا لها ثلاثة أيام ، وبعد ذلك يأخذون ثيابه ويحرقونها فتنتهى دولته . . !

« فالوزاريون » هم ملوك النيروز . وسيسقطون عما قريب وتُحرق ثيابهم وتنتهى دولتهم . ألقى هذه العبارة وأشكر حضرة زميلى على أنه وجدها . كما أشكركم كل الشكر وفوق الشكر على حسن إصغائكم . وأكرر الشكر لحضرة الأستاذ مرقص بك حنا نقيب المحامين وأرجو رجاء يحققه الله سبحانه وتعالى لأنه صادر من قلب خالص ، أن يوحّد بيننا وأن يزيل عوامل الشقاق منا ، وأن يوفّقنا إلى أن نعمل على ما فيه استقلال هذه البلاد . آمين » .

وبعد أن أتم سعد باشا خطابه ، عانقه الأمير محمد على توفيق وصافحه شاكرًا .

ثم أنشدت تلميذات مدرسة « المرأة الجديدة » نشيدًا جميلاً بديعًا كان آية فى الرقة والسلاسة واحتوى على كثير من المعانى الوطنية .

وفى نهاية الحفلة وافق المجتمعون على قرار فيما يختص بالحالة الحاضرة وموقف الوزارة والإنجليز من الأمة ومطالبها وتأييدهم لسعد باشا والثقة به ، وعدم الثقة بالوزارة العدلية .

وقد رُفع هذا القرار إلى السلطان ، وأرسلت صورة منه إلى رئيس الوزارة الإنجليزية ، كما نُشر فى الصحف .

وصفوة القول أن حفلة « عيد النيروز » نجحت فى ذلك العام نجاحًا كبيرًا وكان لها ولخطبة سعد باشا فيها صدى بيّن .

هوامش الفصل العاشر

(١) وذلك بمقتضى الأحكام العسكرية .

(٢) كان يوم خميس ، وكان فى وداعه أيضًا الأمير محمد على ، وبلغ جمهور المودعين داخل المحطة ٦٠٠ شخص اغلبهم من الطلاب 407/189 Inc. in No. 33.

(٣)تصفه الوثائق البريطانية بانه برتبة ملازم ومن الشخصيات الزغلولية الهامة بالاسكندرية وقد سلم للسلطات العسكرية بعد اعتقاله 407/189 Ibid

(٤) يشير التقرير البريطانى الذى وضع عن نفى الامير عزيز حسن انه قد عقد اجتماع كبير فى مسجد المرسى أبو العباس يوم رحيله هاجم فيه الحاضرون بشدة قرار النفى . وان البريطانيين قد رفضوا خروجه من مصر إلى لندن حتى لايثير المتاعب لوفد عدلى هناك 407/189 Inc. in No.Ibid.

(٥) من رجال الحزب الوطنى قبل الحرب الأولى ورأس تحرير جريدة « مصر الفتاة » ـ رأس تحرير «النظام» كانت احدى صحف الوفد .

(٦) بدت على كاتب التقرير السرى فى دار المندوب السامى الحيرة من « هذه الحركة المفاجئة من زغلول » وكتب فى جانب من التقرير انه ظهر فى الحفل دون سابق انذار وانه لم يكن مدعوًا ، ثم كتب فى جانب آخر انه لابد وان تكون قد وصلته دعوه نتيجة لخطأ ناشئ عن اهمال ، وان اعترف انه لقى ترحيبا كبيرًا . 407/189 Inc. in No. 41.

(٧) تقع بين بنها وميت غمر فى مديرية الغربية .

(٨)تشير الوثائق البريطانية انه رغم الاحتياطات المشدده فقد قامت مظاهرة كبيرة فى بنها اثناء رحلة عودة سعد زغلول ترحيبا به مما أدى إلى تدخل البوليس والقبض على بعض افراد اسرة حشيش التى تصفها هذه الوثائق بانها من اشد مؤيدى زغلول فى القليوبية . 407/189 Inc. in No.Ibid.

(٩) تقدر المصادر البريطانية عدد حضور هذا الحفل بأربعة آلاف نسمة وتلاحظ انه كان من بين الحضور عدد كبير من الأزهريين رغم انه اقيم لمناسبة رأس السنة القبطية 407/189 Inc. in No. 84

(١٠) يقصد بعثة سوان Swan.

(١١) جاء فى نص هذا المنشور انهم لايأتون لمصر للتدخل فى شئونها وانه يحكمهم ثلاثة مبادئ :

١ ـ حق الشعب المصرى فى تقرير المصير والاستقلال التام وان اية معاهدة تؤمن المصالح الضرورية للاجانب ينبغى الا تنتهك هذا الحق .

٢ ـ اختيار ممثلين منتخبين عن الشعب المصرى ليشكلوا الوفد الذى يفاوض نيابة عن مصر .

٣ ـ الغاء الاحكام العسكرية وغيرها من الاجراءات القمعية فورا لتمكين الشعب المصرى من انتخاب ممثليه انتخابا حرًا 407/189 Inc. in No. 84. (انظر الترجمة العربية الكاملة للمنشور فى الفصل التالى) .

الفصل الحادى عشر

*

سفر الأستاذ مكرم عبيد للدعاية للقضية المصرية فى لندن - احتجاجات على موقف « الوزارة العدلية » من الشعب وإضطهادها الوطنيين - تكوين لجنة من النواب الإنجليز لتأييد القضّية المصرية وتنوير الرأى العام البريطانى - دعوة سعد باشا فريقًا منهم لزيارة مصر وقبولهم الدعوة - محاولة « الوزارة العدلية » عرقلة حضورهم وفشلها فى ذلك - « النوّاب الأحرار » يذيعون منشورًا ضد « الوفد الرسمى » ينكرون عليه صفته فى التكلم باسم الشعب المصرى - قدومهم إلى مصر واحتفال الوطنيين بمقدمهم - استقبالهم فى الإسكندرية والقاهرة - منع طنطا من الاحتفال بهم - قدوم وفد من مديريتى الغربية والمنوفية للاحتجاج على هذا المنع - إلغاء أوامر منع زيارة الأقاليم والسياح بها - سفر سعد باشا وضيوفه إلى بورسعيد واحتفال أهلها - خطبة سياسية هامة لسعد باشا - زيارة المنصورة - حفلات التكريم للنوّاب الأحرار بالقاهرة - عودة النوّاب الأحرار إلى بلادهم بعد تسجيلهم إعجابهم بوطنية المصريين وتمسّكهم بمبادئ الاستقلال - ازدياد ضغط الوزارة واعتقال الصحفيين - تعدّد مظاهر كبت الشعور الوطنى .

* * *

وعقب سفر « الوفد الرسمى » الحكومى برياسة عدلى باشا إلى لندن ، وجهاد سعد باشا فى مصر لتكتيل الرأى العام ، ومعارضة الوزارة العدلية ، لقبولها مفاوضة الإنجليز دون وكالة من الأمة ، رأى الوفد المصرى أن يخرج بالقضية المصرية ، إلى المعترك الدولى - مرة أخرى - حتى يعرف الرأى العام فى العالم ما يدبّره المستعمرون لمصر ، كى تفرضَ الحماية المقنعة عليها ، فى شكل استقلال مزيّف . ولذلك قرّر إيفاد أحد كبار أنصاره ، المتمكّنين من اللغة الإنجليزية تمكن المثقفين من أبنائها[1] ، إلى لندن : وتكليفه بهذه المهمة . فوقع الاختيار على الأستاذ مكرم عبيد . لما عُرف عنه من براعة سياسية ولما اتّصف من غيرة لفتت إليه الأنظار ، سيّما منذ أن وضع رسالته القيمة باللغة الإنجليزية فى معارضة «مشروع المستشار برونيات » - مستشار وزارة الحقانية - ، ومنذ أن قدّمته الوزارة إلى المحاكمة مع الموظفين الأحرار الذين أيّدوا سعد باشا ، كما سلفت الإشارة فى الفصول السابقة .

سافر الأستاذ مكرم فى أواخر يوليو سنة ١٩٢١ ، وتعمّد أعضاء الوفد كتمان نبأ سفره . فلم يُذع إلا بعد وصوله ، خشية أن تعمد وزارة الداخلية إلى منعه من السفر - بسلطة

الأحكام العرفية القائمة ـ فيحال بينه وبين المهمة التى عُهد إليه بها .

فلمّا وصل إلى لندن ، أعلنت سكرتيرية الوفد المصرى فى يوم ٣ أغسطس سنة ١٩٢١ أن « الأستاذ مكرم عبيد العضو فى الوفد المصرى سافر منذ بضعة أيام إلى أوروبا لأشغال تتعلق بالقضية المصرية وخصوصًا فى انجلترا » .

كما أذاعت شركة أنباء « روتر » تلغرافًا تلقته من لندن فى يوم ٢ أغسطس نصه : «وصل إلى لندن الأستاذ مكرم العضو فى وفد زغلول باشا ، وقد جاء ليعرض آراء هذا الوفد على الجمهور البريطانى ، ولاسيّما خطة الوفد من المفاوضات الجارية الآن بين الحكومة البريطانية والوفد الرسمى » .

ولم يكد الأستاذ مكرم يستقر بلندن حتى شرع فى نشر دعاية ضخمة ، تعريفًا للرأى العام البريطانى . فراسل كبريات الصحف الإنجليزية ، وألّف لجانًا من الطلبة المصريين فى مختلف المدن والجامعات ، وعقد الاجتماعات العامة التى كان يحضرها الإنجليز والمصريون ليبيّن لهم حقيقة الحال فى مصر، وندّد بما تتخذه الوزارة القائمة بها من إجراءات تعسّفية لخنق إرادة الأمة . وقد أحدثت دعايته أثرًا بالغًا سواء فى انجلترا أو فى مصر . أمّا فى انجلترا فقد تحرّج موقف الوفد الرسمى أشد التحرج ، إذ بات واضحًا أن اعضاءه لا يمثلون إلاّ أنفسهم . أما فى مصر فقد أوجدت بارقة من أمل فى أن يتنبه الرأى العام البريطانى للقضية الوطنية ولما يدبّره الرسميون من حكّامه ضد إرادة المصريين .

ومن الاحتجاجات التى نشرها الأستاذ مكرم وكان لها صدى بعيد فى مختلف الدوائر السياسية ، خطاب مفتوح أرسله إلى جريدة « الديلى هرالد » ـ صحيفة حزب العمال ـ قال فيه :

« سيّدى . هل تسمحون لى بنشر إحتجاجى الشديد على وسائل الشدة والعنف التى تستخدم اليوم فى مصر (فقد تذرّعت السلطات فيها بالأحكام العرفية لنفى حضرة على بك فهمى كامل وكيل الحزب الوطنى [٢] واعتقال حضرة محمد أفندى الكلزة صاحب جريدة « وادى النيل » التى هى جريدة من كبريات الجرائد المصرية ولسان من ألسنة سعد باشا[٣] ، وسجن حضرة حسن بك الشريف أحد مشهورى الكتّاب المصريين ، بغير أن يسبق هذه الإجراءات شىء من التحقيق الذى هو حق كل إنسان .

إننى أشهدت ، ولا أزال اشهد الديمقراطية البريطانية وغيرها من ديمقراطيات العالى

على أن الشعب المصرى يضحّى به على أيدى حكومة تعضّدها الحراب البريطانية ، ولا يمكن أن تنتج هذه الإجراءات العنيفة إلا اشتداد المعارضة وإلا أن تفضى إلى أزمة شديدة. وكلّما ازداد العنف ازدادت المعارضة قوة وبأسا . لأن المصريين قد عقدوا عزائمهم اليوم أكثر من كل وقت على الفوز باستقلالهم التام وحرّيتهم الكاملة مهما كلّفهم من الثمن . . .

وإنىّ باسم العدل والإنصاف ، أطلب أن يوضع فى الحال حدّ لآلام الشعب المصرى بإلغاء الأحكام العرفية وغيرها من القوانين الاستثنائية ، وأن يفكّ إسار المعتقلين السياسيين ، ويردّ المنفيون إلى أوطانهم ، وأن يُعطى لمصر فرصة حرّة للإعراب عن رأيها وتمثيل نفسها تمثيلاً ديمقراطيًا فى المفاوضات مع بريطانيا على قاعدة استقلال مصر التام .

أمّا إذا كانت الحكومة البريطانية مُضادة للوسائل الحرّة الديمقراطية فإنى أسألها بالله أن تضع حدًّا للتظاهر بالرغبة فى المفاوضات الحرّة الودية ولتظهرلنا بمظهرها الحقيقى » .

وسرعان ما أنتجت هذه الدعاية ثمرتها المرجّوة ، إذ استجاب إليها بعض أعضاء «مجلس العموم » البريطانى من حزبى « العمّال » و « الأحرار » . ومبادؤهم تتنافى مع مبادئ حزب « المحافظين » الاستعمارية . وتمّت اتصالات بينهم وبين رسول الوفد . وانتهى الرأى إلى تكوين لجنة منهم تقوم ببث هذه الدعاية بين أوساط البرلمانيين الإنجليز، وإسماع رجال الحكم فى انجلترا الصوت الذى عملت الوزارة العدلية على كتمانه .

ولقد نشر هؤلاء الأحرار فى جرائدهم منشورًا سياسيًّا ، هو الذى كان سعد قد تلاه على المحتفلين « بعيد النيروز » كما أشرنا فى الفصل السابق . ومما جاء فيه :

« وصل الوفد الرسمى إلى لندن ليعقد معنا المحالفة باسم مصر مع بريطانيا العظمى ، وقبل نبدأ فى هذه المعاهدة ، وقبل أن ننتهى نرى من المصلحة إذاعة بعض الحقائق التى تأكدّنا من صحّتها ، مبيّنين النتائج التى تنجم عنها .

إنّ هذه الجماعة المصرية ليست مطلقاً « وفدًا » من قبل الشعب المصرى ، لأنها معيّنة من قبل الوزارة التى عيّنها السلطان ، الذى عينتّه الحكومة البريطانية . إن هذه الجماعة غير ممثّلة للرأى العام المصرى ، وفوق ذلك فإن الأغلبية العظمى من المصريين تعارضها .

إن الوزارة الحالية تستعين بالأحكام العرفية التى وضعتها بريطانيا العظمى على مصر سنة ١٩١٤ واستمرت إلى الآن ، لتضييق الخناق على الرأى العام فى مصر ولانتزاع ثقة

الناس بها وتأييدهم لها على كُره منهم . إن المفاوضات مع هذا الذى يسمّونه « وفدًا » لا يمكن أن تؤدى إلى حلّ مرضٍ للمسألة المصرية . ذلك أن الوزارةامتنعت عن إجراء إنتخابات « الجمعية الوطنية » ، فضلاً عن استعمالها وسائل الإكراه التى ولّدت العداء فى قلوب أغلب المصريين وجعلتهم يعتقدون أن الوزارة ووفدها خاضعان لسلطان الحكومة الإنجليزية التى يتفاوضون معها . إن وضع معاهدة على هذه الطريقة يجرّ إلى اضطرابات لا حدّلها . وربّما إلى ثورة . زد على ذلك إحياء العداء فى صدور المصريين نحو الإنجليز مما يؤدى حقًّا إلى زيادة الأعباء المالية على عاتق الشعب الإنجليزى . ومن العبث إجبار ١٤ مليونًا من الناس على التسليم بمعاهدة أو حكومة لا يرضون عنها . ليس هنا من وسيلة لعمل معاهدة يمكن للمصريين قبولها إلا إجراء انتخابات عمومية بعد أن تُرفع الأحكام العرفية . والجمعية التى تنتخب تعيّن وفدًا ينوب عنها » .

وقد وقعّ هذا البيان ١٩ نائبا من أعضاء اللجنة .

ثم كان أن طلب سعد باشا إلى الأستاذ مكرم عبيد أن يدعو النواب الأحرار لزيارة مصر، ليروا بأنفسهم مبلغ قوّة الحركة الوطنية والاتحاد المتين فى صفوف المصريين ، ويروا العسف الذى يحصل لأنصاره . فقابلوا هذه الدعوة بالارتياح ، واتفقوا على إيفاد ستة أعضاء منهم . وأذاعوا فى هذا الشأن بيانًا قالوا فيه : « إنه ليس القصد من سفرهم التدخّل فى شئون مصر . وإنما القصد هو درس الحالة درسًا يمكّنهم من إبداء رأيهم فى السياسة التى يمكن أن تتّبع ، توصّلاً لتوطيد دعائم الصداقة بين انجلترا ومصر» .

وأعلنوا أيضًا : « أنهم . وهم أنصار الديمقراطية فى البلاد الأخرى ، كما هم أنصارها فى بلادهم ، يوافقون على المبادئ الثلاثة الآتية :

أولاً : حق الشعب المصرى فى أن يبتّ فى مصيره بنفسه وأن يتمتّع بالاستقلال التام . وكل معاهدة تعقد بين مصر وانجلترا يجب أن لا يكون فيها أى مساس بهذا الحق . وأنه من الواجب أيضًا أن تحتوى على الضمانات للمصالح المعقولة لانجلترا والدول الأخرى .

ثانيًا : يجب أن يكون المندوبون الذين يتفاوضون باسم مصر « مختارين » بواسطة النوابّ الذين ينتخبهم الشعب المصرى .

ثالثًا : يجب أن تلغى حالاً الأحكام العرفية وكل التدابير الأخرى الإرهابية ، ليكون انتخاب أولئك المندوبين حرًّا » .

وقد انخلعت قلوب الوزاريين فى مصر ، كما انزعج الوفد الرسمى فى لندن ، على أثر إعلان هؤلاء النواب الأحرار عزمهم على السفر إلى مصر . وأوعزوا إلى أنصارهم إن يقولوا إن هؤلاء الأعضاء سيتدخّلون فى شؤون مصر الداخلية . . !

وقد بذلت الوزارة العدلية المساعى العديدة لمنع هذه الزيارة تحت ستار المحافظة على الأمن العام . وذهب عبد الخالق ثروت باشا ـ نائب رئيس الوزراء ـ إلى دار المندوب السامى وقابل نائبه ، وقال له إنّ زيارة هؤلاء النواب لمصر ستحدث مظاهرات كثيرة يترتّب عليها قلاقل واضطرابات ، فكتب دار المندوب السامى بذلك إلى وزارة الخارجية الإنجليزية . فكان كل ما فعلته هذه الوزارة أن كتبت بدورها إلى النّواب تحمّلهم مسئولية ما قد يحصل .

وقبل أن يغادر هؤلاء النواب لندن قاصدين إلى مصر ، أقام لهم الأستاذ مكرم عبيد حفلة وداع تكريمية ، وأرسل بذلك تلغرافًا إلى سعد باشا فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢١ ، قال فيه :

« اجتمع فى حفلة التوديع التى أقيمت لأعضاء البرلمان المسافرين إلى مصر ١٥٠ من المصريين ، وكثير من البريطانيين والأيرلنديين والأتراك ووفود من الفلسطينيين والأفغانيين والهنود المسلمين . ورأس الاحتفال « المستر جورج برناردشو » الكاتب المشهور [٤] ، وخطب فى المحتفلين فدافع عن استقلال مصر وأقرّ زيارة الأعضاء لها بغرض اكتساب العطف من ديمقراطيات العالم . وبغرض تصحيح أخبار الحكومة المقتضبة .

« ثم تكلمتُ فقلت إن الاستقلال لن يكون شيئًا جديدًا فى بلادنا التى لم تكن يومًا جزءًا من الأمبراطورية البريطانية ، ولن تكون جزءًا منها أبدًا . وإن الاستعمار الإنجليزى قد أفلس فى مصر لأنه لم يعمل شيئًا للمصريين أنفسهم ، غير بعض الإصلاحات العادية التى ترجع منفعتها على الخصوص إلى المدنيين البريطانيين والأجانب . وأن مصر تسير وراء قائدها « زغلول باشا » ، وهى مصمّمة على الوصول إلى حياة شريفة أو موت شريف . وهى فوق ذلك لا ترضى إلاّ بمفاوضات حرّة يقبلها الشعب وتطلب إطلاق سراح المسجونين السياسيين .

وقال السيد حسين الهندى إن الهنود يعرفون « زغلول » كما يعرفون « غاندى » [٥].

وصل النواب الأحرار إلى الإسكندرية فى يوم الثلاثاء ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢١ وهم : مستر « سوان » ، ومستر « لن » ، ومستر « ميلز » ، ومستر « لوسن » ، والبروفسور «سيجال » ، وقد قدموا على الباخرة « حلوان » ومعهم الدكتور حامد محمود (وزير الصحّة فيما بعد) [٦] وتصادف أن وصلت معهم على هذه الباخرة حرم إسماعيل صدقى باشا « عضو الوفد الرسمى » والجنرال « ستورس » ـ حاكم القدس حينئذ ـ والسكرتير الشرقى السابق للوكالة البريطانية فى مصر .

ولابدّ أن نقف قليلاً عند وصول هؤلاء النّواب إلى مصر ، قبل أن نتابع وصف استقبالهم فى الإسكندرية والقاهرة وغيرهما من المدن التى زاروها ، كى نعرف وتعرف الأجيال التى تأتى من بعدنا ، لماذا دعاهم سعد باشا لهذه الزيارة ، ويرد على تلك الفرية التى افتراها عليه خصومه بدعواهم أنه بإحضارهم إلى مصر كان يدعو الإنجليز إلى التدخّل فى شئوننا الداخلية . كأن الإنجليز لم يكونوا يتدخلون فى هذه الشئون منذ احتلالهم لبلادنا سنة ١٨٨٢ . بل وكأنهم ليسوا هم الذين عيّنوا عدلى باشا رئيسًا للوزارة بل عيّنوا السلطان فؤاد نفسه سلطانًا على مصر ، فى ظلّ حمايتهم .

ولست أورد الأسباب التى من أجلها دعا سعد باشا هؤلاء النّواب لزيارة مصر من عندى ، وإنما أنا أستقيها من مصدرها أى من صاحب الدعوة نفسه . فإن سعد باشا لم يترك مفتريات خصومه دون أن يدحضها فى خطبه وبياناته . ولعلّنا نلمّ إلمامة قصيرة بها . وأجدرها بالذكر أن يلمس هؤلاء النواب ـ ومنْ وراءهم من الإنجليز ـ أن مصر جديرة بالاستقلال ، وأنها تطالب به وهى جادّة فى هذه المطالبة . ومن أجل هذا قامت بحركتها الوطنية التى تتّسم بالتسامح التام ، فليست تعرف التعّصب ، وليست تعرف العنصرية ولا الطائفية . وإذا كانت يد السوء قد استطاعت أن تمتدّ ـ خلسة ـ لتضع على هذه الصفة البارزة بين صفات الحركة الوطنية شيئًا من الغبار ـ كما حدث فى مدينة الإسكندرية ـ إلا أن تلك اليد سرعان ما ارتدّت إلى الوراء مشلولة خائبة . ولم يلبث هذا الغبار أن انجلى ، وبرئت مصر من السوء الذى حاول خصومها تشويهها به .

وما من شكّ فى أن ما كان من إلمام النوّاب الإنجليز بكل هذه المعانى ، ما حقّق لمصر مكسبًا كبيرًا . وقد تأكد ذلك فعلاً والبيانات التى نشروها على الرأى العام فى بريطانيا بعد عودتهم ، دلّت عليه أحاديث هؤلاء النّواب . وخطبهم .

ويضاف إلى ذلك شيء له أهميته بالنسبة للحركة الاستقلالية . ذلك أن « الأحكام العرفية » التى فرضها الإنجليز على البلاد سنة ١٩١٤ ، كانت سلاحًا ماضيًا فى يد الوزارة، أصلتته فوق رقاب المصريين لتكتم أنفاسهم ، وتضيّق على حرّياتهم ، وتحول دون التعبير عن إرادتهم الحرّة . فكان لابدّ من أن يلمس الإنجليز تبرّم الشعب بما يعانيه ، وأن يروا بأعينهم العسف الذى كان المصريون يلقونه بسبب الأحكام العرفية ، وأن يعرفوا فوق ذلك أن الطغيان الذى يسود أرض مصر لم يثن شعبها فى النهاية عن المضىّ فى المطالبة بالاستقلال العام .

وسيرى القارئ من وصف زيارات هؤلاء النواب الأحرار ، أن سعد باشا حقّق هذه الأغراض كلها مجتمعة ، وأنه بدعوته ايّاهم كان موفّقاً إلى أبعد حد [٧] .

* * *

ونعود بعد هذه الوقفة إلى وصف استقبال الضيوف فى الإسكندرية ، إذ أوفد سعد باشا لاستقبالهم فى الميناء بالنيابة عنه عاطف بركات بك وصادق حنين وسينوت حنا بك ، وكان استقبالهم غاية فى الروعة ، واجتمع الشعب بجموع غفيرة لتحيّتهم والحفاوة بهم .

وأقيمت لهم ليلة وصولهم حفلة تكريم فى فندق « سافوى » رحّب بهم فيها أحمد يحيى باشا بكلمة ، ثم أناب عنه مصطفى ماهر باشا (وزير المالية الأسبق) فالقى خطبة طويلة باللغة العربية ، تولّى ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية الأستاذ جعفر بك فخرى المحامى . وبعد ذلك رد مستر « لن » بكلمة مرتجلة . وعلى أثر انتهائه من إلقائها وقف صادق حنين بك وترجمها إلى اللغة العربية الفصحى ، بسرعة غريبة . وقد ألقاها بصوت قوىّ وإيماء لطيف ، فكان موضع إعجاب الحاضرين .

وكان الأستاذ أحمد حافظ عوض بك الصحفى المعروف ، ـ صاحب جريدة « كوكب الشرق » فيما بعد ـ نائبًا عن جريدة « الأهالى » فى استقبال الأعضاء وفى حضور الحفلة ـ فوقف بعد ذلك وقال معلقًا :

« إن الوزارة خدمتنا بفصلها صادق حنين بك من وظيفته الحكومية ، إذ دفعته بذلك إلى العمل معنا ، والخير قد يأتى من الشر » . ثم طلب حافظ عوض بك من مستر «سوان» الذى اشتهر اسمه فى مصر وكثر تردّده على ألسنة المصريين أن يلقى كلمة . فلبّى هذا الطلب .

وفى اليوم التالى ـ الأربعاء ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢١ ـ غادر النواب الأحرار مدينة الإسكندرية قاصدين إلى القاهرة فودعوا فى محطتها وفى الطرق الموصّلة إليها أحسن توديع . وكان فى إستقبالهم فى محطة القاهرة سعد زغلول باشا وأعضاء الوفد المصرى ، وأعضاء لجنته المركزية ، وجماهير لا تُحصى من الشعب . وسار موكبهم مجتازا شوارع القاهرة بين الهتافات المدوية بحياة مصر واستقلالها وحريتها وحياة النواب الأحرار ، حتى وصلوا إلى بيت الأمة : وهناك تناولوا الشاى على مائدة سعد باشا مع جميع أعضاء الوفد المصرى وغيرهم .

وقد حياهم الأستاذ محمد نجيب الغرابلى ـ المحامى بطنطا وقتذاك ووزير الأوقاف فيما بعد ـ وكان شاعرًا مجيدًا بقصيدة جميلة ختمها بالأبيات الآتية :

« سلامًا أيها الأحرار ! أهلاً	وسهلاً بالكرام الوافدينا
على الرحب اهبطوا مصرًا ضيوفًا	على أهل الكنانة أجمعينا
وقولوا عند عودتكم لقومٍ	بوادينا يظنّون الظنونا
رأينا آية فى أرض مصر	ستمحو آية المستعمرينا »

هذا وقد عاد مع النوّاب من الإسكندرية إلى القاهرة المندوبون الذين أوفدهم سعد باشا لاستقبالهم . كما عاد معهم حضرات طاهر اللوزى بك والأستاذ محمد أمين يوسف والدكتور نجيب اسكندر والدكتور حامد محمود ومحمد بك بدر والأستاذ أمين عز العرب[8] .

وكان قد حُدّد يوم الجمعة ٢٣ سبتمبر لزيارة النّواب الأحرار « مدينة طنطا » . فقامت مديرية الغربية على بكرة أبيها تستعد لاستقبالهم والحفاوة بهم . وكان سعد باشا معتزمًا أن يصحبهم فى هذه الزيارة . ولذلك عنى أهل المديرية وفى مقدّمتهم كبارهم وأعيانهم بإبراز شعورهم الوطنى ، وإظهار تأييدهم للزعيم الذى أنجبته مديريتهم [9] ، سيّما وأن هذه كانت أولى زيارته لهذه العاصمة منذ بدء الحركة الوطنية .

وبينما كان الأعيان والكبراء يتنافسون فى الاستعداد لاستقبالهم ضيوفهم وزعيمهم ، إذا بمدير الغربية على جمال الدين باشا ـ وزير الحربية فيما بعد ـ يرسل إلى أعضاء لجنة الاحتفال مساء الخميس ٢٢ سبتمبر ، أى فى اليوم السابق لموعد الزيارة ، يطلب أن يوافوه إلى منزله . فتوجّه إليه الدكتور حسن بك كامل والسيد حسين القصبى وزكى الشيتى بك

وعبد السلام فهمى جمعة بك المحامى والأستاذ محمد نجيب الغرابلى والأستاذ الشيخ حسن عبد القادر . فلمّا قابلوه أبلغهم أن سعد باشا مُنع رسميًا من الحضور إلى طنطا وأنه يجب رفع السُرادق الذى أقيم للاحتفاء به وبالنّواب الأحرار . كما يجب إزالة الزينات التى أقيمت للترحيب بهم . وذلك تنفيذًا لأوامر الحكومة الصادرة إليه فى هذا الشأن . فاحتجّ أعضاء اللجنة على هذا التعسف البالغ وعلى الحجر على الحرّية الشخصية ، ورفضوا هدم الزينات . وقالوا إنهم مستعدون أن يحافظوا بأنفسهم على النظام ، كما أنهم على استعداد لتحمّل المسئولية . ولكن المدير أصرّ على موقفه الذى أمرته به الوزارة .

وما أن انتشر هذا الخبر فى طنطا حتى باتت كلها فى هرج ومرج وخيّم عليها حزن شديد، لحرمانها من رؤية ابنها البار وتأدية واجب الحفاوة نحوهم .

وهكذا مُنع احتفال مديرية الغربية بسعد باشا وبالنوّاب الأحرار بوسائل القهر [١٠]. وبهذا المنع برهنت الوزارة مرّة أخرى على ضعفها ، فى مواجهة تيّار الشعب الجارف ، المعارض لها ولسياستها .

وما أن أصبح يوم الجمعة ٢٣ سبتمبر حتى اجتمع عدد كبير من أعيان مديرية الغربية وذوى الرأى والمكانة فيها وانضمّ إليهم كثيرون من أعيان مديرية المنوفية وعلى رأسهم علوى الجزّار بك وحسنين عبد الغفار بك وحضروا إلى القاهرة ، وكانوا أكثر من مائتين . وذهبوا إلى فندق شبرد حيث قابلوا النّواب الأحرار وأعربوا لهم عن ترحيب الأمة بهم . ثم دعاهم فتح الله بركات باشا ، باعتباره من مديرية الغربية وعضوًا فى الجمعية التشريعية عنها ، إلى تناول الشاى فى الفندق . فأقيمت لذلك حفلة ألقى فيها الدكتور عبد الخالق سليم (عضو مجلس الشيوخ فيما بعد) خطبة باللغة الإنجليزية وصف فيها استياء أهل مديرية الغربية مما فعلته الوزارة من منع الاحتفال بسعد باشا وبالنّواب الأحرار فى طنطا ، وأعرب عن سخط الأهالى على هذا المنع . ثم شرح ما يحصل فى البلاد من العنف والإرهاب . فردّ عليه مستر « لسن » بكلمة بالنيابة عن زملائه النواب شكر فيها مصر والمصريين على الحفاوة التى قوبل هو وزملاؤه بها . ثم ندّد بتصرّف الوزارة لمحاولة التأثير فى آراء المصريين لتوجيهها وجهة لا يرضونها .

وبعد ذلك ألقى فتح الله بركات باشا كلمة مسهبة تحدث فيها عن استعداد مديرية الغربية لاستقبال الزعيم سعد وضيوف مصر من النّواب الإنجليز الأحرار وأن هذا الاستقبال كان سيثبت للعالم أن مصر متضامنة متّحدة ، مصمّمة على ألا ترجع عن

الحصول على الاستقلال التام . ثم تحدث عن تصّرف السلطات بمنع الاحتفال وكيف أن هذا التصرّف لم يمنع إيصال شعور المواطنين إلى آذان النّواب الأحرار ، ثم وجّه الخطاب للنّواب الإنجليز قائلاً :

« إذا كانت هذه التصرّفات الاستبدادية تعمل معكم ، ـ وأنتم نّواب البرلمان الإنجليزى الذين لا يمنعكم مانع من رفع صوتكم حتى يخترق آذان العالم كله فى غير هيبة ولا وجل ـ فكيف بما يعملونه معنا ولا قوّة لنا ، ونحن فى سجن محوط بكل قوّة وأسوار متينة لا تسمح برفع صوتنا ؟ ولكنّهم مهما عملوا فإننا باقون على اتحادنا وتصميمنا .

اعملوا الرصاص فى صدورنا . وارتكبوا معنا كل جريمة من نفى وسجن وقتل يصيب الأبرياء منا ، فعلوا كل ذلك ، ولكن هذا لا يثنى من عزمنا على السّير إلى أمنيتنا وهى الاستقلال التام » .

وعلى أثر انتهاء هذه الحفلة قصد وفد مديرية الغربية ومن معهم من أعيان مديرية المنوفية إلى « بيت الأمة » لزيارة سعد باشا زغلول . فخرج إليهم ـ رحمه الله ـ ونحن حوله وقد ازدحم بهم فناء بيت الأمة وحجرات سكرتيريته ، فاستقبلوه بعاصفة من الهتاف والتصفيق . وبعد أن ساد السكون ألقى عبد السلام فهمى جمعة بك خطبة ضافية شرح فيها ما حصل فى طنطا وذكر بإسهاب تصرّفات رجال الإدارة وعسفهم ومنعهم الاحتفال وهدمهم الزينات .

وفى نهاية الاجتماع ارتجل سعد باشا خطابًا رحب فيه بوفدى الغربية والمنوفية ، ثم تحدث عن مسألة المفاوضات وما حصل فيها . كما تحدّث عن زيارة النوّاب الأحرار والمفتريات التى أذاعها الخصوم عنهم . وكان مما قاله :

« أرحّب كل الترحيب بتشريفكم . وأحّيى فيكم روح التسامح . عاطفة الشفقة . الاتحاد . التضامن . حسن اليقين . قوة الرجاء فى نجاحنا .

أحّيى فيكم روح التسامح . تلك الروح التى محت الفوارق بيننا . وألّفت بين قلوبنا . وجعلت من المسلم والقبطى أمة واحدة . تشعر بشعور واحد . وتسعى لغرض واحد وغاية واحدة . هى الاستقلال التام .

تلك الروح التى وحّدت بين الكنائس والمساجد . وجعلت الكل أماكن للكل . تتلى فيها آيات الوطنية الصادقة . ويتوجّهون فيها إلى الله العلى القدير أن يخرج هذه البلاد من

رقّ الحماية إلى حرية الاستقلال . ومن ذلّ العبودية إلى عزّ حكم أنفسهم بأنفسهم » .

وختم سعد باشا هذه الخطبة بقوله :

« إنى أشكركم فائق الشكر . وإذا صحّ لإنسان أن يفخر بالنسبة إلى مكان ، فإنى أفخر بنسبتى إلى إقليمكم . ذلك الإقليم الذى أظهر من الولاء والإخلاص لقضية الاستقلال ما يستحق المباهاة والافتخار بأهله وسكّانه .

وكلّما شعرت بنهضتكم لاستقبال ضيوفنا واستقبالنا . تلك النهضة التى رجّت الوزارة رجّا . وحملتها على أن تُخمد حركتكم . وتبطل احتفالكم . متخطّية فى ذلك كل حد . ومخالفة لكل مبدأ ، كلّما امتلأ قلبى سرورًا . لأن هذا الضغط من أكبر العوامل لتنمية الحركة الوطنية ، وتقويتها فى نفوسكم وقلوبكم . ولا يمكن للوزارة أن تسىء إلى نفسها بأكثر من استعماله . وهى إمّا أن تكون متفقة مع السلطة العسكرية فى منعنا ومنعكم من الاجتماع فتكون شريكة فى قتل حرّيتنا وحرّيتكم ، وإمّا أن تكون مُسيّرة مقهورة للسلطة الأجنبية فتكون مغلوبة على أمرها ، ومسجونة لديها . وعلى كل من الحالتين أصبحت لا تصلح أن تكون ممثّلة للأمة . ولا تستطيع أن تأتى لكم بالاستقلال الذى تنشدونه » .

* * *

لم يكن منع استقبال النّواب الأحرار فى طنطا بالحدث الذى يمكن أن يمرّ بيسر وخاصة فى الدوائر السياسية فى انجلترا . لا لأنه حدّ من حرية المصريين فى استقبال زعيمهم وضيوفه ، إذ كان من السهل على الحكّام الإنجليز أن يهضموا مثل هذا العسف ، فى سبيل بقاء سيطرتهم على الموقف . ولكن لأنه حدّ من حريّة جماعة من الانجليز ، هم على كل حال من ذوى الصفة الرسمية مهما يكن لونهم الحزبى ، ومهما تكن آراؤهم السياسية ولا شكّ أن هذه مسألة حساسة إلى أبعد الحدود . والذين خبروا الإنجليز ومدى حرصهم على مظاهر الديمقراطية فى بلادهم ، آمنوا فى قرارة أنفسهم ، بأن منع الاحتفال فى طنطا من وحى الإنجليز المحلّيين [١١] ، وأن « حكومة لندن » لن ترضى عنه بحال ، حرصًا على هذه المظاهر.

والواقع أن الوزارة العدلية ـ ومن ورائها الإنجليز المحلّيون ـ أسدوا بهذا المنع أجلّ الخدمات للحركة الوطنية . فقد كان قرار المنع أبلغ ألف مرة ومرة فى كسب المعركة ، من ألف خطبة وخطبة ، وألف مقال ومقال . إذ حقّقت به السلطات الإنجليزية ـ من حيث

لا تريد أو تدرى ـ أحد الأغراض التى استهدفها سعد باشا من دعوة هؤلاء النواب ، وهو أن يروا عن كثب وأن يلمسوا بأنفسهم ما تعانيه مصر من قهر وما ينشر فى ربوعها من المظالم . وأن المصريين بالرغم من ذلك لم يخضعوا لهذا الجبروت وإنما هم ماضون إلى النهاية فى تأييد الفكرة الاستقلالية التى يمثّلها سعد باشا وقد عرف النّواب الإنجليز هذا ولمسوه ، بل لقد آمنوا به أعمق إيمان حتى إن أحدهم وهو « مستر لوسن » قال فى زيارة بورسعيد «لا توجد سلطة على وجه الأرض تستطيع أن تخمد فى نفوسكم حبّ الحرية والاستقلال ، ولا يمكن لأى إنسان أن يخطئ فهم هذا الشعور » .

وقد أدرك الإنجليز فى لندن هذه الحقيقة ، وعرفوا أن الأمر فى هذا المنع التوى عليهم وأنه سيكون سيفًا يصلته النّواب الأحرار فوق رءوس الساسة وهم يناقشونهم الحساب فى مجلس العموم بعد عودتهم . عرفوا هذا وأدركوا أن من الخير أن لا تحول ألوية الطغيان التى يرفعها الإنجليز فى مصر بين النّواب الأحرار وبين زيارة ما يشاءون من المدن المصرية . فسرعان ما ألغيت المنع وأبيحت لهم الاحتفالات والزيارات ، إذ لم يمض يومان على منع زيارة طنطا حتى اتصل مستر كلايتون [١٢] ، ـ مستشار وزارة الداخلية إذ ذاك ـ بفتح الله بركات باشا ، فى يوم الأحد ٢٥ سبتمبر ، وتحدّث إليه فى موضوع زيارة النّواب الأحرار لبلاد القطر . ثم ذهب إليه فتح الله باشا وقابله فى مكتبه بالوزارة ، وبعد محادثة طويلة بينهما تأكّد فتح الله باشا أنه لا مانع لدى السلطة المختصة من أن تتمّ الزيارات التى دعا إليها سعد باشا مع النّواب الأحرار ، لبورسعيدوالمنصورة وأسيوط وغيرها من المدن الأخرى التى يريدون زيارتها[١٣] .

وفى مساء هذا اليوم ـ الأحد ٢٥ سبتمبر ـ أقام سينوت حنا بك عضو الوفد المصرى مأدبة عشاء تكريمًا لسعد باشا والنواب الأحرار ، وقد جمعت كثيرًا من الصحفيين وذوى الرأى والمكانة فى البلاد .

وفى صباح الإثنين ٢٦ سبتمبر زار النواب الأحرار « الجامع الأزهر » الشريف ، ومسجد قلاوون ، وكنيسة باب زويلة ، وبعض المحال التجارية الوطنية ، وخان الخليلى وغيرها من الأحياء . ومن المحال التى زاروها محل عبد الغنى سليم عبده بك (عضو مجلس النواب فيما بعد) وكان محله حينئذ فى شارع السكّة الجديدة .

وفى مساء هذا اليوم احتفل فى « الكنيسة البطرسية » بالعباسية ، بعقد قران يوسف

بطرس غالى بك ، أصغر أنجال المغفور له بطرس غالى باشا وشقيق الأستاذ واصف غالى عضو الوفد المصرى ، على كريمة المؤرخ المغفور له ميخائيل شاروبيم بك صاحب كتاب «الكافى» . وقد حضر هذا الاحتفال سعد باشا والنوّاب الأحرار وأعضاء الوفد المصرى وأعضاء لجنته المركزية وغيرهم من علية القوم ، كما حضره أيضًا الأنبا كيرلس الخامس البطريرك ، وقد تقدّم إليه سعد باشا وعانقه عناقًا حارًّا .

ومن طريف ما يروى ، أننى تلوت فى هذه الحفلة جزءًا من الإنجيل المقدس ، يحتوى حكمًا ونصائح للزوجين ، كقسم من مراسم الإكليل . وكنت أقرأ بصوت قوىّ . فظنّ سعد باشا أنى أخطب فصفّق لى وتبعه الحاضرون فى هذا التصفيق .

وبعد انتهاء عقد الإكليل ، انتقلنا إلى منزل بطرس باشا فى « الفجّالة » حيث أقيمت مأدبة عشاء . وبينما كان الجميع يتجاذبون أطراف الحديث وسعد باشا يتلقى تحياتّهم مغتبطًا منشرح الصدر ، وصل إلى الحفلة مستر « بارنز » أحد النّواب الأحرار ومعه مصطفى النحاس بك سكرتير الوفد . إذ كان النائب الإنجليزى قد وصل إلى الإسكندرية فى هذا اليوم متأخرًا عن زملائه ، وعهد سعد باشا إلى النحاس بك باستقباله فى الإسكندرية والعودة معه إلى القاهرة .

وعهد إلىّ سعد باشا بتنظيم السفر إلى « بورسعيد » وذلك بإعداد قطار خاص يقلّ النّواب الأحرار وأعضاء الوفد المصرى وغيرهم . فذهبت إلى مصلحة السكك الحديدية ودفعت تأمين القطار وأخذت به إيصالاً دون أن يتنبّه أحد من المسئولين إلى ذلك . إلاّ أن الوزارة لمّا علمت أن القطار خاص بسفر سعد باشا والنوّاب الأحرار رفضت إعداده ، فأرسلتُ تلغراف إحتجاج إلى المصلحة أبلغتها فيه أنّى محتفظ بكامل الحقوق فى مقاضاتها لأنى دفعت تأمين القطار كالمتّبع . ثم ذهبت وقابلت مدير المصلحة الإنجليزى ـ الجنرال « بلاكنى » ـ وتحدثت إليه فى الموضوع فصمّم على الرفض .

وفى هذه الأثناء طرأ ما استدعى سفرى إلى « مغاغة » ، وقد تلقيت وأنا فيها تلغرافًا من سعد باشا يدعونى فيه إلى العودة سريعًا إلى القاهرة ، فعدت من فورى وقصدت على الأثر إلى بيت الأمة فوجدت سعد باشا جالسًا مع مستر « سوان » وزملائه النواب ، فطلب منى أن أقصّ عليهم ما حدث من منع إعداد القطار الخاص فقصصته عليهم .

وقد استفسر النواب عن صفتى فى تقديم طلب إعداد القطار ، فأجابهم سعد باشا

بأن النظام موضوع على أن لكل واحد من رجال الوفد مهمة معيّنة ، ومهمة فخرى بك هى إعداد كافة التنظيمات الخاصة برحلة الوفد إلى الأقاليم ، ثم ضحك وقال (إن فخرى بك هو وزير مواصلاتنا . أى وزير الشعب للمواصلات) .

وأخيرًا قابلت أحمد زيور باشا وزير المواصلات ، وتحدثت إليه فى مسألة القطار الخاص . وصمّمت على أحقيتى فى مطالبة المصلحة بإعداد هذا القطار ، مادمت قد دفعت أجره طبقًا للوائح . وهدّدته بالالتجاء إلى القضاء إذا ما صمّم على الرفض ، فلم يسع الوزير بعد مناقشة طويلة إلاّ الإذعان لهذا الطلب .

وكان موعد السفر إلى بورسعيد هو يوم الثلاثاء ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٢١ ، ففى الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم اجتمعنا فى محطة القاهرة وكان فى استقبال المدعّوين الأستاذ على لهيطة بك (عضو مجلس النواب فيما بعد) وإخوانه أعضاء لجنة الوفد فى بورسعيد ، فسلّموا كل مدعّو تذكرة السفر الخاصة به .

ويعجز أبلغ كاتب عن وصف تصرّفات رجال الإدارة التعسفية على طول الطريق ضدّ المسافرين مما لم تشهد له البلاد مثيلاً إلاّ فى عهد وزارة صدقى باشا سنتى ١٩٣٠ و١٩٣١ . إذ منعوا دخول أى إنسان إلى المحطات كما منعوا الناس من الحفاوة بالزعيم وضيوفه . واشتد هذا العسف فى محطة بنها . فقد أراد بعض الناس الدخول إلى رصيف القطار فضربهم رجال البوليس بالعصىّ الغليظة وكعوب البنادق ضربًا مبرحًا . فلّما شاهد ذلك «مستر بارنز » أسرع هو وبعض إخوانه إليهم ونقلوهم إلى القطار لإسعافهم [١٤] .

ووصلنا إلى بورسعيد عصرًا ، فلقينا من حفاوة أهله وحماستهم ما غطّى على الإجراءات الشديدة التى اتخذها ضدنا رجال البوليس على طول الطريق ، وسرنا بين مظاهر الحماسة والكتل البشرية المتراصّة إلى الكازينو .

وكانت لجنة الوفد بالمدينة قد أعدّت سرادقًا كبيرًا فى « حى العرب » ، فقصدنا إليه بين الهتافات المدوّية التى صحبتنا على طول الطريق من الأهالى والعمّال من أبناء بورسعيد ، فلّما وصلنا كان السرادق غاصًا بأكثر من عشرة آلاف نفس فتعالى هتافهم لمصر ولسعد باشا وضيوفه وللوفد المصرى وللحرّية والاستقلال [١٥] .

وألقيت فى السرادق خطب الترحيب بالمدعّوين ، كما ألقى مستر « لوسن » كلمة مسهبة كان مما قال فيها :

« قد يحال بينكم وبين إتقان زينتكم . ولكن لا توجد سلطة على وجه الأرض تستطيع أن تخمد فى نفوسكم حبّ الحرّية والاستقلال . ولا يمكن لأى إنسان أن يخطئ فهم هذا الشعور . وقد تآمرت الصحف الإنجليزية عليكم مؤامرة مجرمة لإخفاء الحقيقة على الشعب الإنجليزى ، وتشويه أخبار مصر . فمتى عدنا إلى قومنا أخبرناهم بما رأينا ، وبشدّة تمسككم باستقلال بلادكم . والتفافكم حول زعيمكم زغلول » .

وخطب سعد باشا فى هذه الحفلة خطبة طويلة سنعود إليها فيما بعد .

وفى أثناء الاحتفال طلب إلىّ سعد باشا العودة فورًا إلى القاهرة لإعداد العدّة للقيام برحلة إلى الصعيد ، لأنه كان قد وعد وفود أسيوط وجرجا والفيوم بزيارة الوجه القبلى . فسافرت إلى القاهرة ووصلت إليها ليلاً .

أما سعد باشا والنواب الأحرار والمدعوون فقد باتوا ليلتهم فى المدينة ، وسافروا منها يوم الأربعاء ٢٨ سبتمبر إلى « الإسماعيلية » ثم عادوا إلى القاهرة فى آخر النهار .

ومما يُذكر فى هذه المناسبة أن مستر « بارنز » لما رأى روعة احتفال بورسعيد وحفاوة أهلها بسعد باشا ، قال :

« لو عُمل نصف هذا لمستر لويد جورج [١٦] رئيس الوزارة الإنجليزية الأسبق لبقى رئيسًا للوزارة مدى الحياة » .

وقال أيضًا :

« قد أخبرونا بأن مظاهراتكم يقوم بها الطلبة . فإذا كان كل هؤلاء طلبة ، فإنكم أرقى بلد فى التعليم » .

* * *

ونعود بعد ذلك إلى خطبة سعد باشا ، وهى فى الواقع خطبتان ، أولاهما الخطبة التى ألقاها فى حفلة الكازينو ، والثانية ـ وهى أكثرهما أهمية ـ الخطبة التى ألقاها فى مأدبة العشاء .

وقد تحدث فى الخطبة الأولى عن منع زيارة طنطا فقال : « إن الحكومة خشيت أن تلاقى حكم الرأى العام ولكنها ستسمع هذا الحكم فى كل جهة وفى كل خطوة وعند كل حركة ، وصوت الشعب سواء أكان زئيرًا أم هديلاً يكشف عما تكنّه جوانحه من السخط

على المعتدى أو عن صدق إيمان بحسن الاستقبال » .

وبعد أن أفاض سعد باشا فى هذا الحديث بأسلوبه الذى يأخذ بمجامع القلوب ، أشار إلى تصرّفات الوزارة بعد إباحة الزيارات فقال إنها اتّخذت ـ بعد الإباحة العلنية ـ وسائل المعاكسات فى الخفاء ولكنها أمور تدلّ على فقر عقلى من جانب قوم أثبتوا أنهم لايصلحون لحكم البلاد .

ثم قال :

« إننا لا نريد أن نرى الزينات والأعلام وغيرها من الما دّيات ، ولكنّا نبحث عن أمر واحد وهو : هل عندكم شعور وطنى ؟ وهل صحّت عزيمتكم على الوصول ببلادكم إلى استقلالها ؟ » .

فأجاب السامعون جوابًا إجماعيًا كان أشبه بهدير الأمواج المتلاطمة : « نعم » . «نعم» .

فقال سعد باشا :

« هل أنتم متبرّمون من الأحكام العرفية ؟ » .

فأجابوا : « نعم » . « نعم » .

وهكذا استصدر سعد باشا وهو يلقى خطبته ، حكم الشعب على تصرّفات الوزارة والإنجليز فى مصر .

أمّا خطبة سعد باشا فى مأدبة العشاء فقد عنى فيها ـ فضلاً عن النواحى الوطنية ـ بالحديث عن « قناة السويس » وتاريخها والتفكير فى إنشائها منذ أقدم العصور ، حتى خرجت إلى الوجود فى عهد « سعيد باشا » وإلى مصر .

واستهل هذه الخطبة بالاشارة إلى بعض الدلائل التى لاحظها فى الاحتفال ، ومن هذه الدلائل « نفى نسبة التعصب إلينا وكراهية الأجانب وضعف الرغبة فى الاستقلال إذ جمع الاحتفال الشيخ إلى القسيس ، علامة التسامح واتحاد العنصرين المسلم والقبطى على مطلب واحد وهو الاستقلال التام » وجمع « إلى جانب المصريين عدداً من أصدقائنا النزلاء[١٧] مما يبرهن على أن المودّة متينة بين المصريين ونزلائهم » وجمع « شهودًا عدولاً شهدوا جموع الوطنيين وإقرارهم من وقت حضورهم إلى الإسكندرية وصرّحوا بلسان

خطيبهم الليلة أنهم وجدوا كل المصريين على رأى واحد وبشعور واحد وأنهم فى تحمّسهم ومظاهراتهم لا يقلّون عن أرقى الأمم وأن بينهم رجالاً أكفاء يمكنهم أن يديروا حكومة بلادهم » .

بهذا الأسلوب البارع إستهلّ سعد باشا خطبته فى مأدبة العشاء ببورسعيد ، ثمّ جعل بعد ذلك موضوع خطبته « قناة السويس » كما قدّمنا . فبدأ حديثه عنها « بأنه لايذهب مع من يرون إلى أنها السبب فى مصيبة مصر بفقدان استقلالها وأنه يرى أن وجودها من فائدة مصر » . ثم تكلّم عن تاريخ إنشاء القناة وموقف انجلترا من إنشائها ومحاربتها هذه الفكرة ومحاولتها القضاء على المشروع ، ثم قال إن « من العجيب أن الذين كانوا يحاربونه صاروا أول المستفيدين منه . وهم اليوم يحاربون بقلة تبصّر أيضًا رغبتنا الشديدة فى الاستقلال ، أفلا يكون نصيب هذه الرغبة الشديدة منهم ، كنصيب ذلك المشروع فينتصر حقنا على معارضتهم ، فنفوز باستقلالنا » .

وانتهى بعد ذلك ، إلى الحديث عن فوائد القناة فقال :

« قلت إن للقنال فوائد . أمّا بالنسبة للعالم فالأمر واضح ، وأمّا بالنسبة لمصر فإن للدول اهتماماً عظيماً به حتى صحّ لمسيو « دى فريسينيه » [١٨] أن يقول إنه يستحيل معرفة أى الأمرين أغلى قيمة فى اعتبار الدول ذات الشأن . . أمصر أم القنال ؟ ولهذا الاهتمام تقرر جعله على الحياد أو مقفولاً بين الدول جميعًا فى معاهدة القسطنطينية التى انعقدت بينهن . وفى مقدمتهن انجلترا ، ولهذا كان طلب الإنجليز حفظ مصالحهم فيه ، مع هذا الحياد ، غير مفهوم . ولمّا اعترضت بهذا إلى « لجنة ملنر » فى المفاوضة الأولى ، أجابتنى بأن المعاهدة عقدت عند وجود احتلال انجلترا لمصر فكان من الطبيعى أن يُعتمد على هذا الاحتلال فى الدفاع عن القنال . فأجبت بأن انجلترا كانت فى ذلك الوقت عاقدة النية على الجلاء بجيوشها عن وادى النيل . كما وعدت بذلك عدّة مرات قبل هذا التاريخ وعنده وبعده. فلم أسمع لهذا الاعتراض جوابًا ، بل سكتوا ، لأنهم يعرفون أن يسكتوا أمام الحقيقة . . . » .

ولم يكن ليفوت سعد باشا ، وهو يتحدّث عن قناة السويس ، أن يتحدّث عن موضوع مرتبط بتاريخه الشخصى وحياته السياسية حاول خصومه قبل الحركة الوطنية وفى أثنائها أن ينالوا منه بسببه . ذلك هو مشروع « مدّ أجل امتياز » شركة قناة السويس . ذلك أن الشركة كانت قد طلبت فى سنة ١٩٠٩ مدّ هذا الأجل مقابل مبلغ من المال تدفعه

للحكومة المصرية ، فثارت الأمة كلها ضد هذا الطلب . وكان سعد باشا وزيرًا للحقّانية فى ذلك الوقت ، فانتدبه مجلس الوزراء للدفاع عن المشروع أمام « الجمعية العمومية » فدافع عنه وهو يعلم أنه يدافع عن قضية خاسرة ، لأن الأمة كلها ضد المشروع كما قدّمنا .

وقد أوضح سعد فى خطبة بورسعيد موقفه فى هذا الأمر ، وكشف الستار لأول مرة عن سبب قبوله الدفاع عن المشروع فى الجمعية العمومية باسم الحكومة ، ويرى القرّاء فيما يلى كيف أنه بقبوله هذا الدفاع ظفر للأمة - ممثّلة فى الجمعية العمومية - التى عرض عليها مشروع مدّ الامتياز بحق من أعزّ حقوقها ، وهو اعتراف الحكومة بأن « الجمعية العمومية » هى صاحبة الرأى النهائى فى قبول المشروع أو رفضه ، وذلك دون أن تخسر مصر شيئًا . وهو بهذا الظفر قد وضع اللبنة الأولى ، فى البناء الدستورى الذى ما فتئ الشعب يطالب به ، حتى تقرر له فى دستور سنة ١٩٢٣ .

قال سعد باشا :

« لقد كان للقنال أثر فى تاريخ استقلالنا لأن شركة القنال لمّا عرضت على حكومة مصر سنة ١٩٠٩ - ١٩١٠ مدّ أجل امتيازها أربعين سنة ، وكنت إذ ذاك فى الحكومة ، سعيت مع زميلى محمد سعيد باشا الذى كان ناظرًا للداخلية ، فى تحويل أمر النظر فيه إلى «الجمعية العمومية » ، فنجحت مساعينا بفضل مساعدة « مستر شيتى » الذى قضى مدّة عظيمة من حياته فى هذه المدينة وكان من أخلص رجال الإنجليز وأطيبهم قلبًا . وبفضل مساعى المرحوم بطرس غالى باشا ، وبعد وفاته ، وجُدت الحكومة فى مركز حرج . فقد كانت الأمة بأسرها ، وفى مقدمتها أعضاء هذه الجمعية ضد قبول مشروع التمديد . وكان الإنجليز يريدون قبوله وأن تعضّدهم فيه النظارة . ولم يكن رأى « الجمعية العمومية » فى هذه الحالة قطعيًا بل استشاريًا فقط . وخطر فى بالى أن أتقدّم للدفاع عن هذا المشروع إذا قبل الخديو والحكومة الإنجليزية أن يكون رأى الجمعية العمومية فيه « قطعيًا » لأنه لم يكن هناك ضررٌ فى الدفاع مادامت الحكومة تتنازل عن أن تكون الكلمة الأخيرة لها إلى أن يكون الرأى الحاسم للجمعية العمومية ، وأن يكون مركزى فى مركز المحامى من القاضى . ولمّا عرضت هذا الخاطر على زملائى تقبّلوه بالترحاب ، وحصل السعى لدى السلطتين فى قبوله . وبناء على ذلك صدر إعلان من الحكومة باعتبار قرار الجمعية فى المشروع «قطعيًا» ، وأَوْلَمَ لى زملائى النظار وليمة احتفالاً بهذه الفكرة ونجاحها . وبناء عليه تولّيت الدفاع عنه ، وفعلت ذلك غير مبال بالغضب العام والسخط الشديد على كل من كان يظهر

كلمة فى جانب هذا الموضوع . فعلت ذلك معتقدًا أنى بها أفعل أكسب لأمتى حقًّا كانت محرومة منه ، وأدفعها فى طريق الاستقلال خطوة .

وبعد أن أتممت دفاعى صدر قرار الجمعية بالرفض ، وصار الرفض قطعيًّا . هذه حقيقة يعلمها زملائى الأقدمون ، محمد سعيد باشا ، وسابا باشا ، وحشمت باشا ، ورشدى باشا ، وإسماعيل سرى باشا » .

وهنا قال فتح الله بركات باشا إنه يعلمها أيضًا .

ثم عاد سعد باشا فقال :

« فالقنال كان له دخل عظيم فى خطوة خطوناها نحو سلطة الأمة ونحو استقلالها . وسيكون لهذا الاحتفال ، بشهود أصدقائنا النّواب ، دخل كبير فى بلوغ استقلالنا نهائيًّا » .

وختم خطبته بالإعراب عن سروره لتصريح المستر « لوسن » الذى أكّد فيه أنه رأى مع زملائه قلوبًا متحركة بحركة واحدة ، ملتفّة حول مقصد واحد وهو استقلالنا ، وأنه ليس فينا إلا رأى واحد » .

ثم قال سعد باشا :

« وأزيد عليه أن الرأى الثانى لا نصير له إلا فى لندن » (١٩)

* * *

وفى يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢١ لبى سعد باشا والنّواب الأحرار دعوة أعيان المنصورة وأهاليها لزيارتهم . ففى الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم ذهبنا إلى المحطة للسفر منها وكنت معتزمًا مرافقتهم فى هذه الرحلة إلا أن سعد باشا رأى أن الإعداد «الرحلة الصعيد » يقتضينى أن أبذل مجهودًا فى هذا السبيل ، فأشار علىّ بالتخلّف فى القاهرة .

ولم يقلّ استقبال المنصورة لزعيم البلاد وضيوفه عن استقبال بورسعيد فى الروعة والحماسة (٢٠) . وقد ألّفت لجنة لتنظيم الاحتفال برياسة أحمد عفيفى باشا ، المستشار بمحكمة الاستئناف ، وعضوية كبار أعيان مديرية الدقهلية ، ومنهم حسن فوده باشا ومحمود الأتربى باشا وحسين هلال بك ومحمود عبد النبى بك .

وأقيم فى مدينة المنصورة احتفال عظيم خطب فيه مستر « سوان » خطبة قيّمة باللغة

الإنجليزية وترجمها إلى اللغة العربية الأستاذ محمد أمين يوسف بك . كما خطب الأستاذ حسين هلال بك والأستاذ عبد المجيد نافع .

وكان الرئيس متعبًا فلم يشأ فى بادئ الأمر أن يخطب ، إلا أن الجمهور ألحّ عليه فى القاء كلمة فلّبى وارتجل خطابًا شكر فيه الخطباء والأهالى وأشار إلى خطبة مستر سوان فشكره ثم قال :

« ولكنى أستأذنه فى أن لا أوافقه على أنه وجد الأمة من ورائى . فالحقيقة أنى أنا الذى من ورائها . ولا فضل لى إلا كونى ترجمان صدق لشعورها . فإذا انحرفتُ عنه قيد شعرة لأهبطتنى الأمة من منزلة اعتبارها ، إلى مكان سحيق من احتقارها . ولكنت مستحقًا لهذا الاحتقار ، كما استحّقه غيرى بانحرافهم عن قصدها » .

وبهذه الكلمات البديعة وغيرها سحر ألباب الحاضرين . وقد نجحت حفلة المنصورة أكبر نجاح .

ومما يُذكر فى هذه الرحلة أن الإدارة فى مديرية الدقهلية سعت لتكدير صفو الاحتفال حتى لا يمّر بسلام ، فأوعزت للوزاريين بأن يعملوا على ذلك . ولكنهم لم يجرؤوا ، شعورًا منهم بضعفهم عن مغالبة تيار الأمة الجارف . وكل ما حصل أن شابًا طائشًا اسمه عاشور أفندى (وهو يباشر زراعة الأستاذ عبد اللطيف المكباتى بك) استحضر نفراً من الفلاّحين ليهتفوا للوزراة العدلية فيكدّروا بذلك خواطر المحتفلين . ولكنّ أصوات تلك الشرذمة القليلة العدد ، تلاشت أمام صيحات الجماهير وحماستها الفياضة فلم يكن يسمع غير الهتاف باسم مصر وبحياة زعيمها سعد زغلول وضيوفه الأحرار .

* * *

وفى يوم الأحد ٢ أكتوبر ١٩٢١ أقام الأستاذ مرقص حنا بك نقيب المحامين حفلة تكريم للنّواب الأحرار فى داره بشارع « سليمان باشا » ، بعمارة البكوات حسنى وصبحى غالى (مكان محل يعقوبيان الآن) . وحضرها الرئيس ومعه فتح الله بركات باشا وعاطف بركات بك والأستاذ عبد الحليم البيلى والأستاذ عبد القادر حمزة والأستاذ أمين عز العرب وكثير من المحامين والأطباء والأعيان وكانت هذه الحفلة أول حفلة حضرها النواب والأحرار واشتركت فيها سّيدات مصريات إذ حضرها لفيف من كريمات العقائل والأوانس ، وكانت فى استقبالهن حرم مرقص حنا بك والأوانس كريماته ، تتقدمهن الآنسة

عايدة كبراهن (وقرينة الأستاذ مكرم عبيد فيما بعد) .

وألقى أصغر أنجال مرقص بك ـ نصيف ـ (المحامى فيما بعد) وكان غلامًا صغيرًا ، خطبة رقيقة بالترحيب بسعد وضيوفه .

وفى يوم الثلاثاء ٤ أكتوبر سنة ١٩٢١ أقام مصطفى بكير بك ـ عضو الوفد المصرى فيما بعد ـ حفلة ريفية فى داره ببلدة « سندوه » تكريمًا للنّواب الأحرار . وقد وقف أمام هؤلاء النّواب ريفى حافى القدمين وألقى كلمة وطنّية كان لها وقع جميل فى النفوس ، إذ دلّت على التضامن بين أبناء الأمة جميعًا فى تأييد سعد باشا ، على اختلاف طبقاتهم وظروفهم الاجتماعية .

وأقيمت لتكريم النوابّ أيضًا حفلة من العمّال المصريين فى مصر الجديدة ، ثم حفلة من الشبان المثقّفين وقد أقاموها فى نادى « سيروس » . وقد كانت هذه الاجتماعات خير برهان على نضج وعى الأمة وتكاتفها والتفافها حول « الفكرة الاستقلالية » بارزًا على تعلق الأمة بزعيمها .

وكانت آخر حفلة أقيمت للنّواب الأحرار ، الحفلة التى أقمناها نحن أعضاء لجنة الدفاع عن الحرية السياسية ، برياسة فتح الله بركات باشا بالنيابة عن الأمير عزيز حسن الذى سبقت الإشارة إلى نفيه خارج القطر . وقد أقيمت الحفلة فى فندق شبرد يوم ٦أكتوبر ، وكنت فى استقبال المدعّوين إليها مع فتح الله بركات باشا والسيد حسين القصبى وحنفى ناجى بك والأستاذ أمين عز العرب . وكان فى مقدّمة الحاضرين سعد باشا وأحمد مظلوم باشا ومحمد صدقى باشا وإبراهيم سعيد باشا والشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر السابق وعضو الجمعية التشريعية ، والشيخ الوقور المغفور له محمود خليل باشا (والد الأستاذ محمد محمود خليل بك المحامى ورئيس مجلس الشيوخ فيما بعد) وكانت هذه أول مرّة يحضر فيها مثل هذه الحفلات الوطنية .

وخطب فى الحفلة فتح الله بركات باشا . وكان ممّا قاله إن اللجنة التى تقيمها تأسست فوجدت أنصارًا عديدين من أهالى القطر ، ولذلك أصبحت محلاً لاضطهاد الوزارة . ثم تحدّث عن تصرّفات الوزارة من التضييق على الحرّيات واعتقال الأحرار وتعطيل الصحف ورفض التصريح للوفد المصرى بإنشاء جريدة له . ثم ألقى سعد باشا خطبة سياسية وأعقبه مستر « لن » بالنيابة عن زملائه النواب الإنجليز الأحرار . فكان مما قاله :

« إن الآثار التى خلّفتها الأسابيع الثلاثة الماضية ستبقى خالدة فى أذهاننا ما بقينا على قيد الحياة » .

وبهذه الحفلة اختتمت الحفلات التى أقيمت لتكريم النواب الأحرار . وقد تأهبوا بعد ذلك لمغادرة مصر عائدين إلى بلادهم .

وفى اليوم السابع من شهر أكتوبر غادر النواب الأحرار مصر مودّعين من سعد باشا والأمة جميعها أحسن وداع . وبعد ما رأوا بأعينهم ولمسوا ، مقدار ما كانت تعانيه مصر فى هذه الحقبة ، من أنواع العسف والقهر . وقد أرسلوا ساعة سفرهم من الأسكندرية إلى سعد باشا برقية قالوا فيها :

« لحظة قيامنا إلى إنجلترا نريد أن نعبّر لمعاليكم وللأمة المصرية بواسطتكم عن شكرنا الفائق على ما أظهرتم وأظهرت لنا مدة إقامتنا القصيرة من حسن الضيافة وجميل الحفاوة . ونسأل الله أن يحفظ لكم صحتكم حتى تواصلوا جهادكم إلى أن تروا مصر متمتعة بحريتها واستقلالها التام . وهو ما يبتهج له فى يقيننا كل من يغار على مصالح أمته الحقيقية من الإنجليز والمصريين على السواء » .

« لن » . « لوسن » . « ملز » . « سوان » . « بارنس » . « سيجال » .

وأرسلوا أيضًا إلى عبد الرحمن باشا النميس ، رئيس لجنة الاحتفال بأسيوط ، تلغرافًا بمناسبة اعتذارهم عن عدم زيارة هذه المدينة تلبية لدعوة أهاليها . قالوا فيه :

« فى الساعة التى تبارح فيها مصر لجنة مصر البرلمانية . نرجوكم أن تقدّموا لأهالى أسيوط الاعتذار الخالص الصادر من أعماق قلوبنا لتخلّفنا عن زيارة مدينتكم .

إننا نشعر أن لو استطعنا إجابة دعوتكم الكريمة ، لرأينا منكم مثل ما شاهدناه فى الإسكندرية وبورسعيد والقاهرة والمنصورة وميت غمر . بل سائر أقاليم الوجه البحرى ، من التصميم على نيل الحرّية والاستقلال . ومن أن سعد باشا زغلول هو الرجل الذى تتمثّل فيه هذه الروح بما لا يمكن أن يجتمع لرجل آخر .

« ونأمل أن ترسل لجنتنا بعثة أخرى إلى صعيد مصر لتشاهد هذه الحقائق هناك » .

إننا معكم فى مطالبكم ، ونعتقد أن روح الحرّية البريطانية تتحرك لتعزيزها . ونكرّر أسفنا الصادق لتعذّر إجابة دعوتكم ، فإن البرلمان الإنجليزى سيجتمع يوم ٣٠ الحالى ،

وربّما كانت المسألة المصرية من بين ما سيعرض عليه . ولذلك يجب أن نسافر .

على أننا نحمل فى سفرنا ذكرى دائمة لشعب راقٍ مجيد تالد . ومستقبل نرجو أن لا يقل مجدًا عن الماضى » .

* * *

ومما يُذكر عن الحوادث التى حدثت فى هذه الفترة أن الأستاذ حسن الشريف كتب مقالاً نشر فى « جريدة وادى النيل » بعنوان « معلومات محزنة عن المفاوضات » ضمّنه بيانات سمعها من أحد السياسيين المصريين ، فسرعان ما تولّت النيابة التحقيق معه ومع الأستاذ محمد الكلزه صاحب الجريدة وأمرت بالقبض عليهما . وقد احتّج الوفد المصرى على هذا الإجراء والتضييق على الحرّية الشخصية وحرّية الكتابة وما تلجأ إليه الوزارة العدلية من كبت الشعور الوطنى وتكميم الأفواه . وكان الأستاذ مكرم قد كتب بذلك إلى جريدة الديلى هيرالد ، كما سلفت الإشارة .

هوامش الفصل الحادي عشر

(١) يعود تمكن مكرم عبيد للغة الانجليزية من انه تلقى تعليمه فى المرحلة الثانوية فى كلية الامريكان بأسيوط (١٩٠٥ ـ ١٩٠٨) ثم نال درجته فى القانون من النيوكولدج فى اكسفورد بانجلترا .

(٢) هو شقيق المغفور له مصطفى كامل باشا مؤسس الحزب الوطنى . وكان قد نفى بتهمة احتقار السلطان (أحمد فؤاد) وتبادل البرقيات مع الخديوى السابق (عباس حلمى) وتقرر تعطيل صحيفة اللواء التى كان يملكها .

انظر : د . يونان لبيب رزق : الاحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ ص ٧٦

(٣) كانت « وادى النيل » تصدر بالاسكندرية وكانت الناطقة بلسان الوفد فى الثغر .

(٤) الصحفى الناقد والمؤلف المسرحى (١٨٥٦ ـ ١٩٥٠)

(٥) زعيم الحركة الاستقلالية الهندية (١٨٦٩ ـ ١٩٤٨) القائمة على فكرة المقاومة السلبية والمقاطعة .

(٦) يقول التقرير البريطانى انهم رحلوا للاسكندرية عصر يوم الاثنين ١٩ سبتمبر وان اللجنة كانت تتشكل من خمسة غير ان الميجور بارنز Barnes لحق بهم فيما بعد مما ارى إلى اقتصارها أولاً على أربعة من أعضاء البرلمان هم : J. E.Swan , J.E> Mills , J.Lawson and W. Laun وان الدكتور سيجال Segal جاء سكرتيرا للجنة وان د . محمد محمود استقبلهم بصفته سكرتيرا لسعد 407/189 Inc. in No. 10.

(٧) عن استعدادات الوفد لاستقبال النواب الانجليز يقول تقرير المندوب السامى فى القاهرة انها كانت على النحو التالى :

اصدر فتح الله بركات باشا بصفته رئيساً للجنة الدفاع عن الحرية السياسية تعليماته لفروع اللجنة فى سائر انحاء البلاد لتكوين الوفود التى تعد التقارير للجنة وتقدمها لها عن اعمال القمع الحكومية وان يعد (صادق بك حنين) تقريرًا خاصًا عما حاق به من ظلم فى وزارة الزراعة . . أما فى القاهرة فبينما نظم (أمين عز العرب) الطلاب وانصار الوفد . ينظم (فخرى عبد النور) الأزهريين للقيام باستقبال النواب الانجليز . فى نفس الوقت تم حث أصحاب المحال على رفع الأعلام وكتابة عبارات الترحيب بالنواب . 407/189 Inc. in No. 84 .

(٨) من الغريب ألا يشير فخرى عبد النور فى هذه المناسبة لنفسه مع أن الوثائق البريطانية قد ذكرته بالاسم وحددت مهمته فى استقبال اعضاء البرلمان الانجليزى .

(٩) سعد زغلول من مواليد ابيانه التابعة لمركز فوه بمديرية الغربية وقتذاك (كفر الشيخ الآن)

(١٠) صدرت الأوامر للكتيبة الخامسة من الجيش المصرى بالتقدم إلى طنطا لاقرار النظام فوصلت ظهر يوم الخميس وتقدمت فى مسيرة داخل شوارع المدينة الرئيسية اظهارا للقوة ومنذ صباح اليوم التالى (الجمعة) تترس الجنود فى الشوارع ، كما تواجدت قوة كبيرة فى المحطة لتفريق الجماهير التى احتشدت

انتظارًا لسعد ، بالاضافة الى قوة أخرى للجامع الأحمدى حيث كان نقطة الانطلاق فى الأعمال الثورية من قبل . 407/ 191 Inc. in No. 16.

(١١) فى تقديرنا ان صاحب المذكرات يقصد « بالانجليز المحليين » رجال دار المندوب السامى والقيادة العسكرية لقوات الاحتلال بالاضافة إلى كبار الموظفين البريطانيين فى الحكومة المصرية ، وكانوا جميعا يعملون فى انسجام كامل تحت قيادة المندوب السامى الذى كان اشبه بالمايسترو للمجموعات الثلاث .

(١٢) سير . ج . ف . كلايتون Sir G.F.Clayton .

(١٣) تتضمن الوثائق البريطانية أسرارا كثيرة حول أسباب عدول السلطات البريطانية فى القاهرة عن الاستمرار فى منع الوفد البرلمانى الانجليزى من زيادة الاقاليم فقد حاول السير كلاتيون فى لقاء طويل مع أعضاء الوفد اقناعهم بما سوف يترتب على الزيارة من اخلال خطير بالأمن وهو ما رفضوه مما أدى إلى أن يكتب لهم رسميا بهذا المعنى فى ٢٢ سبتمبر ١٩٢١ وأن يرد عليه المستر Lunn باعتباره المتحدث باسم الوفد رسميًا أيضا بأن هذا الحظر يعرقل مهمة الوفد فى أخذ صورة شاملة عن الوضع .407/191 Inc. in No. 11

(١٤) تشير الوثائق البريطانية بالذات لما جرى فى بنها حيث حظر دخول المحطة إلا لمجموعة من أعيان المدينة مما دعا سعد إلى الخروج من القطار ومطالبة الجماهير بأن تفتح صدورها للرصاص ولاتهاب شيئًا 407/191 Inc. in No. 14

(١٥) تقول نفس الوثيقة إن السرادق لم يكن يسع أكثر من ألفين وأن الباقين اكتظوا حوله ، وذلك فى مدينة لاتزيد عدد المصريين فيها عن ٥٠ ألفًا وقتذاك .

(١٦) رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى (١٨٦٣ _ ١٩٤٥)

(١٧) يقول المسترسكوت القائم بأعمال المندوب السامى فى القاهرة ان اليونانيين فى المدينة كانوا متخوفين من الزيارة وانهم فكروا فى حمل السلاح دفاعًا عن أنفسهم F. o. 407/191 Ibid .

(١٨) رئيس وزراء فرنسا (١٨٨٢ _ ١٩٢٣)

ووزير خارجيتها (فى الفترة من ٣٠ يناير ١٨٨٢ إلى ٧ أغسطس ١٨٨٢) .

(١٩) يقصد عدلى يكن والوفد الحكومى .

(٢٠) يقول التقرير البريطانى عن هذه الزيارة ان الجماهير احتشدت من المنصورة ووفدت إليها من المناطق المجاورة فى عدة آلاف مما اعاد إلى الذاكرة استقبال زغلول لدى عودته من أوربا فى أول ابريل ، وأكد أن الفلاحين المصريين لازالوا ينظرون إلى سعد باعتباره « الرئيس المحبوب » وبدون أدنى شك 407/191. Inc. in No. 20

الفصل الثانى عشر
الشــروع فى زيـارة الصعيــد

التفكير فى زيارة الصعيد وإلحاح أهاليه على سعد باشا لقبول الدعوة ـ الأسباب التى دفعت إليها ـ مدير أسيوط يهدّد الشعب بإطلاق الرصاص ـ سينوت حنا بك يقبل التحدّى ـ حضور وفود من أسيوط وجرجا لدعوة سعد باشا ـ قبوله هذه الدعوة ـ التمهيد للرحلة ـ وضع برنامج لها . الوزارة تجنّد كل القوى لمحاربة الرحلة وفشلها فى ذلك .

* * *

بينما كانت أخبار « المفاوضات الرسمية » تترى منبئة بسيرها فى طريق الفشل ، وبأن المفاوضين المصريين الذين تجاهلوا إرادة الأمة يلقون من صلف الإنجليز ما يلقون . كان سعد باشا يسير على الخطّة التى انتهجها هو وأصحابه المخلصون ، بتجميع قوى الأمة وكسب الأنصار وإذكاء الشعور الوطنى فى البلاد ضد احتلال بريطانيا لمصر وفرض الحماية .

ولا شكّ أن الرحلات التى قام بها الوفد ـ وقتذاك ـ مع النوّاب الأحرار فى عواصم الوجه البحرى سجّلت نجاحًا كبيرًا لهذه الخطّة . إذ أتاحت لسعد أن يتّصل مباشرة بجماهير الشعب فى الريف ، وأن ينبّه أذهانها ، ويبعث فيها وعيًا وطنيًّا كان كامنا ، بسبب الرقابة المحكمة التى فرضتها السلطة العسكرية على الصحف والأنباء . كما أتاحت له أيضًا أن يعرض عليها خلافه مع الوزارة العدلية سافرًا صريحًا ، وأنه لم يكن متعنتًا معها حينما رفض أن يمنحها ثقته ، وإنما كان متمسكًا بحقوق الشعب ،وها هى الأخبار ترد من انجلترا مؤيّدة صدق ما تنبأ من أن الإنجليز لا ينوون التسليم لمصر باستقلالها ، وأن نيّتهم مبيّتة على إبقاء حمايتهم عليها ، بعد تمويهها فى صورة استقلال زائف .

بهذه المظاهر وغيرها مما كان يلقاه سعد باشا وأصحابه أينما ذهبوا ، تحدثت الصحف الإنجليزية الكبرى . معربة عن شكّها فى أن تكون الوزارة العدلية حائزة لرضاء الأمة بما يجيز لها التحدّث باسم المصريين . وما دام الأمر كذلك يكون من العبث الاستمرار مع ممثّليها فى مفاوضة لا يرُجى لها أى نجاح .

وكانت النتيجة الحتمية لتغلّب هذا الشعور على الرأى العام البريطانى ، أن أوغر صدر

الوزارة المصرية على زعماء الحركة الوطنية فى مصر . وكان ذلك من أعز ما ترتاح له السياسة الاستعمارية التى كانت تحرص على العمل بالقاعدة الخبيثة « فرّق تسد » . ولو أنصفت الوزارة العدلية لبادرت بالاستقالة بدلا من التباطؤ نحو شهرين من الزمن ، دون فائدة مرتقبة وأفسحت للأمة الطريق ، لتعهد بالمفاوضة إلى وكلائها المختارين ، الحائزين لثقتها ورضاها .

فهل فعلت الوزارة ذلك ؟ لا . مع الأسف . بل مضت فى غيّها وسدرت فى سياسة الكبت التى انتهجتها فكان سعد كلما ازداد نجاحا أمعنت هى فى اضطهاد أنصاره ، والتنكيل بهم .

ولم يكن لسعد وأنصاره أن يتنحوا عن أداء المهمة القوميّة التى استعدّوا لها ، بعد ما رأوا من تأييد الأمة لهم ، والتفافها حولهم ، فرأوا أن يعاودوا الاتصال بجماهير الشعب ، عن طريق زيارة أقاليمها المختلفة ومدنها . واتّجه التفكير - أول ما اتجه - إلى بلاد الصعيد . لأن سعدًا لم يكن قد زارها منذ قيام الحركة الوطنية فى سنة ١٩١٨ ، وقد كان للصعيد من المواقف فى تلك الحركة ما يخلّد اسمه فى تاريخ مصر ، كما كان لشهدائه من أبطال الثورة تضحيات كثيرة .

وقد حققت هذه الخطّة نجاحًا سياسيًّا واسعاً ، إذ أمدّت البلاد ، وهى فى كفاحها ضد الاستعمار البريطانى ، بتيار جارف من الوطنية وألهبت الشعور ضد الإنجليز وكل من يعاونهم فى سياستهم . كما أفهمت ساستهم أن الحركة القومية التى يتزّعمها زغلول « لا تطفئها بصقة » (!) كما توهّم « برونيات » المستشار القضائى الإنجليزى . ولا تخمد أنفاسها سياسة العسف . وإنّما هى حركة تأصلت جذورها فى نفوس المصريين ، وتعهّدها سعد بالسقى حتى نمت وثبتت ، فبات من العسير اقتلاعها . إلا أن غلاة المستعمرين أصرّوا على عنادهم بالرغم من خيبة أملهم ، فعمدوا إلى إبعاد سعد وبعض أصحابه من البلاد - كما سيجىء - بدعوى احتراف « التهييج السياسى » ، ثم نكّلوا بأنصاره الباقين فى مصر تنكيلا مروعا حتى لقد حكموا بالإعدام والأشغال الشاقة المؤبّدة على الكثيرين ، كما ملأوا المعتقلات والسجون حتى ضاقت على سعتها . وقدّروا أنهم بهذه المحاولة قد يستطيعون القضاء على الحركة القومية قضاًء حاسمًا ، ويستريحون نهائيا من العاصفة التى أثارتها عليهم الوطنية المصرية ، والتى شملت ربوع وادى النيل فى طول البلاد وعرضها .

ذلك هو الأثر الكبير الذى أحدثته هذه الرحلة التاريخية ، فكان بمثابة « القارعة » التى طالما كان سعد يتمنّاها ويسعى إليها فى الأوقات التى كان الركود السياسى يرين فيها على البلاد .

وأذكر أن سعدًا حينما اعتكف فترة فى « مينا هاوس » سنة ١٩٢٥ ، على أثر مقتل السردار « سيرلى ستاك » ، وجثمت على البلاد ـ إذ ذاك ـ موجة من الخمود والتبلّد ، كان ـ رحمه الله ـ يتمتم قائلا « لابد لها من قارعة » ! ، أى لا بدّ لمصر من حدث سياسى يهزّها . وكنّا نسأله لِمَ يطلب ذلك . فكان يجيب إن القارعة هى التى تخلق من الموت الحياة ، وهى التى تخرج بنا من الركود إلى المعترك الحىّ . فلا شىء أنفع لها من النشاط والسعي المتواصل .

وقد كان هذا درسًا لنا ، نحن رجال الوفد ، حفظناه عنه ، وأصبح خطّة ننتهجها فى كفاحنا ، وكثيرًا ما كنّا نذكره ـ بعد وفاة سعد ـ فى أوقات الخمود والركود فتدبّ فينا الحياة ، وتدفعنا إلى التحرّك والعمل . ونستقبل الأحداث السياسية ، على خطورتها ، بالثغور الباسمة والصدور المؤمنة . إذ كنّا نرى فيها « قوارع » تمنع الموت من أن يغتال حركتنا .

وقد لجأنا إلى هذا الأسلوب ، حينما فُرض على البلاد الحكم الاستبدادى المطلق فى وزارة صدقى باشا سنة ١٩٣٠ ، وسنة ١٩٣١ ، وحيل بيننا وبين الاتصال بطبقات الشعب . فكنّا نخرج إلى الأقاليم نؤجج شعور أبنائها ونتحدّى القوى الغاشمة ، دون أن نخشى بأسها أو نستكين لسلطانها . فكان الناس يتّخذون من موقفنا أمثلة حيّة لهم .

* * *

أمّا الحديث عن الظروف التى نشأ فيها التفكير فى زيارة الصعيد ، فبيانه أنه على أثر سفر النواب الأحرار تجدّد الكلام فى القيام بهذه الرحلة . وكان سعد باشا قد اعتزم تلبية الدعوة إليها ، قبل سفر الإنجليز . فلمّا سمعت الحكومة بذلك أذاع مدير أسيوط بيانا على الأهالى هدّدهم فيه بإطلاق الرصاص عليهم إذا هم تظاهروا أو هتفوا لسعد باشا . واطّلع سينوت حنا بك على هذا البيان فثارت حمّيته وغضب لكرامة أبناء الصعيد وكتب إحدى مقالاته النارية المشهورة التى كان يكتبها ـ وقتذاك ـ بعنوان « الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا » . وقد جاء فيه ، رداً على بيان المدير :

« كنت إلى هذه الساعة أعتقد أننا فى بلاد نظاميّة . وأن حكومتنا لا تُحكم إلا

بالقوانين . ولكننى بعد أن قرأت ذلك الإعلان الذى نشره مدير أسيوط بدأت أرتاب فى اعتقادى هذا ، وأخذت أتساءل هل نحن فى بلاد نظامية ؟ أو فى بلاد السلطة فيها ليست للقانون ، وإنما السلطة لإرادة الحكّام ؟ »

قال موجّها الكلام للمدير :

« أتتوعّدنا أيها المدير بالإعدام ؟ أفتظن أن أهالى مديرية أسيوط جبناء يخافون وعيدك وهم يعلمون أنهم لم يرتكبوا إثما يعاقبون عليه ؟ اسمع إذن . سأكون أنا أول هاتف للاستقلال التام . سأكون أول هاتف باسم زعيم مصر . سأكون أول مناد بصوت عال بسقوط الحماية . فإن كان لديك رصاص تضرب به من يرتكب جريمة الاستقبال وجريمة هذا الهتاف ، فسيكون صدرى أمامك يتلقى أول رصاصاتك » . . !

وقد أحدث نشر هذا المقال رجّة شديدة فى أنحاء الصعيد ، إذ استفزّ حميّتهم واستنفر همّتهم فأقبلوا يتحدّون الحكومة ويلحّون فى دعوة سعد وإخوانه لزيارتهم برفقة النواب الأحرار . فلمّا سافروا دون أن يتسع لهم الوقت لزيارة الصعيد أراد سعد باشا أن يعدل عن هذه الزيارة معتذرا بأسباب خاصة . وتسامع الناس بهذه الرغبة فتألموا . وقد شجّعتهم الكلمة التى كتبها سينوت بك حنا ونشرنا مقتطفات منها ، على أن يستمروا فى تحدّى الحكومة وأن يصرّوا على أن يلبّى سعد باشا هذه الدعوة . فأوفدوا إليه الوفود لهذا الغرض يرجونه بإلحاح أن يستجيب لها . وكان من هذه الوفود وفد أسيوط ، ووفد من جرجا كان لى شرف رياسته ، وكان يجمع أكثر من مائتين من رجال المديرية وزعماء عشائرها . وقد استقبلنا سعد باشا فى بيت الأمة مرحّبا محيّيا ، فتقدمت منه وألقيت بين يديه كلمة قلت فيها :

« إن هذا الوفد الماثل بين يديك هو وفد مديرية جرجا . وهؤلاء الرجال الذين ألّف منهم هم زعماء الأسر فى مديريتنا . دفعنا حب الوطن العزيز الذى أنت روحه السارية فى جميع أعضائه إلى الحفاوة بك . والفوز بمرآك الذى يبعث فى النفوس العزم الماضى . ويثير الهمّة فى العزائم كما تثار النار الكامنة فى الزناد بالقدح .

« جئنا إليك يا معالى الرئيس . والإخلاص رائدنا . وحبّك الثابت فى القلوب نبراسنا . والأمل العظيم ملء أفئدتنا . تدعوك مديرية جرجا المتمثل إخلاصها لمعاليك فى أشخاصنا . تدعوك إلى زيارتها . وأهلها يرقبون هذه الزيارة . كما يرقب السارى فى الظلمة البدر .

« نعم . إننا نرقب هذه الزيارة ، ليحظى برؤيتك من لم يستطيعوا أن يروك هنا . ولترى بنفسك إخلاص أهل مديريتنا بادياً فى جميع طبقاتها من أكبر كبير لأصغر صغير . هناك تحكم بنفسك على حقيقة ولائنا لك . والتفافنا حولك . وترى رأى العين أن مديرية جرجا ناهجة على خطّتك . مؤيدة لمبدئك . مؤمنة بعقيدتك ، عقيدة الحق . ولم يشذّ من أهلها إلا نفر بعضهم يرى أن حياته متوقّفة على الزلفى للحاكم ، وبعضهم مصاب بمرض النياشين والرتب . لا يبرأ من هذا الداء أبدا . كل أولئك نفر لا يُرجى خيرهم ، ولا يُخشى ضرّهم ، ولا يخلو إقليم من أمثالهم .

« فمعذرة يا معالى الرئيس . ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا . ولا تلمنا على ما ارتكبه الجهلاء ، فإنهم ما اجترأوا على خزى أنفسهم وظهورهم بمظهر الخارج على أمته إلا بتحريض . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وقد ردّ سعد باشا شاكرا لنا هذا الشعور ، ووعد بتلبية الدعوة إلى زيارة الصعيد فى أقرب فرصة .

وجاءت بعد هذا وفود أخرى من المنيا [1] وغيرها . وشرعت أنا وسينوت حنا بك نلحّ على سعد باشا فى الإسراع بإجابة الدعوة ، وبالأخص سينوت بك لما كان له من المنزلة فى نفس سعد باشا ، حتى قبل . ولكنّه رأى أن يسافر بطريق النيل لأن السفر بالسكك الحديدية يتعبه . ولهذا اتفقنا على أن نهيئ له رحلة نيلية . وُكلّفت بإعداد المعدّات لها . فذهبتُ إلى « شركة كوك » لاستئجار إحدى البواخر ، وكدت أن أتم الاتفاق معها . إلاّ أن الحكومة شعرت بالأمر فأوعزت إلى هذه الشركة الإنجليزية أن ترفض تأجير الباخرة لنا ، فرفضت فعلا . ولكن اليأس لم يتسرب إلى نفسى ، فقصدت على الفور إلى شركة «الأنجلو أمريكان » وقابلت مديرها . وكان من خريجى مدرسة « الآباء اليسوعيين » التى تخرّجت فيها فرحّب بى . ولمّا أنهيت إليه مهمتى أجاب بأنه على استعداد تام لأن يقدّم إلى سعد زغلول باشا أحسن باخرة لدى الشركة . وكان عند وعده فعلا ، إذ وضع تحت تصرّفنا الباخرة « نوبيا » ، أكبر باخرة تملكها الشركة . وهى ذات ثلاث طبقات . واتفقنا على أن تكون أجرة الباخرة فى الرحلة من القاهرة إلى الأقصر ثمانمائة جنيه مصرى . فإذا تجاوزنا الأقصر إلى أسوان تزيد الأجرة مائتى جنيه . فلمّا تم الاتفاق على هذا الأساس بادر أهالى الوجه القبلى من مديريات بنى سويف والمنيا وأسيوط وجرجا وقنا إلى المساهمة فى دفع هذا المبلغ عن كرم وطيب خاطر .

وكان لإعلان إجابة سعد باشا الدعوة لزيارة مديريات الوجه القبلى ، رنّة فرح وارتياح عمّت أنحاء الصعيد . إذ اغتبط الأهالى بها ايّما اغتباط وتأهبوا للترحيب بمقدم الزعيم الأكبر إلى إقليمهم اغتناما لهذه الفرصة التى تتاح لهم ، ليعربوا عن تأييدهم وشكرهم له لعمله فى خدمة بلاده ، تحقيقا لأمانيها القومية .

ووُضع لهذه الرحلة برنامج مفصّل أذاعته سكرتيرية الوفد (٢) ، تضمّن أن الرحلة تبدأ من الجيزة يوم الثلاثاء ١١ أكتوبر سنة ١٩٢١ وأن الباخرة تمرّ ببنى سويف والمطاهرة وجزيرة بهيج وأسيوط والنخيلة وسوهاج وجرجا ونجع حمادى وقنا وتنتهى عند وصولها إلى الأقصر فى ١٩ أكتوبر . وذكر البرنامج أيضا أن الباخرة تقف عند جرجا لزيارتى بمنزلى ، فكان فى ذلك تشريف كبّير لى من جانب الزعيم الذى كان موضع إعزازى وإكبارى .

وكان المأمول أن تمرّ هذه الرحلة بسلام وأن تُنفّذ برنامجها كما وضع دون تغيير . غير أن الحكومة أمرت رجالها بعرقلة الرحلة وإعاقة سيرها . فاضطررنا كى نواجه هذه التصرّفات أن نعدّل البرنامج حسب ما تقتضيه الظروف ، حقنا للدماء وضنّا بأرواح الأبرياء . فوقفنا فى بلاد لم يكن فى عزمنا الوقوف فيها ، كما اضطررنا إلى تخطّى بلاد كان من المقرّر أن نقف أمامها بينما كانت جماهير الشعب تقف على الشاطئين ، متعطشة لرؤيانا هاتفة باسم الحرية وبطلها والاستقلال وأنصاره .

* * *

ولا بد قبل أن نأتى بيوميات هذه الرحلة العظيمة الشأن فى تاريخ الحركة الوطنية ، وتذكر تفاصيل ما جرى فيها من حوادث ومالقيه شعب الريف من صنوف العسف وسفك الدماء ، جزاء ما كان يظهر من الحفاوة برمز امانيه ومحطّ آماله ومتّجه أبصاره « سعد زغلول » ، وما كان يبديه من عداء سافر للحماية البريطانية وأنصارها . لابدّ قبل ذلك أن نتحدث عن الموقف الذى وقفته الوزارة من الرحلة خشية أن يؤدى نجاح سعد فى الاتصال بجماهير الشعب إلى تجدّد انفجار الشعور العام والإصرار على المطالبة بالاستقلال . وهى خشية طبيعية من جانب الإنجليز الذين كانوا يسيطرون على بلدنا ، ويرجون دوام تلك السيطرة . أما غير الطبيعى فهو أن تناصرهم فى هذه الرغبة وتشدّ أزرهم « وزارة مصرية » . فتعمد إلى مطاردة زعيم الشعب والحيلولة بالقوة بينه وبين الاتصال بالجماهير فى كل مكان يزوره .

وكان وزير الداخلية وقتئذ عبد الخالق ثروت باشا فأرسل نفراً من رجال الإدارة على رأسهم محمد بدر الدين ـ مدير الأمن العام ـ المشهور بعدائه للحركة الوطنية ، وبعض المفتّشين الإنجليز ، لمطاردة سعد وإفشال رحلته . فبدأوا بتنفيذ خطّتهم من القاهرة حتى أسوان واعدّوا لأنفسهم قطارا خاصّا يساير الباخرة ، محطة تلو محطة . ولم يكفّوا عن مطاردتهم لسعد حتى حين عودته من أسوان إلى القاهرة بعد انتهاء الرحلة بل أمروا الموظفين المحليّين بمنع الناس بالقوة من استقبال سعد باشا وبالحيلولة دون نزوله إلى البر إذا ما أراد ذلك فى أية بلدة دعاه أهلها لزيارتها ، مع تحريم الخطابة عليه وعلى أصحابه من مرافقيه . وبذلت الإدارة جهدها لتنفيذ هذه الخطّة ، وكان مما لجأت إليه من المكائد أن أوعزت إلى بعض ضعاف النفوس المنافقين ، المتزلفين لكل حاكم ، بكتابة عرائض يقولون فيها إنهم لا يرغبون فى زيارة سعد باشا لقراهم بحجة أن هذه الزيارة تؤدى إلى الإخلال «بالأمن العام » وتعرّضه للخطر ، ولمّا كانت الحكومة حريصة على استتبابه . . . فينبغى عليها أن تتدخّل لمنع هذه الزيارات . . . الخ !

وأقل ما يمكن أن يقال فى هذه الدعوى إنها تثير السخرية ، إذ لم يحدث فى زيارات سعد باشا لبلاد الوجه البحرى مع النّواب الإنجليز الأحرار ، أية حوادث مما يدّعيه هؤلاء الناس . وإنما كانت النيّة مُبيّتة من الإدارة لاتخاذ هذه العرائض نكأة ، تستند إليها لتحقيق مأربها فى منع هذه الزيارة .

وقد بذلت الإدارة خلال الرحلة كل جهدها فى غواية الناس وحثّهم على محاربة سعد والانصراف عن استقباله ، وكانت تسخو فى الوعود لهم بأنهم إن فعلوا فسوف يُقلدون الرتب والنياشين ، ويمنحون من العطايا الجزيلة ما يشاءون بغير حساب . ولكن شخصية سعد كانت تطغى على هذه التصرّفات وتسمو فى كل موقف . لا تكاد الجماهير المحتشدة على الشاطئ تلمحه ، وهو منصوب القامة على سطح الباخرة ، حتى تسحر به وتجذب إليه ، فتنطلق الألسنة بالهتاف له وهى التى أستؤجرت لتهتف ضده وينقلب معارضوه أنصارا مؤيّدين .

وكثيرًا ما كان يغيظ هذا الشعور المفاجئ رجال الإدارة الواقفين على الشاطئ ، الراصدين لحركات الناس وسكناتهم . فكانوا يصدرون أوامرهم بإطلاق النار على المستقبلين فيسقط منهم من يسقط ، ضحية هذا البغى والطغيان .

وهكذا فشلت الوزارة فيما حاولت من منع اتصال سعد بجماهير الشعب . فإن كلمته

سُمعت فى كل مكان . سواء أتيح له أن يلقيها بنفسه عليها أو ينيب عنه أحد أصحابه فى إلقائها ، كما فعل فى أسيوط وسوهاج . إذ نزل الأستاذ مصطفى بك النحاس وناب عنه فى مخاطبة الجماهير وسط احتفالات وطنية رائعة ، أقيمت على الرغم من الاعتداءات التى كان يرتكبها أعوان الوزارة وطريدو العدالة ، ضد الأهالى الوادعين .

وفى جرجا أتيح لسعد أن يخطب الجماهير من فوق ظهر الباخرة وأن يوجّه للوزارة والإنجليز أخطر التهم .

كل هذا زاد فى حنق الوزارة وأعوانها ، فشدّدت فى منع رسوّ الباخرة فى أى مكان آخر ، فلم ترس إلا فى الأقصر . امّا فى العودة فقد رست فى مكان متعزل بمركز « إطسا » بمديرية المنيا عند عزبة البكوات بشرى وسينوت وراغب حنا التى يقيم فيها الآن[3] الأستاذ شارل بشري بك ، ولم ينزل سعد باشا طيلة أيام الرحلة إلا فى هذا المكان . وكان متعبا فلم يلبث إلا قليلا ، ثم عاد إلى الباخرة لاستئناف الرحلة إلى القاهرة .

الفصل الثانى عشر

(١) كان يرأس وفد المنيا المصرى بك السعدى 407/189 Inc. in No. 25.

(٢) ترتيبات الرحلة كما ذكرتها الوثائق البريطانية : اسيوط عصر يوم ١٤ اكتوبر ، سوهاج يوم ١٦ ، وفى الأيام الثلاث التالية جرجا ، قنا الأقصر على ان تتم فى رحلة العودة زيارة المنيا وبنى سويف والفيوم Ibid.

(٣) وقت كتابة المذكرات (١٩٣٨ ـ ١٩٤٢)

الفصل الثالث عشر

إقلاع الباخرة « نوبيا » من مرسى الجيزة فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٢١ ـ الباخرة تمر ببنى سويف والمنيا بين حفاوة منقطعة النظير ـ إقتراب الباخرة من أسيوط ـ حوداث دامية تحول دون نزول سعد باشا ـ سقوط عدد من القتلى والجرحى ـ خطاب النحاس بك فى وفود المحتشدين ـ تقرير مدير أسيوط لوزارة الداخلية ـ الرد عليه ـ الإقلاع إلى سوهاج ـ المدير يبلغ ثروت باشا تليفونيًا « إذ كان سعد نفد من أسيوط فإنه لا ينفد من يده فى جرجا » ـ استقبال لسعد وصحبه ـ الحكومة تأمر بهدم الزينات فى جرجا ـ شروع المجرمين فى حرق منزلى ـ وصول الشيخ أبو الوفا الشرقاوى ـ استقبال سعد استقبال الفاتحين ـ الإقلاع إلى الأقصر بين مظاهر الحفاوة والتكريم والتأييد لسعد وسياسته .

* * *

تأهبت الباخرة للرحيل من مرساها على ضفّة النيل عند كوبرى عباس بالجيزة وسلّم فتح الله بركات باشا مخزن المؤونة إلى حنفى ناجى بك . ثم حضر سعد باشا وصحبه ونزل بيت أحمد زكى باشا الذى أطلق عليه اسم « دار العروبة » فى الساعة الثامنة صباحا . وبعد نصف ساعة صعد إلى الباخرة فأبحرت فى الساعة التاسعة من صباح يوم الثلاثاء ١١ أكتوبر ١٩٢١ . وكان فى وداع الرئيس أحمد زكى باشا وغيره من الكبراء وحشد عظيم من الشعب ، وقدّمت الآنسة « كامى » سينوت حنا بك باقة من الورد إلى الرئيس .

وصحب سعد باشا فى هذه الرحلة بعض أخصائه وأحبائه ومؤيديه ، ومنهم أحمد يحيى باشا ومحمد صدقى باشا (المستشار والوزير السابق) وفتح الله بركات باشا ومصطفى النحاس بك والسيد حسين القصبى والشيخ مصطفى القاياتى والأستاذ محمد نجيب الغرابلى وواصف غالى بك وعبد الحليم البيلى بك والأستاذ أمين عز العرب والأستاذ محمد فرحات (مندوبا عن جريدة وادى النيل) والدكتور محجوب ثابت والدكتور رياض فانوس والدكتور حسن كامل بك وحنفى ناجى بك وطاهر اللوزى بك (وقد حلّ فى الباخرة من أسيوط) والسيد أبو الوفا الشرقاوى وأحمد محمد فواز بك (وقد نزلا من جرجا) ومستر فرنك ريد (مصوّر مجلة اللطائف) ومستر « براد ستريت » (مكاتب المورننج بوست) ومسيو « هانزلمان » الفوتوغرافى . وهرب مكاتب المورننج بوست بعد حادثة جرجا كما سيأتى .

وعلى أثر إبحار الباخرة سافرتُ من فورى إلى جرجا لأعدّ العدّة مع إخوانى للوليمة الكبرى التى اعتزمنا إقامتها فى سوهاج لتكريم الرئيس ثم لاستقباله فى منزلى بجرجا ، وكذلك سافر سينوت حنا بك إلى أسيوط لمثل هذا الغرض .

وسارت الباخرة على بركة الله من الجيزة إلى بنى سويف والمنيا بين حفاوة منقطعة النظير وتحيّات طيّبات للرئيس من الجماهير التى احتشدت على طول الشاطئ لتعرب عن محبتها لشخصه وتأييدها لسياسته وتمسّكها بالحركة والاستقلال .

ولما حلّ وقت الغداء ولم تكن هناك مائدة واحدة طويلة بل عدة موائد صغيرة ، اقترح الرئيس أن يكون الجلوس بالاقتراع ، فأصابت القرعة لمجالسته على مائدة واحدة ، أحمد يحيى باشا ومستر براد ستريت مكاتب المورننج بوست والأجبشيان جازيت .

وواصلت الباخرة سيرها بين تحيّات الجماهير ، وبالرغم من الإجراءات العدائية التى اتخذتها الإدارة تمكّن عدد من أعيان بنى سويف من اختراق الحصار بمركبين على بعد من المدينة إلى أن أدركوا الباخرة ، وكان فى طليعتهم عوض عريان المهدى بك والأستاذ طه الجندى المحامى وشيخ العرب سليمان على مطر ومحمد نامق بك ، وكان الرئيس قد آوى إلى مخدعه ، فخرج إليهم مصطفى النحاس بك واستقبلهم بالنيابة عنه وشكرهم على ما تكبدوا من مشقّة ، وخطب بعضهم فردّ عليهم الشيخ مصطفى القاياتى والأستاذ أمين عز العرب .

ولمّا أشرفت الباخرة على حدود مديرية أسيوط شرع رجال الإدارة فى هدم الزينات التى أقيمت احتفاء بالرئيس وصحبه [1] .

وكان أهل أسيوط قد تأهبوا لاستقبال سعد باشا وألفّوا لجنة من بين أعضائها المرحوم عبد الرحمن باشا النّميس ، عمدة أسيوط ، والأستاذ محمود بسيونى المحامى (ورئيس مجلس الشيوخ فيما بعد) والأستاذ حبيب فهمى والأستاذ كامل حسن الأسيوطى المحامى والأستاذ عازر جبران المحامى والأستاذ اسماعيل مجدى ـ سكرتير اللجنة ـ والأستاذ حامد جوده والأستاذ أحمد هشام وإخوان أخنوخ فانوس والأستاذ ديمترى بشارة عضو المجلس الملى ، وغيرهم . فأقاموا الزينات ، ورفعوا الأعلام . ونصبوا سرادقا كبيرا يتسع لأكثر من عشرة آلاف نسمة كان من المقرر أن ينزل إليه الرئيس ويلقى فيه خطبة سياسية . إلا أنه بمجرد اقتراب الباخرة من أسيوط انطلقت أعيرة نارية قرب الشاطئ الذى كان زاخراً

بالجموع الحاشدة تهتف للحرية والاستقلال وللزعيم المناضل . فلما انحازت الباخرة إلى الشاطئ قبالة معسكر الجيش المصرى تقدّم قومندان الأورطة محمود سامى بك (المغفور له محمود سامى باشا) وصعد إلى الباخرة ورجا سعد باشا ألا ينزل إلى البرّ فى أسيوط . خوفاً على حياته ، واتقّاء لوقوع معركة دامية بين الشعب المؤيد للرئيس ، وبين الشراذم التى جمعها خصومه من « العدليين » للتحرش به بإيعاز من الوزارة وإفساد الاستقبال عليه .

كما صعد إلى الباخرة أيضا بعض كبار المستقبلين فوصفوا للرئيس ما حدث وقالوا إن فئة من أجلاف بلدة « الحواتكه » (وهى قرية آل محفوظ) كانت قد اختبأت فى حديقة مقابلة للمرسى . وما كادت السفينة تقترب من الشاطئ حتى خرجوا من مخبئهم وأعملوا النبابيت فى الناس المنتظرين والمحتفلين وشرعوا فى هدم الزينة . وأضافوا أنهم لما رأوا ذلك ذهبوا إلى القومندان ـ محمود بك سامى ـ ورجوه أن يتدخل للحيلولة دون وقوع اشتباك دموى بين الأهالى . فقال إن عنده أوامر بأن لا يتدخل إلا إذ دعاه المدير وسلّمه زمام البلد . وبينما نحن نتكلم معه إذ سمعنا صوت الأعيرة النارية وسقط عدد من الضحايا . فتحمس عندئذ ضابط برتبة صاغ وقال للقومندان إنه إذا لم يأمر بالتدخل فإنى سأتدخل بجنودى والمسئولية علىّ وحدى . وأخيرا رأينا القومندان يأمر بضرب « البورى » ولا نعرف لماذا أمر ولكننا رأينا الجنود ذهبوا إلى السلاح وهجم الضابط المتحمس على أولئك الأجلاف وأعمل فيهم ظهور البنادق وقبض على عدد منهم وفرّ الباقون إلى منزل آل محفوظ (٢) .

وانحاز أصحاب الرئيس إلى القائل بعدم نزوله من الباخرة حرصا على حياته (٣) . فقبل . ونزل بالنيابة عنه بعض القادمين معه ومنهم النحاس بك ـ سكرتير الوفد ـ وقصدوا توّ نزولهم إلى السرادق حيث ظلّ الناس ينتظرونهم أربع ساعات . وكان استقبالهم هناك وطنّيا حارّا ـ على الرغم من عسف الإدارة وجبروتها ـ ويجلّ عن كل وصف . ووقف النحاس بك يلقى ـ بصوته الجهورى ـ كلمة كان سعد باشا قد أعدّها لإلقائها على المجتمعين ، قال فيها :

« بنى وطنى الأعزاء »

سالت الدماء فرحمة الله على القتلى ، وسلامته على الجرحى ، ولعنته على السفّاكين الذين خضّبوا فى هذا اليوم أرضكم بدم الأبرياء . لقد كدّر نداؤكم صفو الوزاريين واعتبروه سبّة شخصية لهم أن تدعوا للحرية وتهتفوا للاستقلال . فانتقموا لهذه السبّة انتقاما خسيسا دنيئا شائنا . إننا لا نريد ولا ينبغى لنا أن نكون شركاءهم فى المجزرة التى

دبّروها فى الخفاء من زمن طويل ، وأفضّل أن أتهّم بالجبن وأن تُتهم أسيوط التى أنا ضيفها بمنعى من أن أضع قدمى فى أرضها ، على أن تتلوث يدى بجناية . وأضحّى بكل اعتبار حتى لا أخاطر بقطرة من دم مصرى . فليتخبطّ الوزاريون فى دمائهم وفى مناوراتهم الدنيئة ولينغمسوا فى الدماء التى أسالوها معتزين بانتصارهم على بنى وطنهم الأبرياء العزّل الذين لا ذنب لهم سوى تعبيرهم عن غرضهم الأسمى . « ألا إن دولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة » . ولا يدل غضب الوزاريين إلا على اضطرابهم وشدّة تخبّطهم فى تدابيرهم . إذا كان الشعب معهم ومع الحماية فما الذى يخشونه من زيارتنا ؟ ولماذا يسعون بالقوة الغاشمة فى منع إتمامها ؟ إنهم يخشون أن يسمعوا الصوت القوىّ لذلك الشعب النبيل ، يرتفع بالهتاف لممثّليه الحقيقيين . إنهم إنما يخشون هذا الصوت لأن فى الهتاف للاستقلال والحرية حكما بإجرامهم . إن الحرية آتية لا ريب فيها والاستقلال آت لا ريب فيه وحينئذ نعود لقدومهما رغم بطش الأقوياء وعمل السفاكين .

إنى اشكر من كل قلبى بلسان زملائى وإخوانى ولسانى ، سكّان مديرية أسيوط عموما وأهل هذه المدينة خصوصا على هذه الحفاوة التى أتحفونا بها ، إذ لم نر من وقت دخولنا فيها إلى غاية وصولنا إلى هنا إلا كل مظاهر الترحيب وكل جمال الوطنية الصادقة ، وأشكر الكل فوق ذلك على الحكمة والرزانة وسعة الصدر التى قابلتم بها عمل السفّاكين الذين استأجرهم البعض لهذه الغاية الشائنة . وسوف يحق الله الحق ويأخذ بدم الأبرياء» .

وبعد ذلك ألقى الأستاذ محمد الغرابلى المحامى أبياتا شعرية فريدة . وصف فيها ما حدث ، وقد ارتجلها فهزّ مشاعر المجتمعين .

ثم أعلنت اللجنة وقوف الحفلة ـ فترة ـ حداداً على الأبرياء الذين فاضت أرواحهم وسالت دماؤهم نتيجة بطش الإدارة وأذنابها من المجرمين واقترحتْ إرسال إحتجاج إلى المسئولين والصحف ، جاء فيه :

« أهالى أسيوط المجتمعون الليلة بالسرادق الذى أعدّوه لاستقبال معالى سعد زغلول باشا ورجال الوفد المصرى . البالغ عددهم نحو ثمانية آلاف من علماء وقساوسة وأعيان وتجّار ومزارعين ومحامين وأطباء ومهندسين ومدرسين وطلبة وعمّال ، يحتجّون بكل قوة على التصرّفات المخزية التى لجأت إليها السلطات المحلية بتهيئة أسباب الاعتداء الشنيعة لنفر قليل من المأجورين ، أسالوا الدماء البريئة وحاولوا بها جنوه تشويه سمعتنا فى واجب الضيافة ، وباهمال تداركها وقت حدوثها مع سبق لفت نظرها إليها ، كما نحتج على

تذرّعها بأوهى الأسباب وأبعدها عن الحقيقة لحرماننا من التمتّع بزيارة سعد زغلول باشا ومصادرة حرية مديرية بأسرها اجتمع ممثلوها اليوم بعاصمتها لتكريم رغبتهم الأكيدة فى الاستقلال فى شخص سعد زغلول باشا ، ونؤكد أن هذه التصرّفات لا تزيدنا إلا تمسّكا باستقلالنا لمصر والسودان ورمزه العامل على تحقيقه والسخط على عمال الحماية ، ونلقى مسئولية هذه الحادثة المؤلمة على كاهل المكّلفين بالمراقبة والمحافظة على الأمن فى هذه المدينة ، ونبدى حزننا الشديد على تلك الضحايا البريئة ونرفع لأهليهم تعزيتنا القلبية ونستنزل لعنة الله على من دبّرها ونبدى لمعالى رئيسنا مزيد أسفنا ونؤكد له دوام ثقتنا به والتفافنا حوله» .

* * *

وهذه رواية حوادث أسيوط بلسان ركاب الباخرة أنفسهم أعلنوها فى حينها ردا على تقرير مدير أسيوط لوزير الداخلية ونشر فى الصحف ، قالوا :

« نحن ركّاب الباخرة « نوبيا »

نظراً لأن مدير أسيوط قدّم تقريرا لوزير الداخلية يشتمل على وقائع غير حقيقية عن رحلة رئيس الوفد المصرى فى مديريتنا رأينا من الواجب علينا أن نورد الحقيقة كما سمعتها آذاننا ورأتها أعيننا خدمة للحق ، لقد كان دخولنا بمديرية أسيوط مصحوبا بترحاب عظيم من الشاطئين ولم نكن نمرّ ببلدة أو مدينة إلا وكانت الجموع الحاشدة تحيينا بالتحيّات الجميلة وتهتف لمصر والاستقلال .

ولمّا مررنا بمورد « ملوى » وجدنا خلقا كثيرا فى انتظارنا فأبدوا لنا من التحيات ما أطلق الألسنة بالشكر لهم ، وقد قابلنا قبل وصولنا وابور ومراكب عدة مزينة كلها با لأعلام نزل منها كثير من وجوه مركز ملوى وأعيانه وطلبوا مقابلتنا فحيّونا وزاملونا إلى حيث رسونا لنتبادل التحيّات مع الجموع المنتظرة . ثم مررنا « بدير مواس » و « الحاج قنديل » وغيرهما إلى أن وصلنا إلى « ديروط » ورسونا بمرسى (شلش) فوجدنا جمعا حافلاً ينتظرنا أمام زينة بعض قوائمها منصوب وبعضه بالأرض وكانت الأرض مفروشة رملاً فى مساحة مائتى متر تقريبا فى الطول ونحوالثمانية عرضا . وعلمنا من الذين قابلونا من هذا الجمع أن الإدارة هى التى هدمت هذه الزينة بحجّة أنها فى أرض حكومية . على أن بعض من أقاموها أبرز لنا عقدا باستئجارها منها ، وأنها منعت الناس من الحضور حيث وضعت المدافع فى منافذ

الطرق والجنود فى مسالكها ، وقد علمنا من عمدة « ديروط الشريف » نفسه أنه وهو آت عندنا اعترضه المأمور وأراد منعه فلم يمتنع وكان هذا سببا فى صدور أمر المدير تليفونيا بإيقافه ، وكذلك حصل لعمدة « فزاره » ، وقد رأينا نحن على بعد منّا معاون البوليس ومعه بعض العساكر ونظرنا بالشاطئ الآخر جماعة يتراوح عددهم بين الأربعين والخمسين شخصا يهتفون لعدلى باشا وللباشا المدير وللبيه المأمور وللبيه المعاون وينادون بسقوط (التلاموذ) . . ! وهذه هى المرة الوحيدة التى سمعنا فيها الهتاف لعدلى باشا ، ولم يكن بيد هؤلاء الأشخاص أعلام أصلا لاسودا ولا غيرها ولم يثيروا ترابا فى وجه أحد ، وقد أكّد لنا مستقبلونا أن هذه الجماعة مؤلفة من المسجونين والخفراء . على أنهم بعد أن ذهب المعاون وجنديان إلى البلدة مع مكاتب « المورننج بوست » وبعضنا ، انقلبوا يهتفون لسعد باشا وينادون بسقوط غيره ويعتذرون ويقولون (مجبورين يا باشا) . وقد قضينا هذه الليلة فى هذا المرسى وفى الصباح حضر كثير من أهل البلدة الذين أمكنهم أن يخترقوا حصار الإدارة ويهتفوا للاستقلال التام وللرئيس ، ثم سرنا إلى أسيوط مارين « ببهيج » « وسلام » «والوليدية » وفى كل منها وفى غيرها مما لم نذكر ، قوبلنا بأبلغ أنواع التحية ووقفنا عند الأخير فى انتظار مرورنا من الهويس بين تحية الآلاف العديدة من الناس التى كانت فى انتظارنا وهم يصيحون بالهتاف للوطن ولسعد ومن بينهم جمهور من خيرة سيدات أسيوط ، وكان فى النهر من الجهة الأخرى رفّاص وبضع مراكب تسير مملوءة بالمستقبلين . ومازلنا سائرين إلى أن وصلنا الهويس فسبقنا الرفّاص يجر وراءه المراكب ، وريثما خرجنا منه سمعنا الطلقات النارية وشاهدنا دخانها فأشار علينا بعض ضباط الجيش ، المرابط فى هذه الجهة ، بالوقوف . فرست الباخرة أمام المعسكر بناء على إشارتهم ـ ووصلتنا الأخبار بعد ذلك بهدم الزينة والاعتداء على المستقبلين بواسطة أناس استحضروا خصيصا لهذه الغاية ، ثم جاء بعض أعضاء لجنة الاحتفال وحكوا لنا كثيرا من الصعوبات التى أقامتها الإدارة أمامهم والاحتياطات التى اتخذوها لاجتناب كل ما من شأنه إيجاد حجّة لها ، وقد نزل البعض منا ليشاهدوا المدينة ويتأكدوا من حالتها فلم يروا بها أثرا للاضطراب ، بل وجدوا الناس منتشرة فى الشوارع ومزدحمة عند السرادق والكل منتظر نزول الرئيس . وأراد الرئيس النزول فمنع منه ، على ما جاء تفصيله فى الخطابات التى تبودلت بين معاليه ومراقب الأمن العام والمدير ونُشرت فى الجرائد .

ولم نقابل بعد مدينة أسيوط ، إلا بمثل ما قوبلنا به قبلها من كل حفاوة وإكرام حتى فى

« أبى تيج » التى قيل لنا عنها من جانب المديرية فى أسيوط إن أهلها سيطلقون الرصاص علينا وقد احتشد الناس فيها للقاء الباخرة احتشادا عظيماً . وكثيرون منهم تسلّقوا الأشجار وملأوا المراكب الراسية على الشاطئ وتعلقوا بالنخيل وعلا هتافهم للوطن والاستقلال ولوكيل الأمة ، ولم يزالوا فى تحياتنا حتى حضر البوليس وفرّق جموعهم وسارت الباخرة حتى وصلنا « طما » فقابلنا أهلها بمثل ما قوبلنا به فى غيرها من الحفاوة والإكرام .

هذه هى الوقائع كما حصلت تماما ، فكل ما جاء بتقرير المدير خلافا لها غير صحيح مطلقا ، وأن هذا الخلاف بين الذى رأيناه بأعيننا وسمعناه بآذاننا وبين ما رواه له عمّاله ربما يفسّره ما جاء فى آخر التقرير من أن لجنة الاحتفال قدمت الشكوى متهمة الإدارة . فكُتب التقرير تحت هذا التأثير دفاعا عنها .

وقد وقّع هذا الرد كل من أحمد يحيى باشا . فتح الله باشا بركات . محمد صدقى باشا . السيد حسين القصبى . الشيخ مصطفى القاياتى . واصف بك غالى . سينوت بك حنا . مصطفى النحاس بك . الأستاذ محمد نجيب الغرابلى . الأستاذ عبد الحليم البيلى . محمد فرحات . الدكتور محجوب ثابت . الدكتور رياض فانوس . مستر فرانك ريد .

وركب من بعد مرسى الباخرة بأسيوط . طاهر بك اللوزى .

هذا ، ومما يُذكر بالإعجاب أن الأستاذ أحمد هشام نائب نيابة أسوان ومن أبناء الأسر العريقة فى أسيوط ، لمّا رأى هذه التصرّفات الإجرامية التى لجأت إليها الإدارة قدّم استقالته فورا من وظيفته وانضم إلى مستقبلى سعد باشا . وهو شاب يتقّد غيرة وذكاء ، وكان أول فرقته سنة ١٩١٤ .

وكذلك فعل محمد بهجت بك عمدة « بنى عبيد » بالمنيا وهو من كبار العائلات العريقة المعروفة وأحد الذين دعوا سعد باشا لزيارة المنيا ، وقد أرسل إلى المديرية إستقالة قال فيها : « التجأ رجال الحماية إلى القوة لمنع سعد باشا من أن يتصل بالأمة ويتبادل معها عبارات الاستقلال التام ، بينما قد ملّت هذه الأمة إلحاح عمّال الحماية عليها بعرائضهم البذيئة ، ولكن هيهات » .

* * *

هذا وصف استقبال سعد باشا فى أسيوط وما حدث من رجال الإدارة فيها وهو بليغ الدلالة على ما أعدّته الوزارة لهذه الرحلة من وسائل العسف والبطش .

وأخيرا بارحت الباخرة « نوبيا » أسيوط بين الدعوات الخالصة والهتافات المتصاعدة إلى السماء فلم تجن الوزارة من كيدها سوى أنه زاد الناس محبة لسعد باشا ، وقوة فى تأييده وسخطا على الوزارة ورجالها .

ولنقف قليلا قبل مواصلة وصف الرحلة لنتحدث عمّا اتخذته الإدارة فى مديرية جرجا من تصرفات .

* * *

لمّا وصلنا إلى جرجا بدأت أتأهب لاستقبال سعد باشا فى منزلى هناك ، فأعددت مرسى من الخشب فى النيل أمام المنزل لترسو عنده الباخرة وأقمت الزينات ورفعت الأعلام ، ولكن هذا العمل لم يرض رجال الإدارة وعلى رأسهم المدير عبد العزيز يحيى فحضر ومعه بعض الوزاريين وطافوا بقرى المركز محرّضين على الاستعداد للغدر بسعد باشا وبرجاله والفتك بنا . وتأكدنا من أن المدير أبلغ ثروت باشا تليفونيا أنه « إذا كان سعد باشا نفد من أسيوط فإنه لا ينفد من يده فى جرجا » ! وهكذا رأينا المدير يتنمّر بنا حتى إنه لما مرّ أمام منزلى استحضر نفرا من الجنود والخفراء ، وأمرهم بهدم المرسى والزينة بالقّوة فكادت أن تحدث معركة بينهم وبين رجالنا .

ولم يكتف عبد العزيز يحيى مدير جرجا بالسعى للفتك بسعد ورجاله بل أوعز إلى مأمور مركز سوهاج بأن يُعد بعض الأشقياء لإحراق السرادق الذى استحضرته لجنة الاحتفال من مصر ونصبته بواسطة الفراش محمد عبيد ، وإتلاف المأكولات التى أعدّت للمأدبة التى عزمت اللجنة على إقامتها لمئات من أعيان المديرية بواسطة الطاهى الشهير «عزوز » وقد كلف ذلك اللجنة مئات من الجنيهات ، فلما شاع هذا الخبر تطوع رجل يبلغ من العمر فوق الثمانين وهو أحمد أفندى فرج الأسيوطى وتسلّم كل معدات الطعام وأشرف عليها ، وأسرعت عائلة « حمّادى » وغيرها من العشائر الكبيرة « والهوّارة » من أنحاء المديرية إلى إيفاد رجالهم ومعهم سلاحهم فسهروا طول الليل للمحافظة على السرادق من اعتداء المأجورين .

وكان من بواعث الارتياح فى هذا الظرف السيئ ، أنه كما وجد بين رجال الإدارة أشرار يستهينون بكل شىء رأينا آخرين أظهروا من الترفع عن الدنايا مادلّ على حسن طويّتهم وصدق وطنيتهم وخاصة بعض الشبان من الضبّاط سواء فى البوليس أو فى الجيش . ومن

ذلك أن مأمور مركز سوهاج وهو كامل محسن بك رفض بإباء وشمم أن ينفذ أمر المدير بإحراق السرادق بل نبهنا إلى وجوب الاحتراس ، إذ أوعز بذلك إلى من أبلغونا به .

إزاء هذه الأخبار المقلقة ، رأيتُ أن أسافر إلى سوهاج حيث اجتمعت مع جميع زعماء الأسر والعائلات بمنزل سكرتير لجنة الوفد حينئذ وهو المرحوم حسن بك العارف ، وهناك جاءت الأنباء بأن المدير استدعى بعض اللصوص من الأشقياء والمشبوهين ليستخدمهم في أغراضه الإجرامية كما استدعى شخصا اسمه « ثابت » من مركز طهطا ووعده ومنّاه ، إذا هو اغتال سعد باشا وفتك بي أنا ، وعلمنا كذلك أنه اشترى الرصاص ووزّعه على الخفراء ، حتى لا يُعرف إذا هم أطلقوه من بنادقهم !

إزاء هذه الحالة اضطررنا أن نطلب مقابلة مفتش الداخلية ، وكان إنجليزيا وقتئذ ويدعى « سير جنت » . فأرسلنا له تلغرافا فحدّد لنا موعدا وذهبنا لمقابلته فوجدناه مجتمعا مع المدير وبدر الدين ، وبدأت أنا الحديث باسمي وباسم إخواني وشرحت ما هو حادث من رجال الإدارة وتحدثت في ذلك بإسهاب . فلم يجد المدير ما يرد به عليّ إلا أن يدّعي أن « باشوات » المديرية غير راضين عن زيارة سعد باشا لمدير يتهم . فتحديته أن يثبت ذلك إن استطاع . فاستدعى الحكمدار ليحضر هؤلاء « الباشوات » فلم يحضر إلا اثنين أحدهما هارون همّام بك والآخر هو الشيخ أحمد مصطفى أبو رحاب وقد حضرا ولم يقولا شيئا إلا دمدمات وهمهمات تدل على الخجل والاضطراب ، ولم يفهم منها الحاضرون شيئا .

وكثر الأخذ والرد بيننا وبين المدير والمفتش وحاولنا كثيرا إقناعهم بالحسنى بأن يتركوا الناس أحرارا في استقبال من يرغبون ، فأصّروا على موقفهم . وهنا لم يسع محمود همام حمادي بك عميد أسرة « حمادي » ببلصفورة ، إلا أن يقف ويدعو إخوانه إلى الخروج ، وقال وهو يتحدّى المدير والمفتش وفي صوت كزئير الأسد « ليكن ما يكون وسترون كيف تسيل الدماء » . وهنا ظهر الارتياع على وجه المدير والمفتش وبدر الدين وشرعوا يلاطفون محمود بك وخشوا مغّبة سوء تصرّفهم فأخذوا يخففون من غضبه ، ولكن دون جدوى - فخرجنا من الاجتماع دون أن نحصل على وعد بأن تقف الإدارة من استقبالنا موقف الحياد الذي يقتضيه واجبها في حفظ الأمن .

وكانت الباخرة « نوبيا » في هذه الأثناء في طريقها إلى سوهاج ، فقمت من فوري ومعي حسن بك العارف والأستاذ نجيب ساويرس المحامي والأستاذ عبد الحليم حلمي

قاصدين لقاءها ، فوصلنا إلى قرية « الشيخ يوسف » التابعة لجزيرة شندويل ، وقت الشروق . واستأجرنا ملاّحا نادى الباخرة حين وصولها فوقفت . وصعدنا إليها وقابلنا سعد باشا ورويت له ما حدث ، فاستاء كل الاستياء لتصرّفات رجال الإدارة وخشى أن تتكرر مأساة أسيوط مرّة أخرى وأن تسيل دماء الأبرياء كما سالت من قبل وسألنى هل أنتم على استعداد لمنع رجال الإدارة من البطش بالأهالى فقلت له إن الإجماع معقود على الترحيب به وأن الأهالى على استعداد تام لاستقباله ورفعه على أعناقهم ، وأنه لم يؤيد الإدارة على الرغم مما بذلته إلا نفر قليل من أصحاب الأغراض وذوى المآرب . وقلت إنه ستكون هناك معركة دموية أعدّها رجال الإدارة وأذنابهم ، فقال سعد باشا « لنسر وليكن ما يكون » . غير أن فتح الله بركات باشا وواصف غالى بك والنحاس بك تدخلوا فى الحديث واستطاعوا إقناع سعد باشا بالرسوّ عند « جزيرة شندويل » وتأجيل السفر إلى « سوهاج » إلى اليوم التالى حتى تهدأ النفوس . وانتهى الأمر بينهم إلى إقناع سعد باشا بإرسال تلغراف للسلطان فؤاد يشرح فيه تصرّفات الوزارة ويطالبه بالتدخل للحيلولة دون دماء رعاياه . فنزل سعد باشا عند هذا الرأى وأرسل برقية قال فيها :

« دعانى وزملائى كثير من المديريات المختلفة لزيارتها ورأينا من الواجب علينا إجابة دعوتها للاجتماع بأهلها والوقوف منهم على ما يهمّ بالنسبة لأحوالنا ، غير أن الإدارة لم تنظر إلى هذا المشروع بعين الرضا واعتبرته مكدرا لراحتها لا مُخلاّ بالأمن كما تزعم . ولهذا اجتهدت فى معاكسته والتجأت إلى السلطة العسكرية فى الحصول على منع زيارة طنطا . ولمّا لم ينجح فى الاستعانة بها على منع غيرها أفرغت ما فى وسعها لمضايقة داعينا وحمل الناس بوسائل القهر والإرهاق على عدم الاقتراب منا فلم تفلح فى سعيها . لهذا عمدت أخيرا إلى شر الوسائل وأخطرها ، سلباً للطمأنينة وضررا بالنظام ، ذلك أن أباحت لبعض المنتمين للوزارة أن يستأجروا بعض الأشرار بأسلحتهم وعصيّهم فى أسيوط لإحداث الشغب عند قدومنا ، وفعلا أحدثوه بأن هدموا الزينات التى كانت منصوبة وضربوا المحتفلين وأسالوا دم الآخرين ، وتأكدنا أن الإشارة التى أعطيت لارتكاب هذا الشغب كانت من أحد المكلّفين بحفظ النظام ، وكان يجب عليه أن يقبض على المشاغبين السفّاكين ، وقد أمر مراقب الأمن العام بمنعى من النزول إلى المدينة وكتب إلىّ بذلك . ولم أر معارضته منعا للفتنة ، وضنّا بأيام ملككم أن تُخضّب بالدماء . فبارحنا أسيوط إلى جرجا غير أننا علمنا فى أثناء الطريق ، من مصادر موثوق بها ، أن مدير جرجا أخبر

مراقب الأمن العام بأنه سيحدث فى سوهاج عند قدومنا إليها أشد مما حدث فى أسيوط وأنه أمر مأمورى المراكز بأن يرسلوا المتشرّدين والمشبوهين مع الأسلحة إلى سوهاج . كما أنه جمع فيها أغلب عساكر المديرية وأكثر خفرائها فى زىّ الأهالى وكلف كل عمدة أن يستحضر من ناحيته عددا من الأنفار بنبابيتهم(٤) . وتنقّل فى المراكز أمس وعقد عدة اجتماعات حثّ الناس فيها على أن يعارضوا بالقوة زيارتى لمدينة سوهاج ، ولما رأى ذلك أعيان المديرية ووجهاؤها من الذين دعونى لزيارتهم استعدوا للدفاع عن أنفسهم بمقاومة القوة بالقوة وتكلموا مع المدير بحضور مفتش الداخلية الإنجليزى ومراقب الأمن العام فى تلافى الأمر ، فلم يصغ إلى قولهم .

تلقاء هذه الحالة رأينا أن نفوتّ عليهم قصدهم وأن لا ننزل الآن بسوهاج وأن نرفع الأمر لعظمتكم لتتصرفوا فيه بحكمتكم إذ لا يرضيكم أن تحصر الإدارة همّها فى محاربة الشعور العام وأن يشترك معها الأشقاء فى التعدّى على الأبرياء والإخلال بالنظام العام وتعريض البلاد بهذه الوسيلة لأعظم الأخطار .

الباخرة نوبيا فى يوم الأحد أكتوبر سنة ١٩٢١ « سعد زغلول »

وفى صبيحة اليوم التالى نشرت جريدة « الغازيت » وصفا لهذه الحوادث قالت فيه :

« قبل مغادرة سعد باشا أسيوط أرسل خصومه التهديدات بأن الرصاص سيطلق على الباخرة « نوبيا » عند وصولها إلى أبو تيج ، فلمّا وصلت إلى أبو تيج كان الخفراء مصطفّين على الشاطئ وحاملين بنادقهم على هيئة (سلام) وقد احتشد الأهالى من القرية وهتفوا لسعد باشا إلى أن جاء الموظفون فأمر الخفراء بتفريق المجتمعين .

« وفى هذا الصباح (١٦ أكتوبر) صعد ثلاثة محامين وطبيب إلى الباخرة « نوبيا » وأخبروا سعد باشا أن بدر الدين بك غادر أسيوط إلى سوهاج وأبلغ مديرها ما وقع من الحوادث فى الأولى ، فقال المدير إنه يخشى أن يحدث بسوهاج ما هو أسوأ مما وقع بأسيوط . »

« بعد ذلك كانت الباخرة نوبيا تقترب من سوهاج فصعد إليها فخرى بك عبد النور ـ رئيس لجنة الاحتفال ـ وأبلغ زغلول باشا أن مئات من الناس مسلّحون ومنتظرون وصوله ومن معه إلى سوهاج لمنعهم من النزول إلى البر . وأنه لما علم أنصار زغلول باشا بهذه الاستعدادات العدائية جمعواهم أيضا قوّاتهم وهى تزيد عن قوات خصومه عدداً . وقد

زعم (كذا !) فخرى بك أن مائتين من الخفراء وغيرهم مسلّحون بقصد منع سعد باشا من النزول ، هذا فى حين أن أغلب أنصاره لم يكونوا مسلّحين ويبلغ عددهم نحو خمسة آلاف . وبيّن فخرى بك للزائرين أن استمرارهم فى السفر إلى سوهاج قد يفضى إلى قتال عنيف بين أنصار الوفد وخصومهم ، وربما نتجت عنه مئات من الاصابات . فعقد سعد باشا وواصف بك غالى ومصطفى بك النحاس وسينوت بك حنا اجتماعا قرروا فيه إرسال تلغراف احتجاج من سعد باشا إلى عظمة السلطان وأن يرسل مصطفى بك النحاس إلى مدير سوهاج وبدر الدين بك احتجاجا على عمل الإدارة بتدبيرها سفك الدماء » .

وفى يوم ١٧ أكتوبر نشرت الصحف تلغرافا من سوهاج نصّه :

سوهاج فى ١٦ أكتوبر . الساعة السادسة والدقيقة الـ ٥٥ مساء .

« اتصل بنا اليوم من محامى « طهطا » أن الإدارة تعد فى سوهاج مثل ماتمّ تدبيره بأسيوط وأن وكيل جرجا حضر إلى طهطا وجمع عمد ومشايخ المركز ونبّه عليهم بجمع المشبوهين والمتشرّدين ليذهبوا إلى سوهاج بما يتيسّر لهم من الأسلحة لإفساد الاحتفال بقدم سعد باشا وأن أحد الأشقياء المعروفين استشار الأستاذ شاكر المصرى فى إطاعة الإدارة فى الذهاب إلى سوهاج لمساعدتها فى منع سعد زغلول باشا من زيارة فخرى بك عبد النور ، وأنهم سمعوا المأمور وهو جالس على قهوة النادى بطهطا يذكّر أحد العمد « بالمائة رجل » المكلّف باستحضارهم ، وأن بدر الدين بك سافر إلى سوهاج بعد ما طمأنه المدير على أن «الترتيبات » تمت على أفظع مما كانت عليه بأسيوط . وبناء على ذلك نكون أمام شروع فى تنظيم « ثورة داخلية » يُستعان برجال الإدارة على تنفيذه وإتمامه . ولم يكن يدور بخلدنا أن يلتجئ خصوم سعد باشا إلى مثل هذا الإجرام الفظيع بتلك الأسلحة الخطرة !

« وأكّد لنا وفد من أعيان سوهاج قابلونا فى شندويل » صحة ما ذكره لنا محامو طهطا وزادوا عليه أن الخفراء أرسلت من مختلف المراكز بملابس غير رسمية يحملون تحتها البنادق وأن أهل المدينة استعدوا لمقاومة الأشقياء عند الحاجة ، ولكن فى استطاعتى أن أؤكد أن سعد باشا لا يسمح باراقة نقطة واحدة من الدم المصرى ، ومادامت الإدارة تسعى بواسطة المتشرّدين والأشقياء لمنع الزيارة ـ كما قرر حضرات المحامين ـ أو تسيل الدماء ، فإنه سيفضل حرمانهم من التمتع برؤية دم الأبرياء يسيل » .

وبعد إرسال تلغراف سعد باشا إلى السلطان، رؤى أن يرسل الأستاذ مصطفى النحاس ، بوصفه سكرتيرا للوفد ، تلغرافا إلى مدير جرجا يحمّله فيه مسئولية ما سوف يحدث

نتيجة التدابير الإجرامية التى أعدها رجال الإدارة لمنع الاستقبال وإفساده . فكتب يقول :

« علمنا بعد قيامنا من أسيوط أنكم أخبرتم مراقب الأمن العام بأنه سيحدث عندكم عند قدومنا أكثر مما حصل فى أسيوط . وأن مأمورى المراكز جمعوا المشبوهين والمتشرّدين وأرسلوهم إلى سوهاج لأجل إحداث شغب بها عند وصولنا وأنكم تنقلتم فى المراكز وعقدتم بها عدّة اجتماعات وحرّضتم الناس فيها على معارضة زيارتنا بالقوة وحشدتم فى سوهاج أغلب عساكر المديرية وأغلب خفرائها فى زى الأهالى . كل ذلك لمقاومة نزول معالى رئيس الوفد المصرى . تلقاء هذه الأعمال رأينا عدم النزول الآن بسوهاج منعا للفتنة وحقنا للدماء ، ونلقى عليكم مسئولية هذه التدبيرات التى هى أشد الوسائل خطرا على البلاد » .

كما أرسل النحاس بك إلى مراقب الأمن العام فى الوقت نفسه تلغرافا قال فيه :

« علمنا أنكم كنتم بأسيوط عند وقوع الحادثة المؤلمة بها ، وأن لكم دخلا فيها لأنكم ساعدتم المشاغبين على قصدهم بمنع معالى رئيس الوفد المصرى من زيارة المدينة . وأن مدير جرجا أخبركم بأنه سيحدث بسوهاج أشد مما حدث فى أسيوط فتوجّهتم إلى سوهاج ، ومع ذلك فعوضا عن أن تتلافوا الأمر جمعتم بعض الأعيان فى بيت المدير عندما طلبوا منه حسم الأمر ، وأنه بناء على ذلك استعد الأهالى للدفاع عن أنفسهم بمقاومة القوة بالقوة .

تلقاء ذلك رأينا حقنا للدماء عدم النزول بسوهاج الآن ملقين عليكم وعلى المدير تبعة هذه التدبيرات المضرّة بالحرية والأمن العام .

وفى المساء حضر إلى الباخرة وفد من المثقفين والأعيان وألحّوا على سعد باشا فى زيارة سوهاج .

* * *

ونعود إلى وصف الرحلة بعد مغادرة الباخرة أسيوط ، فنقول :

بارحت الباخرة « نوبيا » مياه أسيوط بعد تلك الحوادث الدامية واجتازت القرى والبلاد على طول الشاطئين من أسيوط فى طريقها إلى سوهاج بين تحيات حماسية لم يخفّف من حماستها عسف رجال الإدارة ولامطارداتهم للأهالى الذين كانوا يلاحقون الباخرة وكلهم يهتفون للاستقلال ولزعيم الأمة سعد زغلول باشا . ووصلنا « جزيرة شندويل » . ثم قمنا

منها قاصدين إلى سوهاج ومررنا « بساقلته » فحيّانا أهلوها بالهتاف والدعاء وأطلقوا الأعيرة النارية ابتهاجا وفرحاً . ثم وصلنا بعد ذلك إلى الشاطئ للتحية ومعهم أعلامهم مختلفة الألوان وكان بعضهم يحمل سعف النخيل ومعهم طبلهم ومزمارهم .

وبعد قليل دنونا من سوهاج ، فإذا برسلها جاءت لتحية زعيم البلاد فى نحو عشرة زوارق استقبلتنا مزدانة بالأعلام الصغيرة وفيها عدد كبير من « السوهاجيين » بين عمّال وطلبة ومزارعين وأعيان . وقد سار الجميع حولنا وهتافهم لمصر واستقلالها وللزعيم سعد يشق عنان السماء حتى وصلنا إلى مياه سوهاج ، فكان أول ما وقعت عليه أعيننا عشرة أو يزيدون من الخفراء وعدد كبير من المراكب الغاصّة بالمرحّبين . ثم رأينا جموعا واقفة على الشاطئ شمال القنطرة التى تبعد نيفا ومائة متر عن صندل « شركة كوك » الذى كان مهيأ لرسو سفينتنا أمامه ، ورأينا خلال ذلك وفوق القنطرة وعلى رءوس الشوارع المؤدية للقنطرة عدداً عظيما من فرسان البوليس يروح ويغدو ، والبعض قد وقف سداً منيعاً يمنع الجموع الهائلة من الوصول إلى المكان المعدّ للنزول ، وفهمنا من خلو الشارع الذى يمتد من القنطرة إلى صندل « كوك » أن قوات من البوليس وضعت لابعاد الناس إبعاداً تاما عن هذه الجهة .

وقد رأينا من المناسب وقتئذ أن نترك لهم صندل « كوك » وأن نرسو بسفينتنا جهة القنطرة فما كادت الجماهير تشعر بوقوف السفينة حتى تدفّق عدد عظيم منهم أمامها بلغ بضعة آلاف ، وقد تقدّم من الجميع شاب يلبس قفطانا من الحرير ورمى بنفسه إلى اليمّ ليقترب من السفينة ، وشكا إلى من فيها ما سامت الإدارة طلبة « مدرسة المعلّمين » هناك من أنواع الإهانة والضرب ، بعد أن كسروا أعلامهم وداسوا طلبتها بالأقدام حين رغبوا فى المشاركة فى الاستقبال .

ولم تكد تقترب الباخرة من مرساها ، حتى رأينا ضابطا ومعه خمسة فرسان قد حضروا ، وصعد الضابط إلى السفينة ليؤدى رسالة مكتوبة من المدير إلى الرئيس ، وهذه الرسالة تتضمن منعه من النزول فى سوهاج ، فردّ عليها الرئيس بالاحتجاج والاستنكار .

وكانت السفينة فى أثناء الرد تروح وتغدو على يسار القنطرة ويمينها ، فكنت ترى الناس يتبعونها فى سيرها وينتقلون من أمكنتهم ليكونوا أقرب ما يكونون منها .

ومن ألطف ما شاهدنا أن السفينة طال وقوفها على الشاطئ القبلى للترعة المارّة تحت

القنطرة ، فأراد كثيرون ممن كانوا على الضفة البحرية أن ينتقلوا إلى الجهة الأخرى ليكونوا أقرب إلى مشاهدة سعد باشا ، فقطع بعضهم المسافة سباحة وقطعها البعض الآخر فى المراكب .

ثم رأينا أن نسير إلى الأمام لمشاهدة بعض من كانوا يتسربون إلى الطريق فيما بين القنطرة وصندل « كوك » . سرنا ، فتحولت الجموع ترغب فى السير فى الاتجاه الذى تسير نحوه سفينتنا فحالت قوة البوليس دون رغبتهم .

ثم سرنا فرأينا بضعة شوارع تنتهى بالشارع الممتد على الساحل ، وعلى رأس كل منها نفر غير قليل من رجال البوليس يمنعون أناسا لا يُحصى عددهم من الوصول إلى شارع الساحل .

ثم سرنا حتى وصلنا إلى الصندل ، فإذا بمركب مزيّنة بالأعلام وصندل يقع أسفل سلّم فرش هو والصندل بالبسط الحمراء وعلى الصندل أعيان من « سوهاج » « وأخميم » «والبلنيا» قد حصرهم البوليس فى هذا المكان ومنعهم من المرور فى الشارع للوصول إلى السفينة حيث رست فى أول الأمر .

ولمّا وصلنا ابتهجوا بفكّ أسرهم ، وصعدوا معنا ولم يحتاجوا بهذا إلى اختراق نطاق الجند الذين أوصدوا به سبيل الخروج إلى الشارع .

وقد كان المدير وبدر الدين بك يروحان ويغدوان فى سيارتيهما بين الجنود ، وكأنهما الباسلان الفاتحان يحمّسان الجنود ضد العدو . . .

فمن كان يتصوّر أن رجال الإدارة يتصرّفون هذا التصرّف المحرج للصدور ؟ . .

أخذنا المأسورين الذين فككنا أسرهم معنا على ظهر السفينة ، وسرنا حتى نهاية النطاق العسكرى بعد أن مررنا أمام « مدرسة البنات » ومنازل امتلأت شرفاتها بالسيّدات والفتيات هاتفات بذلك الصوت الذى يخترق القلوب فيصل إلى حبّتها فيحرك أشدها جمودا .

وصلنا إلى نهاية النطاق فإذا جماهير لا يحصرهم العد قدَّرهم العارفون بنحو خمسة عشر ألفا اتحدت فيهم المشاعر واتفق الغرض ، وكلهم يناودن لتحيا مصر ، ليحيا « الوطن » ، ليحيا « سعد » ، لتسقط « القوة الغاشمة » . !

وقفنا حيال هؤلاء أمام كشك قوائمه وسط الماء وهو غاص فيه ، فتقدم النحاس بك ليتلو على الجميع الخطابين اللذين تبودلا بين الرئيس والمدير ، وجلس إلى جانبه سعد زغلول باشا .

تقدّم النحاس بك لتلاوة الخطابين فاسترسل فى المقدمة حتى كأن ما قاله خطبة يصح أن تكون قائمة بذاتها ، فقال :

« أبلغكم شكر معالى الرئيس على هذا الاحتفاء الباهر وهذه المظاهر الشائقة التى تكذّب بأجلى بيان ما تخرّص به المتخرصون من أن فيكم انقساما يخشى منه على الأمن العام، والتى تدل دلالة قاطعة على أن ما تخرّصوا به إنما هو مُدبّر بقصد إخفاء هذه الروح القوية فيكم ولكن هذه الروح من عند الله ولا يطفئ نور الله مخلوق .

إن هذه الروح التى أودعها الله فيكم تدل دلالة ساطعة على أنكم جميعا لا تطلبون سوى شىء واحد هو الاستقلال التام .

وعلى أنكم جميعا متحدون فى هذا المطلب الأسمى ، ملتفون حول وكيل الأمة سعد باشا زغلول . ولا يمكن لذوى المطامع الدنيئة أن يؤثروا على هذا الاتحاد ولا أن يخدعوكم بأن تقبلوا شيئا هو دون « الاستقلال التام » .

يقول ذوو الأغراض إن فيكم أحزابا وشيعا (أصوات ـ كلا . كلا) كذبوا فلستم إلا رجلا واحدا يطلب الاستقلال التام (تصفيق حاد) .

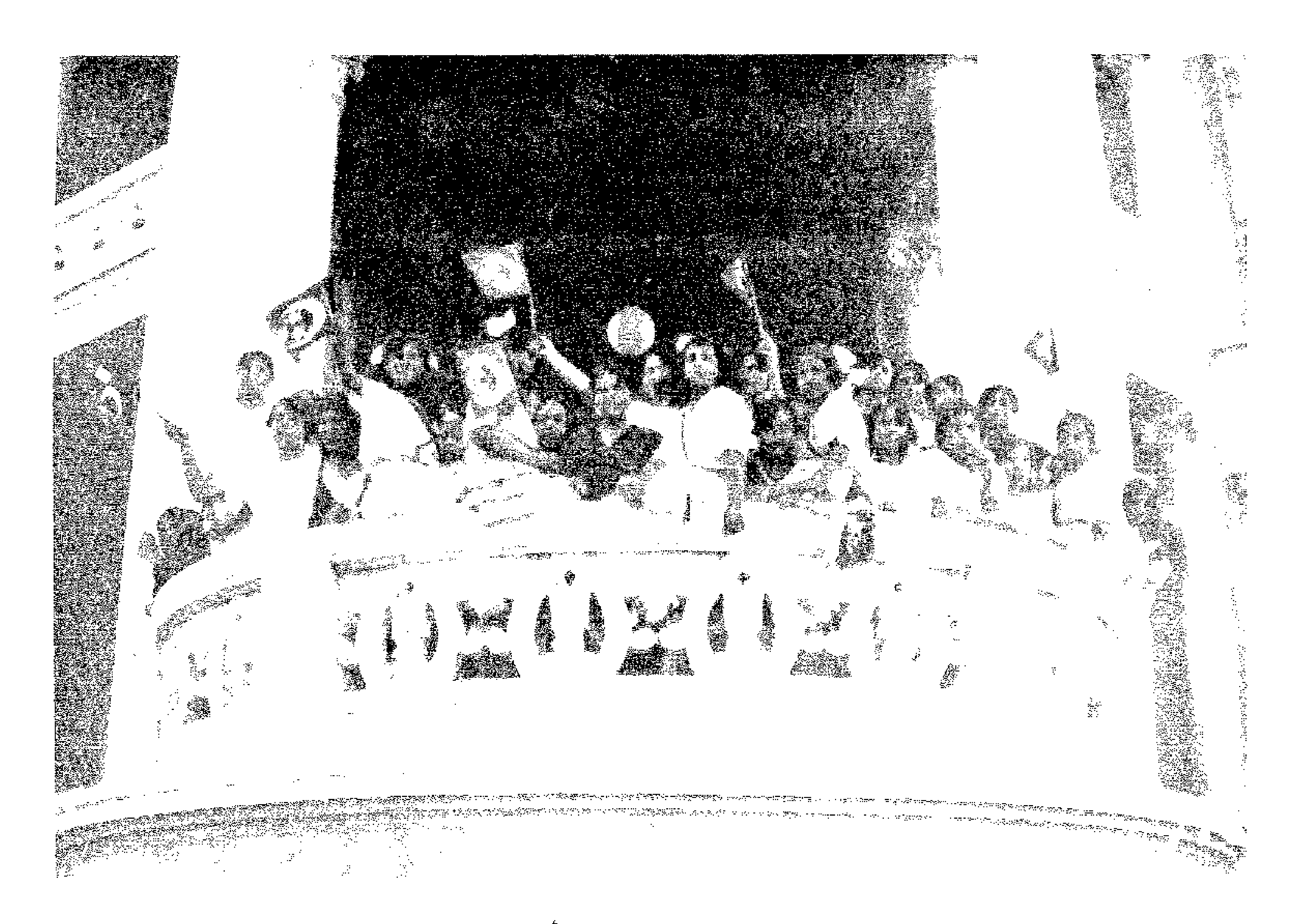
ولكن ذلك لا يطيب لبضعة أنفار ذوى مطامع سافلة ، لا يمكنهم أن يعيشوا إلا من ورائها فهم يحاولون تصوير الحالة بغير ما هى عليه إرضاء لمن ؟ لخصومنا . (نعم . نعم) .

أرادوا أن يظهروا لهم أن فيكم قوما يطلبون غير الاستقلال (زور وبهتان) ليس فيكم رجل من هؤلاء ، بل كلكم تبغضون الحماية ولا ترضون عنها .

أرادوا أن يظهروا لأولئك الذين يستمدّون منهم البقاء فى مناصبهم أن أهل سوهاج منعوا رمز الاستقلال من أن ينزل بأرضها (أصوات من الجمع الحاشد) .

كذبوا . كذبوا . أرادوا أن يصوّروا لهم أن أهل مديرية جرجا لا يريدون أن يروا سعد باشا زغلول (زور وبهتان) .

كذب وبهتان . فإن ما رأيناه من أول دخولنا حدود هذه المديرية كما فى غيرها ، يفوق



بنات مصر يهتفن من شرفات البيوت للزعيم سعد زغلول أثناء مرور الباخرة نوبيا بمدينة سوهاج

كل وصف فى الدلالة على تعلّقكم بزغلول والتفافكم حوله (تصفيق حاد) . وما كنّا لنعبأ بهذه التّرهات . ولذلك صمّمنا على النزول بأرضكم إجابة لدعوتكم ولندحض ترّهاتهم بأن نريهم أنه لا يوجد بينكم من لا يقول لا رئيس إلا سعد (هتاف شديد . لا رئيس إلا سعد . لا وكيل إلا سعد . لا وكيل إلا سعد) ولكنهم أمام جلال هذا المنظر الذى قابلتمونا به ضعفوا ولم يروا أمامهم إلا أن يستعملوا لمنعنا الوسيلة التى لا يمكن لنا أن نناضلها وهى القوة المادية (هتاف ضد القوة) وأصدر المدير فى الحال أمره إلى البوليس بمنعنا من النزول إليكم وبعث للرئيس بخطاب مستعجل بذلك ، وما كّنا لنقاوم القوة بالقوة ، وإنما نقاوم القوة الغشومة بقوة الحق (تصفيق حاد) نقاومها بقوة اليقين الكامن فى صدوركم (تصفيق شديد) . لذلك واعتمادًا على هذا الشعور القوى امتنعنا عن النزول لأننا نربأ بالدم المصرى أن تراق منه قطرة بفعل ذوى الأغراض الفاسدة . اكتفينا بهذه المظاهرة الهاتفة وتلك الترحيبات الباهرة ، وعدلنا عن أن تقترب أجسامكم من أجسامنا ، ولكن ذلك لا يمكن أن يمنع قلوبكم من أن تكون مع قلوبنا .

هذا ، ولتكونوا على بيّنة من مظاهر القوة الغاشمة التى بيننا وبينكم ، أقرأ عليكم الخطاب الذى ورد على معالى الرئيس من المدير والرد عليه .

ثم تلا الخطابين ، فكان يُقاطع مِن آن وآخر بكلمات تكذيب رجال الإدارة عند بعض جمل الخطاب المرسل من المدير ، وكان السامعون يهتفون عند سماع بعض عبارات الرد بقولهم (لتسقط القوة الغاشمة) .

وكان المنظر عند إلقاء النحاس هذه الخطبة فريدًا رائعًا ، إذ بدت السفينة كالقلعة العائمة يحيط بها جماهير الشعب التى زخر بها الشاطئ وامتلأت بها القنطرة ، كما أحاطت بها الزوارق من كل جانب . وكانت الجماهير تنصت فى انتباه تام إلى الكلمات التى عليها تلقى عليها ثم لا تلبث أن تنفجر غاضبة عندما تسمع دعاوى الإدارة أن سوهاج راغبة عن استقبال سعد فتزمجر مُعلنة سخطها واستنكارها ، ثم تعود وتنصت فى صمت وخشوع إلى ما يلقى عليها ثم لا تلبث أن تنفجر مرة أخرى وهكذا . . . حتى أضحى الموقف رهيبًا يهز المشاعر . ثم تلا النحاس بك رد سعد باشا على المدير ونصه :

سوهاج فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢١

حضرة صاحب العزة مدير جرجا

ردًا لخطاب عزتكم الذى تخبروننى فيه بأنكم أعددتم الأوامر للبوليس بمنع نزول أحد من الوابور لأنه إذا نزلنا تحصل حتماً حوادث ، نخبركم بأننا علمنا ممن رأيناهم من حضرات أعضاء لجنة الاحتفال وتأكدّت من غيرهم بأن نزولنا لا يمكن أن يترتب عليه أى حادث إذا لم تتدخل الإدارة فيه ، وأن هذه الحوادث إنما تدبّر بواسطتها منعًا لنزولنا وقد أيّد هذا تأكيدكم بحصولها حتما إذا نزلنا .

وما رأينا من مظاهر الترحيب والإجلال فى جميع البلاد التى مررنا بها من مصر إلى هنا يدل دلالة قاطعة على أن الأهالى لا يضمرون لنا سوءًا ، بل بالعكس ، هم مُجمعون على شدّة الميل إلينا وليس شىء أحبّ إلى قلوبهم من الاجتماع بنا . وحوالينا الآن ونحن نكتب هذه السطور وفى البر والبحر جموع حاشدة من جميع الطبقات أتت من كل الأنحاء لتحيّتنا والهتاف للاستقلال ولوكيل الأمة ولتدعونا للنزول بالمدينة ، ولكنها حيال القوّة التى أمرتموها بمنعنا ، وما علمنا من تحرّش الإدارة بنا وبذل كل مجهود لإحداث الشغب عند نزولنا ، رأينا أن نفوّت عليها قصدها ونكتفى بالتحّيات القلبية الصادقة التى وجهتها بلاد المديرية لنا عند مرورنا والتى قابلتنا به هذه المدينة عند وقوفنا بمرساها الهادئ .

« سعد زغلول »

وبعد أن انتهى النحاس بك من تلاوة الكلمة ، وقف الرئيس فنادى بحياة سوهاج ومديرية جرجا ومديرية أسيوط . فردّد الشعب هذا الهتاف بقوة .

ثم استأنفت الباخرة فسارت هذه الجموع الهائلة فى محاذاتنا تملأ الشارع إلى مسافة طويلة حتى لم يعد فى استطاعتهم متابعة الطريق ، وبهذا فشلت الإدارة فشلاً تامًا ، ولم يكن فى استطاعتها إلا أن تفشل لأنه إذا كانت التدابير الوزارية قد نجحت فى أسيوط باستعمال الخديعة والكذب ، فإن درس أسيوط قد علّم أهل سوهاج فلم يكن من السهل أخذهم على غرّة .

فشلوا . ولابد أن يكونوا قد عضّوا أصابع الغيظ من تحقيق غرض زعيم البلاد من رحلته وهو بيان أن مصر بأسرها مجمعة الإجماع كله على المطالبة بالاستقلال كاملاً ، ومُجمعة على

الثقة بخدّامها المخلصين سعد وصحبه . أولئك الذين آمنوا بحق مصر وأخلصوا النيّة فى عملهم وقد ثابروا على جهادهم وعليه يثابرون .

فشلوا لأن مديرية جرجا أشرفت بروحها العالية على سوهاج فبدّدت أوهام السقّاكين الذين لم يجدوا لهم ملجأ ولا معينًا من كرام الأعيان والكبراء . فشلوا بظهور الحق وانخذلوا بخذلان الباطل .

* * *

هذا وصف ما حدث فى سوهاج . ومنه يتضح مبلغ القهر الذى لجأ إليه رجال الإدارة ، بوحى من الوزارة ، لمنع الشعب من الحفاوة بزعيمه وأصحابه أينما ذهبوا وحيثما حلّوا ، كما يتضح مبلغ تعلّق الأمة بسعد باشا وتفانيها فى التمسك بالمبادئ التى يدعو إليها .

وقد بارحت السفينة سوهاج ، وهذه المدينة مشتعلة بنار الحماسة الطاهرة وكلها قلب واحد ينبض بحب الوطن ، وكل أهله ساخطون على أعمال الادارة .

وواصلت الباخرة سيرها إلى بلدة « بلصفورة » ، وهى بلدة عائلة « حمادى » الكبيرة ومسقط رأس صديقى المرحوم الشيخ على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » وشيخ السادة الوفائية فيما بعد ، وكانت له الحظوة الكبيرة لدى الخديو « عباس حلمى » حتى بلغ من النفوذ مبلغًا لم يكد يصل إليه أحد من قبل ، إذ كان محل استشارة الخديو ورجال السياسة ، كما كان لورد كرومر المعتمد البريطانى يهتم كثيرًا بمقالاته . وقد توفّى إلى رحمة الله فى سنة ١٩١٣ . ومن الوقائع البارزة فى تاريخه زواجه سرًّا بكريمة السيد عبد الخالق السادات واعتراض والدها على هذا الزواج ورفعه قضية للتفريق بين الزوجين « لعدم الكفاءة » . وقد استغل خصوم الشيخ على يوسف من رجال الحزب الوطنى والصحفيين هذه الفرصة للتشهير به ومحالة النيل منه بدعوى أنه من عائلة غير رفيعة (٥) .

ولمّا أشرفنا على « بلصفورة » خرج أهلها على بكرة أبيهم إلى شاطئ النيل لتحيّة سعد باشا وانتظموا عند الشاطئ بجوار بيت محمود بك همّام وأسرته ، ومعهم أعلامهم وبأيدى الكثيرين منهم سعف النخيل يلّوحون بها وهم يهتفون بحياة الرئيس والحرية والاستقلال . فضلاً عن أن كثيرين منهم استقلوا زوارق صغيرة وتابعوا الباخرة وأحاطوا بها بين الهتافات والتصفيق .

واجتازت الباخرة « بلصفورة » مارة « بأخميم » على الضفة الشرقية من النيل فرأى سعد

باشا من حفاوة أهلها ما رأى من حفاوة أهل بلصفورة . وكان رسوّ الباخرة عند آخر البلدة من الجهة القبلية ، وهناك إصطفّت جماهير الأهالى يحيّون سعد باشا ويرحّبون به وعقدوا وسط هذه الجموع حلقات أداروا فيها « التحطيب » وهو ضرب محبوب من المبارزة بالعصىّ عند أهل الصعيد ، فكان منظرًا بديعًا سرّ الرئيس . ثم خطب الشيخ مصطفى القاياتى فى الأهالى شاكرًا لهم حماستهم وحفاوتهم مستحثًا غيرتهم الوطنية معتزًا بتجاوبهم مع الحركة القومية .

وسارت الباخرة بعد ذلك مجتازة « المنشاة » ونجعها ، بين هتافات الجماهير التى احتشدت على طول الشاطئ حتى وصلت إلى « العسيرات » حيث رست للمبيت .

وكان قد حضر إلى سوهاج قبل مبارحتنا إياها وفد من عائلة « فوّاز» المشهورة فى العسيرات وكان حضورهم ليلاً عن طريق النيل مدجّجين بالسلاح وعلى رأس الجميع المرحوم الشيخ أحمد فواز والأستاذ الشيخ إسماعيل فواز (العضو فى مجلس الشيوخ فيما بعد) فانضموا إلى الركب ووصلوا معنا إلى بلدتهم المذكورة .

وبتنا بجوار منزل مصطفى أبو رحاب باشا المعروف بانتمائه إلى الحكومة ، وهو شقيق إبراهيم باشا أبو رحاب ـ عضو « لجنة الدستور » فيما بعد ـ فاستقبلنا هناك لدى وصولنا جمّ غفير من الأهالى وعلى رأسهم عائلة « فوّاز » وهم أبناء عمومة أسرة « أبو رحاب » وكانوا مختلفين معهم فى منحاهم الوطنى ، وقد كثرت جموعهم الهاتفة وغنّوا ورقصوا رقصات بدوية جميلة ولعبوا بالعصىّ ، ثم انصرفوا فى نحو منتصف الليل هاتفين للاستقلال ولسعد باشا وأصحابه المخلصين ، ولابن مديريتهم (فخرى) .

ولم يكد الصبح يتنفس حتى أقبل منهم من كانوا موجودين فى المساء من سائر بلاد العسيرات واصطفوا بنظام فطرى بلا مزاحمة ولا مضايقة منتظرين رؤية الرئيس وكانت حماستهم بليغة فى الإعراب عن تأييدهم للوفد ورئيسه . ولم يشذ عن إجماع البلدة على هذا الشعور إلا أسرة مصطفى أبو رحاب باشا .

وقد حيّاهم سعد باشا وألقى كلمة قال فيها :

« أقدم لكم عن زملائى وعنى غاية الشكر على هذا الاحتفاء الباهر الذى قمتم به نحونا ، وقد قضّينا هذه الليلة عندكم فى سرور وحبور ، ونستودعكم الله ونرجوه سبحانه وتعالى أن يكلّل مساعينا ومساعيكم بالنجاح ، وسنواصل سعينا إن شاء الله حتى نحصل على الاستقلال التام .

« وكما أنى متشكر لكم فإنى متشكر أيضًا لجميع سكّان مديريرة جرجا لأن الحفاوة التى قابلونا بها فى كل مكان ، من أعظم الحفاوات ورغم تعصّب الادارة وتصديها للناس فى إظهار شعورهم ، وبذلها جميع الجهود لمنعنا من النزول فقد احتفى بنا أهل هذه المديرية احتفاء شهد بأصالتهم وكرمهم وامتلاء قلوبهم بالشعور الصادق بالوطنية الحقّة ولذلك نبرحها وقلوبنا مملوءة فرحًا وعطفًا . شكرًا لسكانها وجميع القاطنين فيها » .

وأعقب الرئيس ، الأستاذ أمين عز العرب (السكرتير العام لمجلس الشيوخ فيما بعد) ثم الدكتور محجوب ثابت الذى ألقى بأسلوبه اللطيف المعروف كلمة أثارت الحماسة فى نفوس الأهالى ، وكانت عباراته جزلة وإلقاؤه طريفا ونكاته مستحبّة ترتاح إليها النفوس ، وكان رحمه الله معروفًا بمجالسه المرحة يفيض فيها بالحديث عن ذكرياته وآرائه فى رجال السياسة فى مصر ورحلاته فى السودان والبلقان أيام الحرب بين تركيا وبلغاريا واليونان . وكان سعد باشا يرتاح كثيرًا لمجالسته ويستدعيه لصحبته فى كثير من أسفاره وانتقالاته . كان أحد أطبائه الذين رافقوه فى رحلته الأخيرة فى « بساتين بركات » و « مسجد وصيف » قبيل وفاته بأيام فى أغسطس سنة ١٩٢٧ .

وبعد أن تركنا « العسيرات » واصلت الباخرة سيرها قاصدة إلى « جرجا » ، بلدتى ومسقط رأسى التى شرّفتنى بالنيابة عنها فى مجلس النوّاب فى جميع الانتخابات الحرّة ، فوصلنا بعد قليل إلى ساحل بلدة « أولاد الشيخ » وكان فى انتظارنا لتحية سعد باشا وصحبه أهالى هذه المنطقة رجالهم ونساؤهم وأطفالهم . وكانت النساء فى صفوف منتظمة منعزلة وكان الأهالى يحملون أعلامهم ومعهم طبولهم وزمورهم وموسيقاهم وعلى رأسهم عمدتهم ، فما أن شاهدوا الباخرة تمخر النهر حتى ارتجّت أجواز الفضاء بهتافهم وتصفيقهم فمررنا بهم ، شاكرين لهم هذا الشعور .

ومررنا بعد ذلك على إخوانهم فى ناحيتى « البياضى » « والقرية » فاستقبلونا بمثل ما استقبلنا به الأولون حفاوة وإكرامًا وشعورًا وطنيًا .

وفى منتصف الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢١ وصلتْ الباخرة إلى جرجا فلقينا فيها من الحوادث والأحداث ما نفصّله فيما يلى :

* * *

كنت قد علمتُ وأنا فى سوهاج قبل أن تغادرها الباخرة للسفر إلى جرجا ، أن النيّة



البوليس يمنع المتظاهرين من الوصول إلى منزل صاحب المذكرات بجرجا

مبيتة من رجال الإدارة على الهجوم على منزلى وإشعال النار فيه حتى تقع فتنة فى المدينة يفسد معها الاستقبال كما أشرت إلى ذلك فيما تقدّم . فبينما نحن فى الباخرة بعد أن برحنا سوهاج بقليل إذا بساعى التلغراف يركب زورقًا ويلحق الباخرة ويسلّمنى تلغرافا ، فلّما فضضته وجدته من الأستاذ الشيخ أبى الوفا الشرقاوى ، ويؤخذ من التلغراف أن فضيلته موجود فى منزلى بجرجا لانتظارنا به ، وقد دهشت لذلك لأنه ليس من عادته الخروج من مركزه « بنجع حمّادى » إلا فى الهام من الشؤون . ولكنّى علمت بعد ذلك أنه لما وصل إلى علمه ما بيتته الإدارة بليل من الاعتداء على منزلى وعلى سعد باشا ، غادر بلدته « بنجع حمادى » فجأة ومعه خادمه وحضر إلى جرجا وتوجّه توًّا إلى منزلى . وكانت الإدارة قد أوصدت أبوابه وسدّت جميع المنافذ المؤدية إليه . فلّما شاهد ذلك أمر بفتح الأبواب ودخل المنزل وبقى فيه . فلّما ترامى إلى الأهالى نبأ قدومه المفاجئ على هذه الصورة ، ثارت حميّتهم بعد أن كانوا قد استكانوا خوف بطش الإدارة بهم وأسرعوا للقائه والترحيب بمقدمه فامتلأ البيت بهم بحيث لم يبق مكان خال وباتوا فيه للصباح . وقد بالغوا فى الحفاوة به لمكانته السامية فى قلوبهم .

ولمّا وصلت الباخرة « نوبيا » إلى جرجا ، وكنت قد أعددت مرسى أمام منزلى المطلّ على النيل كما قلت فيما تقدم ، لترسو عنده الباخرة وينزل عليه سعد باشا إلى المدينة ، أبت الإدارة إلا أن تهدم هذا المرسى حتى لا ينزل سعد باشا فى جرجا ، ولكنّا وجدنا جموعًا هائلة على بعد نحو مائة وخمسين مترًا من المنزل ، وقد منعتهم قوة البوليس من الدنّو منه .

وأذكر أنه قبل وصولنا إلى حدود مدينة جرجا سُمعت طلقات نارية تصوّب نحو الباخرة ، وعرفت بعد ذلك أن حكمدار بوليس المديرية هو الذى أمر بإطلاقها .

وقد رأينا فى طريقنا جماعة من أهالى بلدة « الخلافية » ومعهم عمدتهم الشيخ عبد العال الجبالى ، وبأيديهم العصىّ والمدير يرعاهم والحكمدار ورجال الإدارة وقد أحضروهم ليهتفوا ضد سعد باشا ، فلم تكد الباخرة ترسو وعلى سطحها الرئيس سعد بقامته المديدة وطلعته المهيبة يحفّ به أصحابه من كل جانب ، والأعلام المصرية تخفق فوق رءوسهم ، حتى أُخذوا بهذا المنظر الرائع . وانطلقت حناجرهم تهتف بعكس ما كانوا قد سيقوا من أجله ، فبدلاً من أن يهتفوا للوزارة ولعدلى هتفوا للاستقلال ولسعد . ! وهكذا التوى الأمر على رجال الإدارة وانطلقت الألسنة بما تفيض به القلوب دون غشّ أو خداع .

ولمّا قربنا بالباخرة من منزلى وجدنا هذه الجموع الهائلة ورأيت بينهم الأستاذ الشيخ

أبو الوفا الشرقاوى فنبّهت سعد باشا إليه فقال : يظهر لى إنه صغير السن . فقلت نعم ولكنه كبير المقام واسع العقل وهو يمثل رجال الدين المتنوّرين المثقفين ، فلمّا رست الباخرة أقبلت جماعة من عائلتى « فواز » و « أبو ستيت » وحملوا الشيخ على أكتافهم وخاضوا به فى اليّم حتى وصلوا إلى الباخرة فصعد إليها وتقدم منه سعد باشا وعانقه وأراد تقبيل يده تكريمًا لمركزه الدينى الكبير إلا أنه أبى وامتنع .

ثم نزل إلى الباخرة أيضًا صاحب النيافة الأنبا « يوساب » مطران جرجا ، وكان معروفًا بالورع والتقوى وطيبة القلب وحسن السيرة ، وقد أقيم بعد وفاة البطريرك الأنبا يؤنس سنة ١٩٤٢ مقام البطريرك باجماع آراء أعضاء المجمع المقدس والمجلس الملى .

وكان الأنبا يوساب يمثل التدّين النيّر واسع الأفق . كما كان يتحدث باللغتين الفرنسية واليونانية بطلاقة وقد تلقى اللاهوت فى أثينا بدير « رازريوس » باليونان ثم تولّى خلال الحرب العظمى منصب رئيس دير الأقباط بمدينة يافا بفلسطين ، وأدّى خدمات جليلة للمصريين الذين حجزتهم الحرب هناك .

ووقف سعد على ظهر الباخرة يحيى الجماهير بمنديله الأبيض وابتسامته المشرقة ، وإلى جانبيه الشيخ أبو الوفا ، والأنبا يوساب ، وحولهم أصحاب سعد .

فكان هذا المنظر الرائع عنوانًا لحركتنا القومية . الوطن مُمثّلا فى سعد يجمع بين عنصرى الأمة ، ممتزجين ومتحدين فى « أبو الوفا » « ويوساب » .

وعندما أشرفت الباخرة على جرجا شاهدنا سيارة تخترق صفوف الأهالى والبوليس يفسح لها الطريق إلى أن وقفت أمام المرسى وكانت تحمل موظفًا إنجليزيًا وضابطًا مصريًا من رجال البوليس حاملاً ظرفًا بعنوان الرئيس وكان به كتاب من مدير جرجا . وهذا نصه :

حضرة صاحب المعالى سعد زغلول باشا

أتشرف بأن أخبر معاليكم بأن حالة الأمن هنا لا تسمح بنزولكم بجرجا ، وقد وصلنا أمس تلغراف من أهالى المديرية يلقى علينا مسئولية نزولكم إلى البر وينذرون بأنهم سيمنعون هذه الزيارة بالقوّة إن لم تتدخل الحكومة فى منعها .

فتلقاء حالة الهياج الموجود الآن ومنعًا لما يخل بالأمن ، أرجوكم العدول عن هذه الزيارة ، وقد أعطيت الأوامر للبوليس لمنع نزول أحد من الوابور ، إذا صممّتم معاليكم على النزول بجرجا .

تفضلوا بقبول احترامنا

مدير جرجا

« عبدالعزيز يحيى »

وهكذا كّرر عمال الإدارة فى جرجا طريقة العمل السمجة القائمة على النفاق الظاهر الذى لا تخفى حقيقته على أبسط الناس ، وهى التى اتخذوها وسيلة للحيلولة بين الرئيس والشعب فى كل مكان . يدعون بعض المتخاذلين من الحريصين على الحظوة عند الحكومة اسجلابا لنفع ودفعًا لضرر ، ويعزون إليهم أن يطلبوا منع سعد من النزول لزيارة الإقليم ، كأن هذا الإقليم ضيعة ورثوها عن آبائهم ، وكأن الشعب الذى يقيم فيه لا حق له فى تحية زعيمه وضيافته .

وسرعان ما تستجيب الإدارة لهذا الطلب وهى الموحية به الداعية إليه فتتخذه ستارًا لخزيها .

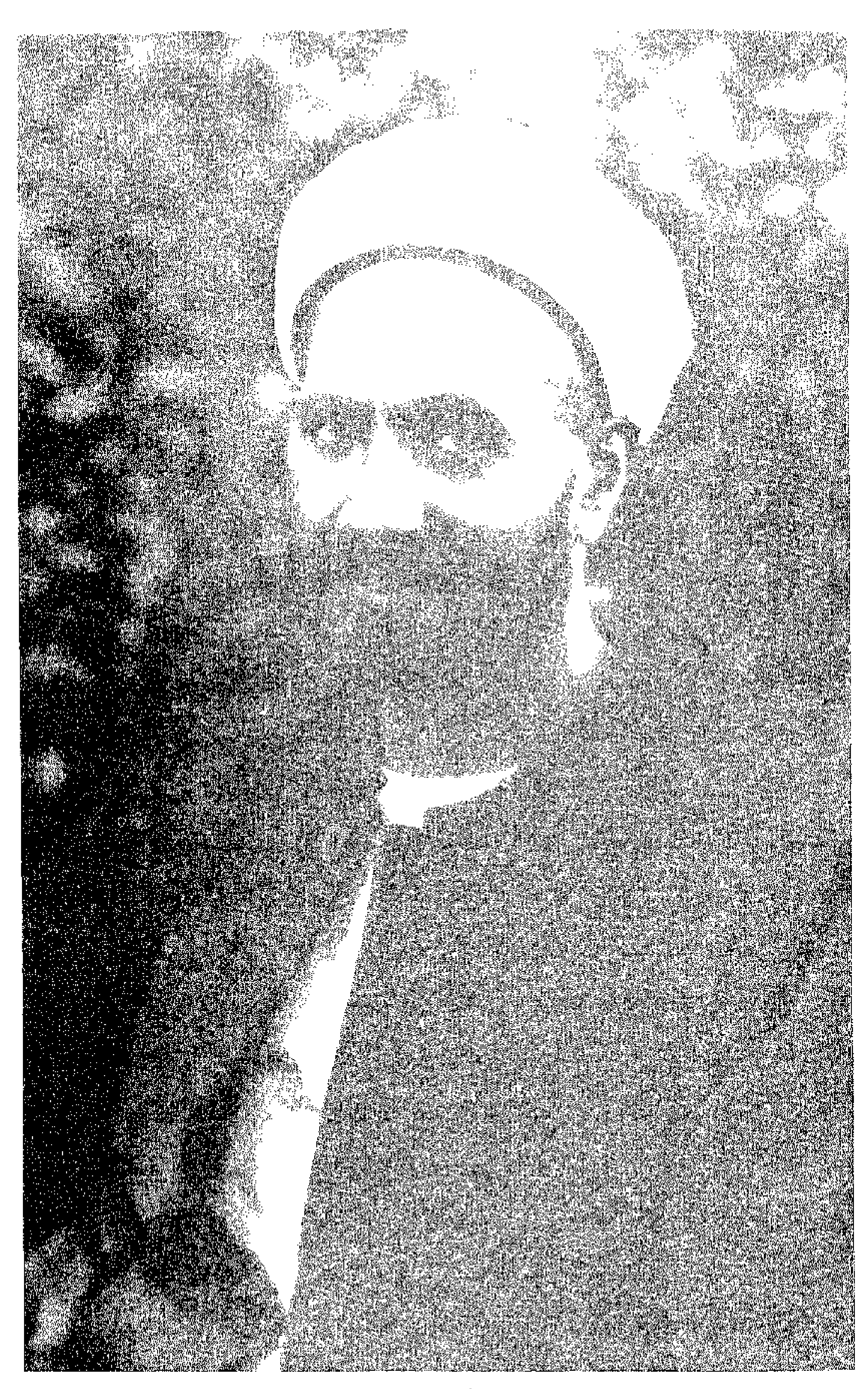
وذهب المفتش الإنجليزى إلى مرسى الباخرة ليبلّغ سعد « الإدارة تخشى أن يختل الأمن من جرّاء نزوله » .

فيا للسخافة والسماجة . أو يظنون أنهم إذ يخدعون أنفسهم يستطيعون أن يخدعوا الأمة بدعواهم أن الجماهير تمقت زعيمها ولا تطيق أن تراه ولا تقبل أن تطأ قدماه أرض إقليمها . ولو كان فى دعواهم ذرّة من الصدق لما حشدوا المجرمين للتحرّش بالآلاف المؤلفة من أبناء الشعب الوادعين المسالمين ، بغية إثارة الفتنة بين الناس ثم إلقاء مسئوليتها على الرئيس وصحبه .

ولمّا انتشرت الإشاعة بين جماهير المحتشدين بأنه مُنع من النزول إلى الشاطئ ، سرت موجة من السخط والاستنكار بينها وتصاعدت الأصوات فى الفضاء مخاطبة سعدًا المدير كذّاب . . . ياباشا » فكان موقفًا مؤثرًا للغاية . وكان يتنازعه فى هذه اللحظة الرهيبة عاملان ، الأول أن يستجيب لرغبة الشعب فينزل إليه نزول الظافرين ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، والثانى الإشفاق من أن تتخذ الإدارة من نزوله ذريعة لإراقة الدماء و إزهاق الأرواح تنفيذًا لخطتّها فى التنكيل والاعتداء .

ولو أن زعامة سعد كانت زعامة أنانية ، لتغلّب عليه العامل الأول ، ولكنّها كانت زعامة أبوية رحيمة مستمدة من شعور محبته للشعب والحرص على سلامته ولذلك لم نستغربه حينما قررّ الاكتفاء بما شاهد من مظاهر التكريم والحفاوة مفوتًا على الإدارة قصدها، حاقنًا بذلك الدماء[٦] .

واستمرت الجماهير محتشدة وعددها فى ازدياد فملأت الفراغ الواقع ما بين حائط المبانى



الشيخ أبو الوفا الشرقاوى

القائمة على الشارع وبين الشاطئ وهو يمتد إلى مئات الأمتار ، وتعالى هتافها للحرية والاستقلال ولزعيم مصر ورئيس وفدها ، فلم يسع سعد باشا إلا أن يطلّ على هذه الألوف المؤلفة ليشكر لها هذه التحية وهذه الحماسة ، فما بدأ القول حتى تدّفق فيه كالبحر الزاخر واسترسل فى عبابه قائلاً :

« أقدم » لحضراتكم بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن زملائى وإخوانى وافر الشكر على هذه الحفاوة العظيمة ، على هذا الترحيب الباهر الذى أعتبره علامة على شدّة إخلاصكم لقضيتنا العادلة .

إنى مملوء إعجابًا بمديريتكم وبما لاقيته من الحفاوة فيها من يوم أن دخلتُ بها إلى أن اجتليت مرآكم وتشرفت بلقياكم .

إنى مملوء سرورًا خصوصًا وقد ساعدنى الحظ بلقاء شيخنا الجليل السيد أبى الوفا ، هذا الأستاذ الذى له فى فؤادى منزلة من الفضل سامية ، وكنت أودّ أن أنزل بمدينتكم وأزور صديقنا « الوطنى الغيور » فخرى بك عبد النور ولكن مديركم كتب إلىّ الآن يقول إنكم غير راضين عن نزولى عندكم (أصوات كالرعد بتكذيب هذا) وأن المدينة فى هياج شديد جدًا (تكذيب من المجتمعين) وأنه حفظًا للأمن العام أمر البوليس بمنع نزول أحد من الوابور إلى البر ، وأنا أعلم كما تعلمون أن هذه الأسباب غير حقيقية . كما أنى متأكد كل التأكيد أن قلوبكم مملوءة بالإخلاص لقضيتكم وبالميل نحونا (هتاف شديد لسعد باشا وللاستقلال التام) وبأنه ليس أحبّ إلى قلوبكم من أن ترونا مجتمعين بكم (نعم . نعم) ولكنى معتقد أن الإدارة تريد بنا شرًا ، تريد إحداث فتنة ، وإنى غيرة على بلادى واتقاء للفتنة التى تحاول إحداثها ، رأيت أن لا أتشرف بهذا النزول مكتفيًا بتشرّفى بكم الآن (تصفيق شديد) .

إنى أعلم علمًا أكيدًا أن هذه التصرّفات تغضبكم وتجرح صدوركم . ولكنى لا أريد أن أستفيد من غضبكم ولا أريد أن تخرجوا عن حدودكم ، ونريد أن نكون دائمًا مع الحق وخصومنا دائمًا مع الباطل (تصفيق شديد) لأننا لا ندّعى بأن لنا قوة مادية ولكن الإدارة هى التى فى يدها القوة ، وعوضاً عن أن تستعملها فى استتباب الأمن ومنع السرقات واللصوص ، تستعملها ضدنا . عوضًا عن أن تستعمل البوليس فى المحافظة على الأمن عندكم ومنع الأشقياء من ارتكاب الشرور وتمكين الوطنيين من استعمال حقوقهم المقدسة ، تستعمله لإطفاء نيران الوطنية المتأججة فى صدوركم ، ولكن الله سبحانه وتعالى الذى أودع

هذا الشعور قلوبكم ، ونفخ فيكم هذه الروح السامية ، لا يريد أن يبلغهم أملاً (تصفيق حاد) ولهذا أنزل السكينة فى قلوبنا وأنزلها عليكم ، فلا تغضبوا ولا تهنوا ولا تحزنوا واعلموا أن الله معنا . . !

إننا سنسافر مودّعين لكم ووادعين لديكم ميلنا إليكم ، وشكرنا الجليل لأعمالكم ، داعين الله أن يوفّقنا جميعًا لرد كيد خصومنا فى نحرهم ، ولبوغنا الاستقلال التام (تصفيق حاد وهتاف شديد) .

وبعد أن انتهى سعد باشا من إلقاء هذه الكلمة ، وقف النحاس بك فتلا خطاب المدير ورد سعد باشا عليه .

وهذا هو نص الرد :

ردًا لخطابكم بتاريخ اليوم أخبركم بأنى تبيّنتُ أن الإدارة مصمّمة على أن لا تدعنى أنزل إلى البر . لا بناءً على الأسباب التى انتحلتموها وانتحلها غيركم ، لأنها غير حقيقية ولأن التلغرافات التى تستندون عليها هى كغيرها من صنع عمّال « الحماية » ، وليس بين أهالى المديرية عمومًا والموجودين فى مدينتنا خصوصًا من يعارض فى نزولنا بل كلهم يودّون من صميم قلوبهم الاجتماع بنا ، وأمامنا الآن آلاف مؤلفة منهم فى البر والبحر جاءت من كل مكان لتحيّتنا والهتاف للاستقلال ولمن اعتبروه رمز أمانيهم وهم مملوءون غيرة وحماسة وغضبًا من تصرّفاتكم ، وأقل مقاومة تحصل تنفيذًا لأمركم يترتب عليها فتنة لا يعلم إلا الله مقدار ما يحدث عنها من العواقب الوخيمة . وإنما أردت بعدم النزول تفويت قصد الإدارة السيئ عليها واتقاء الفتنة التى تحدث منكم أنتم لا من الأهالى عند نزولنا ، خصوصًا وقد بلغنى الآن أنكم كامنون وراء المجتمعين من الأنفار لإحداث الشغب عند نزولنا وسنسافر مكتفين بمظاهر الترحيب التى اجتليناها ، وبالتحّيات القلبية التى تقبلناها ، من المحتفلين بلقائنا ، ومملوئين شكرًا من أهالى هذه المديرية الذين أظهروا من شعور الوطنية أعلاه ، رغم معارضة الإدارة لهم .

الباخرة نوبيابجرجا فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢١ .

« **سعد زغلول** »

وبينما النحاس بك يتلو هذا الرد ، رأينا عدّة من فرسان البوليس أتت من الجنوب تريد أن تخترق الجمع بقصد تشتيته . ولكن الجمع كان كبيرًا وكان متراصًا ، متلاصقة أفراده ،

وكان فى حدود النظام والقانون وكانت الأصوات تردد الحق ، فى تعليقها على الخطابين المتبادلين ، عند الفقرات التى تستوجب التعليق دون شغب أو ضجة .

وهنا صرخ النحاس بملء صوته قائلاً : « أرى الجنود يتحرشون بكم فاثبتوا فى أمكنتكم» فثبت الجمع .

والواقع أننا لم نفهم معنى لهذا التحرّش، ولم نفهم فائدته لرجال البوليس ، اللهم إلا إرادة الاعتداء . فإنه كان من المستحيل على رجال البوليس أن يجدوا لهم طريقًا إلا إذا تفرّق الجمع من الجهة الشمالية أو الجنوبية ، وقد فطنوا إلى هذه الصعوبة فبدأوا يفتحون الطريق باستعمال القوة : ولعل موقف الحكمة الذى وقفه سعد بعدم النزول لمنع الادارة من التحرش بالأهالى ساء رجالها وعلى رأسهم المدير الذى كان قد وعد وزير الداخلية بأنه سوف يشتبك بسعد وأصحابه فى معركة وأنهم لن يفلتوا من يده إلا مضرجين بالدماء ، وقد أثر عنه قوله « إذا كان سعد نفد من أسيوط فمش حينفد من إيدى فى جرجا » كما ساءهم أن تذهب المؤامرة التى دبّروها للفتك بسعد هباء ، ولعلّ المدير أراد أيضًا أن يتظاهر أمام أسياده من رجال الاستعمارر بالولاء لهم فعمد إلى إحداث اشتباك بين رجال الأمن والأهالى الآمنين وهو اشتباك لم يكن له من مقتضى ، بعد أن قرّر سعد عدم النزول إلى المدينة :

وبدأ هذا الاشتباك بأن اعتدى فرسان على الجماهير المحتشدة بعصيّهم وسنابك خيولهم . وكنّا نهدئ هؤلاء الجماهير ونناشدهم الركون إلى السكينة فكان الأهالى يكتفون بإلقاء التراب فى وجوه الفرسان ، فيرتدّ هؤلاء اتقاء لما يصيب عيونهم ، ولكن الإدارة زادت فى عدد الفرسان فهجموا على الجمهور بشكل عدائى ظاهر ، فقابلهم بالتراب فارتدّوا أمامه مرّة وثانية وثالثة ، وكظمت الجماهير غيظها ولكن لما زاد تحّرش البوليس اضطر الأهالى إلى رد اعتدائه عليهم فأخذوا أخشاب الزينة التى هُدمت واستعملوها فى الدفاع عن أنفسهم وضربوا الجنود فى أقفيتهم وهم يولّون الأدبار .

وفى هذه اللحظة تحركت الباخرة حتى تفوّت على عمال الوزارة قصدهم من اشتباك الأهالى مع البوليس فى معركة ، فأراد الأهالى أن يسيروا على الشاطئ لتحيّة سعد باشا حتى يغادر حدود جرجا ، ولكن البوليس الراكب حاول منعهم وعلى الرغم من أن قوة البوليس كانت كبيرة فإنها لم تستطع منع السيل المتدفق من الأهالى المتحمسين ، فارتدّ الجنود والخفراء والضباط مسرعين ، ثم عادوا واتّجهوا نحو الجمهور وأطلقوا الرصاص بوحشية وقسوة .

الشعب يخوض النيل للوصول إلى الباخرة

وكان الأستاذ الشيخ أبو الوفا الشرقاوى يطلّ على الجماهير والباخرة سائرة والرصاص ينهال عليهم وهو يقول « يا حفيظ . يا حفيظ » . !

وقد تجاوز عدد الطلقات النارية التى أطلقها البوليس على الأهالى المئات ، وأصيب مئات من الأهالى من غدر هذا الرصاص الفاجر . . . واشتدّت زمجرة الجماهير وخرج الفلاحون بعصيّهم وفئوسهم كما خرج أبناء المدينة مُسلّحين بالأخشاب التى اقتلعوها من الزينات ، وواجهوا القوة الغاشمة بما أتيح لهم من وسائل الدفاع عن النفس . كانوا يقابلون الرصاص بصدورهم لا يولّون الأدبار فى استبسال وشجاعة نادرين ، وقد اظهروا جميعًا من الثبات ما أثار إعجاب الزعيم ، وأصحابه الواقفين على ظهر الباخرة .

حتى إن المغفور له السيد حسين القصبى كان يحييّهم ويهتف لهم بأعلى صوته إعجابًا بشجاعتهم ووقوفهم صفًا واحدًا مقابلين الرصاص بوجوههم مستحثًا إيّاهم على الثبات والصمود ، فى حين أنهم لم يكن معهم سلاح يتّقون به شرّ الاعتداء الواقع عليهم ، فكانوا ينبطحون على صدورهم فيمرّ الرصاص فوق رءوسهم .

وكان من لطف الله أن المئين الذين أصيبوا فى هذه المعركة من الأهالى لم يمت منهم أحد بل شُفوا جميعًا من جراحاتهم ، بالرغم من خطورة بعضها . حتى الذين أصيبوا فى رءوسهم عولجوا فى مستشفيات القاهرة بعد أن أرسلوا إليها ، فإنهم قد شفوا أيضًا ولله الحمد (٧) .

ومن طريف ما يروى أنه شاع بين الأهالى أن هذا كان من « بركات » (!) الشيخ أبو الوفا الشرقاوى ودعواته الصالحات أثناء المعركة .

وقد رأى مرافقو سعد أن يسجّلوا على الإدارة عسفها ووحشيتها ، فور وقوع هذه الحوادث الدامية فعكفنا على كتابة وصف شامل لها ، ردًّا على ما نشرته الإدارة من افتراءات بشأنها سجلّنا فيه :

« نحن ركابَ الباخرة نوبيا ، اطلعنا على تقارير المستر بنج المفتش الأول بالداخلية التى قدّمها إلى مستشارها ونُشرت فى الجرائد ، وكانت دهشتنا عظيمة من إيراده الوقائع مخالفة كل المخالفة لما رأيناه بأعيننا وسمعناه بآذاننا ، فإن امتناع معالى سعد باشا زغلول عن النزول أولاً إلى سوهاج لم يكن إلا مؤقتًا خلافًا لما توهمه عبارة المفتش المذكور كما هو ثابت فى تلغراف حضرة مصطفى بك النحاس سكرتير الوفد المصرى بتاريخ ١٦ أكتوبر للمدير ولمراقب الأمن العام .

وليس بصحيح أن أعضاء لجنة الاحتفال أقنعوا معاليه بعدم النزول فى سوهاج بل بالعكس ألحّوا عليه بالنزول فيها ولم يقنعوه إلا بحقيقة واحدة وهى أنه ليس من الأهالى من يعارض فى نزوله ، إنما المعارضة كل المعارضة آتية من جانب الإدارة ذاتها . ولمّا تأكد معاليه ممن حضروا إليه عدم أهمية من جمعتهم الإدارة من المتشرّدين والمشبوهين والخفراء بقصد معارضة نزوله ، بالنسبة لمجموع الأهالى ، وحكمة هؤلاء واقتدارهم على ضبط عواطفهم عند تحرّش الإدارة ورجالها بهم قرّر النزول بسوهاج عند الوصول إليها ولكن المدير أمر البوليس بمنع نزول أحد من الباخرة إلى المدينة وكتب بذلك إلى فلم ينزل أحد إليها ، فكيف سنح للمفتش أن يقول فى تقريره إن سعد باشا زغلول أمكنه أن يجمع الغوغاء ليخطب فيهم ؟ والحقيقة أن الجموع كانت حاشدة ومؤلّفة من جميع الطبقات عند وصول الباخرة إليها ، وقد تأكّدنا من جميع المصادر الموثوق بها أنه لم يكن بمدينة جرجا أو بمديريتها حزب معارض لصاحب المعالى سعد زغلول باشا سوى الإدارة وعمّالها ، وأن الإدارة حاولت جمع أشخاص من الأهالى غير المشبوهين ليعارضوا نزول معاليه ، ولكنها لم تُفلح فى سعيها .

وفى الحقيقة إن معاليه خطب فى مدينة جرجا على الجموع التى كانت حاشدة أمام الباخرة ، لا ضد الحكومة كما تزعم ، بل للحرية والاستقلال . وخطبته منشورة فى الجرائد. وقد هتفت له هذه الجموع المزدحمة هتافًا شديدًا كما هتف للحرية والاستقلال ، ولم يشذّ صوت واحد عن هذا الهتاف ولم يحصل شجار بين الأهالى مطلقًا بل كلهم كانوا صوتًا واحدًا متحرّكين بحركة واحدة ناطقين بكلمة واحدة ، والبوليس الذى كان يحيط بهم لمّا سمع هتافهم ولاحظ اتحادهم اقتحم بخيله جموعهم المتراصة المحصورة بين جدران المنازل من ناحية ومياه النيل من الناحية الأخرى وأعمل فيهم العصىّ والكرابيج فأثاروا التراب لإبعاده عنهم ، ولم يبد من أحد منا أقل إشارة بتحريض بل بالعكس كنا نحضّ الناس على السكينة والهدوء وعدم مقابلة الاعتداء بمثله وكانت الباخرة إذ ذاك تتحرّك للقيام فتبعتها الجماهير هم البوليس بإطلاق الرصاص عليهم واستمر يُمطرهم وابلا من الرصاص حتى غاب هذا المنظر المؤلم عن أبصارنا .

وليس بصحيح أن سعد باشا سمع أن أهالى جرجا لا يقابلونه بالترحيب ، بل الذى سمعه وسمعناه وتأكدناه ، أنهم لم يكونوا يقابلونه عند نزوله عندهم إلا بغاية السرور والإكرام ، فما أعلن أو كان له أن يعلن أنه لم يأت لزيارة جرجا ، بل لزيارة « فخرى بك عبد النور » كما جاء فى تقرير المفتش .

وغريب من مفتش الداخلية أن يقول إن بعض « العدليين » قال إن زغلول باشا لو نزل البر لقتلناه ، لأن هذا التهديد جناية يعاقب القانون عليها ولا يصح الاستناد عليه فى تدبير المنع لو كان صحيحًا . بل كان الواجب يقضى على قائله ومنعه من ارتكاب ما هدّد به ، ولا يمكن أن يتُصور أن واحدًا من الأهالى يقول ذلك للمكلّفين بحفظ الأمن إلا إذا كان يأنس منهم الرضا به أو التشجيع به . والحقيقة أنه لاشىء من ذلك ولو سُمح لزغلول باشا بالنزول إلى سوهاج وجرجا لكانت الأفراح عامة فى المدينتين كما تأكدناه من جميع الذين قابلناهم من سكّانهما ومن أهالى المديرية ، علمائها وقسسها ، ونوّابها وعظمائها وأعيانها وتجّارها ، كما تبينّاه من تسابق الأهالى عند قدومنا وعند رسّونا وعند رحيلنا ، إلى تحيّات معاليه والهتاف له ومما أكدوه لنا من الحزن الشديد الذى استولى عليهم بسبب منعه ، والسخط الذى قام بنفوسهم من تعرّض الإدارة له .

ويظهر من مطالعة هذه التقارير الثلاثة من إيراد الوقائع على غير حقيقتها ، كما بيّناه . وتأكيد المفتش فى آخر كل تقرير منها ، أن سعد باشا كان لابد أن يُقتل إذا نزل بسوهاج أو جرجا ، إن الغرض من هذه التقارير تبرير عمل الإدارة فى منع معاليه وتبرير الإجراءات الجنائية التى أفضت إلى إسالة الدماء وإزهاق الأرواح وتكدير الراحة العامة ، ولكن الحق أوضح من أن يخفى .

وقد وقّع على هذا الوصف : أحمد يحيى باشا . فتح الله بركات باشا . محمد صدقى باشا . السيد حسين القصبى . الشيخ مصطفى القاياتى . واصف بك غالى . سينوت بك حنا . مصطفى بك النحاس . فخرى بك عبد النور . الأستاذ محمد نجيب الغرابلى . الأستاذ عبد الحليم البيلى محمد فرحات . الدكتور محجوب ثابت . الدكتور رياض فانوس . طاهر بك اللوزى . أحمد بك فواز . المستر فرنك ريد .

وعن حوادث مدينة جرجا فقط ، الشيخ أبو الوفا الشرقاوى .

* * *

وكان إدارة المطبوعات قد نشرت بإيعاز من الوزارة بلاغًا رسميًا مخالفًا للحقيقة عن حوادث جرجا ، فرأيت أنا وأحمد على أبو ستيت بك وأحمد محمد فواز بك أن ننشر بيانًا نردّ به على هذا البلاغ ونوضّح فيه الحقيقة فى هذه الحوادث ، باعتبارنا ممثّلى هذا الإقليم .



البوليس يعتدى على المستقبلين بوحشية بالغة

وقد نشرنا هذا البيان فعلاً ووقّعناه بأسمائنا بالنيابة عن لجنة الاحتفال كشهود عيان ، وجعلناه بعنوان « إيضاح عن حوادث جرجا » وقلنا فيه :

قرأنا مع الدهشة فى جرائد الأربعاء بلاغًا من إدارة المطبوعات جاء فيه .

أن بعض أعضاء لجنة الاستقبال طلبوا من المدير الترخيص لهم بمقابلة سعد باشا فى الباخرة ليشيروا عليه بالعدول عن النزول إلى المدينة هو والمرافقون له ، ولمّا أذاع المدير خبر هذا العدول تفرّقت الجموع من الفريقين .

والحقيقة فى هذا أن أعضاء لجنة الاستقبال لم يكن محجوراً عليهم الانتقال ومقابلة سعد باشا فى أى مكان حتى يطلبوا الترخيص لهم من المدير بمقابلته ، وأن اللجنة لم تقرر ولم ترسل من قبلها أحدًا من أعضائها مع المدير أو ليرخص له فى مقابلة سعد باشا للغرض الذى ذكر فى البلاغ . أما السبب فى أن وفدا مكونًا من حضرات فخرى بك عبد النور وأحمد محمد بك فواز وحسن بك العارف ونجيب أفندى ساويرس ومحمد أفندى الشويخ وعبد العزيز أفندى عزت مصطفى قد ذهب لمقابلة سعد باشا بالباخرة فى « شندويل » ، فهو أنهم أرادوا أن يبلغوا معاليه ما تركته مقابلة اللجنة للمفتش المستر « جنت » بحضور المدير ومراقب الأمن العام من الأثر فى نفوسهم ، وهو أن الإدارة هى المصممة على منع سعد باشا من النزول وأنه لا يوجد فى مديرية جرجا معارضون من أهلها يخشى من معارضتهم على الأمن لأن الاثنين اللذين استحضرهما المدير وهما أحمد مصطفى أبو رحاب وهارون همام بك ليدلّل بهما على وجود المعارضة ، نفيا أمامه عن أنفسهما إشاعة أنهما يرغبان فى معارضة النزول بالقوة ، وليبلّغوه ما اتصل بهم من التدابير الشائنة التى دبّرت فى الخفاء .

والدليل على أنه لا وجود للمعارضين أن مدينة سوهاج لدى استقبال الرئيس يوم الاثنين كانت حاشدة بالآلاف المؤلفة ولم يكن بها ما يكدّر الصفو سوى تدخل البوليس .

فنحن بكل إباء وترفع ننفى بتاتًا أننا قلبنا الاقتراح الذى كان اقترحه « مستر جنت » بعدم نزول سعد باشا ، بعد أن أقمنا الحجّة على المدير من أقوال من استحضرهم ليقرروا أنهم معارضون وبعد أن قرر أعضاء اللجنة أن الإدارة وحدها هى المعارضة . وأما أن الخفراء أرسلوا من جهات مختلفة فى زىّ الأهالى وأن أنفارًا أُرسلت تحت حراسة العساكر فى مراكب إلى سوهاج ، فقد رآه بعض من نثق بهم .

لهذا ، ولمّا كنا أقرب لمعرفة الحقيقة وأشد تمسّكًا من الذى وضع التقارير التى استقت منها وزارة الداخلية معلوماتها ، قرّرنا أن ننشر ما تقدّم خدمة للمصلحة العامة وذودًا عن كرامتنا » .

هوامش الفصل الثالث عشر

(١) تقول التقارير البريطانية أن الأمر بدأ بهدم الزينات فى ديروط 407/191 Inc. in No. 26.

(٢) يشير التقرير السرى عن الحادثة انه عندما اقتربت الباخرة من الشاطئ عند اسيوط اندفع نحو مائتين من انصار عدلى إلى السرادق والزينات المقامة فهدموها على المشاهدين الذين كانوا بداخلها مما ادى إلى سقوط بعض هؤلاء فى النهر . وبدأت المعركة بين الطرفين التى اطلقت فيها الطبنجات وتدخل الخفراء الذين اطلقوا النيران بدورهم مما أدى إلى اصابة ٢١ توفى منهم أربعة فيما بعد وجرح ثلاثة من الخفراء ودمرت السيارة التى كان من المفروض أن يستقلها زغلول F. o. 407/ 191 Ibid .

(٣) يروى التقرير البريطانى عن الحادثة سببا مختلفا لعدم نزول سعد إلى اسيوط ، فيقول انه كان مصمماً على النزول رغم الاحداث ، ورغم تحذير مراقب الأمن العام له بعدم النزول ، مما دفع بالأخير ان يدفع إليه بقرار المنع مكتوبًا وان يضع الحرس على مدخل الباخرة لمنعه من النزول .F.o. 407/ 1919 Ibid

(٤) النبابيت جمع نبوت وهو العصا الغليظة .

(٥)ادت هذه القضية المشهورة فى التاريخ باسم « قضية الزوجية » إلى قطيعة بين مصطفى كامل والخديو عباس الثانى استمرت لنحو عام .

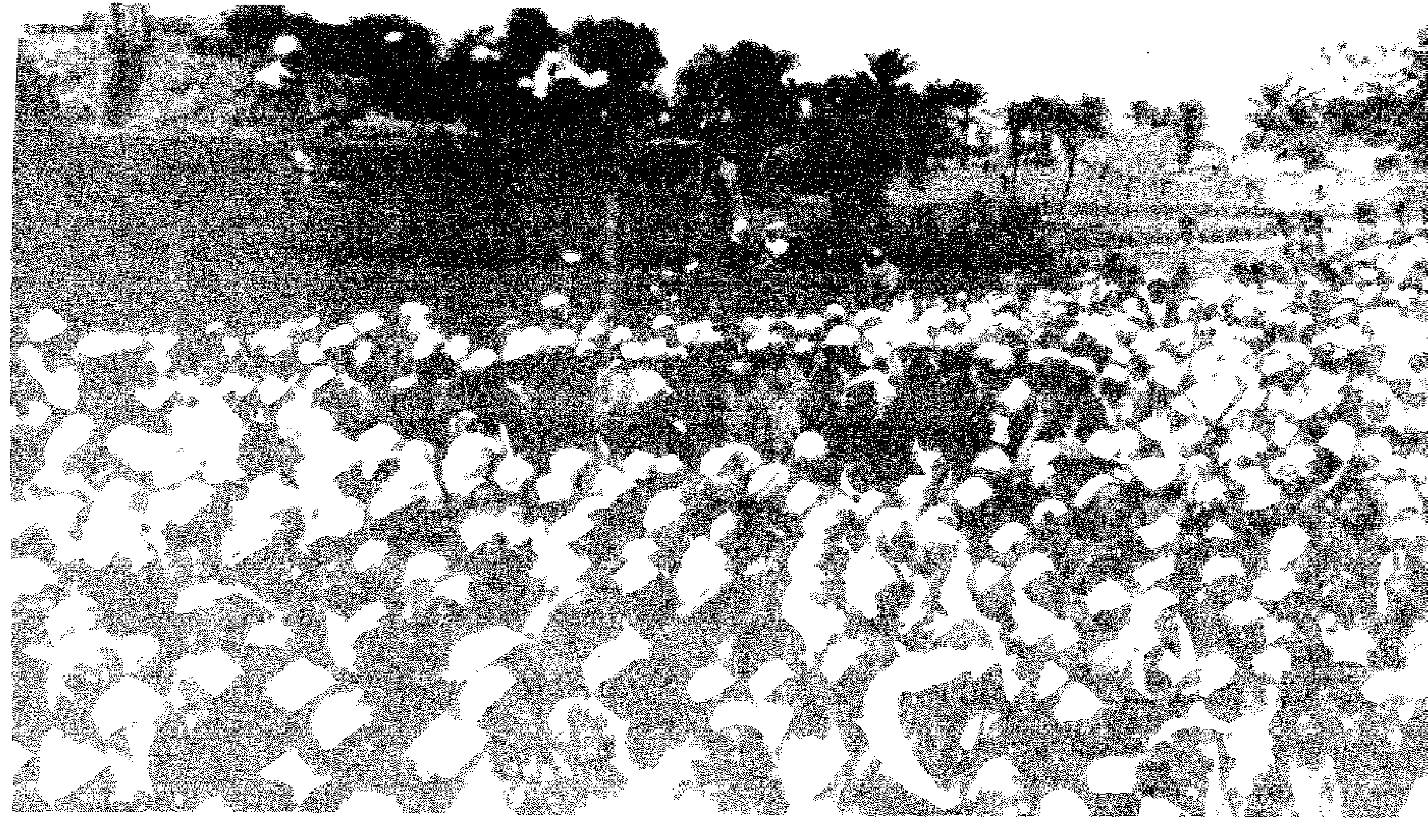
(٦) فى الجانب الخاص بزيارة سعد لجرجا جاء فى التقرير البريطانى : « استمرت الباخرة فى تقدمها جنوبا عصر يوم الاثنين حيث تجمع مؤيدو سعد على الشاطئ وكانوا يهتفون له بحماس . وقد توقفت الباخرة من الليل على بعد خمسة أميال شمال جرجا التى وصلتها عصر اليوم التالى .

« وكان زغلول قد خطط لحضور مأدبة غذاء أعدها فخرى عبد النور نصيره الرئيسى فى المنطقة . وقد ابلغ مدير المديرية سعد زغلول ان نزوله إلى البر سوف يهدد الأمن العام الأمر الذى يرى المدير انه مسئول عنه الأمر الذى قبل زغلول معه عدم النزول إلى البر لتجنب سفك الدماء . وقد اتهم سعد المدير بان رجاله قد أعدوا كمينا لتعكير صفو الأمن العام إذا ما نزل إلى البر .

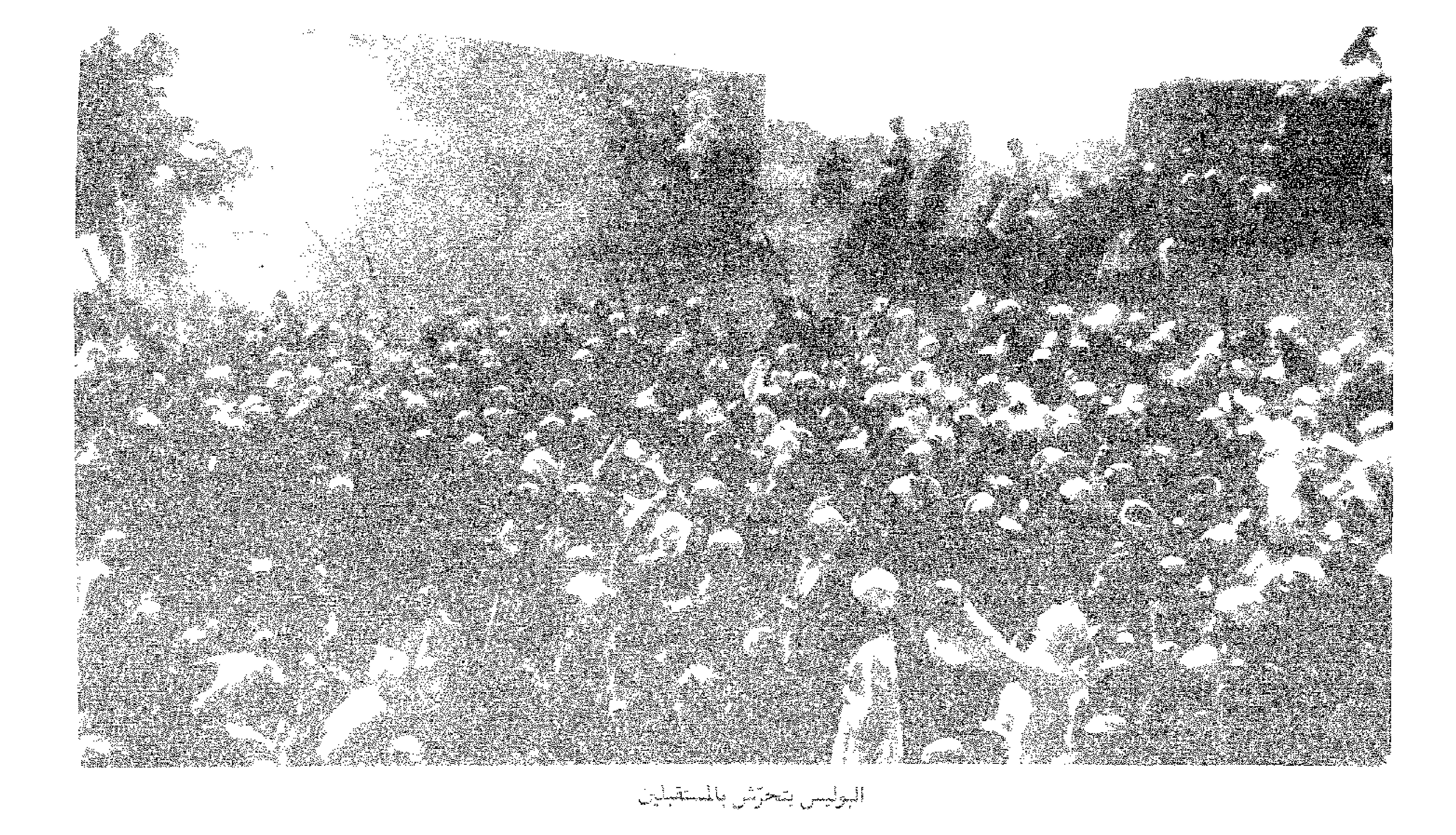
وقد جاء من تقرير مفتش الداخلية : « لو أن زغلول تغذى ، كما خطط ، فى منزل فخرى عبد النور ، فلا شك انه كان سيتعرض للقتل من رجال عدلى ولنشبت اضطرابات فى جرجا » .

.F.o. 407/191 Inc. in No. 26

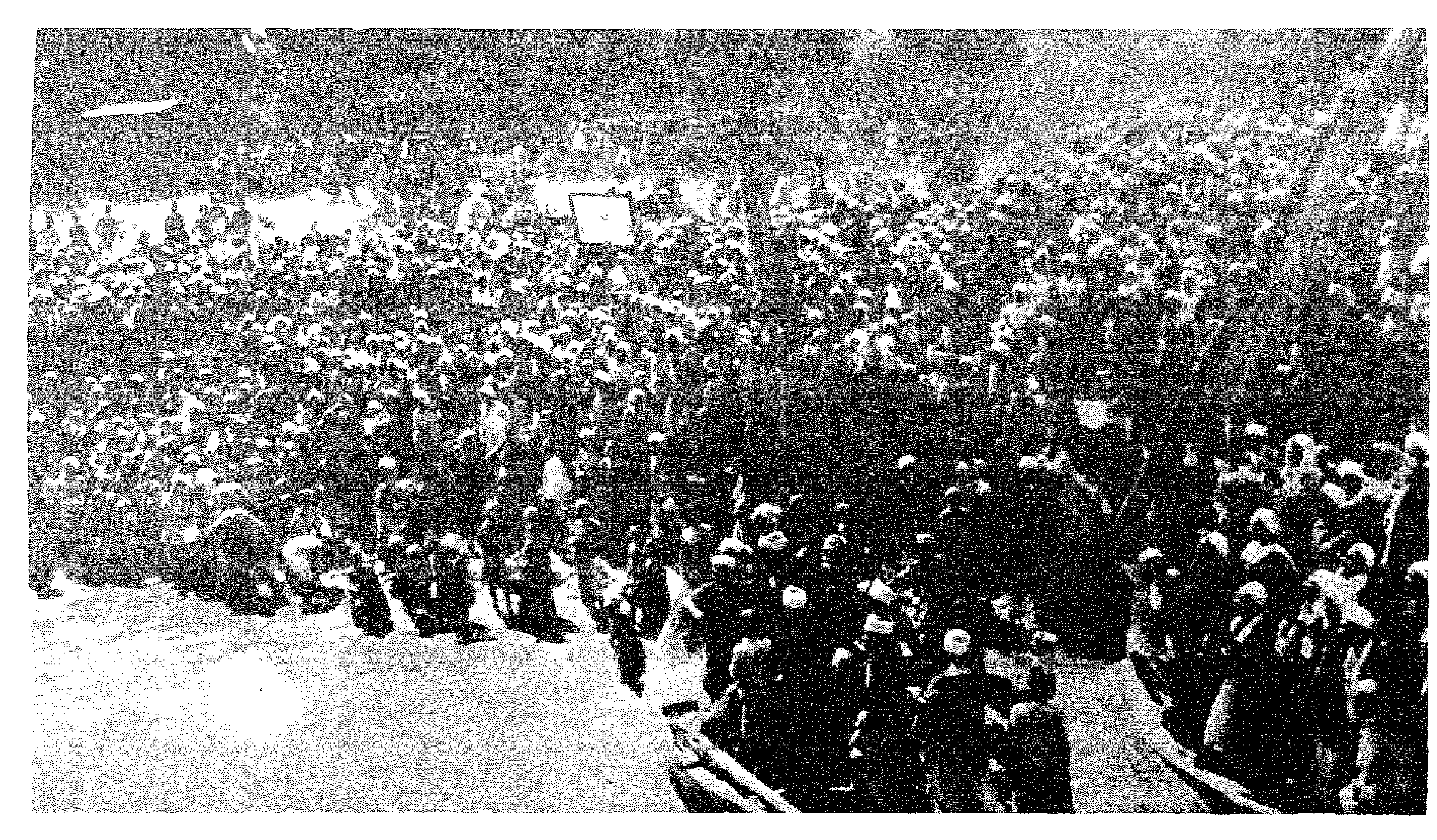
(٧) جاء فى التقرير الخاص بهذه الحادثة ان عدد المصابين بلغ ٢٣ منهم ثلاثة مصابون بطلقات نارية بالاضافة إلى ثلاثة من رجال البوليس واربعة من الخفراء .



جموع الشعب تستقبل الباخرة على الشاطئ بجرجا



البوليس يتحرّش بالمستقبلين



رجال البوليس يطلقون النار على المتظاهرين



فخري عبد النور وصحبه يلحقون بالباخرة ويحاولون الوصول إليها



الزعيم سعد زغلول يستقبل الشيخ أبو الوفا الشرقاوى

الفصل الرابع عشر

« من جرجـا إلى الأقصـر »

الباخرة « نوبيا » تستأنف رحلتها إلى الأقصر ـ نداء من سعد باشا إلى الأمة ـ برقيّة سعد باشا إلى السلطان فؤاد بالاحتجاج على تصرّفات الإدارة ـ مواصلة السفر إلى أسوان ـ حماسة الأهالى ـ فى أسوان ـ العودة إلى القاهرة دون توقّف إلاّ فى « إطسا ـ خطبة مصطفى بك النحاس فى الأهالى ـ استئناف السفر والوصول إلى القاهرة يوم ٣٠ أكتوبر ١٩٢١ ـ نداء جديد من سعد باشا إلى الأمة ـ كلمة لابدّ منها فى الآثار السياسية التى ترتّبت على هذه الرحلة .

* * *

تركنا « جرجا » والمعركة لا تزال ناشبة ، والبوليس يطلق الرصاص على الأهالى الذين لم يكن لهم ذنب ولا جريرة إلا أنّهم يريدون تحيّة زعيم البلاد الذى يطالب لها بالحرية والاستقلال. وقد كان سعد باشا فى غاية الألم لهذه الحوادث ، قلقاً على الأهالى الذين ينهمر عليهم رصاص رجال البوليس ، ومع ذلك كانت الجماهير لا تُحصى من الناس تسير بجانب الباخرة غير مبالية هذا الرصاص .

ومررنا على الجهة الشرقيّة لجرجا تجاه « هّوارة أولاد يحيى » فاستقبلنا أهاليها استقبالا حماسيا رائعًا ، ولى أطيان فى هذه المنطقة كانت مزروعة وقتئذ قصبًا فتزّودنا منه ، ثم أحضر خدم المزرعة طعام الغداء لركاّب الباخرة لأن مدير جرجا رغب فى تجويعنا دون وصول هذا الطعام إلينا ونحن فى جرجا . وسرنا بين حفاوة الأهالى الذين امتطوا صهوات جيادهم العربية وتابعوا الباخرة فى سيرها وكنا نشاهدهم منها كالمْوج يسير وراءنا ويحفّ بنا ، وهكذا استمروا فى ملاحقتنا حتى وصلنا إلى « البلينا » ، وكانت الأوامر تقضى قبل وصولنا إلى هذه المدينة بأن سعد باشا لا ينزل إلى البرّ حتى لا يلتقى بالشعب ، فلمّا رأت الوزارة أنه خطب فى سوهاج وفى جرجا وفّوت الأمر عليها ، وأن عدم نزوله إلى البّر لم يمنعه من أن يسمع الأمة صوته ، صدرت الأوامر بألا تدنو الباخرة من البّر . وعلى الرغم من ذلك فإنّا لمّا وصلنا إلى البلينا تهافت جميع الأهالى على شاطئ النيل لتحّية سعد باشا ، غير أن رجال الإدارة منعوهم بالقوّة وأوسعوا الكثيرين منهم ضربًا .

وواصلنا السير حتى بلغنا ناحية « أولاد خلف » فى الجهة الشرقيّة من النيل ، وفيها

رسونا . وكان ترحيب الأهالى بسعد باشا ورفاقه بالغا حدّ الحماسة ، فاجتمع الناس حلقات وتقدّم الكثيرون منهم بالعصىّ على عادة أهل الصعيد فى الحفاوة بأعزائهم وألقى كثيرون خطب الترحيب الوطنية .

ثم سرنا حتى وصلنا إلى ناحية « شرق بهجوره » فاستقبلنا الأهالى بالمظاهر الفيّاضة على رأسهم حافظ موسى الكلحى بك وعائلته ، وقد رست الباخرة تحت منزله ، واحتشد الأهالى ومعهم الطبول والزمور ولعب الفرسان لعبا جميلا على الخيول .

وبعد أن قضينا بعض الوقت ، قمنا فى الليل وسارت الباخرة حتى وصلت إلى « نجع حمادى » فى الصباح الباكر . وهى بلدة الشيخ أبى الوفا الشرقاوى كما سلفت الإشارة ، وقد نزل إلى الباخرة الأستاذ أحمد إسماعيل المحامى وغيره .

ومرّت الباخرة تحت كوبرى نجع حمادى الذى يربط ضفتى النيل حتى وصلت إلى ناحية (هوّ) حيث منزل « عائلة خلف الله » . وكان استقبال الأهالى لسعد باشا حماسيا رائعا سواء فى نجع حمادى أو فى ناحية (هوّ) .

وواصلت الباخرة سيرها حتى وصلت إلى « دشنا » ظهر يوم ١٩ أكتوبر . وقد رأينا فى هذه المدينة منظرًا وحشيًّا تألّمنا له كل الألم ، إذ كان عمدة البلدة يأمر الخفراء بمنع الأهالى من الدّنو من الشاطئ أو الهتاف لسعد باشا ، بل رأينا هذا العمدة فوق ذلك ، يلهب ظهور الناس بالضرب بشراسة وقسوة بالغتين .

وفى عصر ذلك اليوم وصلنا إلى « قنا » ، ولمّا كانت هذه المدينة تبعد عن شاطئ النيل فقد وجدنا الهدوء شاملا ، ولم يؤذن لأحد باستقبالنا ، الّلهم إلا أربعة أشخاص أذكر منهم : توفيق بك أبو كلبه وإسحق بشاى عبيد بك ومحمد محمود بك العضو فى الجمعية التشريعية [١] .

ومما يُذكر أنه لم تستعمل فى قنا أيه شدّة مع الأهالى ، إذ كان مديرها هو محمود عبد الرازق بك (المغفور له محمود عبد الرازق باشا) وكان رحمه الله مشهورًا بالاعتدال والرزانة ، ولذلك نفّذ الأوامر الصادرة إليه من وزارة الداخلية فى هوادة ولين فلم تقع حوادث مخلّة بالأمن خلال مرورنا بهذه المديرية ، ولم يحاول رجال البوليس الاصطدام بالمستقبلين .

وقمنا من قنا ، فمررنا فيما مررنا ، على « قوص » « ونجاده » « والبلّاص » ، وكانت جموع الأهالى تحتشد لتحيّة سعد باشا فى حماسة منقطعة النظير .

وهكذا سارت الباخرة بين الحفاوات والتحيّات حتى وصلت إلى « الأقصر » ليلا .

* * *

وقبل أن ترسو الباخرة بالأقصر ، جاء حكمدار بوليس المديرية وصعد إليها وتكلّم بغلظة طالبًا ألا تدنو الباخرة من الشاطئ ، تنفيذا للأوامر الصادرة من وزارة الداخلية . فهاج عليه ركاّب الباخرة بسبب جفاف حديثه وأهانوه ورفضوا الإذعان له ، مصمّمين على الرسوّ أمام الشاطئ . فلمّا اقتربنا من المرفأ وجدنا توفيق أندراوس بك (نائب الأقصر فيما بعد) أمام منزله (وكان أخوه يسى أندراوس بك قنصلا فخريًا فى الأقصر لفرنسا وبلجيكا وإيطاليا) [٢] فلمّا شاهد الباخرة أخذ ينادى بأعلى صوته ويلّوح بعلم من أعلام القنصليات التى يمثّلها وكان فى يده إلى جانب ذلك علم مصرى ، لترسو الباخرة أمام المنزل دون أن يجرؤ أحد من موظّفى الإدارة الإنجليز على التعرّض لها حتى لا تنشأ عن ذلك أزمة دبلوماسية بين انجلترا والدولة صاحبة العلم . فانحازت الباخرة إلى المنزل ورست تحته ، على الرغم من أنف الإدارة ، وعلى أعين رجالها الحانقين الذين استبدّ بهم الغيظ لهذه الحركة غير المتوقّعة [٣] .

وشرع أعيان الأقصر يفدون تباعًا على الباخرة لتحيّة سعد باشا وحضر قسيسان من الشّبان وأخذا يترنمان بصوت رخيم ترحيبًا بالضيف الكبير فسرّ سعد باشا لذلك سرورا عظيما . وامتلأت المساحة الواقعة بين الباخرة والمنزل بالألوف من الأهالى وطلبوا من سعد باشا أن يخطبهم فلبّى رغبتهم وألقى فيهم كلمة قائلا :

« إنّى مغتبط بهذا الترحاب الذى يدل على أنكم حقيقة وطنيون ، وإنى مكتف بمشاهدتكم وسماع هتافكم ، وكأنى زرت بلدكم وأشرفت على ما فى قلوبكم نحو وطنكم العزيز ، وأرجو أن تقبلوا شكرى وشكر زملائى وإخوانى وأن تبلّغوها لإخوانكم وتقولوا لهم إن « زغلول » وإن منعه الاستبداد من الاجتماع بكم فلن يمنعه من تذكّر وطنيتكم الصادقة التى قابلتموه بها ، وإنى رغم كل عقبة يقيمها الخصوم ، ورغم كل معارض ومعاند سأواصل الجهد معتمدًا على اتحاد الأمة ، والله معنا لأن الحق معنا ، وهو يعلو ولا يُعلى عليه . فأستودعكم الله ، وأسألكم ألا تحزنوا ولا تهنوا ، وأن تعلموا أنّى معكم دائما فى السعى للوصول إلى الاستقلال التام » .

وفى ليلة وصولنا إلى الأقصر رأينا أن يوجّه سعد باشا نداء إلى الأمة المصرية التى كانت

تترقب سفره وتجواله بين ربوع البلاد ، وتتابع باشتياق أنباء الحفاوة التى يلقاها من مختلف طبقات الشعب ، والتى جزعت للحوادث المؤسفة التى وقعت بفعل رجال الإدارة وتصرّفاتهم الشائنة فى أسيوط وجرجا مما أدّى إلى سفك دماء الأبرياء ، وأن يسجّل فى هذا النداء على الوزارة اعتداءاتها المتكّررة ، وافتئاتها على الحرّيات العامة ، وإهدارها لكل كرامة وانتهاكها لكل حرمة ، فيأتى هذا البيان فاضحا لها أمام الناس . كما رأينا كذلك أن يوجّه سعد باشا تلغرافا إلى السلطان فؤاد يحتجّ فيه على الوزارة وما لجأت إليه من أساليب تعسّفية لمحاولة إفساد الرحلة وبذر بذور الخصومة والحقد بين أبناء البلد الواحد . فكتب سعد باشا نداءه إلى الشعب بقلمه النارى وأسلوبه اللاذع فجاء آية من آيات البيان ، وكان له وقع الصاعقة على رءوس الوزارة وأنصارها ، حتى لقد تردّد صداه وقتئذ فى الصحف العالمية ، وخاصة الصحف الإنجليزية التى كانت تهتم بأنباء مصر اهتماماً خاصاً ، لوجود عدلى باشا فى لندن حينذاك بسبب المفاوضات . وهذا هو نصّ البيان :

« لقد قابلنا سكّان الوجه القبلى فى كل موضع مررنا به ، وكل موقف رسونا عليه بأكبر مظاهر الحفاوة والإكرام ، وغمرونا بكل نوع من أنواع اللطف ، وحققوا فوق ما كنّا نتصوّر من الآمال التى علّقناها بهم . إذ قّووا بما أظهروه من حماسة وما أبدوه من ميل إلى الحرية فسروا قلوبنا . وجدّدوا عزائمنا . وصّيروا إيماننا بمستقبل بلادنا أشد وأقوى وأبعث على الثبات وأدعى للتضحية . وثبّتوا فينا اليقين بأن مجهوداتنا لن تذهب سُدًى ، وأننا عمّا قريب سنرى شمس الاستقلال الباهرة تبدّد غيوم الاستعباد ، ويسطع نورها الزاهى على البلاد .

شكرًا ، ثم شكرًا ، وألف شكر ، للمدن ، للقرى ، للكفور ، للنجوع ، للمزارع ، للرجال، للنساء ، للفتيات ، للصبيان ، لكل الذين كانوا يتسابقون على اختلاف طبقاتهم وتفاوت أقدارهم وأعمارهم ، ويتزاحمون طول طريقنا على شواطئ النيل ، وفى المراكب ، وفوق الرواسى لتحيّتنا بالهتاف للاستقلال ، هتاف ما أبلغ دلالته ، وصيْحات ما أجلّ معناها ، إنها كانت عند صعودها كأنها تحرّك أرض الأجداد إلى أعماقها ، وترعش النيل المبارك رعشات الأمل والاستبشار ، وكان هذا النهر كأنه سجلّ ملفوف يكرّ أمامنا لكى تدعى الأمة بتمامها فيه إرادتها الواحدة المقدّسة الثابتة فى الاستقلال التام .

رأيت كل ذلك ، وأعجبنا به وحمدنا الله كل الحمد ، وشكرنا كل الشكر ، كما شكرنا «لوزارة الثقة » أنها رسّخت فى قلوب الأمة بالخطّة التى جرت عليها بغض كل استبداد ، وأضافت إلى أسباب التفاف الأمة حول وفدها ألم المظلوم من ظلم الظالم ، والمضغوط من

فعل الضاغط . إنها شعرت من أول الأمر بأنّ رحلتنا قضاء عليها ، فالتجأت إلى السلطة العسكرية لمنعنا من زيارة مديرية الغربية ولمّا خاب سعيها فى الانتصار بها على منع زيارة غيرها ، استندت إلى العلل الباطلة ، وإلى إفساد الأخلاق ، وإلى القوة الغاشمة فى منعنا من زيارة مديريات الوجه القبلى ، أثبتت بذلك أنها فى الخروج عن حدّ القانون لا حاجة بها إلى سلطة الأحكام العرفية ، وكّررت من الأدلة ما لا يدلّ إلا على جهلها الواضح ، وتخبّطها الفاضح ، وتصورها الأثيم .

إن الأرواح الطاهرة قد أزهقت ، والدماء الزكية أريقت ، فليسقط دم القتلى على السفّاكين ، ولتنزل لعنات الله وغضبه على الظالمين . زعمت أيضا أنها منعت زيارتنا لعواصم المديريات ومدنها حفظاً للنظام العام ، وهى عليمة بأنها حجّة تذرّع أساتذتها الإنجليز بها لاحتلال بلادنا ، ثم البقاء فيها مدة أربعين سنة ، فمن تريد هذه الوزارة وليدة الحماية أن تغشّه بهذه الحجّة الساقطة ؟ إن الأمر أوضح من أن يوضّح ، وعقول الأمة أصبحت أهدى من أن تضلّ ، وأرشد من أن تخدع ، يشهد الله ويعلم الكل أن النظام إذا كان اختل فى جهة مررنا بها فلم يختل إلا بفعل عمّالها وأنصارها ، فمن تريد غشه بهذه الحجة الساقطة وفوق ذلك سيكتب التاريخ مسئوليتهم ، ولنا كل الثقة فى عدالة حكمه . وإنها تريد بالتناهى فى الضغط وتجاوز الحد فى الكيد لنا حملنا على أن نقبل « مشروع الاستعباد » الذى تحضره من لندن ، ولكن قدرة الله فوق كل قاهر وستحبط الأمة هذا العمل السيئ .

بنى وطنى

إنهم يستفزونكم ويحرّضونكم على الخروج عن النظام فلا تذهبوا مع تحريضهم واستفزازهم ، وقابلوا إغراءهم ، بالشهامة فى هدوء ورزانة ، وأجيبوا عليه بالاحتقار ، وقابلوا غضبهم بابتسامات شعب له عزّة ، وفيه قوّة ، وعنده إيمان بمستقبله السعيد إن شاء الله .

الباخرة « نوبيا » بالأقصر فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢١

سعد زغلول

أما البرقية التى أرسلت إلى السلطان فؤاد ، فهذا نصها :

« عرضتُ على المسامع الشريفة طرفا من تصرّفات الإدارة معنا بمناسبة زيارة مديريات الوجه القبلى إجابة لدعوة أهاليها ، وبيّنت أنها من أول الأمر غير راضية عن هذه الزيارة ،

ولهذا كانت تنتحل فى كل مديرية ، لمنعى من زيارتها ، أسبابا ترجع إلى اختلاف الأحزاب والخشية على الأمن العام ، وكان يتضح دائمًا اتضاحًا تامًا عدم صحة هذه الأسباب . ولهذا الجأتْ أخيرًا إلى أن تتّخذ قرارًا عامًّا بمنعى أنا ومن معى من زيارة عواصم المديريات ومدنها . فقد بلّغنى مدير قنا تلغرافا من وكيل الداخلية يتضمّن أنه تقرر منع زيارتى أنا ومن معى لعواصم المديريات ومدنها .

وكذلك تقرّر منع رسو الوابور الذى نحن فيه فى أى جهة يخشى على الأمن العام من رسّوه فيها . وإنى أحتجّ لعظمتكم على التصرّف الاستبدادى من كل وجه ، لأن وكيل الداخلية ووزيرها ومجلس الوزراء ليس لأى واحد منهم حق فى تقرير هذا المنع ، إذ هو عقوبة . والمحاكم دون سواها هى المختصة بتوقيع العقوبات بعد ثبوت الجرائم المقرّرة بإزائها قانونا . وإن تعميم المنع على هذه الصورة يؤكد أن غرض الوزارة من أول الأمر هو منعى من الاجتماع بمواطنّى ، إجابة لدعوتهم ، لكى تخفى عدم ثقة الأمة بها ، ولكنّها لم تعد خافية على أحد ولم يكدر صفو الأمن العام فى أى جهة من الجهات التى مررنا بها إلا بفعل رجال الإدارة ، وإن تباهيها بالخروج عن إختصاصها لإعنات خصومها وهضم حقوقهم لما يخالف القوانين التى يرجع الأمر فى حراستها إلى رعاية عظمتكم .

* * *

ومما يُذكر أنه كان معنا فى الباخرة مكاتب الجريدة الإنجليزية « المورننج بوست » كما سبق القول فاكتشف بعضنا أنه مكاتب جريدة بغير أمانة إذ أنه لم يرو لقرّائها حقيقة الحوادث كما وقعت ، بل كان يشّوهها . وكان ذلك بإيعاز من المفتش الإنجليزى الذى قابله عند وقوف الباخرة فى جرجا وطلب منه أن يفعل ذلك ، فلما انفضح أمره انتهز فرصة وصولنا إلى الأقصر وهرب ، وكان سعد باشا قد نبّهه فى إحدى خطبه إلى أن يتوخّى الحقيقة فيما يكتب .

وتركنا بعد وصولنا إلى الأقصر ، الدكتور حسن كامل بك . وكذلك فعل حنفى ناجى بك والأستاذ أمين عز العرب وقد حلّ محله فى مخابرة جريدتى « المنبر » و« الأهالى » بأنباء الرحلة الأستاذ محمد نجيب الغرابلى والأستاذ عبد الحليم البيلى .

وكان من المقرّر أن نعود إلى القاهرة بعد وصولنا إلى الأقصر لأن البرنامج الذى وضع للرحلة ينتهى عندها ، ولأن العقد المبرم مع شركة البواخر لاستئجار الباخرة ينتهى بها



المظاهرات الوطنية تجتاح القرى الواقعة على النيل بين جرجا ونجع حمادى

أيضا ، غير أننا كنّا قد احتطنا الأمر فذكرنا فيه أن من حقنا مواصلة السفر إلى أسوان لو طلبنا ذلك . فلّما وصلنا إلى الأقصر تلقى سعد باشا عشرات الدعوات من أهالى البلاد جنوب الأقصر حتى أسوان ، وقال الداعون إنهم متعطّشون لرؤيته وسماع صوته فى الحرية ومناهضة الاستعمار . فرأى سعد باشا ، على الرغم من المشاقّ التى تجشّمها فى هذه الرحلة منذ بدئها من القاهرة ، أن ينزل على رغبات الأهالى وأن يستمر فى أداء واجبه فى إذكاء الشعور الوطنى فصمّم على مواصلة السفر إلى أسوان وعلى ذلك استأنفت الباخرة رحلتها وغادرت الأقصر فى يوم ٢٠ أكتوبر .

وأثار إعجابنا أننا رأينا من الأهالى على طول الطريق من الأقصر إلى أسوان حماسة فى استقبال سعد باشا لا تقلّ عما رأينا من قبل ، على الرغم من أن تعديل نهاية الرحلة كان مفاجأة ، فلم يعلن ولم يوضع له برنامج . وقد كان سعد باشا يسأل الأهالى كيف عرفتم أننا آتون إليكم ؟ فكان من الطريف أن يقولوا عرفنا من « العمدة» لأن الإدارة طلبت منه منع الناس من الخروج إلى الشاطئ لاستقبالك . !

وهكذا نبع الشعور الوطنى فى هذه المنطقة الجنوبية من الوادى تلقائيا ودون أدنى ترتيب فأذهل رجال الإدارة ، وأحدث ارتباكا فى صفوفهم إذ كانوا قد أزمعوا العودة على الباخرة إلى القاهرة بعد انتهاء الرحلة إلى الأقصر . الأمر الذى حمل بدر الدين مراقب الأمن العام على أن يعدّ لنفسه قطارًا خاصًا يتابع الباخرة جنوبًا ، فيسير إذا سارت ويقف إذا وقفت .

فلمّا وصلت الباخرة إلى « أرمنت » رأينا جموعًا كبيرة من الأهالى فى استقبالنا على رأسهم مسيو « باخوس لبنان » مدير تفتيش زراعات « الكونت فونتارس » الذى يملكه الآن أحمد عبود باشا وقد استقبلونا أحسن استقبال حتى إن سعد باشا رحمه الله اغتبط جدا وتحمّس لحماستهم وألقى فيهم كلمة شكر . وقد حاول رجال الإدارة منع الباخرة من الرسّو على الشاطئ عند وصولها إلى أرمنت كما فعلوا فى الأقصر . لكن مسيو لبنان احتدّ عليهم وهدّدهم بتبليغ وزير فرنسا المفوّض إذا هم تدّخلوا وحالوا دون رسو الباخرة . ثم رفع العلم الفرنسى على المينا وتحدّى المفتش الانجليزى أن يُنزله ، فلمْ يجرؤ على التعّرض له ورست الباخرة رغم أنفه .

ومن الحقائق التى يجب تسجيلها ، أن أفراد الجاليات الأجنبية فى مصر ، وخاصة الفرنسيين واليونانيين والإيطاليين ، كانوا يعطفون على الحركة الوطنية عطفًا شديدًا ، فلا يبخلون عليها وعلى رجالها بالتأييد ومواقف التكريم فى كل فرصة ، وكانت صحفهم

تناصر سعد باشا وتؤيد الوطنيين من رجاله . وكان الإنجليز برمين من هذه المواقف إذ كانت تدحض إحدى حججهم المعروفة وهى دعواهم « حماية الأجانب » من المصريين .

ثم وصلنا إلى « إسنا » فازدحم أهلها لاستقبال سعد باشا ازدحاما كبيرا وهتفوا له كما هتفوا للحرية والاستقلال (٤) .

ومن مفارقات ما يُروى عن عسف رجال الإدارة أننا احتجنا فى هذه المدينة إلى خبز فأوفدنا لإحضاره من السوق الأستاذ الشيخ على درويش ، المحامى الشرعى الآن (وكان إذ ذاك طالبا فى الأزهر) ولكن المدهش أن بدر الدين مراقب الأمن العام وقف فى طريق توصيل الخبز إلينا فعدّ الأرغفة علينا ولم يسمح لنا إلا بخمسين رغيفا ! وسرعان ما انتشر خبر هذا العسف بين الأهالى حتى سبقنا إلى « إدفو » . فلمّا وصلنا إليها ، إذا بمركب ينادينا أصحابه ، وإذا بهذا المركب محمّل بأقفاص من الخبز فلمّا تسلّمناه وجدناه غير متماثل فى الحجم والطعم . واتضح لنا أن الأهالى لمّا علموا بما فعله بدر الدين معنا فى إسنا تسابقوا فى جمعه من المنازل والدور الخاصة ثم حملوه خِلْسة إلى المركب فجاء إلينا فى هذه الصورة الطريفة . . . « خبزا شعبيا » طيّبا ، تعلو قيمته فى نظرنا على أى خبز آخر للعاطفة الوطنية المخلصة التى زوّدتنا به .

وقد اقترن بالهتاف لسعد باشا والحرية والاستقلال فى هذه المنطقة هتاف أيضًا للشيخ أبى الوفا الشرقاوى ، مما دلّ على امتداد مكانته الكبيرة ونفوذه الدينى بين الأهالى هناك .

وأخيراً وصلنا إلى أسوان (٥) فى يوم ٢١ أكتوبر ، أى بعد عشرة أيام من تاريخ إقلاعنا من الجيزة . ولم تقلّ روعة الاستقبال فيها عنها فى سواها على الرغم من عسف الإدارة . إذ منعت الأهالى من الخروج لتحيّة سعد باشا ، ولكنّهم صعدوا إلى مآذن المساجد وأسطح المنازل يحيّون الزعيم ويرحّبون به ويهتفون له . ولم يسمح بدر الدين لأحد باستقباله على الشاطئ إلا لاثنين من الأعيان ولوكيل الشريعة القبطية . غير أن تصرّف بدر الدين لم يصادف هوى فى نفس مدير الإقليم إذ ذاك ، وهو الأستاذ إسماعيل رمزى (إسماعيل رمزى باشا فيما بعد) إذ كان معروفا كزميله محمود عبد الرازق بالرزانة والاعتدال وحسن التّصرف ، وقد حالت هذه الصفات دون تمادى الإدارة فى عَسْفها فلم تقع بأسوان حوادث تذكر .

وقد أُخذت لنا على ظهر الباخرة ونحن بأسوان صورة فوتوغرافية تذكارية لسعد باشا

والأستاذ الشيخ أبى الوفا الشرقاوى وبعض أعضاء الرحلة ، وانتهت الرحلة عند أسوان ، فبقينا فيها ساعتين ، وبلغت الحماسة بالأهالى إلى حدّ أنهم كانوا يسبحون فى النيل وكانت زوارقهم الشراعية تحضر إلى الباخرة مُحمّلة بالطعام لركّابها فتلقيه فيها ، متحّدية بذلك أوامر بدر الدين بمنع الطعام عن ركّاب الباخرة .

* * *

ثم شرعنا فى العودة إلى القاهرة ، فرجعت الباخرة بنا فى نفس اليوم أدراجها ، بعد تموينها بالوقود . وكانت مُسرعة فى العودة إذ لم تكن هناك أيّة ترتيبات لاستقبالنا أو لزيارة جهات أخرى ، فلما وصلنا إلى « نجع حمادى » نزل منها الأستاذ الشيخ أبو الوفا الشرقاوى . وقد شكره سعد باشا وأعرب له عن خالص تقديره لما كان منه من مواقف فى هذه الرحلة وودّ لو بقى معنا فى الباخرة حتى القاهرة ولكن أبو الوفا اعتذر عن عدم تلبية هذه الدعوة ، ووعد بزيارة سعد باشا عند قدومه إلى القاهرة كعادته فى كل صيف .

وعند توقّف الباخرة أمام نجع حمادى ، حضر مأمور المركز ومعه تلغراف ورد من عبد العزيز يحيى مدير جرجا يتضمّن أن تلغرافا وصل إليه من مصطفى أبو رحاب باشا وعائلته يطلب فيه من الإدارة منع سعد باشا من الدنّو من جزيرته وأملاكه فى « العسيرات » بدعوى أن سعد باشا لا يلتف حوله إلا « الرعاع » وهو يخشى أن تُصاب الزراعة بالتلف . فكان هذا إسفافا من خصوم سعد باشا والحركة الوطنية ليس بعده إسفاف ، وقد تألّم الجميع لانحدار الخصومة بهؤلاء الناس إلى هذا المستوى غير اللائق .

وواصلت الباخرة سيرها ، وحين مررنا على جرجا رأيناها فى حصار عسكرى شديد ، فلما وصلنا إلى « العسيرات » نزل من الباخرة الشيخ أحمد فوآز ، وقد رأينا بعض الرايات السود مُعلّقة فى النخيل أمام منزل سعد الدين أبو رحاب ، فقوبل هذا المنظر بالاستنكار .

ثم مررنا « بالأحايوه شرق » و « الأحايوه غرب » فخرج الأهالى ، رجالهم ونساؤهم وأطفالهم ، فحيّوا سعد باشا تحّية بالغة وكانوا يطوفون حول الباخرة فى زوارقهم ، وظلّوا طول الليل يحرسونها .

ووجدنا تجاه « أخميم » ذهبية أعدّها محمود همام حمادى بك وكان معه بعض الأعيان والأهالى ، يتقدمهم الأستاذ الشيخ أحمد على بدر شيخ المعهد الدينى فى « بلصفورة » ، وقد حيّا سعد باشا بكلمة بليغة .



صورة تذكارية التقطت بأسوان يوم ٢١ أكتوبر ١٩٢١ لجميع من اشترك فى رحلة الصعيد

وهم من اليمين إلى اليسار فخرى عبد النور ـ أحمد يحيى باشا الشيخ أبو الوفا الشرقاوى ـ الزعيم سعد زغلول ـ واصف غالى .

وأمامهم مصطفى النحاس وسينوت حنا وفتح الله بركات والشيخ مصطفى القاياتى وفى الخلف وقف الدكتور محجوب ثابت وعبد الحليم البيلى والأستاذ أمين عز العرب

ولمّا مررنا بسوهاج وجدناها فى حصار شديد أيضا ، والجنود تملأ شوارعها . ورأينا منزلا أطلّ من إحدى شرفاته سيدات يلّوحن بمناديلهن البيضاء ، فسألنى سعد باشا منزل من هذا ؟ أجبته بأنه منزل مأمور مركز سوهاج دفعته وطنيته إلى عدم الرضوخ لأوامر بدر الدين والمفتش الإنجليزى ، بإحراق السرادق الذى كان معدًّا لاستقبال سعد باشا هناك . وقد سجّلنا له هذا الموقف المشرّف من قبل .

وقبل أن نصل إلى أسيوط وجدنا الأساتذة محمود بسيونى (رئيس مجلس الشيوخ فيما بعد) وحبيب فهمى بك وإبراهيم ممتاز ومحمد كامل حسن الأسيوطى وإسماعيل مجدى وغيرهم من كبار الأعيان والمحامين منتظرين خارج المدينة ، وقد ركبوا زوارق وساروا بها فى النيل فتعالى هتافهم وهتاف الأهالى لسعد باشا حتى إذا حاذينا المدينة وجدنا حديقة كبرى ملأى بالناس وهتافهم يدوّى بمختلف النداءات الوطنية [٦] . فلما مررنا من هويس « الخزّان » رأينا مدير أسيوط مقبل باشا ووكيل المديرية مختار حجازى بك (باشا) ومراقب الأمن العام بدر الدين والمفتش الإنجليزى مستر « جنت » ، واقفين فوق الهويس لمراقبة مرور الباخرة ، فلمّا شاهدناهم هتف النحاس بك بصوت عال (تحيا مصر . يحيا الاستقلال . يحيا سعد باشا رغم أنوفهم) وكان يلّوح بعلم مصرى كان يحتفظ به فى يده فدّوى صوته فى الهويس دويًّا شديدًا .

ولمّا وصلنا إلى المنيا كان فى استقبال الباخرة كثير من الأعيان والأستاذ رياض الجمل المحامى ، فحيّانا الأهالى أطيب تحية .

وسارت الباخرة تتهادى حتى وصلت إلى مكان منعزل عند تفتيش البكوات بشرى وراغب حنا فى « اطسا » فوجدنا الأستاذ شارل بشرى حنا [٧] ومعه كثير من الأهالى وهو يشير إلينا بالوقوف . فدنونا من الشاطئ ورست الباخرة ونزلنا إلى البر ونزل سعد باشا بين تحّيات الجماهير المحتشدة وحفاوتها . وهى المّرة الأولى التى وطئت فيها قدما سعد باشا أرض الوادى طوال الرحلة ذهابًا وإيابًا . إلا أنه ـ رحمه الله ـ كان مُتعبًا فلم يستطع البقاء فى الاحتفال مدة طويلة . وعاد إلى الباخرة وبقينا نحن . فتناولنا طعام العشاء واستمعنا إلى خطب سياسية ألقاها بعض أبناء الإقليم . كما ألقى الأستاذ محمد كامل حسن الأسيوطى المحامى كلمة بالنيابة عن الأستاذ شارل بشرى حنا وخطب بعده الأستاذ أحمد إسماعيل المحامى بقنا .

وردّ عليهم النحاس بك بخطبة ألقاها باسم سعد باشا شرح فيها أعمال رجال الإدارة فى الرحلة وتصرّفاتهم وما لجأوا إليه من أساليب لمنعها وإفساد خطّة سيرها بقصد التشكيك فى « زعامة سعد » واستجابة الأمة للمبادئ الوطنية التى ينادى بها من وجوب محاربة الاستعمار وتحرير الوطن وتحقيق الجلاء عن مصر والسودان وإحقاق المبادئ الدستورية فى البلاد وقوامها الحرية والمساواة بين أبناء الوطن الواحد .

ونحن نجتزئ بعض ما جاء فى هذه الخطبة لأهميتها :

« بالنيابة عن معالى رئيسنا الجليل وباسم زملائى وإخوانى واسمى أقدم فائق التشكّرات لحضرة صاحب البيت الكريم وأسرته العظيمة ولحضرة زميلنا النائب الحر الجرىء سينوت حنا بك حفاوتهم بنا ، هذه الحفاوة الباهرة ، على استقبالهم إيّانا هذا الاستقبال العظيم ، وعلى أن هيأوا الفرصة لأن تطأ قدم صاحب المعالى سعد زغلول باشا أرض الصعيد لأول مرة منذ ركبنا الباخرة إلى الآن . وإنىّ وإن كان يؤسفنى ألا يكون معاليه معنا الآن ولكنه يسلّينى أنه بعد أن رآكم ونزل عندكم وتبادل التحيّة معكم ، عاد إلى الباخرة اتقاء لرطوبة الليل ، محافظة على صحته التى فى حاجة كثيرة إليها (هتاف ، فليحيا الرئيس، ليطل عمره ، لتقو صحته) . نعم ، ليطل عمره لأنه هو السند القوى لنهضتنا المقدّسة . إنهم يعلمون ذلك . يعلمون أنه هو العقبة الكؤود فى تثبيت مركز عدوّنا فى أرضنا ، ولذلك يريدون إبعاده عن مركز النضال .

« ولكنّ الأمة عالمة بمن يعمل لاستقلالها ، وبمن يحولون بينها وبينه ، وهى أكبر من أن تُخدع وأقوى من أن تنفذ فيها حيلتهم ، وإنها لن تقبل شيئا إلاّ ما وطّنت النفس على الحصول عليه ، وهو الاستقلال التام .

« إننا قوم كرام . نُكرم الضعيف ونرعى مصالحه . وهذه المصالح لا تتنافر مع حقّنا فى الحرية أى مع حقنا فى أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ، ولا تتعارض معه إذا عرفت الأمة الإنجليزية حقيقة الحال . ولكن لسوء الحظ أن وقعت مسألتنا فى يد جماعة المستعمرين الذين يريدون أن يلتهمونا ويضعوا أيديهم علينا ، ولكن لا يمكن للأمة المصرية بعد أن تنبّهت ، أن تبقى فى ذلّ الاستعباد . ولا يمكن على أى حال للأمة الإنجليزية أن تستمر فى حكمنا بالقوة القاهرة ، لأن هذه القوة لابدّ أن تنقلب ضدها يومًا من الأيام .

« فالمستعمرون هم خصومنا الحقيقيون ، وهم الذين وضعوا الأساس فى منع سعد من اتصال الأمة به واتصاله بها . أما أولئك النفر ، القليل عددهم ، الذين ينفّذون إرادة

المستعمرين فينا ، فلا ذكر لهم لأنهم رضوا لأنفسهم أن يكونوا آلات فى أيدى سادتهم ، حباً فى البقاء بمراكزهم التى لا عهاد لهم فيها إلا إرضاء أولئك الأسياد .

« تذرعوا بالحادثة التى دبّروها ليقولوا إن الأمن مختلّ ، وإن زغلول فى الواقع ليست له المكانة العليا فى القلوب . ارتكبوا الجناية ليقولوا إن هناك فريقًا لعدلى قويًّا لدرجة أنه أمكنه أن يمنع سعد باشا من النزول بمديريتهم . بيدهم قوة الحكومة ، ونحن لا نريد أن نقاوم القوة لأننا نربأ بالدم المصرى أن يُراق من أجلهم . منعوا بسلطة الحكومة الرئيس من النزول بأسيوط . ولكنا نحن نزلنا بالنيابة عنه وأبلغناهم تحيّة الرئيس فكأنه نزل عندهم ، لأنه أرسل إليهم خطابه وتلوناه عليهم ، خطب فيهم . وهذا ما أفسد على الوزاريين غرضهم أيضا ، ولذلك أخذوا حيطتهم فى المديريات الأخرى لكى لا يفوت عليهم غرضهم من المنع فتذرعوا بما دبّروه فى سوهاج وجرجا لمنع نزول أى أحد من الباخرة فيهما . ولكنّا خطبنا فى الناس بسوهاج وانتهى الأمر فيها بسلام . لم يرق ذلك عمال الحماية فأخذوا عدّتهم لجرجا ولكن الرئيس خطب فى أهلها أيضا .

« كانت الناس تجتهد فى اختراع الوسائل للوصول إلينا لكى تقابل سعد باشا وتهتف للاستقلال . كانت تبيت على الشاطئ لانتظارنا . كانت تختفى فى المزارع للقائنا . كانت تتسابق فى المراكب لمقابلتنا . كانت تخترع كل طريقة لاجتياز النطاق العسكرى المضروب على المدن والقرى لتحظى بمشاهدة سعد والهتاف لمصر والاستقلال . والذين لا يمكنهم الوصول إلينا كنّا نراهم وراء النطاق يصفقون ويلوحون بحرارة تدل على اشتعال النار فى قلوبهم سُخطا على الظالمين الذين حالوا بينهم وبين رمز أمانيهم . وبعد أن وصلنا من رحلتنا إلى غايتها وهى الأقصر . رأينا أن نستمرَّ فيها إلى أسوان فهرع الناس إلينا من كل فجّ لتحيتنا والهتاف للاستقلال . ولقد وجدنا الروح الوطنية نامية فيهم كما هى نامية فيكم . هذه الروح القوية ظهرت فى كل فرد من أفراد الشعب ، فى الرجال ، فى الشبّان ، فى الفتيان ، فى الصبيان ، فى الأطفال ، حتى فى النساء ، فشكرًا لضغط الإدارة لأن من يعمل ضد الحرية يخدمها ، كما يخدمها من يعمل لها .

« وسنواصل بعون الله جهادنا للنهاية ، مهما صادفنا من العقبات ولقينا من المشّقات . فقد وطّدنا العزم على تحمّل جميع الصعاب كما تحمّلناها للآن ، وإنا لمفاخرون بمن بقى معنا فى هذا الجهاد الطويل ، وما كان يقوى على تحمله إلا كل ثابت اليقين ، قوى الإيمان ويعمل للاستقلال لا بغرض شخصى ولا لمطمع ذاتى نائبكم الجرىء سينوت حنا الذى

رمزه « الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا »[8] فانّا نفخر به ، وحقّ لكم يا « آل بشرى » أن تفخروا به لأنه أعلى رأس الأمة ورفع شأنها ، وها هو بقلب ثابت ، كله وطنية وإخلاص ، وعقيدة ثابتة وإيمان بالاستقلال التام » .

* * *

ولا ينبغى أن يفوتنا ، وقد اجتزأنا من هذه الخطبة أهم مقتطفاتها ، أن نشير إلى ما كان لها من وقع كبير بين الناس ، إذ لخّصت الموقف السياسى بين سعد وخصومه ، أو بين الحرية وأعدائها ، أحسن تلخيص . وكشفت عن المحاولات الإجرامية التى لجأ إليها الوزاريون لخنق حرية الرأى وكبت الشعور الوطنى .

ومما يجدر ذكره أن هذه الخطبة وغيرها من الخطب قد لفتت الأنظار إلى مصطفى النحاس بك ، إذ برزت فى هذه الرحلة مواهبه كخطيب لسن فصيح ، ورجل شجاع جرىء ، لا يهاب قوة المواقف وقد نزل إلى البّر فى أسيوط وغيرها والرصاص فوق الرءوس . كما كان يتحدّى رجال الإدارة وسلطة الاستعمار دون خوف وبإيمان قوىّ وجنان ثابت .

ولا شك فى أن ما تكشّف فى مصطفى النحاس خلال هذه الرحلة من الصفات الممتازة التى ألمحنا إليها ، فضلاً عمّا أظهره من إخلاص للحركة الوطنية أثناء اعتقاله فى « سيشيل » مع الزعيم سعد زغلول ـ كما سيجىء ـ هو الذى أهّله لأن يكون أثيرًا على قلب سعد محّببا من الجماهير ، مقرّبا إلى نفوسهم . يُضاف إلى ذلك ما جُبل عليه من التواضع وطيبة القلب ، وما اشتهر به من غيرة وطنيه غير مشوبة بغاية أو مآرب .

لذلك لم يكن مستغربا ، بعد انتقال سعد إلى الرفيق الأعلى فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، أن تتّجه إليه الأبصار . متلمّسة فى شخصه هذه الصفات ، مرشّحة إيّاه للزعامة من بعده .

صحيحٌ أن زعامة سعد كانت أكبر من أن يملأها إنسان . وأن المكانة التى شغرت بوفاته لم يكن لأحد أن يحتلّها من بعده بيسر . لأن سعدا كان « عملاقا » ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . كان عملاقا فى قوة تأثيره على الجماهير ، كان عملاقا فى سحر بيانه ، خطابة وكتابة . كان عملاقا فى مواجهته للخطوب والأحداث ، كان عملاقا فى حسن تصريفه للأمور ، بل كان فلتة من فلتات الطبيعة ، قلّما يجود الزمن بمثلها وقد فرضت نفسها على التاريخ فرضاً . إلاّ أن زعامة مصطفى النحاس كانت زعامة إقتداء

وأسوة . وقد حاولتْ بكفاحها المرير ونضالها الجبّار أن تشقّ أمامها الطريق وأن تنهج نهج الزعامة التى سلفتها . فنجحت فى تحقيق الهدف الذى استهدفته نجاحاً كبيراً ، وإن اختلفت طبيعة الزعامتين .

* * *

وعدنا بعد ذلك إلى الباخرة التى استأنفت السير فى صبيحة اليوم التالى ، حتى وصلت إلى حدود مديرية بنى سويف . وجاءنا وفد منها ومن مديرية الفيوم فأعربوا عن سرور الأهالى لمرور سعد باشا بينهم[٩] ، وعن اغتباطهم بزيارته . وألقى بعض الخطباء كلمات وطنية ، وكان منهم المرحوم الأستاذ عبد الرحمن رشدى المحامى والممّثل الكبير ، كما ألقى الأستاذ أحمد عبد الباقى راضى قصيدة جميلة .

وفى هذه الأثناء جاء حكمدار بوليس المديرية بكتاب من مدير بنى سويف ومعه صورة تلغراف ورد إليه من مدير الفيوم إذ ذاك (وهو المرحوم مصطفى صبرى بك) ، يطلب فيه منع الباخرة من الرسوّ فى البر الغربى ، لأنه علم أن سعد باشا سينتهز هذه الفرصة ويخترق الجبل لزيارة الفيوم .

وقد أسف سعد باشا لهذا التلغراف كل الأسف ، وقال متأثرا « أنا لست قاطع طريق ، وإذا أردت أن أزور مديرية الفيوم فإنى أدخلها من الباب ، لأنى لست ممن يتسلّقون الأسوار» .

وتلقّى سعد باشا خطابا آخر من مدير الجيزة إذ ذاك وهو حسن مظلوم بك [١٠] . بأنه يرجو أن يكون النزول فى الجيزة ، لغير الزيارة .

واجتازت الباخرة مديرية بنى سويف حتى وصلت إلى مديرية الجيزة فلم يكن استقبال الأهالى على طول الطريق أقل روعة ولا حماسة [١١] ، ولم يتمكّن رجال الإدارة من كبت شعور الناس الذين كانوا كلّما شاهدوا الباخرة تتهادى فى النيل يتعالى هتافهم بحياة الحرية والاستقلال وسعد » .

وفى ليلة العودة أقيم سرادق كبير فى الأرض الفضاء التى كانت تواجه بيت الأمة (محل ضريح سعد باشا الآن) فامتلأ هذا السرادق بجماهير الشعب التى احتشدت لتحية زعيمها . وكان مُنتظرًا أن يُلقى فيه خطبة ، إلاّ أنه كان متعباً فلم يستطع . وبعد وصوله

دخل إلى مخدعه فى « بيت الأمة » ولزم الفراش لانحراف صحته .

وأخيرًا نزل سعد باشا من الباخرة . وبعد جهد شديد استطعنا أن نشق له طريقاً بين الجماهير المحُتشدة حتى وصل إلى عربته التى أقلّته إلى « بيت الأمة » وتلاها موكب من العربات تقلّ العائدين وكثيرين من الذين حضروا الاستقبال .

وكان فى الباخرة عند عودتنا كثير من الدواجن والخراف والمأكولات المختلفة الأنواع وقد كانت ترد على سبيل الهدية طول الطريق فى الذهاب وفى العودة ، فأمر سعد باشا ـ رحمه الله ـ بتوزيعها على الفقراء . وسرعان ما نُفّذ هذا الأمر الذى يدل على شعور الرحمة والبرّ بالمعوزين ، وقد تولّى تنفيذه فتح الله بركات باشا .

ووصلت الباخرة إلى شاطئ الجيزة يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢١ ، وكانت جماهير الشعب قد احتشدت للتحّية ، فتعالى هتافها لسعد ولمصر وللاستقلال ، وكانت مظاهرة رائعة ، وقد خطب سعد باشا فى المحتشدين وكان كثير منهم من الطلبة ، فأراد بعضهم أن ينسب الكذب إلى مدير الجيزة فنهاهم سعد باشا وقال إنه من عنصر طّيب كريم ، وإنه يعرفه أنه صادق .

ومن الواجب أن نذكر هنا أن ريّس هذه الباخرة واسمه عبد الحليم (وهو من أبناء الصعيد) كان ماهرًا جدًّا فى قيادتها ، بارعًا فى عمله ، وكان يتلاعب بالباخرة كأنها زورق صغير لا باخرة من أكبر البواخر النيلية . وقد نفحه سعد باشا مبلغا وافرًا من المال ، مكافأة له على جدّه وإخلاصه فى عمله .

كذلك لابدّ لنا أن نشير إلى سعد باشا ، على الرغم من أنه كان متعبا تعبا اضطّره إلى ملازمة الفراش بعد وصوله لم يفته أن يخصّنا بعطفه فوجّه إلينا كلمة شكر رقيقة على ما بذلناه من مجهود فى توفير الراحة لركّاب الباخرة ، وما تحمّلناه من متاعب فى هذه الرحلة بسبب عنت الوزارة ، وتصرّفات الإدارة معنا .

* * *

ولم يمنع سعد باشا انحراف صحته من أن يوجّه إلى الأمة المصرية نداء بمناسبة انتهاء رحلته العظيمة والعودة منها بسلامة الله ، وبمناسبة الحوادث العديدة التى جرت فيها وتصرّفات الوزارة وأوامرها نصّه :

« **بنى وطنى**

« باسم زملائى وباسمى ، أشكر سكّان الوجه القبلى من قلب مفُعم بعرفان الجميل ، وعين يملأها نور منظر بهيج ، منظر ينتعش لكلمة الاستقلال انتعاش الطبيعة لإشراق االشمس .

« لله درّ هؤلاء الإخوان ، ما أطيب قلوبُهم ، وأكرم نفوسُهم ، وأصدق إيمانهم بالوطنية ، إنهم اقتحموا كل عقبة ، واستسهلوا كل صعب فى سبيل المطلب الأعلى وكل عزيز لديهم حتى الحياة الغالية ، تحمّلوا نصيبهم من المظالم والمكائد وأنواع الإيذاء والإهانات التى ترتكبها ضد البلاد كلها ، سلطة لا وجدان لها ، تحمّلوا كل ذلك لا عن جمود ولا ذّلة ، ولكن حبّا فى الحرية ، وكرها للاستعباد ، وإيمانا بعدالة قضيتهم ، واتقاء لكل ما من شأنه أن يعرقل سعيها أو يفوت كسبها .

بنى وطنى

« حدثت فى أسيوط وجرجا حوادث ملأت القلوب حزنا وغمًّا ، فنقدم العزاء الجميل لعائلات ضحاياها ، ونحمد الله على أنه لطف القضاء فيها ، فلم تقع كما كان يحسبه ويتمنّاه من اقترفوها ومن اشترك فى تدبيرها واقترافها . إنهم دبّروها من زمان طويل بقصد التخلص من مختار الأمة ووكليها ، وتشويه سمعة البلاد وتمهيدًا لقبول مشروع معيب فاضح .

« ولكنّ الله تعالت قدرته ألهم الشعب المصرى الحكمة والسداد ، فخّيب بحكمته آمالهم ، وأفسد بسداده حسابهم ، وردّ فى نحورهم تلك السهام المسمومة التى صوّبوها إلى قلب الوطن الأسيف .

« لقد حرّرت أيديهم ورقة اتهامهم . وشهدت أعمالهم بصحة إجرامهم . ولمّا عجزوا عن دفعها وتأويلها ، أخذوا يتخبطون فى دفاعهم ، تارة بالاستناد إلى سلطة وزير الداخلية رئيسهم ، وتارة إلى شهادة موظّف إنجليزى فيها شريك لهم ، وقد تبيّنت الأمة كذب دفاعهم ، وصحّة اتهامهم ، وقضت بإجرامهم ، وسوف تحكم عليهم حكمًا يقطعهم عن جسمها ويلبسهم ثوب الفضيحة والعار .

« إنى لا أخصّ باللوم ، منعى من زيارة أسيوط بحجّة حفظ النظام العام ، بعد أن ارتكبوا جناية الاعتداء فيها على المستقبلين . ولا منعى ومنع أصحابى من زيارة سوهاج

وجرجا بحجّة أننا نحن ممثليكم نكدّر الراحة العامة . ولا منعنا من زيارة قنا بالحجّة السخيفة الفاسدة وهى وجود خلاف بين عائلتين كبيرتين فيها (١٢) ، ولا منعنا عن بقية العواصم والمدن بحجّة رعاية صالحى ووقايتى من الخطر والمحافظة على الأمن . ولا منع رسوّ الباخرة بأى مكان إلا بإذن خاص ، لا أخصّ باللوم شيئا من هذا كله ، مع كونه اعتداء متكررا على الحرية الشخصية ، بل كان يمكنني أن أغض النظر عنه إذا لم يكن فيه ما يمسّ كرامة الأمة ، وإذا لم يكن مقصودا به خنق صوت الشعب وإطفاء الروح المعنوية التى امتلأ صدره بها .

كل هذا ارتكبوه ، ولكنْ فى مصلحة من ارتكبوه ؟ هم يعرفونه وأنتم تعرفونه ويعرفه أسيادهم الذين يخدمونهم ، والذين يسندونهم فى مراكزهم رغم إرادة البلاد ، ورغم غضبها عليهم ورغم احتقارها لهم .

بني وطني

« إننا نعود من هذه الرحلة المباركة ونحن أكثر من قبل فخارا بكوننا مصريين ، وأشد من قبل اعتقادا بأن اتحادنا للاستقلال تامّ غير قابل للانقسام ، وأقوى إيمانا بأننا سننال بمشيئة الله تعالى ورغم كل صعوبة ، استقلالنا فى القريب العاجل .

أشهد أن الشعب المصرى عظيم ، كما أشهد أن الله واحد . وأشهد أن أفراده جديرون ، بأن يكونوا خلفاء لسلفائهم العظام .

القاهرة فى يوم الأحد ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢١

« سعد زغلول »

* * *

والآن بعد أن انتهى وصف هذه الرحلة العظيمة التى فتح بها سعد باشا بلاد الصعيد ، وامتلك قلوب أهلها ، مناديا بالحرية والاستقلال ، يقتضينا واجب الإنصاف ـ ونحن نسجّل للتاريخ ـ أن نذكر أن رجال الإدارة من المصريين لم ينفّذوا الأوامر الصادرة إليهم من الوزارة على صورة واحدة ، فمنهم من كان يتعسّف فى تنفيذها مجاراةً للوزارة وزلفى إليها ، طمعا فى رتبة أو جرْيا وراء مأرب من أمثال « بدر الدين » مراقب الأمن العام ، و«عبد العزيز يحيى » مدير جرجا وغيرهما . ومنهم من كان يتظاهر بتنفيذ هذه الأوامر دون أن

ينفّذها فعلا . وعلى الأخص الشبّان من الضباط سواء فى الجيش أو فى البوليس . بل إن بعضهم كانوا ينتهزون غفلة رؤسائهم فيتقدّمون سراً أو فى ظلام الليل لتحيّة سعد باشا والإعراب له عن تأييدهم لحركته . وكان سعد باشا يقابل هذا الشعور بالاغتباط والسرور ويعتبره نجاحًا كبيرًا للدعوة الوطنية ، ويرى فيه المظهر الحقيقى لما عليه الأمة من إخلاص لمبادئ الحرية التى ينادى بها ، وذلك بالرغم من شواهد الضغط والتضييق المضروبة عليها . وقد شاهدنا بعض كبار رجال الإدارة يعاملون سعدا بكل تجلّة واحترام ، مقدّرين مكانته الممتازة وزعامته فى الشعب من أمثال : حسن مظلوم مدير الجيزة ومحمود صادق يونس مدير المنيا ومحمود عبد الرازق مدير قنا وإسماعيل رمزى مدير أسوان .

* * *

حتى صغار رجال الأمن كالخفراء وعساكر البوليس الذين سيقوا للهتاف ضد سعد ، كانت الغيرة الوطنية تأكل قلوبهم ، وتتملّك مشاعرهم وقت رؤيتهم له فيهتفون بحياته . بل إن بعضًا منهم كانوا ينزعون عن رءوسهم شارات الوظيفة ويدوسونها بأقدامهم احتقارًا . . . وليكنْ بعد ذلك ما يكون ! .

* * *

وكان رجال الوفد قد رأوا أن يجعلوا من عودة سعد باشا إلى بيت الأمة ، بعد غيابه عن القاهرة زهاء ثلاثة أسابيع تخللتها أحداث رهيبة وحوادث مفجعة ، مناسبة لتمكين أكبر عدد من سكان القاهرة من الاجتماع به والاستماع إليه خطيبا يتحدّث عن هذه الرحلة لاسيّما وأن سيف الرقابة المصلت على الصحف إذ ذاك ، كان يحول بينها وبين نشر كثير من أخبار هذه الحوادث بالإسهاب الذى يوضّحها ويرويها بلا تحريف . فدعوا لحفلة كبرى أقيمت مساء يوم ٣١ أكتوبر غداة العودة بنادى الرياضة البدنية « لمدرسة وادى النيل » بشارع المنيرة . وقد أعدّ لهذا الغرض سرادق كبير إمتلأ بعشرات الألوف كما حضره كثير من رجال الوفد وعلى رأسهم فتح الله بركات باشا ومرقص حنا بك وواصف غالى بك وأحمد يحيى باشا والسيد حسين القصبى وغيرهم[١٣] .

وبقيت هذه الألوف فى السرادق تنتظر حضور سعد مدة طويلة . فلمّا مضى الميعاد دون أن يحضر اشتدّ القلق بهم ، واشرأبت أعناقهم نحو الباب تنتظره بصبر نافد . ثم لم تلبث الهمسات تتبادل بين الحضور بأن سعدا مريض . . . وتلتها همسات أخرى بأن

السلطات الإنجليزية كانت تنتظر عودته من الصعيد لاعتقاله . . . كما تحدث آخرون بأن هذه السلطات منعته من الخروج من المنزل ، وخشى رجال الوفد أن يشتدّ غضب الجماهير لهذه الإشاعات فتخرج عن طورها ونظامها ، للإعراب عن استيائها مما يكون قد وقع . ولكن لم تمض لحظات حتى حضر مصطفى النحاس بك فظنّت الجماهير أن سعدا قادم على الأثر وتعالى هتافهم بحياته . ولكن سعدا لم يظهر واستمر النحاس بك يهدئ من شعور الجموع حتى بدأتْ فى الإنصات له ، وصعد المنبر والأصوات تتساءل أين الرئيس ، أين الرئيس ؟ فقال النحاس بك « ستعلمون أين هو مما سأتلوه عليكم » . فوجم الجميع وخفتت أصواتهم وسكتوا كأن على رءوسهم الطير .

وشرع النحاس بك يتلو رسالة من سعد باشا وجّهها إلى الحاضرين وفيها أن المرض اشتد به فمنعه الطبيب عن الحضور . وما علم السامعون ذلك حتى علا وجوههم التأثر، قلقاً على صحة زعيمهم من أن يصيبها سوء .

وبعد أن انتهى النحاس بك من إلقاء كلمة سعد باشا ، ألقى حسن أفندى فائق ، «الممثل المعروف » ، منولوجا شعبيا بديعا . ثم اعتلى المنصّة الأستاذ أمين عز العرب فالقى خُطبة فيّاضه . وأعقبه القمص بولص غبريال راعى « كنيسة حارة الروم » وأحد خطباء الحركة الوطنية المتّقدين غيرة فخلب العقول والألباب .

أما رسالة سعد باشا إلى المجتمعين فنصّها :

« كنت أودّ من صميم فؤادى أن أكون بينكم فى هذا الاحتفال العظيم ، لأتبادل معكم حديث سياحتنا ، وأبلغكم تحيّات سكان الوجه القبلى التى أحملها إليكم بغاية السرور . ولأعبّر لكم عن شدّة إخلاصهم للمبدأ الذى يدافع عنه جميعنا إخلاصاً يستحق كل إعجاب ، وأبدى لكم عظيم ابتهاجى بلقائكم بعد تغّيبى عنكم مدة عشرين يوما . مدة امتلأت بالحوادث واستحقت كل تمجيد وإكبار ، وانكشفت فيها أدنأ المؤامرات وأشدها إجراما انكشافا عكس القصد منها وردّ كيدها فى نحور الذين دبّروها ، والذين نفّذوها ، بفضل الشعور الذى أضاف إلى ما فيه من عزة وروح وطنية ومحبة للنظام الحكمة البالغة والتفرقة بين إخلاص المخلصين وخديعة الخادعين .

ولكن لسوء حظى ، اضطّرت حالتى الصحية طبيبى أن يمنعنى من الخطابة ، بل ومن مغادرة حجرتى . وألزمنى أن أستريح بضعة أيام . فخضعت لإشارته ، لا كخضوعى من

قبل لأوامر الإدارة التى منعتنى من النزول فى أى مكان من الوجه القبلى ، لأن إشارة الطبيب لصالحى وأنتم من صفّه ، أما أوامر الإدارة فلم أعارض فيها مع كُون الأمة فى صفّى إتقاء لشرّ إصطدامها بالقوة الغاشمة . واحتججتُ على كل منهما . ولكن احتجاجى على الإدارة كان لتعدّيها على الحرية الشخصية وعدم صحة الأسباب التى انتحلتها لتسويغ هذا التعدّى ، أما الاحتجاج على الطبيب فلكونه حرمنى من أطيب شىء كنت أودّه بعد عودتى ، وهو الاجتماع بكم والتمتع برؤيتكم . على أن ما كنت أريد قوله فى احتفالكم ، قد أتيت تقريبا على جوهره فى كلمة الشكر التى نشرت بجرائد اليوم وليس عندى الآن ما أضيفه إليها إلا أمران :

أولا : الرجاء ، أقدّمه لأهالى الوجه القبلى ألا يشتدّ استياؤهم من تكرار اعتداء الإدارة على ضيفهم . فقد سخر الناس من صنعها ، وأنتج هذا الاعتداء عكس ما قصدت ، وأساء إليها بمقدار ما أحسن إلى غيرها .

ثانيا : الشكر الجزيل ، أرفعه إلى حضرات الذين نظّموا هذا الاحتفال والذين شرّفوه بحضورهم . إن الغاية من رحلتنا قد تحققت تحققاً فاق انتظارنا ، وسأشرح ذلك بإذن الله فى اجتماعى بكم بعد شفائى . وأرجو أن يكون ذلك يوم ١٣ نوفمبر الآتى ، حيث نتقابل إن شاء الله لإحياء ذكرى هذا اليوم التاريخى الذى طلع فيه فجر نهضتنا الحاضرة ، ونهتف جميعا بموت الظلم ، وحياة الحرية ، وحياة مصرنا العزيزة ، والاستقلال التام .

القاهرة فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢١

« سعد زغلول »

هوامش الفصل الرابع عشر

(١) يقول التقرير البريطانى ان المسئولين فى قنا قد ادعوا ان نزول سعد فيها سوف يؤدى إلى اثارة الفتنة بين الاشراف والحميدات F.o. 407/191 Ibid .

(٢)يسىَ أندراوس باشا . ووالد الأستاذ عدلى أندراوس سفير مصر بأثينا (١٩٤٩ ـ ١٩٥٢)ثم باريس (١٩٥٢ـ١٩٥٣) .

(٣) جاء فى التقرير السرى الخاص بزيارة الاقصر مايؤكد قصة فخرى عبد النور إذ يقول إن « نوبيا وصلت عصر يوم الخميس ٢٠ أكتوبر إلى الأقصر حيث وقف توفيق بك بشارة صاحب فندق سافوى وبعض أعضاء أسرته وهو رعية إيطالية . وقد وقف زغلول على الباخرة وألقى خطبه على الضيوف الذى جمعهم توفيق بشارة عبر الطريق » F.o. 407/191 No . 28

(٤) يقول تقرير المندوب السامى أن الباخرة وصلت إلى اسنا الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم السبت ٢٢ اكتوبر . وكانت هناك مظاهرة زغلولية فى اسنا فى اليوم السابق حيث تجمع نحو ٣٠٠ شخص بزعامة القاضى الشرعى فى المدينة وهو أحد أنصار سعد المتحمسين والذى نقل من القاهرة إلى اسنا عقوبة له على مشاركته فى أعمال الثورة . وقد قام رجال البوليس باغلاق الطرق المؤدية إلى الشاطئ كذا وقفوا فى نطاق لمنع الناس من الوصول إليه F.o. 407/191 Inc. in No. 28.

(٥) لايشير فخرى عبد النور إلى وقوف الباخرة فى إدفو وهو ماتتحدث عنه الوثائق التى تقول إن عديدا من أهل ادفو خرجوا بقواربهم والتفوا حول الباخرة حيث خطب فيهم سعد F.o. 407/191 Ibid .

(٦) تشير الوثائق إلى أن مجموعة من سيدات أسيوط قدن باحتلال حديقة مطلة على النيل وأخذن فى التلويح والهتاف للباخرة بالاضافة إلى اقتحام عديد من أبناء أسيوط للكوردون الذى اقامه البوليس فى محاولة للوصول إلى الباخرة التى كانت تطلق صفارتها بامتداد سيرها بحذاء المدينة F.o. 407/181 Ibid.

(٧) عضو مجلس الشيوخ فيما بعد .

(٨) بالإشارة إلى المقالات النارية التى كان يكتبها فى الصحف تحت هذا العنوان .

(٩) عند الواسطى استقل عدد من أبناء الفيوم السفينة مع سعد باشا فى رحلة العودة إلى القاهرة .

(١٠) تقول التقارير انه كان هناك مئات عند كوبرى الروضة وان المستقبلين قد ملأوا الشوارع من هذا الكوبرى إلى بيت الأمة F.o. 407/181 Ibid.

(١٢) الاشراف والحميدات .

(١٣) يعترف المندوب السامى بان السرادق الذى اقيم فى ملعب كرة القدم بالمنيرة قد قصده الألوف وان الشيخ « أمين عز العرب » القى خطبة عدائية فيها وان بضع مئات خرجوا بعد الاحتفال للتظاهر فى المنطقة المجاورة وان البوليس تصدى لهم لتشتيتهم F.o. 407/181 Ibid

الفصل الخامس عشر

سعد يتابع جهاده فى القاهرة ـ الأنباء تأتى من لندن بتعثّر المفاوضات بين كيرزون وعدلى ـ كيرزون يقدم مشروعًا للمعاهدة مخيبًا لآمال الأمة وأمانيها ـ نقاط المشروع ـ كبت حرّيات الشعب ـ احتفال الوفد بعيد الجهاد الوطنى فى نوفمبر ١٩٢١ ـ محاولة تدبير اعتداء على سعد ـ خطاب تاريخى لسعد يستعرض فيه الموقف السياسى ـ سعد يدعو الأمة إلى الاستمرار فى الكفاح ، وبذل المزيد من التضحيات فى سبيل نيل الاستقلال .

* * *

بينما هذه الحوادث تحدث فى مصر ، وبينما كانت البلاد تئن تحت وطأة الإعنات والتضييق والكبت للحريات العامة ، والحرمان من الحقوق المشروعة لكل إنسان . وبينما كان سعد باشا يوالى جهاده فينير الطريق بتنبيه الرأى العام إلى الخطر المحدق من محاولة أخذ اعتراف المصريين بقبول الاستعباد ، والخضوع إلى الأبد للإنجليز . وبينما كان الشعب يوالى صراعه ضد قوى الاستعمار وأذنابه ، تلك القوى التى تألّبت عليه لتحول بينه وآماله فى الحرية الكاملة والاستقلال التام . بينما كان هذا كله يحدث فى مصر ، كانت الأنباء تتوالى كل يوم عن المفاوضات التى كانت تجرى إذ ذاك فى لندن ، بين عدلى باشا ولورد «كيرزون» وزير الخارجية البريطانية ، وكان التناقض فى هذه الأنباء يبدو عجيبًا . فقد ورد فى ٢٨ أكتوبر تلغراف لشركة « رويتر » يتضمّن أن مجلس الوزراء البريطانى « شرع ينظر فى مسألة مصر » وأن المفهوم أن مشروعًا صار مُعدًا لتوقيع المندوبين المصريين . ولكن الظاهر أنهم يحجمون عن توقيع وثيقة ما ، بسبب إرهاب المتطرّفين[1] فى مصر (كذا . !) . ثم قالت الوكالة إنه ليس هناك دليل على وقوف المفاوضات .

وفى اليوم نفسه قال مكتب الصحافة المصرية بلندن ، إن مشروع الاتفاق الذى تشير إليه رويتر لم يصل إلى المفاوضين المصريين ، ولكن يُنتظر بلاغ قريب متى فرغ مجلس الوزراء البريطانى من بحث المسألة .

وفى اليوم التالى مباشرة أى يوم ٢٩ أكتوبر نشرت الصحف أن مستر «لويد جورج»

رئيس الوزارة البريطانية أجاب بالسلب على سؤال خاص بها إذا كانت المفاوضات وصلت إلى نقطة يحتاج الأمر فيها إلى توقيع المندوبين المصريين فقط لكى يتم كل شىء ، وما إذا كانت الحكومة البريطانية وافقت فعلاً على جميع مطالب المصريين .

وهكذا مرّت مصر بفترة تعدّدت فيها روايات الصحف وشركات الأنباء بشأن المفاوضات وقطعها أو عدم قطعها ، وتكتّم أنبائها الصحيحة . حتى عُلم فى يوم ١٠ نوفمبر، أن لورد كيرزون قدّم لعدلى باشا مشروعًا للمعاهدة وأن الأسس التى بنى عليها هذا المشروع تشمل ما يأتى :

١ ـ تعترف الحكومة الإنجليزية بمصر دولة دستورية ذات سيادة وتُرفع الحماية البريطانية التى أعلنت على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، مقابل إبرام المعاهدة مع بريطانيا العظمى .

٢ ـ يكون لانجلترا الحق فى أن تحل بقوّاتها العسكرية أى مكان فى مصر فى أى زمان . ويخضع لهذه القوّات كل ما فى مصر من سبل المواصلات والثكنات والمطارات والقواعد الحربية والترسانات . وذلك للدفاع عن مصالح مصر الحيوية وسلامة أراضيها وحماية مواصلات الأمبراطورية .

٣ ـ يكون لانجلترا فى مصر ممثل يُلقّب « بالمندوب السامى » .

٤ ـ يكون وزير الخارجية المصرية على اتصال وثيق بالمندوب السامى .

٥ ـ لا يجوز لمصر أن تعقد أى اتفاق سياسى مع دولة أجنبية ، دون أخذ رأى انجلترا .

٦ ـ لا يجوز لمصر أن تعيّن فى جيشها ضبّاطًا أجانب ، وفى مصالحها موظّفين أجانب ، دون موافقة انجلترا .

٧ ـ يكون لانجلترا فى مصر مستشار مالى وآخر قضائى . ويكون للأول اختصاصات «صندوق الدين » ، ويكون مسئولاً عن دفع المخصّص فى الميزانية العامة للمحاكم المختلطة ومعاشات الموظفين الأجانب ، ويجب أن يُحاط علمًا بكل ما يجرى فى اختصاص وزارة المالية . ويجب أن تؤخذ موافقته على أى قرض خارجى ، وعلى تخصيص إيراد معيّن للوفاء بدين مصر ، كما يكون له حق الدخول على رئيس الوزراء ووزير المالية فى كل وقت .

أمّا المستشار القضائى فيكون له حق مراقبة تنفيذ القوانين فى كل ما له مساس

بالأجانب ، فيما يكون من اختصاص وزارتى الحقانية والداخلية كما يكون له حق الدخول فى كل وقت على وزيرى الداخلية والحقانية .

٨ ـ تكون المفاوضات الخاصة بإلغاء « الامتيازات الأجنبية » من اختصاص الحكومة البريطانية التى تتولى حماية مصالح الأجانب فى مصر .

٩ ـ تتعهد مصر بأن تستمر فى تأدية المساعدات الحربية التى تؤديها للسودان [٢] . أو أن تدفع بدلها إعانة مالية يُتفق عليها . وتكون قوّاتها فى السودان تحت أمر الحاكم العام . وتضمن انجلترا لمصر نصيبها العادل من « مياه النيل » . ولهذا لا تقام أعمال رى جديدة على النيل جنوب حلفا ، إلا بعد موافقة مُمثّلين لمصر والسودان وأوغندا .

* * *

هذه هى أسس « مشروع المعاهدة » التى تمخّضت عنه مفاوضات « عدلى ـ كيرزون » . وما أن أذيعت هذه الأسس حتى قوبلت بوجوم فى جميع أنحاء البلاد ، وأحسَّ الناس فى مصر من أقصاها إلى أقصاها مدى الهوّة التى تحاول انجلترا أن تحمل مصر على التردّى فيها . بل لقد لمسوا بأيديهم الحبال التى تفتلها السياسة الإنجليزية ، لتسلّمها لمصر ، كى تخنق نفسها بها . أجل قرأ الناس هذا المشروع « البشع » الذى سلّمه كيرزون لعدلى باشا فعرفوا لماذا وقف سعد باشا من رياسة عدلى لوفد المفاوضين موقفه المشهور . بل لقد أدرك المعارضون من رجال الوفد المختلفين مع رئيسه ، كالأستاذ عبد العزيز فهمى وإخوانه الذين حاولوا أن يؤلّبوا الدنيا على سعد باشا لإصراره على أن « يرأس » هو وفد المفاوضين ، والذين اتهموه بأنه يعرقل جهاد الأمة فى سبيل مسألة شكلية لا تقدّم ولا تؤخر . أدرك هؤلاء جميعًا أن سعد باشا لم يكن متجنيًا على عدلى باشا حينما رفض أنْ يرأس الوفد الرسمى المُكلّف بمفاوضة الإنجليز ، كما أنه لم يكن متجنيًا على الحركة حينما اختلف مع عدلى على هذه النقطة الجوهرية . لأنه كان يعلم ، من سابق اتصالاته بالرسمّيين وغير الرسميّين من الإنجليز خلال سنتى ١٩١٩ و ١٩٢٠ ، أن الحكومة الإنجليزية لا يمكن أن تُسلّم لمصر بمطالبها إلاّ إذا كان يرأس وفدها رجل قوى الشكيمة ، مؤيد من مختلف طبقات الشعب المصرى . وأنها لم ترض بعدلى رئيسًا لوفد المفاوضة ، ولم تعمل على تولّيه الحكم ، إلاّ لتقطع على سعد سبيل مواجهتها بمطالب الشعب ، ولما تعرفه فى عدلى من اعتدال فى المنحى السياسى . ولما تتوقعه من أنه قد يرضى بالقليل الذى يأباه سعد . وأنها

لهذا تستطيع أن تأخذ منه ما لا يمكن أن تأخذه من سعد .

وإذن فقد كانت معارضة سعد لعدلى هى معارضة مصر القوية المتشدّدة للرأى المعتدل المتخاذل الذى يُروّج له البعض . وهى معارضة عادت فى النهاية على الأمّة بالنفع الكبير . فلو لم يعارض سعد مفاوضة عدلى ، لكانت النتيجة المحتومة هى قبول « مشروع كيرزون» . على ما فيه من مساوئ ظاهرة . والقضاء على الحركة الوطنية قبل أن يتحقق مطلب البلاد فى الاستقلال الكامل .

فهل يُمكن بعد هذا أن يُقال إن الخلاف بين سعد وعدلى كان خلافًا شخصيًا ، أو أنه كان على مسائل شخصية ؟

* * *

وحلّ موعد «عيد الجهاد الوطنى » فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢١ أى بعد أيام قليلة من قطع المفاوضات ، وسعد باشا لا يزال مريضًا ، ملازمًا فراشه . ولكنه ـ رحمه الله ـ صمّم على حضور الحفلة على الرغم من نصيحة الأطباء له بعدم حضوره ، وهم الدكاترة طلعت باشا وحسن كامل بك وعلى رامز بك ونجيب اسكندر .

وقد أقيمت هذه الحفلة فى سرادق كبير نُصب فى فناء مدرسة «وادى النيل » التى أسسّها محمد وهبى بك ، وقد اتّسع هذا السرادق لأكثر من عشرين ألف شخص . فلمّا حضر سعد باشا دوّت أصوات هذه الألوف بالهتاف له ولمصرَ وللاستقلال التام والحرية(٣) .

وقد تصدّر ـ رحمة الله ـ الحفلة . وجلس بجواره أحمد مظلوم باشا وأحمد يحيى باشا . وألقى أحد الأدباء زجلا لطيفًا على الطريقة الصعيدية .

وكان سعد باشا قد طلب منى أن أستعد لإلقاء كلمة ، أروى فيها ما حدث فى جرجا أثناء الرحلة . كما طلب إلى أحد رجال مديرية أسيوط أن يروى الحوادث التى حدثت فيها أيضًا ، فصعد إلى المنبر وشرع يروى هذه الحوادث . إلا أن إلقاءه لم يُعجب سعد باشا . فصعد ـ رحمه الله ـ إلى المنبر وألقى خطابًا مستفيضًا استغرق أكثر من ثلاث ساعات والجمع منصت لا يكلّ ولا يملّ ويقاطع فقرات الخطاب بالتصفيق والهتاف (٤). وسوف أسجّل نصّه فيما بعد لأهميته الكبيرة .

وكان فتح الله بركات باشا قد علم أن اعتداءً مدبّرًا ضد سعد باشا سينفّذ فى هذه



الزعيم بعد عودته من رحلة الصعيد وقد بدت عليه علامات التعب والارهاق

الليلة ، وأن أحد الأجانب هو الذى سيُنفّذ الاعتداء ، فأسرّ إلينا فتح الله باشا بما علم . وكان المنبر موضوعًا فى طرف السرادق بحيث يسهل الاعتداء من الخلف على من يقف فوقه موجّهًا وجهه شطر الجماهير المحتشدة فى السرادق ، فخشينا أن يكون الخبر صحيحًا ، واحتطنا للأمر احتياطًا تامًّا .

ذلك أنه ما صعد سعد باشا إلى المنبر ليلقى خطابه ، حتى كنّا أنا وفتح الله بركات باشا وعاطف بركات والأستاذ نجيب الغرابلى ، واقفين حوله كالحلقة بحيث إذا تقدّم المعتدى لتنفيذ جرمه ، تلقى أحدنا الطعنة قبل أن تصل إليه .

وهكذا بقينا أكثر من ثلاث ساعات ، وسعد باشا يتنقل فى خطابه من نقطة إلى أخرى ، والجمهور مأخوذ بسحر بيانه حتى أتمّ الخطاب والتصفيق يدوّى فى جنبات السرادق كأنه الرعد القاصف ، والهتاف يتردد عاليًا بين الحين والحين .

وهنا لابدّ من أن نذكر حقيقه ، لمسها كل من حضر هذه الحفلة التاريخية . فإن سعد باشا المريض الذى غادر الفراش على الرغم من نصيحة الأطباء ، أوتى وهو على المنبر قوة قلّ أن نعهدها فى الأصحّاء . بل أقسم أننا ، وقد كنّا إذ ذاك فى سنّ الشباب ، قد تعبنا من طول الوقوف . أمّا هو ، أمّا سعد الذى نيّف على الستين من العمر والذى كان يعيش وفق نظام طبى خاص ، فقد صمد صمود الأسود وكان بين اللحظة والأخرى يزداد قوة ، حتى لقد كان فى نهاية الخطبة أقوى منه فى أولها ، بما منحه الله من جلد وصبر وقوة الإيمان .

وكانت هذه الخطبة المستفيضة ختام هذه الحفلة .

وقد تعرّض فيها سعد باشا بإسهاب لحوادث العام الماضى (١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٠ ـ ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢١) . وللخلاف الذى نشب بينه وبين أعضاء الوفد حول تأليف وفد المفاوضة ، ورأيهم بوجوب منح الوزارة العدلية «ثقة الأمة » ، بالرغم من عدم اشتراك الوفد فى هيئة المفاوضة . وسجّل على الوزارة عملها على خنق العاطفة الوطنية وكبتها للحريات العامة وحكمها بالاستبداد فى الوقت الذى تدّعى فيه أنها تسعى إلى الاستقلال والحرية . ثم وصف ما وقع خلال رحلة الصعيد من أحداث بالغة واتهّم الإدارة بأنها هى التى تسبّبت فى وقوعها وارتكابها بقصد إطفاء الجذوة الوطنية التى أشعلتها دعوة سعد فى النفوس . ثم ناقش الأنباء التى وردت عن مفاوضة البعثة الحكومية برياسة عدلى للورد

كيرزون ، ووصفها بأنها أنباء لا يُقصد بها إلاّ التضليل ، وحذّرهم من التفريط فى حقوق البلاد وأمانيّها القومية .

ونحن نسجّل هذه الخطبة بحذافيرها ، دون أن نخذف منها شيئًا . لأهميتها فى تفّهم حوادث عام حاسم فى تاريخ حركتنا الوطنية ، ازدحم بما وقع فيه من أمور ترتبت عليها أبلغ الآثار فى تطوّر الحوادث خلال سنتى ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ ولأنها من أبلغ الخطب التى ألقاها سعد باشا طوال زعامته للأمة .

وهذا هو نص الخطبة بالكامل :

« أبدأ خطابى باسم الله الرحمن الرحيم ، وأشكره على عودة صحّتى إلى اعتدالها . كما أشكر حضرات الذين تفضلوا بالسؤال عنّى أثناء انحرافها . وأرجو لحضراتهم دوام العافية .

إن للإنسانية فى مظاهرها المختلفة ، فى الأفراد ، فى الجماعات ، فى المذاهب ، فى الديانات ، أيامًا سعيدة يؤرّخ بها كل مظهر حياته ، ويعتبرها عيدًا له ويحتفل بها فى كل دورة من الزمان . تذكارًا لما وقع فيها من الحوادث الخطيرة الشأن التى لم يسبق لها عنده من مثال . كأن هذه الإنسانية محتاجة فى حمل أعباء الحياة بنشاط وقوة إلى أن تذكر ما أحرزت من نصر، وما أدركت من نجاح فى أيامها السالفة .

إنّ العيد الذى نحتفل اليوم به ، يمتاز عن أمثاله بكونه ليس علامة انتصار حزب على حزب أو فوز طبقة على طبقة من أمة واحدة . ولا علامة قهر بلاد لبلاد أخرى بعد مقاساة آلام حرب دموية هائلة لا تلد إلا العداوة والبغضاء.ولكنه عيد سلمى هادئ ، عيد حرية تعتمد فى انتصارها لا على القوة الغاشمة ، بلّ على قوة العقل والعدل والحق ، وعلى الإرادة المتجددة القائمة بشعب متجانس عزيز وشاعر بعزته .

أيها المصريون . .

علينا إن نذكر ١٣ نوفمبر ، ونحتفل به بكل إعجاب وفخار ، إذ لم يمض على الهدنة يومان حتى نهضت مصركم العزيزة أمام من نادوا بأنهم حاربوا للعدل نهضت تطالبهم بقسطها من هذا العدل . لم نتقدم بهذا الطلب فى أثياب ذلّة ولا مسكنة ، ولم نطلبه حسنة من محسن ، ولا جوداً من كريم ، ولكنها تقدمت به وعليها حلّة من مجدها السابق . حلّة موشّاة بالمساعدات والضحايا التى بذلتها فى سبيل القضية المشتركة ، إذ قدّمت مليوناً ومائتى ألف شخص لمساعدة المحاربين ، وقدّمت حكومتها ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف

جنيه على سبيل الإعانة للحرب وقدم أهلها مبالغ عظيمة إعانة للجرحى وغيرهم ، ووضعوا تحت تصرّف الحلفاء جميع محصولاتها ودوابها وطرق مواصلاتها ونقلها ومواهب أبنائها . تقدّمت لمن فازوا بالنصر فى الحرب الكبرى ، كشريكة لهم فى أعمالهم ، وصديقة فى تحمل آلامها ، تقدّمت إلى الإنجليز غداة انتصارهم ، بصفة كونها من أكبر عوامل هذا الانتصار فى الشرق ، وكمداينة لهم بوعود الشرف التى تعهّد بها ساستهم وأبطالهم .

نحتفل اليوم بهذا العيد فى بلادنا ، وسيحتفل به إن شاء الله فى غير بلادنا ، حيث تُرفع أعلام الدول المتحاربة احتراماً لمعناه وإكراماً لمغزاه .

ومهما تكن حالنا من سعادة أو شقاء ، من سرّاء أو ضرّاء ، فإنّ علينا إحياء ذكرى هذا اليوم ، وليكن بيننا يوم صدق وإخاء ، يوم ثقة ووفاء ، يوم يرجع فيه كل مصرى إلى نفسه فيحاسبها على ما قدّمت من خير فيستزيد منه ، ومن شرّ فيستغفر له ، وإلى ربّه فيطلب منه المعونة على تحقيق آماله وإعزاز بلاده ، وإلى وطنه العزيز فيجدّد قسم الصداقة والمحبة والفداء .

سادتى :

ما الذى حدث بعد يوم ١٣ نوفمبر الماضى الذى احتفلتم به ، عندما كنّا بباريس ، وتبادلنا فيه مع الأمة بواسطة اللجنة المركزية عبارات التهانى والتمنّيات القلبية ؟

يجب أن نستعرض حوادث العام الذى أزمع الرحيل عنّا ، ولو على طريق الإجمال . وكنت أودّ أن يخلو مما يمسّ بمن اشتركوا معنا فى النهضة التى نحتفل اليوم بعيدها ، ولا يكون فيه إلا ما يختّص بالاعتراف بفضلهم ، والثناء على عظيم جهادهم . ولكن للتاريخ حكما يجب احترامه ، وللحقيقة سلطانًا تلزم طاعته ، ولأعمال هؤلاء بعد قيام هذه النهضة ما لا يمكن غضّ النظر عنه لما له من الدخل الكبير فى صعوباتنا الحاضرة . وواجبى فيكم بصفة كونى وكيلاً عنكم ، يحتّم علىّ أن أقدم لكم حسابًا صادقًا عن وكالتى ، وأن أصارحكم القول من غير مداجاة أو مجاملة ، إذ لا مجاملة فى الحقوق العامة ، ولا هوادة فى حساب وكلائها ، خصوصًا وقد كثر القول فى هذه الأيام عن شىء يسمونه صلحًا واتحادًا ، فوجب التذكير بهذه الأعمال ليتبّين للذين يبدون هذه الأقوال عن حسن نية ، أن الخلاف الذى يدعون لتلافيه ليس مضرّا بالبلاد ، ضرر الاشتراك بين العاملين الذين اختلفت مبادؤهم ، وتباينت مناحيهم .

* * *

تعلمون أننا عدنا إلى باريس بعد انقطاع المفاوضات بين الوفد « ولجنة ملنر » فى ١١نوفمبر . وأن الذين عرضوا المشروع عليكم لم يعرضوه بالنزاهة التى توجبها عليهم الأمانة والصدق . وبذلوا كل جهودهم فى استمالتكم إلى قبوله ، وفى إظهاره لكم بمظهر مشروع استقلال لا حماية ، فلم تحفلوا بعرضهم ، ولم تقبلوا تفسيراتهم ، وأبديتم « تحفّظات » غاية فى الدقة والصواب ، وإننا حرصنا على هذه التحفّظات ، وعرضنا على لجنة ملنر بحثها . فأبت النظر فيها ، وصممّت على أن يكون بحثها أثناء المفاوضات الرسمية التى حرصت بضرورة الدخول فيها على أساس مشروعها . وتعلمون أننا قررّنا ألا ندخل فيها على هذا الأساس إلا بعد تعديله بهذه « التحفظات » ، وأننا صرّحنا « للجنة ملنر » شفها وكتابة بأنه لا يوجد مصرى ، للأمة أقل ثقة فيه ، يخالف هذا القرار . ولقد تلقّينا بعد ذلك من كل ناحية من أنحاء البلاد تلغرافات كلها استحسان لهذه الخطّة وتشجيع على التمسك بها . ولكن الذين حاولوا من أعضاء الوفد سِرًّا وعلنًا ترويج ذلك المشروع لم يوافقوا على هذا القرار إلا اضطرارًا ، لأن الأغلبية كانت ضدهم وخشية غضب الأمة عليهم إذا جاهروا بخلافه . ولهذا كانت تلغرافات استحسان هذه الخطة تقع عليهم وقوع الصواعق . وكانوا يجتهدون هم وعدلى باشا بكل ما فى وسعهم لإقناعنا بقبول الدخول فى المفاوضات على أساس ذلك المشروع . ولكنهم كانوا يرون منى ومن إخوانى المخلصين تشدّدًا فى التمسّك بتلك الخطّة و إصرارًا على التزامها ، ولم يكن مسعاهم هذا ولا خلافهم بخاف أمره خصوصًا على الإنجليز. وعلى الأخصّ اللورد ملنر. فإن جرائدهم كانت تتكلم به من وقت لآخر ، تعطف على المخالفين ، وتقسو على غيرهم ، وكتب لورد ملنر إلى أحد أصدقائه يشكو إليه من تشدّدنا ، ويرجوه أن يستعمل ماله من الصداقة معى فى إقناعى بقبول « مشروعه » قائلاً إنه لم ينجح فى إقناعى بصحتّه . كما أن كثيرًا من إخوانى الذين يطلبون مطالبى لم يفلحوا فى سعيهم لهذا الإقناع . ثم توالت التلغرافات بأخبار هذا الانقسام وبمعاكسة عدلى للوفد فى خطّته ، وبأنه كان كارثة عليه مما أثار الشكوك حول هذا الباشا وحول إخلاصه . فرأيتُ من حسن السياسة منع عدلى من المجاهرة بالميل للإنجليز ، ومنع الإنجليز من توهم أن فى المصريين من يجرؤ على قبول مشروعهم. رأيت أن أفعل ذلك بالدفاع عنه ضد تلك الإشاعات ، مقابل أن يتعهد بكونه لن يعمل عملاً إلا بالاتفاق مع الوفد. وبناء عليه أرسل هو تلغرافًا بهذا التعهّد ، وأرسلت أنا تلغرافًا بنفى تلك الإشاعات عنه وهو ما تؤاخذنى الأمة عليه الآن ، ولكن عذرى فيه ما تقدّم ، هو عذر إن لم يمح الخطأ كله فهو من الظروف المخفّفه للوم علىّ ، ولكن عدلى عاد إلى مصر وما لبث حتى أخذ أصحابه وأذنابه يبثّون فى الناس فكرة استحسان الدخول فى المفاوضة ،

على أساس « مشروع ملنر » . واستعانوا على ذلك بالكتابة فى الجرائد ، والأقوال فى المحافل ، والوشوشة فى الآذان . كان هؤلاء يفعلون ذلك فى مصر ، بينما كان نصراء المشروع من أعضاء الوفد بباريس يسعون لدينا ليل نهار فى تحسين هذه الفكرة بطرق مختلفة ، ويتخّذون من سياسة « الوزارة النسيمية » وسوء تأثيرها حجّة على هبوط « الروح المعنوية » فى البلاد ، وإلى وجوب الاتفاق قبل أن يبلغ هذا الهبوط مبلغه ، ويستكتبون أصدقاءهم خطابات لنا ولهم يشكون فيها حال الضعف فى الهمم والهبوط فى العزائم ، ويدعون إلى قبول مشروع ملنر . ومن هذه الخطابات ما نشرناه ومنها ما لم ننشره . ومن هذا القبيل خطاب ورد من عدلى باشا فى شهر ديسمبر سنة ١٩٢٠ يقول بأن هناك حركة ترمى إلى تحويل الرأى العام إلى وجهة أخرى يخشاها العقلاء ، ويرون أن الإنجليز ربّما لا يعطوننا حتى أقل من « مشروع ملنر » . فلم أحفل أنا وإخوانى بهذه الكتب ، وعلمنا أنها دسائس مدبّرة لاستمالتنا إلى أن نتفق معهم ؟

وأخيراً أراد أصحابنا أن نمضى نداء يعلن الثقة بعدلى ، ويصرّح بأن الوفد لا يدخل بنفسه فى المفاوضات إلا بعد تعديل مشروع ملنر « بالتحفّظات » التى أبدتها الأمة ، ولكن إذا قامت وزارة بيدها تصريح يتضمن الوعد بأن إلغاء الحماية يكون أساسًا من الأسس التى تبنى المفاوضة عليها ، فإن الوفد يؤيدها فى المفاوضة . ولمّا كان لا معنى لهذا النداء إلا أن الوفد لا يثق بنفسه ، وإنما يثق بتلك الوزارة التى هى وزارة عدلى ، وأن يكون مسئولاً عن المفاوضات من غير أن يكون له دخل فيها ، رفضت إمضاء هذا النداء لكونه غير مفهوم ، ولا قابلاً للفهم . فلم يسع المنشقون إلاّ أن عادوا بالطريقة التى تعرفونها ، ولم يسعنى إلا أن نبّهت الانظار إلى سوء الفكرة التى نبتت فى رءوسهم بالتلغراف الذى نشرته بعض الصحف هنا . ولكنّهم لما عادوا ورأوا من سوء مقابلة الأمة لهم ما رأوا ، لم يجرأوا أن يؤيدوا فكرتهم ، بل أصدروا بيانًا أكّدوا فيه تمسكهم بقرار الوفد . وصرّحوا فوق ذلك بأنهم لا يؤيدون أية هيئة تدخل المفاوضة الرسمية إلا إذا كانت متفقة مع الوفد فى مبدئه وخطته . أصدروا هذا البيان ولكنّهم لم يعملوا به ، وسعوا بطرق مختلفة ضد تنفيذه وترويجًا لفكرتهم التى عادوا بها ، وهى العمل ضد الوفد ورئيسه وترويج فكرة وزارة الثقة ، ووجدوا من ضعاف العزائم والهازلين والمجّردين من الضمائر ، والطامعين ممن ملّوا العمل وقطعوا الأمل ، من ظاهروهم فى سعيهم ، وتضامنوا معهم على بيع البلاد بالراحة والهدوء وقضاء الشهوات الدنيئة فى ظلّ الحماية والاستعباد وهكذا خلقوا جوًّا من الملل والاستسلام الدنىء .

هناك رأى الإنجليز أن الفرصة سانحة لتنفيذ « مشروع ملنر » الذى علّقت جرائدهم على قبوله أهمية كبرى ، واعتبرت أهمية سقوطه نكبة عظيمة على الأمبراطورية البريطانية . فأصدرت الحكومة الإنجليزية بلاغًا اعتبرت فيه الحماية علاقة غير مرضية ، وأشارت بتعيين مفاوضين رسميين لأخذ رأيهم فى مقترحات اللورد ملنر والبحث فى استبدال الحماية ـ إن أمكن ـ بعلاقة أخرى تضمن مصالح الإنجليز ، وتمكنّهم من أن يضمنوا المصالح الأجنبية فى مصر . وقدّم جناب اللورد اللنبى هذه الدعوة بتاريخ ٢٦ فبراير إلى عظمة السلطان ، وفى يوم ٥ مارس قدّم عدلى باشا إلى الوكالة البريطانية التقرير المشهور الذى أشار فيه إلى شروط المفاوضين وضرورة تقسيم الوزارة إلى قسمين : قسم يباشر المفاوضة فى لندن ، والآخر يبقى هنا لتوجيه الرأى العام إلى الوجهة التى يريدها القسم الأول .

وفى ١٦ من مارس سقطت وزراة « نسيم » . وكان من ضمن المساعى التى بذلت لإسقاطها ، عرائض أخذ المنشقّون يستكتبون الناس عليها بأنها لا تصلح للبقاء ، لأنها «وزارة إدارية » وأن اللازم أن توجد « وزارة سياسية » تثق بها البلاد ، وفى ١٧ منه تشكلت الوزارة العدلية .

وعدلى باشا ، خلافًا لتعهده السابق لم يعلّنى بالإجراءات التى سبقت تشكيل وزارته ، ولا بالظروف التى قبلها فيها ولا بأسماء أعضائها . ولكنّه بعد تشكيلها أعلننى بهذه الأسماء وببيانه الوزارى . فأرسلت إليه فى الحال تلغرافًا بالشروط التى يقبل « الوفد » الاشتراك معه فى المفاوضات عليها ، وبعزمى على العودة لمبادلة الآراء فيها . وأردت نشر هذا التلغراف على الأمة فأبت المراقبة نشره بأمر الوزارة . فاحتججت على هذا المنع ، واعتبرته أول عمل عدائى من الوزارة . ثم عدت إلى مصر . ولمّا علم عدلى والمنشقون عزمى على العودة ، سعوا غاية جهدهم بطرق مختلفة فى منعى منها . ولكن لم أحفل بنصح من استعانوا بهم على إقناعى بالعدول عنها . وعدت فى ٤ أبريل وكان من استقبال الأمة لى ما عجزت وأعجز عن القيام بواجب شكره .

ولشدة امتعاض الأمة من الوزارة السابقة ، ولما فى أخلاقها من الميل الفطرى إلى التسامح ، ولما وجدته فى البيان الوزارى من الوعود الخلاّبة ، ومن التعهّد بالنزول على إرادتها واشتراك الوفد فى المفاوضات ، لذلك كله قابلت هذه الوزارة بالارتياح والترحاب .

عدنا ، وشعرت بنفسى أن ليس هناك محل لأن يكون فى صدرى غلّ أو حقد أو غضب

على أحد . وأنا يجب علىّ ألا أكون لشخصى ، بل أكون لأمتى وحدها . ولم أشعر بأن لى كرامة غير كرامة أمتى ، ولا شخصية غير شخصيتها ، وأحسسْت بأنى متفان فيها وأنها متفانية فى .

ورأينا من الواجب علينا أن نحسم كل خلاف ، وأن نعمل على تأييد الاتحاد فى الأمة ، وأن نوجّه كل مجهوداتنا للسير إلى الغاية التى ننشدها . ولهذا فإنه مع علمنا بما كان من المخالفين لنا من زملائنا بعد عودتهم من باريس ، ومن دسّهم الدسائس ضدّنا والطعن سرًّا وعلنًا فى حقّنا ، ومن إسناد أشنع القبائح لنا ، واختلاق أفظع الأكاذيب علينا ، ومع حصولنا من الوفد بقرار على فصل من أخلّوا منهم بمبدأ التضامن بيننا ، وحنثوا فى أيمانهم التى أقسموها أمامنا ، رأينا أن نعتذر لهم عن خطاياهم وأن نسعى لاسترضائهم عنا ، ففعلنا ذلك بكل سرور وصرّحنا فى خطبنا بماضيهم ، ممّا لم يعد خافيًا على أحد .

ولكن ماذا حصل بعد ذلك ؟

إجتمعنا بهم وتداولنا معهم فى الشروط التى وضعناها للمفاوضة وعدّلنا بعضها طبقًا لما رأيناه من ميلهم وميل أصدقائنا وذوى الرأى فينا . وبعد أن اتفقنا معهم على هذه الشروط أعلنّاها إلى الوزارة . ولكن الوزارة لم تقبل فى الحقيقة أى واحد من هذه الشروط ، كما تبيّن من محادثة رئيسها المنشورة فى « جريدة الأهرام » . ولكنّها تظاهرت بقبول بعضها دون البعض الآخر . ولما أعلننى رشدى باشا رسميًا بأنها لم تقبل الشرط المتعلّق بالمرسوم السلطانى ولا المتعلق بالرياسة ، رأيت من واجبى رفض الدخول فى المفاوضة . وكان من الطبيعى ، أن الذين اشتركوا من زملائى فى وضع هذه الشروط التى رفضتها الوزارة يتضامنون فى نتائج رفضها . ولكنهم عوض أن يتحدوا معى ضد الوزارة التى رفضتها ، انشقّوا عنى وعن بقية إخوانهم ، وانحازوا إليها وأيّدوها بكل ما فى إمكانهم . وكأنّهم لم يتفقوا على تلك الشروط إلا ليختلفوا عند رفضها .

نعم لم يكونوا مخلصين فى تقريرها ، لأنهم كانوا يشتغلون مع الوزارة ضدها فإن الجرائد الوزارية وأذنابها كانوا يجتهدون كل الاجتهاد فى منعنا من مباشرة المفاوضة . وتبيّن لنا من هذه المساعى التى شعر كثير من الناس بها ، أن دعوة الوزارة لنا للاشتراك فى المفاوضة لم تكن إلا فخًّا لتصيد به ميل الأمة إليها ، والترحاب بمقدمها ، وإلا فما الذى فى تلك الوعود التى وعدت الأمة بها ؟

إنها وعدت بإلغاء المراقبة على الصحف فبرّت حقيقة بوعدها وألغتها . ولكن بعد أن

اشترت أغلب الجرائد العربية والأفرنجية ، وبعد أن بعثت « قانون المطبوعات » من قبره وعلّقت المادة (١٣) منه فوق رقاب بقيتها ، فكان خطرها أشد من الرقابة نفسها ، إذ تمكّنت من إنذار صحف وإلغاء أخرى ومن تهديد البقية .

أما « الأحكام العرفية » فبقى سيفها معلقًا فوق الرءوس ، وطبقّوها بأقصى ما يكون من الشدّة ، ولكونها هى القّوة الوحيدة التى تعتمد الوزارة عليها فى بقائها فى مراكزها ، أبى رئيسها على اللورد اللنبى إلغاءها عندما عرض عليه ذلك . وفضلاً عن ذلك فإنها بعثت « قانون التّجمهر » وطبقّته بكيفية لم تخطر ببال واضعيه ، وقمعت المظاهرات لمّا هتفت لغيرها وعبّرت عن الشعور ضدها ، وأطلقت يدها فى الموظّفين فعاقبتهم على ما يبدون من الآراء مخالفاً لآرائها ، بالإنذار وقطع المرتب والإيقاف والنقل إلى مكان سحيق والرفت من الوظيفة ، كما أطلقت يدها فى الأخلاق تفسدها فعّممت التجسس ، ونشرت النفاق ، وحكمت بالاستبداد .

أما التمشّى على إرادة الأمة فقد وفّت به (!!) بأن ألّفت البعثة الرسمية لمساعدة الحماية رغم إرادة الأمة ، من أعضاء لم يكن لهم ماض معروف فى الاستقلال ، ولا فيهم صفات ملائمة . وسفّرتها تحت حماية القّوة الأجنبية ، وبما أراقته من الدماء فى طنطا وإسكندرية وأسيوط وجرجا ، كتمًا للشعور وخنقًا للعاطفة الوطنية .

إن الوزاريين لمّا اشتد الخناق بهم وتحرج مركز الوزارة لسخط الأمة عليها ، ذلك السخط الذى كانت تعبّر عنه المظاهرات المتوالية فى عواصم القطر ومدنه التجأوا إلى الأراجيف يبثّونها فى قلوبهم حتى كانت جرائدهم تبديها وتكررّها فى الوقت الذى لم يكن حدث ما يكدر خاطر أى أجنبى ، بل كانت المظاهرات التى تمشى فى طول البلاد وعرضها تهتف للأجانب ويهتفون لها .

فى هذه الظروف الهادئة الآمنة حدثت حوادث الإسكندرية الأليمة . فسرعان ما رحّبت بها الجرائد الوزارية ، وأخذت تؤكد من قرب ومن بعد أن الوطنيين هم السبب فيها ، بتلك المظاهرات ، وتشير إلى مسئوليتنا عنها . والله يشهد أنهم لكاذبون ، فلقد كنّا أول من استاء لها وفزع لأخبارها وتشاءم منها . وإذا صحّ أن يكون المستفيد من الجريمة هو الفاعل لها ، يكونون هم وحدهم المسئولون عنها . فقد إتّخذ منها الوزاريون سندًا للوزارة يؤيد الوزراء فى مراكزهم . وكان المنشقّون فى مقدمة الذين يبعثون تلك المخاوف ، ويومئون إلى هذه المعانى فى بياناتهم وخطاباتهم . وفى الحقيقة أن ساعد الوزارة اشتدّ من وقت هذه

الحوادث ، واشتدت وطأتها على الوطنيين ، فأخذت على الحرّيات كل منافذها ، وعلى الاستقلال كل مظاهره . وعاقبت كل هاتف بضرب الرصاص ، ومنعت من دور التمثيل ومن الاحتفالات ومن كل الاجتماعات العامة ، كل ما يتجلّى فيه هذا الشعور أو ما يحرّكه فى الصدور .

ما أخبث نيّات الوزاريين وما أجرم أعمالهم ، إن تاريخهم لم يكن إلا مجموعًا مؤلفًا من أشنع الجرائم وأفظعها وهو يزداد كل يوم ضخامة وفظاعة بما يضاف إليه فى كل حين من الجرائم ضد الحرّية والشرف والحياة .

إن الوزارة فى تقسيم أنفسها إلى قسمين ، قسم يساوم على حقوقنا فى لندن ، وقسم يوّجهنا ، بتلك الأعمال القاضية على الحرية والاستقلال ، إلى ما يريده القسم الأول من الوجهين ، أشبهت « مناسر » الأشقياء فى تقسيم أنفسهم إلى فريقين : فريق يباشر الجريمة وأعمالها التنفيذية ، وفريق يراقب الطريق ، يمنع الناس من الصياح خلف السارق أو القاتل . . (!)

آه !! مسكينة مصر . . . إنك كنت لا محالة ضائعة لولا بصيرة نيّرة فى أبنائك وانتباه شديد فى عقولهم ، وقلوب قويّة فى صدورهم ، ما أنبل هؤلاء الأبناء ، وما أبّرهم ، وما أعلى شهامتهم !! إنهم صمّموا على احتقار الخطوب ، وإزدراء الظالمين ، وأكرموا الأجنبى وأحسنوا إكرامه ، إن فيهم شجاعة وفى قلوبهم مدارك تزن العواطف ، وفى عقولهم تشرّبٌ للأحداث ينقلب فى قلوبهم على الضعفاء لينًا ورحمة . ولقد سنحتْ لى فى هذا العام فرصتان لمطالعة هذه الصفات الجليلة الوراثية والإعجاب بمبلغها فى نفوسهم . الأولى عند حضور « الأحرار » والثانية عند رحلتنا « للوجه القبلى » .

إن الوزارة ألّفت البعثة الرسمية ضد إرادة الأمة ، ولكنها أرادت أن تتظاهر بأنها حائزة على «ثقتها » ، فاستكتبت بواسطة عمّال الحماية عرائض ثقة لها ، واستعمل هؤلاء العمّال كل وسيلة من الإكراه والحيلة لاستكتابها ، كما استعملوا كل وسيلة لمنع الناس من إبداء الثقة فينا شفهًا أو كتابة . وتوالت وقائع الاختلاس والإكراه ، وفاضت أنهار الجرائد الصادقة بأخبارها ، واتصل علمها بالنوّاب الإنجليز من أحرار وعمّال فاستاءوا لها ، وأخذوا يوجّهون الأسئلة لحكومتهم فى مجلس النواب عنها ، وانبرت طائفة منهم للدفاع عنّا ونشروا فى الجرائد بلاغًا بالتنديد بالبعثة المصرية وبكونها لا تمثّل الأمة ، وبوجوب انتخاب جمعية وطنية لاختيار المفاوضين ، وبضرورة إلغاء الأحكام العرفية والقوانين

الاستثنائية . فلم تكد هذه الأسئلة توجّه ، ولا ذلك البلاغ يُنشر ، حتى قامت قيامة المنشقّين والوزاريين ، فنادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور وضياع استقلال البلاد بفعلنا . وأخذ عمّال الحماية يحملون الناس على التحرّش بنا وسحب ثقتهم منا ، فلم أحفل بهذا الصغار ولا بتلك الصبيانيات ، لعلمى أن الأمة ليست هى التى أمضت تلك العرائض ولا ترضى عن كتابتها . بل لعلمى أن الأمة معى فى الشعور ، وأنى إن لم أكن رئيسها فإنى خادمها ، معبرّ عن شعورها . لم نحفل بنعيقهم ولم نعر سمعًا لعوائهم . ومضينا فى سبيلنا ، فشكرنا الأحرار على صنعهم ودعوناهم لزيارتنا ليشاهدوا بأنفسهم ما اتصل بأسماعهم . فحضروا إجابة لدعوتنا ، ولنداء ضمائرهم الحرّة . ولكن وزارتنا ـ وزارة الثقة ـ عندما شعرت بعزمهم على زيارتنا اضطّربت أعصابهم ، وارتعدت فرائصها لأنها علمت أنهم سيكونون شهود عدل على جورها وعسفها ، فسعت لدى الحكومة البريطانية فى منعهم ، بحجّة أن حضورهم يكدر صفو الأمن فى البلاد . ولم تخجل مما ترتب على هذه الحجّة من إظهار شعبنا بمظهر شعب متّوحش أحمق قاسى القلب ، أهل لأن يهيج ويثور ويسفك الدماء وتزهق الأرواح ، لا لشيء سوى أن أربعة أو خمسة من الإنجليز ، أربعة أو خمسة من الأحرار ، ذوى القلوب الطّيبة ، والنفوس الكريمة أجابوا نداء ضمائرهم الحيّة ، وكلّفوا أنفسهم مشقّة الحضور إلينا ، للوقوف على الحقيقة فينا .

أية وزارة فى العالم ، جديرة بهذا الاسم ، تجترئ أن تستعين بحكومة أخرى للمحافظة على الأمن فى بلادنا ، لأنها هى عاجزة عن حفظه عندها ؟

أية وزارة أمينة أمتّها بهذا المظهر الشنيع ، خصوصًا فى الوقت الذى تزعم فيه أنها تسعى لأمتّها فى الاستقلال التام ؟

ولكنّا لا نستغرب كل هذا من وزارة اجترأت فى حوادث الإسكندرية [٥] أن تستعين بالجيش البريطانى . واجترأ رئيسها فى حديثه مع مكاتب « الديبا » [٦] أن يقول تبريرًا لهذه الاستعانة الغادرة ، إنه « إذا كانت النار مشتعلة فالأفضل أن يكثر عدد المطافئ » . فسرعان ما شاطر مستر تشرشل عدلى باشا فى هذا الرأى . وصرّح فى خطبته عقب ذلك «بضرورة إبقاء الاحتلال ليتمكّن من إطفاء الحرائق التى تهدّد بالتهام الأجانب ومصالحهم» . . . !

لم تتمكّن الوزارة من منع هذه الزيارة ، فانتظرت أن يحدث عند وصول الزائرين إلى الإسكندرية أو مصر حادث يصلح أن تتخذ حجّة على سعيها الأول ، والتخلص من

شهود يكشفون الستار عن حقيقة أعمالها . فخيّب الله ظنّها ، ولم يحدث ذلك الحادث رغم ما تحرّش به البوليس من الإعتداء على الناس ، وذلك بفضل رزانة الشعب وحكمته . فبادرت بمنع زيارتنا وزيارة أولئك الأحرار بطنطا ، ولكن الله عكس القصد من هذا المنع عليها ، إذ علم الناس عظم ما أعدّ من الاستقبال ، وضخامة شأنه وجلالة قدره ، وكان لهذا المنع عندهم أسوأ أثر ، وبسببه اشتدّ امتعاض الناس منها وسخطهم عليها .

ولخيبة ظنّها فيما توقعت ، وسوء أثر ما منعت ، تنبهت وأرادت أن تستفيد من الدروس التي ألقتها الظروف عليها ومن حكمة الشعب . إذ أنها عندما علمت بعزمنا على السياحة في الوجه القبلي لم تترك نفسها في هذه المرّة للصدفة تخلق لها الحوادث التي تساعد على بلوغ غايتها ، وتولّت هي بنفسها خلقها . فابتدأت أن تحول بيننا وبين سكّان شاطئ النيل عند مرورنا بهم ، وحرّمت عليهم الخروج لاستقبالنا ، وحملت مدير كل مديرية يدعونا أهلها لزيارتهم أن ينشر في دائرته منشورات بمنع التجمهر والمظاهرات . وذهب بعضهم إلى التمهيد لقمعها بضرب الرصاص ، كما أنها استكتبت بعض أهالي هذه المديريات تلغرافات بوجوب منعنا من الزيارة ، تلغرافات لم يُعهد لها مثيل في جميع البلاد عمومًا وفي بلادنا خصوصًا . فعلت ذلك لتتخذ لها سندًا لمنعنا من الزيارة . ولم تكتف بكل هذا ، بل جمع أنصارها في أسيوط تحت نظر رجال الإدارة فيها عُصبة من ذوي الشر والفجور لكي تكدّر صفاء الراحة عند قدومنا . وعندما اقتربنا من المرسى هبّ هؤلاء من مكامنهم واثخنوا المحتفلين ضربًا بالعصيّ ورميا بالرصاص وتغريقًا في الماء ، وهدموا ما نصبوا من الزينات ، وحطمّوا ما كان منتظرًا لركوبنا من العربات ، ومدوا أيديهم الأثيمة لجيوب بعض المستقبلين فاستلبوا منهم أموالهم ، ولما أتمّوا جريمتهم ذهبوا من حيث أتوْ آمنين مطمئنين[٧] . . . (!)

وعقب ذلك أمرت الإدارة والبوليس بمنعنا من النزول حفظًا للنظام العام فامتنعنا . لا خضوعًا لهذا الأمر ، ولكن خشية اتقّاد نار الفتنة التي شعرنا أنهم يريدون إلهاب سعيرها ، على أن رفقائي نزلوا إلى مكان الاحتفال وقرأ حضرة زميلي مصطفى بك النحاس على الحاضرين كتابًا منّي إليهم .

ولما رأوا في نزول رفقائي تفويتًا لقصْدهم ، وتخييبًا لآمالهم ، مدّوا منعهم فيما بعد على جميع من كانوا في الباخرة ، إلا مكاتب المورننج بوست الذي كان مصرّحا له أن ينزل في كل عاصمة ليلتقي بالمفتش الانجليزي ويتفق معه ، فيما يظهر ، على ما يراسل به جريدته .

ولمّا اقتربنا من الشاطئ فى سوهاج وجرجا ومُنعنا من النزول فيهما توافدت علينا الجماهير من كل ناحية ، من البحر ، من البّر ، فى المراكب ، والزوارق ، مشاة وركبانًا ، والتقوا بنا . فرأينا أن نطلّ من السفينة ونلقى عليهم بعض كلمات فأحسنوا استماعها ، وهتفوا للحرية والاستقلال عقب إلقائها ، هتافًا كان وقرًا فى أسماع الوزاريين . فلم يلبثوا حتى حملوا على المستقبلين فى جرجا وفرّقوهم وأطلقوا عليهم الرصاص . ثم صدر الأمر بعد ذلك بتعميم منع زيارتنا فى كل عواصم الوجه القبلى ومدنه ومن الرسوّ فى أى جهة يخشون على الأمن فيها . وجمعوا جميع ما تحت تصرّفهم من خفراء وعساكر وبوليس ووضعوهم فى كل جهة ظنّوا أننا قد ندنو منها . وألزموا الأهالى بواسطة هذه القوى المختلفة بالبقاء فى منازلهم وعدم الخروج منها إلى الشاطئ . ومن لم يفعل أهانوه بالضرب وغيره . ولكن هذه الإجراءات على شدّتها ، والقيام بها فى كل الجهات ، لم تؤثر إلاّ عكس المقصود منها . فإننا كنّا نرى الجماهير من بعيد تتسابق إلى الدنّو منا ، وتتنافس فى تحيّتنا ، ونسمع الأصوات مرتفعة بالهتاف لنا وللاستقلال ، كما كنّا نسمع الشكوى المرّة من إستبداد الإدارة واعتسافاتها .

هكذا قامت من أعمالهم حجّة عليهم ، وأى حجة أقطع من ذلك الاعتداء المتكّرر على الحرية ، من تلك الضربات التى توالت على أجسام المستقبلين ، من تلك الجروح التى فتحت فى أبدانهم ، من التغريق فى الماء ، من ضرب الرصاص وإسالة الدماء وإزهاق الأرواح ؟ أى برهان أسطع على إجرامهم من تلك التقارير الرسمّية التى قدّمها مدير أسيوط ومدير جرجا والمفتش الأول الإنجليزى لوزارة الداخلية وتقرير النائب العمومى حضرة صاحب السعادة مصطفى فتحى باشا ؟

ما أشقى عمّال الحماية وما أشد إجرامهم . إنهم لم يكتفوا بإهانة الحرية فى أعزّ مظاهرها ولا بتلويث إدارة البلاد بما يسىء سمعتها ، ولا بتشويه السلطة التى يديرونها ، ولا بجرح كرامتنا ولا بإدماء نفوسنا . لم يكتفوا بكل ذلك حتى مدّوا أيديهم الأثيمة إلى العدالة فهتكوا عرضها ، فأصبحت ، وهى ملجأ المظلومين ، لا نصير لها .

حادثة وقعت فى وسط النهار، من جماهير حاشدة فى مدينة من أهم عواصم القطر ومدنه بعد استلفات عمّال الإدارة إليها عدّة مرات ويترتب عليها قتل وغرق وجروح وضربات، إتلاف أملاك وسلب أموال، يتولّى تحقيقها النائب العمومى وينتهى من تحقيقها بأن «الفاعل مجهول» ، وأن الإدارة فعلت كل الواجب عليها .

يعنى ، أيها الأشقياء أهينوا ، اضربوا ، وأتلفوا الأملاك ، واسلبوا الأموال ، أسيلوا الدماء ، أغرقوا ، أزهقوا الأرواح ، فلا عقاب عليكم إن كنتم « عدليين » أو مأجورين «للعدليين » ، وكانت الضحايا من هذه الأمة الأسيفة التى تسمونها « بالسعديين » . فإن التحقيقات جريمة على عدلى ، وإن الوزارة تصّفق طربًا لنتيجة التحقيقات إن كانت «مبرئة » لأتباعها ، ويا أيتها الأمة اعلمى أن حقوقك مهضومة ، وأموالك مسلوبة ، ودماءك مهدرة ، ولا من يأخذ بحقك مادمت غير واثقة « بالبعثة الرسمية » . هذا ما تنطق به أحوالهم ، وما تتكلم به أعمالهم .

إنهم منعونا من زيارة عواصم المديريات ومدنها فى الوجه القبلى لغرضين . لغرض داخلى ، وغرض خارجى . فأما الأول فهو خنق العاطفة الوطنية وإطفاء نورها . أما الثانى فهو تضليل الرأى العام الإنجليزى حيث يقولون لأسيادهم ، يمكنكم أن تتعاقدوا مع عدلى كما تريدون ، ومهما يكن من أمر الاتفاق الذى تجودون به علينا فإننا ضامنون أن تقبله الأمة بدليل أن الوجه القبلى ضد سعد ولم يقبل زيارته من أية جهة من جهاته .

ولكن الله عكس قصدهم وخيّب آمالهم ، رغم ما أعدّوه من قوة لمنع الناس من استقبالنا ، ورغم ما دبّروه من حوادث سيئة مؤلمة فإن سياحتنا قد أنعشت الشعور الوطنى وجدّدت انتعاشه ، ورسخّت فى قلوب الأمة كراهة الاستبداد وإزدراء الصور التى تحكمنا بواسطتها السلطة الغاضبة ، وأشعرت الشعب قوّته وعزته وحقه وأفسدت على الوزارة ما دبّرت من خديعة الرأى العام والسير به إلى الاستسلام وقبول المشروع الذى يوقّع فى لندن ، وقوّت بالشعب عزيمة سعد ، كما قوّت عزيمة الشعب بوكيله .

إنها لم تصب الغرض الداخلى فينا ، ولكن هل نجحت فى إصابة الغرض الخارجى ، من خديعة الإنجليز وغشّهم بالنسبة إلى شعور الأمة الحقيقى ؟ إنى لا أظنّ ذلك ؟ وإن كان الإنجليز لا يطلبون أحسن من أن تستسلموا للخديعة والغشّ بالنسبة لمصالحهم عندنا . إذ يظهر أنهم طلبوا منهم ضمانات ، ضمانات أدخل فى باب الجدّ ، من القصص والتقارير الرسمية عن سياحتنا . إن الوزارة لم تجد جوابًا على هذا الطلب أصوب من تلغراف اشتمل على إمضاء ستة وثلاثين عضوا من أعضاء الجمعية التشريعية (رحمها الله)(!) ، كيف أخذت هذه الإمضاءات ؟ فى أى الظروف وقّعت ؟ وتحت أى تأثير كتبت؟ بمساعدة أية مداخلة بذلت ؟ بأية يد وضعت ؟ كل ذلك تعرفونه . ويعرفه الكثير منا ولا ينبغى لنا أن نصرّح علنًا بما يتناجى به الناس سرًا مما لا تشرّفنا الحقيقة فيه . ولكن

ينبغى التصريح به أن الذين وُضعت أسماؤهم على هذا التلغراف لم يجتمعوا فى مكان واحد ولم يتداولوا فى موضوعه بينهم ولم يعلنوا قبل إرساله قصدهم . ومنهم من لم يكن له علم يوضع اسمه بين هذه الأسماء كحضرة « محمد قطب بك قرشى » . تزوير معاقب عليه قانونًا ، ولكن من لنا بمن يكشف الحقيقة عن فاعله ، نحن متأكدون من قبل أن التحقيق إذا سمح به ، بأن الفاعل « مجهول » .

من هم أولئك الأعضاء ؟ هل أمضوا هذا التلغراف عن أنفسهم ؟ إن كان الأمر كذلك فلا كلام لنا معهم لأنه ما قيمة ٣٥ شخصًا بجانب أربعة عشر مليونًا ؟ أمّا إن كانوا كتبوه بالنيابة عن ناخبيهم ، ففيهم من ليسوا بمنتخبين ومن سحب ناخبوهم الثقة منهم . وفى جميع الأحوال لا نرى قيمة لهذا « التلغراف » ومصالح البلاد أغلى وأعلى من أن تكون مُعلّقة بورقة يمضيها نفر من هذا القبيل فى الخفاء وبالطرق التى تعلمونها . ليس هؤلاء الأمّة ولا هؤلاء هم الذين قاموا بتلك النهضة . إن الأمة غيرهم ، إن الأمة هى التى عرّضت صدورها لرصاص البنادق وأبناءها لإراقة الدماء ، وقامت للمطالبة بحقّها وهؤلاء نيام ، أو يقظون لرتبة ينالونها أو نيشان يحلّون به صدورهم أو مصلحة يعطونها ، أو جاه يصيبونه أو مال يكسبونه .

إن الوزارة لكى تختم هذا العام على طريقة جديدة بها ، جعلت خاتمة أعمالها فيه تعطيل جريدة « الأهالى » لمدة ستة شهور [(٨)] . لِمَ عطلتْها ؟ لأنها فيما تزعم دأبت فى الأيام الماضية على نشر أخبار كاذبة لا أساس لها من الصحة من شأنها تضليل الرأى العام وإثارة الأقطار وتهييج الخواطر . ولكنها أحجمت عن بيان هذه الأخبار وتلك المطاعن لأنها لا تقدر على بيانها ، ولأن بيانها لا يتفق مع صالحها . ولكن الناس فهموها وخالفوا رأيها فى كذبها ، وكان هذا التعطيل فى اعتبارهم من أقوى الأدلة على صحتّها ، وإلاّ لفضّلت محاكمة هذه الجريدة قضائيًا ليثبت كذبها . غير أنها لم تفعل ، وأخذت حقها بيدها . فهل تقبل أن يطبّق الناس عليها هذا المبدأ ؟ هى لا تقبل ، ونحن كذلك لا نقبل ، ولكننا نقبل أن تحاكمها أمام العدالة ، إن لم تكن العدالة الإنسانية فعدالة الله .

إن « قانون المطبوعات » ، وإن كان قانوناً استثنائيًا ، لم يوضع لحماية الجرائم التى يرتكبها الموظفون أثناء وظيفتهم ، ولكن لحماية النظام العام . والنظام العام يقضى بأن كل من علم بوقوع جريمة يجب عليه أن يبلّغ عنها ، كما نصّ عليه قانونا تحقيق الجنايات ، وواجب الجرائد خصوصًا هو المراقبة على الأخلاق وعلى السير ويقضى عليها بأن تفضح

كل جريمة خصوصا إذا كان مرتكبوها من الرجال العموميين الذين أسندت إليهم وظائف الأمانة على مصالح الأمة والمحافظة على النظام العام .

فالجريدة التى تكشف الستار عن جريمة ، خصوصًا لموظف عمومى ، إنما تقوم بواجبها العمومى والخصوصى ، ولا يصحّ اعتبارها مخلّة بالنظام إلا إذا كان هذا النظام عبارة عن مزاج الوزراء .

إن جريدة الأهالى وجّهت أسئلة فى موضوعات مختلفة [٩] ، وقد تلا حضرة مصطفى بك النحاس بعضًا منها ، فما كان جواب الوزارة على هذه الأسئلة إلا أن المجرم ليس من يرتكب الجريمة بل هو من يرشد عن الجانى استجلابًا لغضب السلطة منه ، والانتقام من جريمته . يجب تعطيل « الأهالى » حفظًا للنظام ، إذ يهم النظام أن يعتقد الشعب أن الذين يتولّون أموره شرفاء . وقد دأبت الأهالى على أن تظرهم بغير هذا المظهر فاستحقت العقاب بالتعطيل .

ولا يسعنى أن أختم هذا الموضوع بدون أن أثنى الثناء الجميل على مديرى [١٠] هذه الجريدة ، ومحرّريها . لما فيهم من كفاءة واسعة ومن قدرة بالغة ومن نظر سديد ومهارة فائقة ، وما أبدوه من وطنية صادقة . »

سادتى :

« من حسن الحظ أن وزارة عدلى لم يمض عليها لغاية الآن سوى ثمانية أشهر . إذ لو كانت أكثر من ذلك ، لأعجز الآن - وأنا فى دور النقاهة من اعتلال صحتى - عن مجرّد تعداد ما اقترفت من الكبائر . ومع ذلك فإنهم لا يخجلون من أن يقولوا إنها تسعى «للاستقلال التام » . أىّ استقلال تسعى إليه بعد إفراغها الوسع فى قتل الحرية وإماتة العاطفة الوطنية فى صدور أبناء البلاد ؟ إنها لكونها وليدة الحماية ورضيعة ثديها وربيبة عنايتها ، ترى أنها إذا خرجتْ من الحماية إلى الاستقلال لا يمكنها أن تعيش ، كما لا يمكن للسمك أن يعيش خارج الماء ، ولكنّها « صنيعة الإنجليز » وخليفة أيديهم ، تُستغل ضد البلاد وضد مصلحة البلاد .

بعد هذا ، هل تجدون من حاجة لأن أحدّثكم عن قسمها « بلندرة » وعن المفاوضات التى يساومون فيها على حقوقنا خفية ، من غير أن يعلم أحد بمقدمة من مقدماتها ولا نتيجة من نتائجها ؟

إن الأخبار التى تردنا عنها متضاربة تضاربًا غاية فى الغرابة . فتارةً تدلّ على نجاحها وفوزها ، وتارةً على اصطدامها بصلابة « كيرزون » ومطالب العسكريين . وأمس تشير إلى إمضاء الاتفاق واليوم إلى قطع المفاوضات أو تأجيلها . والحقيقة الواضحة هى أنهم ليبهمون الأمر علينا لتجد عونًا بإبهامهم . ولكن لهم أن يقيموا « بلندره » ما شاءوا ، فلا أهميّة عندنا لإقامتهم ماداموا لا يمثلوننا ، ولا يمثلون إلا أشخاصهم . إنّما عليهم أن يعلموا أن الأمة متنبهة تمام الانتباه لأعمالهم ، حذرة كل الحذر من مناوراتهم ، وأنها لا يمكن أن تقع فى فخاخهم مهما أحكموا نصبها ، ومهما سندهم الإنجليز ، ومهما أيدتّهم القوة الغاشمة . إن البلاد لا ترضى أن يكون على أرضها عسكرى إنجليزى واحد سواء كان فى مصر أو الإسكندرية أو فى القنال . فلا يسوغ لهم أن يقولوا إن الإنجليز أرادوا أن يحتلّوا داخلية البلاد ولكّنا عارضناهم وتوصّلنا بمعارضتنا ونباهتنا إلى أنهم لا يحتلّون إلا منطقة القنال ، وهذا انتصار يجب الاحتفال به وإمضاء الاتفاق . ولا أن يقولوا إن الإنجليز تشبثّوا باستبقاء الحماية بسبب حوادث الإسكندرية ، ولكننا توصّلنا بفضل مهارتنا ومعارفنا التقليدية إلى تحويل الحماية إلى « مخالفة دائمة » فلنحتفل بهذا الانتصار ولنمض الاتفاق . ولا أن يقولوا إن الإنجليز أصرّوا على رفض التمثيل السياسى ، ولكننا وصلنا بمرونتنا ودهائنا إلى ألا يكون لهم إلاّ المراقبة على سياستنا الخارجية ، وهذا فوز مبين فلنحتفل به ولنوقّع الاتفاق . لا يسوغ لهم أن يقولوا لنا هذه الأقوال وأشبهها مما تلوكه أفواههم ، وتتلمظ به شفاههم، وليسمعوه فى دورهم كما سمعناه فى دورنا ، ليعلموا أننا لا نقبل عن الاستقلال التام بديلاً . وللحصول على هذا الاستقلال . فإننا جميعًا مستعدون لأقصى الفداء » .

سادتى :

« إذا ألقينا نظرة على السنة التى أزمعت الرحيل فما الذى نراه ؟

نرى وزارة خلفت فى كراهة الناس وزارة أخرى ، بل إن كراهيتهم لها أشدّ وأقوى . وزارة جمعت من حولها نفرًا فيهم الانحدار ، سريعو التأثر والانخداع كثيرو المطامع وفيهم ذوو خبث ودهاء ، مهوّشون أكثر من كونهم متعنتين . يدّعون أن الحقيقة لا تنكشف لغيرهم وأنها طوع يمينهم ، يقلبونها كيفما شاءوا ، فإن زعموا الحماية استقلالاً وجب على الناس تصديقهم ـ لأنهم من المفكّرين !! ـ تخضع الحقائق لسطانهم ، ولا تخضع أفكارهم لسلطانها !!

ومن جهة أخرى نرى أمّة بتمامها ، متّحدة فى طلب استقلالها ، وفى احتقار الأكاذيب والمنشقّين ودعاة التردد والهزيمة . اتحادًا باهرًا ، اتحادًا قاوم بنجاح جميع القوى التى جمعها الخوف والجبن وسلّطها عليه . اتحاداً ظهر فى أبهى مظاهره يوم عودتنا إلى البلاد ، وأيام زيارة البعثة البرلمانية لنا ، وأثناء رحلتنا فى الوجهين البحرى والقبلى ، وتجلّى عند كل مناسبة دعا الحال فيها للاحتجاج ضد الظلم ، أو الغضب ضد الإهانة . كما حصل بمناسبة حوادث الإسكندرية ، وعند العلم بخطبة « تشرشل » ، ولدى سفر البعثة الرسمية ، وبخصوص تصريح « لويد جورج » .

نرى من ناحية ، النزلاء الأجانب المقيمين بيننا واضعين فوق كل اعتبار « الامتيازات » التى يتمتّعون بها عندنا ، والمصالح المالية التى لا يتهددها شىء . نراهم بسبب ذلك يرفعون عنا اعتباطًا ميلهم إلينا لكى يؤجلوا يوم خلاصنا ، ذلك الخلاص الذى يجعلنا متساوين معهم فى الحقوق والواجبات ، ويؤكد بهذه المساواة اتحادنا بهم . ولكننّا نرجوهم أن يعلموا أننا نحفظ لهم فى استقلالنا ما حفظناه دائمًا نحوهم من الشعور الجميل ، ولطف المجاملة ومن المودّة والاحترام . وأن يتأكدوا بأن ليس بين المصريين من يتصوّر مصر مستقلة من غير أن يكون لاشتراكهم دخل فى رقيّها وتقدّمها . إننا نعرف ما نحن مدينون به لهم ، ونعترف بعظم مقداره . ونصّرح بأننا مصمّمون على أننا نضاعف لهم فى المستقبل دين عرفاننا بالجميل الذى حملتنا إيّاه الخدم الجليلة التى أدتّها لنا بلادهم .

ومن ناحية أخرى نرى بعض أعضاء مجلس النواب الإنجليزى الذين يمثّلون أمّتهم التمثيل الحقيقى ، تحملوا مشقّات السفر ومخاطره . وحضروا إلينا ليدرسوا حالتنا ويقفوا على حقيقتها ، إجابة لرغبتهم الشديدة فى تأسيس علاقات صريحة وديّة بين شعبهم والأمة المصرية . حضروا رغم معارضة وزارتنا فى حضورهم ، واستقبلوا أحسن استقبال رغم كل مكابر ، ودرسوا حالتنا بجدّ ودقّة ونزاهة . ثم كتبوا بعد عودتهم تقريرًا خطير الشأن يسرّنى أن أقرأ لكم نتائجها الختامية ـ (وهنا وقف مصطفى النحاس بك فقرأها فهتفوا لها هتافًا شديدًا) . ولا شكّ أنكم توافقوننى على أنه لم يجر الآن قلم إنجليزى فى مسألتنا المصرية بحقيقة ، كما جرى بها قلم أولئك الذين سمّاهم الوزاريون بلا خجل ولا حياء وبلا ذمة ولا وفاء « مُستعمرين » . كما توافقوننى على أن ما تضمّنه تقريرهم له أثر كبير جدًّا فى قضيّتنا الحاضرة ، وعلى أن واضعيه يستحّقون من الأمة المصرية جميعها الشكر الجميل .

سادتى :

من كل ما تقدم ينتج . أولاً : أنه ليس فى الأمة انقسام، وأنها كتلة واحدة وراء الاستقلال التام ، وإنما المنشقّون يذيعون هذا الانقسام ويؤكدونه تفخيمًا لشأن انشقاقهم، وتعظيمًا لقدر انفصالهم عن الوفد، ومبالغة فيما لهم من النفوذ بين مواطنيهم ، على أنه لا يشايعهم من الأمة أحد إلا الوزارة والطامعين فى مساعدتها ومنحها ، وكل هؤلاء لا تقيم الأمة تقرّبهم منها أو بعدهم عنها وزنًا . لأن ما جمعته القوة فممزّق ، وما ربطته المطامع فمحول ، وما كان أساسه الكذب والضلال فمهدوم .

ثانيًا : إن انشقاق المنشقّين لم يكن لأسباب شخصية تزول بالمصافاة والمصافحة ولا بعرضية تنمحى بالتفاهم . ولكنه انشقاق لأسباب أصلية ترجع إلى الاختلاف فى المبدأ والغاية . وإن المنشقّين يؤيدون الحماية بسعيهم ، ولو تركوا وشأنهم لتأيّد « مشروع ملنر »، وتأيّدت به الحماية على البلاد . ولقد تضامنوا مع الوزارة فى عمل ما من شأنه إضعاف الشعور الوطنى وإقعاد النهضة الحاضرة وتمكين خصوم البلاد من الاستيلاء عليها . فمن المحال جدًّا ، أن يشترك معهم فى العمل أبناء هذه النهضة ، إلاّ كانوا مقصّرين فى واجباتهم نحو الأمانة الكبرى التى حمّلتهم البلاد إيّاها .

إنّه ما من شىء أفسد لعمل ، وأضمن لخيبته ، من عدم وجود الثقة بين المشتركين فيه، واختلاف المبادئ بينهم . فعلى من خلصت نيّاتهم من الذين يدعون إلى الاتحاد مع هؤلاء أن يتدبّروا فى أنهم بهذه الدعوة ، إنّما يدعون إلى فشل القضية العادلة .

إن المنشقّين والوزراء وجبناء النية من أنصارهم ، لا يمكن أن تقبلهم الأمة كزعماء وعاملين فى هذه القضية ، إذ لا يلدغ المؤمن من جُحر مرتين ـ ولكنهم إذا رجعوا إليها فإنها تقبلهم بصفة كَونهم أفراداً منها ، ويكفيهم أن يتمتعوا فى ظلّ الاستقلال بالعدالة التى يتأسس عليها حكم البلاد .

ثالثًا : إن عامنا الماضى كان فى الجملة عامًا مباركًا بالنسبة لنهضتنا الحاضرة . فقد تقوّت فيه وطنيتنا وثبتت فيه قوتنا ، وتأصلت روح المقاومة فينا . نعم إننا تألمنا واشتدت الآلام بنا ، ولكن الآلام من شأنها شحذ العزائم وبعث الهمم ، وهى المقياس الحقيقى لصفات الأمم ، فبمقدار قوة الأمة على تحمّلها تكون عظمتها وفخامة قدرها .

أيها المصريون :

استمروا بكل همّة وإقدام فى طريقكم ، طريق استقلالكم واحترام حقوقكم ، وستلاقون فيه عقبات فذلّلوها بعزماتكم ، وآلامًا فقاسوها بحسن احتمالكم ، وستطلب منكم ضحايا فابذلوها بكرمكم ، وسيقع عليكم ضغط شديد فقابلوه بهمتكم العالية وعزمكم الصادق . إذ كلّما علت الهمم ، وصدقت العزائم . هانت الخطوب ودنت المنى ونجحت المساعى ، وكان النجاح عظيمًا ، وكلّما كان ثمن الاستقلال غاليًا وضحاياه عزيزة ، كلما حرصنا عليه بعد نيله ، وكان علينا بركة وعلى البلاد نعمة وسرور » .

* * *

وبعد أن انتهى سعد باشا من إلقاء هذه الخطبة العظيمة دوّت جنبات السرادق بالتصفيق والهتاف للحرية وبسقوط الحماية . وكانت الأصوات تهدر هدير الأمواج ، فكنت لا تسمع إلا كلمات الوطنية من أمثال « ليحى سعد . لتحى الحرية . ليحى الاستقلال . لتسقط الحماية وليسقط عمّالها » .

وغادر سعد باشا مكان الاحتفال ، بين تحيّات الجماهير وحفاواتها وهتافاتها ، حتى عاد إلى « بيت الأمة » . ثم اتّجهت الجماهير فى مظاهرات كبيرة إلى مختلف الشوارع والميادين تهتف للحرية والاستقلال ، ولسعد الذائد عن الحرية والاستقلال .

وكانت هذه المظاهرات تكذيبًا ضخمًا لما كانت تفتريه صحف الوزارة من أن سعدًا انفضّت من حوله الأمة ، فلم تعد له المكانة التى كان يتمتّع بها وقت عودته من باريس .

هوامش الفصل الخامس عشر

(١) هذا التعبير شاع فى الكتابات الانجليزية خلال تلك الفترة باعتبار سعد وانصاره متطرفين -Extre mists فى مقابل المعتدلين Moderates أى عدلى وأنصار حكومته .

(٢) كانت مصر منذ استعادة السودان تقدم معونة سنوية للحكومة السودانية قدرها ٨٠٠ ألف جنيه .

(٣) مالم يُشر إليه صاحب المذكرات انه عقد فى ذلك اليوم اجتماع آخر فى فندق الكونتننتال حضره أكثر من ألف شخص من أنصار عدلى يكن وخطب فيه محمد باشا أبو حسين والشيخ محمد نجيب وتوفيق دياب وإبراهيم الهلباوى واخيرا عبد العزيز فهمى باعتباره احد من قابلوا المندوب السامى البريطانى فى ذلك اليوم وقد اهتم البريطانيون اهتماما واضحًا بهذا الاجتماع على انه علامة على مزيد من أسباب الانشقاق فى الحركة الوطنية . F.o.407 119/Inc. in No . 91.

(٤) يقول التقرير البريطانى ان « الاجتماع الزغلولى » قد استمر سبع ساعات (٣٠, ٣ ـ ٣٠, ١٠ مساء) وبلغ عدد الحاضرين ١٠,٠٠٠ نسمة . وجاء الحاضرون من جميع المديريات . وكان أهم الوفود الوفد السكندرى الذى رأسه يحيى باشا وقد م وثيقة وقعها ٧٠٠ من مواطنى المدينة يدينون فيها الوزارة . وقد تحدث زغلول لثلاث ساعات ونصف وهو واقف مما يرجح الاشاعة بان مرضه الاخير كان ديبلوماسيًا احتجاجًا على ما جرى فى زيارته للصعيد . F.o. 407/191 Ibid.

(٥) وهى الحوادث التى جرت يومى ٢٢ ، ٢٣ مايو ١٩٢١

(٦) صحيفة « Le Debat » اليومية الصادرة فى باريس .

(٧) انظر ص ١٧٩ وما بعدها .

(٨) صدر قرار التعطيل فى ٨ نوفمبر ١٩٢١ وكانت « الاهالى » « والمنبر » هما الصحيفتان الناطقتان بلسان الوفد وقتذاك .

(٩) كان من هذه الموضوعات مانشرته الصحيفة يوم ٧ نوفمبر تتهم فيه الحكومة بأنها اعطت لتاجر مواشى تسهيلات معينة وان هذا التاجر شريك لابراهيم باشا فتحى وزير الحربية .

(١٠) مدير هذه الجريدة هو المغفور له الأستاذ عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ فيما بعد .

الفصل السادس عشر

عدلى باشا يقطع المفوضة ويقرّر العودة إلى مصر ـ وصوله إلى ميناء الأسكندرية يوم الثلاثاء ٦ ديسمبر وإلى القاهرة فى اليوم التالى ـ الشعب يستقبل البعثة الحكومية أسوأ استقبال ـ الوزارة العدلية تضع تقريرا عن المفاوضة ومشروع كرزون وترفعه إلى السلطان ـ عدلى باشا يقدم استقالة الوزارة ـ بقاء الأمة على تأييدها لسعد ـ سعد يذيع نداء لتعبئة الشعور الوطنى . ـ « إنكم أنبل الوارثين لأقدم مدنية فى العالم » .

* * *

لم يكن لعدلى ولا لزملائه من أعضاء الوفد الرسمى للمفاوضة ، مهما كان اعتدالهم فى المنحى السياسى ، أن يقبلوا مشروعا كالمشروع الذى قدّمه لهم لورد كرزون لتنظيم علاقة مصر ببريطانيا ، أو يوقعوا اتفاقية هى تنكّر تام لما تسعى إليه الأمة منذ أن هبّت من رقدتها فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ لنيل استقلالها وحريتها . ولذلك لم يجد عدلى باشا مناصًا من أن يتوقف عن قبول هذا المشروع ثم عن إعلان قطع المفاوضة .

ففى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢١ ، تمّت مقابلة بين عدلى باشا ولورد كيرزون ، كانت الأخيرة بينهما ، أعرب فيها عدلى عن خيبة أمله فى أن تسفر المفاوضة الطويلة التى دارت بين الوفدين المصرى والبريطانى عن مثل المشروع . ثم أعرب عن شكّه فى جدوى الاستمرار فى التفاوض ، وأنه لهذا يرى قطع المفاوضة . ثم انتهى الاجتماع بخروج عدلى من مكتب اللورد كيرزون ، وتصريحه لزملائه من أعضاء الوفد الرسمى بقوله « قطعنا المفاوضة » . . .

وأصدرت وزارة الخارجية الإنجليزية عقب ذلك بلاغاً قالت فيه إن لورد كيرزون قابل عدلى باشا . وإن عدلى باشا وزملاءه قرروا العودة إلى القاهرة ليرفعوا إلى السلطان تقريرا عن « مشروع الاتفاق » الذى وضعته حكومة جلالة الملك . وعن رد الوفد المصرى عليه . وقد أرسل المشروع والرد بالبريد إلى مصر لتقديمهما إلى السلطان مع مذكرة تفسيرية من اللورد اللنبى .

وفى يوم الثلاثاء ٦ ديسمبر وصل عدلى باشا وزملاؤه إلى الأسكندرية . وفى اليوم التالى وصل عدلى باشا إلى القاهرة ، فاستقبل أسوأ استقبال إذ ازدحمت الجماهير فى ميدان المحطة

وفى شارع إبراهيم باشا (نوبار سابقا) وتعددت هتافاتها ضد البعثة الرسمية ، كما كثرت هتافاتها بحياة سعد باشا وسقوط الحماية .

وقد أهان المتظاهرون من استقبلوا عدلى باشا فى عودته بالمحطة إهانة شنيعة وألقوا عليهم البيض الفاسد والطماطم ، ولطخّوا بذلك ثيابهم وكانوا يطلقون عليهم اسم «العدليين» [1] .

وقصد عدلى باشا إلى فندق الكونتننتال حيث أقيم له احتفال خطب فيه عبد العزيز فهمى بك خطبة كلها غمز ولمز وتهجّم على سعد . أما عدلى فكان مهموما مكتئبا فلم يخطب ، بل تلى بضعة أسطر ضمّنها شكره للمحتفلين به ، وأنه لم يوّفق فى سعيه لدى الإنجليز .

وأذكر أنى ذهبت فى ذلك اليوم إلى بيت الأمة وقابلت سعد باشا وقصصت عليه ما حدث من الشعب فى استقبال عدلى . وبينما أنا عنده حضر الأستاذ أمين عز العرب وقصّ على مسمعه ما رأى هو الآخر . وخاصة ما شاهده من الاعتداء على شيخ العرب صالح لملوم باشا ، وغيره من العدليين الذين ذهبوا لاستقبال عدلى فى محطة مصر .

ولما حان موعد خروج سعد باشا للرياضة ركب سيارته كعادته اليومية ومرّ بكثير من شوارع القاهرة ، فهتفت له الجماهير والتفت حوله فى مظاهرة حاشدة . فكانت هذه الجولة بمثابة مقابلة بين تأييد الأمة لسعد ، وانصرافها عن عدلى .

ومما يذكر أن وفودا عديدة كانت حضرت إلى بيت الأمة لتأييد سعد باشا لمناسبة قرب عودة البعثة الرسمية ، وكان من هذه الوفود وفد من « ميدوم » بمركز الواسطى برياسة المغفور له محمد صدقى باشا (المستشار والوزير السابق) فشكرهم سعد باشا وأثنى على وطنيتهم . وكان مما نصحهم به أن يكفّوا عن الخروج إلى الشوارع فى اليوم الذى تصل به البعثة إلى مصر . وأن ينصحوا أهليهم ومعارفهم وكل من يلقونه ممن تربطهم به أى رابطة ، أن يقرّوا فى منازلهم وأن يخرجوا إلى الطريق الذى تمرّ البعثة فيه لا بصفة مشاهدين متفرجين ولا مشاكسين متعرضين ، مثال أولئك المجرمين الذين اتخذوا من الأشقياء أعوانا لتحطيم الزينات التى أقيمت فى أسيوط وجرجا ، والانهيال على المستقبلين بالضرب والجرح والقتل والتغريق وما إلى ذلك من وسائل الاستبداد والعسف . لأن الوطنية الصادقة توجب احترام الحرية والكفّ عن اجتراح السيئات ضد أى إنسان ولو كان خصما .

ثم ختم كلمته قائلا : « مهما أقام خصومكم من الزينات والأقواس التى ما تكون إلا أقواس خزى ، فلا تمدّوا أيديكم إليها واتركوا البعثة الخائبة تمر فى الشوارع وهى خالية ، كما تمرّ الجنائز العادية . واعتصموا دائما بشعارنا الذى هو الاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

وحدث بعد عودة عدلى باشا أن أحيل جماعة من ضباط الجيش المصرى إلى الاستيداع ، بدعوى أنهم أهملوا وغضّوا الطرف عن الحوادث التى حدثت ضد عدلى باشا وزملائه ، ومن هؤلاء الضباط محمد حافظ بك (محمد حافظ باشا وكيل وزارة الحربية فيما بعد) والبكباشى إبراهيم علوى ، والصاغ على موسى (الأميرالاى على بك موسى فيما بعد) .

وفى يوم ٨ ديسمبر اجتمعت الوزارة العدلية بكامل هيئتها ، فيما عدا رشدى باشا لمرضه. وراجعت التقرير الذى قررت أن ترفعه إلى السلطان بشأن المفاوضات ومشروع كيرزون و إخفاق البعثة فى الوصول إلى اتفاق مع الإنجليز . ثم عرض عدلى باشا على زملائه فكرة الاستقالة فقبلوها ، وأعدّ كتابتها فعلا ، واستمر الاجتماع إلى ما بعد الظهر . وفى الساعة السادسة مساء قابل عدلى السلطان فؤاد وقدّم له التقرير وكتاب الاستقالة .

* * *

وقد رأى سعد باشا أن يبدّد الفتور الذى ران على صدور الناس بعد عودة عدلى وشعورهم بإخفاقه فى المفاوضة . وأن الفرصة مؤاتية لتعبئة الشعور وتأليب الرأى العام . وكان سعد فى هذه الفترة من تاريخ البلاد كالقائد الباسل الذى لا يكلّ ، ولا توهنه الحوادث حتى لا يدع زمام الموقف يلفت من بين يديه . وقد كنّا نعجب لتلك الحيوية المتدفقة من هذا الشيخ الكبير ، كما كنا نتوجس خيفة عليه وعلى أنفسنا من أن تستبد بنا الخطوب التى تحيق بالأمة فتفرّقنا بددا . وكنّا نشعر بأن الإنجليز ، وقد فشلت محاولتهم فى فرض مشروعهم على البلاد بواسطة عدلى والعناصر المعتدلة التى تضافرت معه ، قد يدبّرون مكيدة للإيقاع بنا وزعيم الثورة . وكانت تكهّناتنا بذلك تتردد من وقت وآخر . فمنّا من كان يتوقع اعتقالا لسعد وزملائه فى إحدى الثكنات العسكرية . ومنا من كان يتوقع النفى خارج البلاد . وكان سعد يقابل كل هذا بالسخرية ويضحك من تخوفنا وكان يردد أمامنا أنه لايهتم بمصيره قليلا أوكثيرا لأنه وحيد لا ولد له ، وإن كانت الأمة كلها أبناءه. وأن شريكة حياته « صفية » تشاركه هذا التفكير . وأنه وقد وضع رأسه فوق يده يوم خرج للجهاد . لا يضيره ما يحدث ، مهما يكن من أمر خصومه الإنجليز معه .

ثم فكّر سعد باشا فى أن يذيع بيانا على الأمة يعلن فيه أنه رغم ما حدث من الإنجليز فى مفاوضة عدلى ، فهو مستمر فى جهاده ، لايقبل من حركته بديلا عن الاستقلال التام لبلاده . فاذاع البيان الآتى نصه :

بنى وطنى

خدعونا بعد الاحتلال بوعد الجلاء ، وبعد الحماية بعهد الحرية والاستقلال . واليوم قاموا يجاهرون بخلف وعدهم ، ونكث عهودهم ، ويصَرحون بأن مصر لازمة لهم ، وصالحها يقتضى مع صالحهم إخضاعها لحكمهم ، بل ضماً لأملاكهم .

تصريح ما أشد عنفه ، وما أسوأ وقعه ، تصريح قطع كل أمل فى وفائهم ، ولكن سيكون له أكبر الفضل فى تقوية اتحادنا وإظهار هذا الاتحاد للناس جميعا فى أبهى مظاهره .

نعم . أمام هذا التصريح الفاضح ، أمام هذا الخطب الفادح ، وفى هذا الوقت الرهيب ، نفزع إلى اتحادنا فنقوّية ، وإلى صفوفنا فنجمعها ، وإلى قوانا فنوجهها جميعا إلى دفع ذلك الخطر العظيم . لنزع الشهوات الدنيئة من نفوسنا ، ونستّل الأحقاد الممقوته من صدورنا ، ونتجرد عن الهوى وتكون الكلمة السواء بيننا ، أن لايطيب عيش لنا حتى ينطلق الوطن السجين ويتمتع باستقلاله التام ، ولانعتبر خصمنا لنا إلا الذين أرادوا امتلاكنا ، ونحصر همنّا فى دفع بلائهم وإحباط أعمالهم .

أيها المصريون

إن الوطن يطلب منكم أن تخصصّوا ما أودعه الله فى رءوسكم من حزم وحكمة وفى قلوبكم من عزم وهمة وفى إرادتكم من ثبات وقوة ، وفى نفوسكم من صبر على الشدائد ومثابرة على العمل ، يطلب منكم أن تخصّصوا كل هذه المواهب التى توّاها فى نفوسكم وقع المصائب ، لخدمته وإعلاء كلمته .

إن فى قلوبكم إيمانا قويّا بحسن مصيركم ، ولا قاهر لإ يمان قلوبكم . وفى نفوسكم انقيادا لشعوركم الوطنى والانقياد الوطنى والانقياد لهذا الشعور يّوحد الجهود المختلفة ويدفع بها إلى وجهة واحدة .

إننا متأكدون أن حقكم سيعلو على باطل خصومكم ، وأنكم ستفوزون باستقلال بلادكم وسيكون فوزكم كريماً ، ومادام هذا المصير مصيركم ، فكل تعب فى سبيله راحة

وكل ألم لذة ، وكل فداء رخيص .

إنكم أنبل الوارثين لأقدم مدنية فى العالم ، وقد حلفتم أن تعيشوا أحراراً أو تموتوا كراما ، فلا تدعوا التاريخ يقول يوما فيكم : أقسموا ولم يبّروا بالقسم . فلنسر إذن بقلوب كلها إطمئنان ونفوس ملئها استبشار . شعارنا الاستقلال التام أو الموت الزؤام .

سعد زغلول

رئيس الوفد المصرى

* * *

وعقب عودة عدلى باشا من إنجلترا وفشل الوفد الرسمى للمباحثات ، رؤى أن يعود الأستاذ مكرم عبيد من لندن ليقدّم تقريرًا لسعد باشا وزملائه عن مهمته وعن التطورات المنتظرة للقضية المصرية . وقد كانت الفترة التى قضاها الأستاذ مكرم فى إنجلترا ـ وهى زهاء ستة أشهر ـ حافلة بمختلف وجوه الدعاية التى قام بها ، على رأس الطلبة المصريين الموجودين هناك فى مختلف المحافل . وكان الأستاذ مكرم وقتئذ لا تتجاوز سنّه الثالثة والثلاثين . كما أتاحت له ثقافته الانجليزية العميقة ، وتضلّعه فى العلوم القانونية أن يراسل أمهّات الصحف البريطانية وأن يتصل بالكثيرين من أعضاء مجلس العموم من حزبىْ « الأحرار » « والعمال » المعارضين لحزب المحافظين ، وأن يؤثر بذلك تأثيرًا مباشرا على الرأى العام هناك .

وكان سعد باشا يشعر بما ادّاه هذا الشاب النابغة من خدمات لقضية بلاده معجبًا به ، فخورًا بكفاحه ، متوقّعاً له مستقبلا واسع الآفاق . فَلَمّا عاد الوفد الرسمى من إنجلترا ، وذهبت محاولاته أدراج الرياح ، ووضح للعالم أن القضية المصرية « أمانة بين يدىْ سعد باشا » ـ وحده ـ دون غيره من المستوزرين وذوى المصالح الخاصة ، كتب سعد باشا للأستاذ مكرم يدعوه للحضور إلى مصر بعد أن نجح فى المهمة التى كُلّف بها . فوصل إلى الإسكندرية فى يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٩٢١ [٢] ، وقد ندبنى سعد باشا مع مصطفى النحاس لانتظاره فى ميناء الإسكندرية بالنيابة عنه ، فَلَمّا وصلنا إلى المدينة ذهبنا إلى مينائها، فوجدنا البوليس قد ضيّق الخناق على الجماهير الغفيرة التى إحتشدت للاستقبال . ولكن على الرغم من ذلك كان الاستقبال رائعًا إذ لم يستطع البوليس التغلّب على حماسة الجماهير التى تدفّقت على الأرصفة . فلمّا نزل الأستاذ مكرم من الباخرة حيّته تحيّة حارة . وقد وافقناه إلى فندق « ماجستيك » ، كما رافقه معنا كثير من الكبراء ،

وأعضاء لجنة الوفد بالإسكندرية وغيرهم .

ومما يُذكر أن الأستاذ مكرم شاهد عقب نزوله من الباخرة رجال البوليس يستعملون القسوة المتناهية مع الجماهير المحتشدة فوبّخهم على ما يفعلون ، ولكن توبيخه إيّاهم لم يغن ، إذ استمروا فى عسفهم وبطشهم .

وقد أعدّ الطلبة مأدبة حافلة لتكريم الأستاذ مكرم وشكره على المجهود الكبير الذى بذله والخدمات الجليلة التى أدّاها لبلاده ، إذ كانوا يروْن فى كفاحه رمزًا لكفاح الشباب المصريين ، وفى نجاحه نجاحاً لهم . وقد تصدّر الأستاذ مكرم المائدة الرئيسية فى هذه المأدبة وجلس إلى يمينه النحاس بك وجلست إلى يساره . وكان بجوارى حسن بك راسم، أحد كبار أعيان الإسكندرية وصهر محمد سعيد باشا رئيس الوزراء الأسبق ، وقد حضر المأدبة بالنيابة عنه .

وفى هذه الحفلة ألقى الأستاذ مكرم خطبة سياسية بديعة إستهلها بالحديث عن الزعيم « سعد زغلول » ، وعن عظمته ، والدور الذى يقوم به فى خدمة الأمة . وكيف أن شخصيته قد تمكّنت من نفوس المشتغلين « بالقضية المصرية » فى إنجلترا فأضحت العامل الأول فى الوصول إلى حلّ صحيح لها . وأن الرأى العام البريطانى معجب بما تجلّى عن سعد من مواقف الصلابة فى مواجهة القوى الاستعمارية . وكان الأستاذ مكرم وهو يلقى خطابه ، يلعب بالمعانى والألفاظ لعب الخطيب المفوّه فيأخذ بمجامع القلوب والآذان ، ويؤثر فى السامعين أيّما تأثير .

وقد كشفت هذه الخطبة عن جانب كان غير معلوم للناس فى الأستاذ مكرم ، وهو مقدرته الخطابية الفريدة ، ومهارته فى صياغة المعانى الجزْلة فى الألفاظ الجميلة والأسلوب الفريد ، وتحليله للمواقف السياسة تحليلاً منطقيا متماسكًا ، وامتلاكه لناصية البيان وإثارته العواطف بحسن إلقائه وجميل أدائه . فى حين كان المعروف عنه من قبل أن ثقافته مقصورة على اللغة الإنجليزية التى تعلّمها فى « جامعة اكسفورد » ، دون اللغة العربية .

ومن طريف ما يُروى فى هذا الصدد ، أن الأستاذ مكرم حفظ القرآن الكريم وتبحّر فى العلوم الشرعية والعربية ، على يدىْ الأستاذ عاطف بركات أثناء نفيّهما فى جزيرة سيشيل - كما سيأتى وقد نفعته هذه الدراسة أكبر نفع فى حياته السياسية إذ جعلت منه خطيبًا من أكبر الخطباء الذين اعتلوا المنابر ، ومحاميًا مترافعًا من أبرز المحامين الذين وقفوا فى ساحات

المحاكم ، وكاتبًا من ألمع الكتّاب السياسيين وداعية من أبلغ الدعاة للقضية المصرية . فضلاً عن ثقافته الإنجليزية الأصيلة التى أتاحت له فرص شخصيته على المفاوضين الإنجليز ، فى المفاوضات جرت التى فى سنتى ١٩٣٠ و ١٩٣٦ .

وفى المساء قصدنا إلى فندق « كلاريدج » حيث أقيمت الحفلة الكبرى ، من الساعة العاشرة مساء إلى الساعة الأولى بعد منتصف الليل . وأذكر أن مصطفى الخادم بك رحب فيها بالأستاذ مكرم بالنيابة عن أهالى الإسكندرية .

وبعد أن ألقى بعض الخطباء والشعراء كلمات وقصائد مناسبة وقف الأستاذ مكرم عبيد وألقى خطبة سياسية أخرى . وكان بعض الحاضرين يرددون الهتاف بحياة الأستاذ « وليم » مكرم عبيد .

وهنا وقف الأستاذ مكرم مُعلنًا أن اسمه الوطنى أصبح « مكرم عبيد » . وأنه أسقط منه « وليم » لأن الإنجليز تعارفوا على التسمية به . وهكذا أضحى معروفًا بهذا الإسم العربى الجديد بين الجميع .

وبتنا ليلتنا فى الإسكندرية . وفى الصباح برحتها بأول قطار وقصدت من فورى إلى بيت الأمة حيث قابلت سعد باشا ، ورويت له ما حصل فى الإسكندرية من الاستقبال الحافل الذى استقبال به الأستاذ مكرم .

وفى غروب اليوم كنّا فى محطة القاهرة لاستقبال الأستاذ مكرم . وقد امتلأت المحطة وميدانها والطريق من بيت الأمة إليها بجماهير لا تحصى إحتشدت لتحيّة العائد الكريم . وأقبل سعد باشا إلى المحطة على رأس المستقبلين ، وهذه هى المرّة الثانية التى كان يتوجّه فيها إلى المحطة ، بصفته زعيماً للأمة ورئيساً للوفد المصرى ، لاستقبال قادم ، أمّا المرّة الأولى فكانت لاستقبال النوّاب الإنجليز الأحرار يوم وصولهم . وقد أظهر اشتراك سعد باشا فى استقبال الأستاذ مكرم أهمية المهمة التى أدّاها فى انجلترا ، ونجاحه فيه[٣] .

ولما وصل القطار نزل منه الأستاذ مكرم وحيّا الجماهير الحاشدة ، وصافح الكثيرين من المستقبلين وساروا والجموع حوله ، حتى الباب الخارجى للمحطة .

ودعوت سعد باشا لركوب عربتى فلبّى الدعوة . إلاّ أنه أظهر رغبة شديدة فى أن يرى الأستاذ مكرم ليصافحه إذ أنه جاء إلى المحطة لهذا الغرض . فأبصرت الأستاذ مكرم فى عربة مكشوفة ، محاطا ببعض الطلبة وخاصة أعضاء لجنتهم التنفذية . فكلّفنى سعد باشا بأن

أذهب إليه وأدعوه للركوب معنا . فتحملت فى الوصول إليه عناء كبيرًا بسبب الازدحام وقد رفعه بعض الأخوان على أعناقهم وساروا به حتى أوصلوه إلى عربتنا . فاشتد فرح سعد باشا بلقائه وعانقه عناقًا حارًا . وقد تأثر الأستاذ مكرم تأثرًا شديدًا وسالت الدموع من عينيه . وركبنا العربة واجتزنا الطريق إلى بيت الأمة ، والجماهير على الجانبين تهتف للزعيم الجليل وللعائد الكريم وللحرية . كما كانت تهتف بسقوط الحماية وعمالها .

وأذكر أنه كان معنا فى العربة الشاب الصغير « جورج » مكرم عبيد ، أخو الأستاذ مكرم (وعضو مجلس النواب فيما بعد) .

ولما وصلنا إلى « بيت الأمة » دخلنا إلى غرفة المائدة حيث كان سعد باشا وصاحبة العصمة السيدة الجليلة « أم المصريين » قد أمرا بإعداد حفلة شاى تكريماً للقادم العزيز .

وقد لمحتُ بين المحتشدين فى بيت الأمة المرحوم مكرم عبيد بك ، والد الأستاذ مكرم ، جالسًا فى تواضع دون أن يشعر بوجوده أحد . ولم يكن قد التقى بسعد باشا من قبل . فأخذته من يده وقدمته له . فرحب به كل الترحيب وأخذ يلاطفه ويمازحه وأجلسه بجانبه على المائدة وكان مما قاله له « لقد أثر تعليمك لابنك ، فها أنت تراه الآن محاطًا بقلوب الجميع ، مرموقًا بعين الاحترام والإجلال » . فتأثر والد الأستاذ مكرم بذلك ، وبكى بكاء الفرح والسعادة .

هوامش الفصل السادس عشر

(١) تعترف الوثائق البريطانية بأنه ألقى على موكب عدلى كميات كبيرة من الطماطم والبيض الفاسد بل والأحجار فى بعض الاحيان F.o. 407/1919 Inc. in No. 46 .

(٢) تقول التقارير البريطانية أنه وصل يوم ١٩ ديسمبر وليس يوم ١٦ .

(٣) تقول نفس التقارير أن الجماهير أحاطت بمكرم لدى ركوبه القطار من محطة الاسكندرية وأنها وقفت بطول الخط حتى الحضرة ، بالاضافة إلى الجماهير التى تجمعت فى المحطات الكبيرة مثل كفر الزيات وطنطا . كما تقول إن البوليس فى القاهرة اضطر إلى التدخل مرتين ، الأولى فى محطة مصر والثانية فى ميدان الأوبرا لتفريق المتظاهرين . F.o. 407/1919 Inc. in No. 6

الفصل السابع عشر

القــارعـــة

المستعمرون يفكّرون فى نفى سعد وأصحابه ـ مُقدّمات النفى ـ سعد يستأنف الجهاد ويدعو إلى عقد اجتماع سياسى ـ تحديد موعد الاجتماع وتوزيع رقاع الدعوة له ـ فزع السلطات البريطانية وأمرها بمنعه . المارشال اللنبى ينذر سعد باشا وعددًا من رجاله بالكفّ عن الاشتغال بالسياسة وبمغادرة القاهرة فورًا ـ رد سعد على هذا الإنذار بأنه « موكل من الأمة فليس لغيرها سلطة تخليه عن القيام بواجبه المقدس » ـ تضامن أصحاب سعد معه ـ فى ليلة المنفى .

* * *

وكانت الخطّة التى وضعناها فى أعقاب عودة « الوفد الرسمى » من إنجلترا ، هى أن نتابع ما سبق من عملنا فى تنشيط الرأى العام ، وتأليب قواه ضد الاستعمار . وقد انتهزنا فرصة حلول يوم ١٨ ديسمبر ، وهو يوافق تاريخ إعلان الحماية الإنجليزية على مصر سنة ١٩١٤ ، للقيام بحركة احتجاجات واسعة النطاق ، تشمل جميع مديريات القطر ومحافظاته ومراكزه [١] . وفعلاً لم يحلّ هذا اليوم حتى انهالت التلغرافات على دور الصحف ، تحتج على الحماية وتنددّ بأعوانها . وكانت استقالة وزارة عدلى لم تُقبل بعد . وظهرت الصحف تنذر بالحالة السياسية التى تردّت فيها الأمة بسبب تخاذل بعض المصريين وانشقاقهم على إجماعها ، وتنادى فى الوقت نفسه بضرورة توحيد الصفوف ـ مرّة أخرى ـ لمواجهة الإنجليز جبهة متحّدة . كما أصدر سعد باشا بيانًا جديدًا وجّهه إلى الشعب ، حثّه فيه على الاستمساك بحقوقه كاملة ، أيًا كانت الوسائل التى تتبّع لمحاربته وتحول دون بلوغه أمانيه .

وليس بخفىّ ، أن هذه الحيوية المتجدّدة من جانب سعد باشا وأنصاره ، بالرغم من المحاولات اليائسة التى كان يبديها رجال الاستعمار وأعوانهم ، سبّبت للسلطات العسكرية البريطانية فى مصر ذهولاً تامًا . إذ توّقعت أن البلاد مقبلة ـ دون شك ـ على أحداث خطيرة قد تفوق فى هولها وبشاعتها الأحداث التى مرّت بها ثورة سنة ١٩١٩ . ومما زادهم ذهولاً أن سعد باشا كان قد أعدّ العّدة لعقد اجتماع سياسى كبير تلقى فيه كلمة الوفد فى حالة البلاد ، ويُلقى فيه الأستاذ مكرم بيانًا سياسياً . وحُدّد لهذا الاجتماع يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر وتقّرر أن يقام فى نادى « سيروس » بشارع سليمان باشا ، ووزّعت

الدعوة له فعلاً . وكان طبيعيًا أن يحضر هذا الاجتماع ألوف مؤلفة من الشعب ، شأن جميع الاجتماعات والحفلات التى يدعو إليها سعد باشا . ولذلك هال الأمر السلطة العسكرية الإنجليزية فأمرت بمنع هذا الاجتماع يوم ٢٠ ديسمبر ، وأُبلغنا رسميًا أن هذا الاجتماع محظور ، وأنه سوف يمنع عقده بالقوّة العسكرية ، إن اقتضى الحال .

وكان اللورد اللنبى ـ المعتمد البريطانى وقتذاك والقائد العام للقوات العسكرية ـ يعلم عن خصمه السياسى سعد باشا الشجاعة والعزم ، ومثابرته على الكفاح مهما كلّفه من ثمن ، أو تضحية . فاعتزم أن يضرب الحركة الوطنية الضربة القاصمة ـ بحسب اعتقاده ـ بأن ينفى سعد باشا وبعض إخوانه إلى خارج البلاد . على أن يعمل بعد ذلك سيف النقمة والتنكيل فى رقاب المصريين ، وأن يفتح لهم أبواب السجون والمعتقلات ، ويذيقهم كؤوس العذاب والذلّ والمهانة ، إذ أبوا الرضا والقناعة بما أريد لهم من فرض « مشروع كيرزون » جبراً عليهم . وقد شجّعه فى هذا التصميم ما كانت البلاد عليه من عدم وجود حكم مصرى فيها ، بسبب استقالة وزارة عدلى باشا .

وقد نفذّ المارشال اللنبى تصميمه فعلاً .

ففى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح يوم الخميس ٢٢ديسمبر سنة ١٩٢١ حضر إلى بيت الأمة وكيل حكمدار بوليس القاهرة ، وسلّم السكرتير الخاص لسعد باشا كتابًا من « الجنرال كلايتون » مستشار وزارة الداخلية . نصه :

« مصر فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١ .

صاحب المعالى

أتشرف بأن أخبركم بأنه بناء على تعليمات المارشال القائد العام أبلّغ معاليكم الأمر الآتى :

سعد باشا زغلول ممنوع بهذا ، تحت الأحكام العرفية من إلقاء الخطب . ومن حضور اجتماعات عامة ، ومن استقبال وفود ، ومن الكتابة إلى الجرائد ، ومن الاشتراك فى الشئون السياسية ، وعليه أن يغادر القاهرة بلاتوان وأن يقيم فى مسكنه بالريف تحت مراقبة مدير المديرية .

الوكالة البريطانية . القاهرة فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢١ الإمضاء « اللنبى »

ولى الشرف أن أكون خادمكم المطيع

الإمضاء « كلايتون »

مستشار وزارة الداخلية

وسلّم وكيل الحكمدار إلى سكرتير سعد باشا أيضًا خطابات مماثلة إلى كل من سينوت حنا بك ، ومصطفى النحاس بك ، والأستاذ مكرم عبيد ، وفتح الله بركات باشا ، وعاطف بركات بك ، وصادق حنين بك ، وجعفر بك فخرى والأستاذ أمين عز العرب ، وهذه صورة كل منها :

سيّدى

بناء على تعليمات الفيلد مارشال القائد العام أخبركم أنكم مأمورون بهذا تحت الأحكام العرفية . أن تذهبوا بلا توان إلى محل إقامتكم بالريف ، وأن تتجنّبوا كل عمل سياسى ، كما أخبركم أنكم ستوضعون تحت مراقبة مدير المديرية التى ستقيمون فيها » .

وعلى أثر تسليم هذه الأوامر إلى أصحابها أذاعت إدارة المطبوعات بوزارة الداخلية على الصحف بلاغًا رسميًا ضمّنته ما جاء بها .

ولم يكد سعد باشا يتسلم هذا الكتاب حتى ردّ عليه بالكتاب الآتى :

جناب « الجنرال كلايتون » مستشار وزارة الداخلية .

تشرّف بإخباركم بأنى إستلمت خطابكم بتاريخ اليوم الذى تبلغوننى فيه أمر جناب الفيلد مارشال اللنبى بمنعى من الاشتغال بالسياسة ، وإلزامى بالسفر إلى عزبتى بلا تأخير للإقامة فيها تحت مراقبة المدير . وهو أمر ظالم أحتجّ عليه بكل قوتى إذ ليس هناك ما يبّرره .

وبما أنى موكّل من قبل الأمة للسعى فى استقلالها ، فليس لغيرها سلطة تخلينى من القيام بهذا الواجب المقدس . لهذا سأبقى فى مركزى ، مخلصًا لواجبى وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء أفرادًا وجماعات . فإنّا جميعًا مستعدون للقاء ما تأتى به بجنان ثابت وضمير هادئ . علمًا بأن كل عنف تستعمله ضد مساعينا المشروعة ، إنما يساعد البلاد على تحقيق أمانيها فى الاستقلال التام(٢) .

وأرجو أن تتقبلوا فائق احتراماتى .

مصر فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١

« سعد زغلول »

رئيس الوفد المصرى

أما أعضاء الوفد الذين تسلّموا خطابات شبيهة بالخطاب الموّجه لسعد باشا فقد ردوا عليه بالخطاب التالى :

جناب « الجنرال كلايتون » مستشار وزارة الداخلية .

أتشرف بإخباركم أني استلمت خطابكم بتاريخ اليوم الذى تبلغوننى فيه أمر جناب الفيلد مارشال اللبنى ، وردّى عليه هو نفس الرد الذى أرسله معالى رئيسنا سعد باشا زغلول اليوم على الخطاب المرسل إليه فى المعنى ذاته » .

* * *

وقد كان تبادل هذه الخطابات المتضمّنة معنى الإنذار من جانب السلطة البريطانية ، ومعنى الرفض من جانب الوطنيين بمثابة « القارعة » التى كنّا ننتظرها . . !

أمّا كيف تلقّى سعد باشا وزملاؤه أوامر السلطة العسكرية الإنجليزية ، وأمّا كيف ردّوا عليها هذا الرد التاريخى العظيم ، فإنى أدع وصفه للكاتب السياسى الكبير الأستاذ عبد القادر حمزة[٣] ، إذ كان فى بيت الأمة إذ ذاك ، وحضر تسلّم الأوامر وكتابة الرد عليها، وهو فى هذا شاهد عيان لما جرى . وقد وصف ما شاهده بأسلوبه العالى المعروف، ونشره فى جريدة « المحروسة » التى كان يتولّى تحريرها ـ فى ١٤ يناير سنة ١٩٢٢[٤] ـ فجاء وصفه آية فى البيان والتأثير . إذ كتب يقول :

« خير ما نذكر به سعدًا ورفاقه فى هذه الساعة أن يعرف الناس كيف كانوا والأوامر بالنفى بين أيديهم . كانوا وايم الله أبطالاً ، وكان سعد قائدًا لم يمنعه اعتقاله أن يخرج من المعمعة منتصرًا ، وهذا حديثهم أبسطه ليسجّله التاريخ .

كنّا جماعة فى القاعة الصغرى فى بيت الأمة ظهر يوم الخميس ٢٢ ديسمبر ، وبينما نحن نتحادث إذا بالباب يُفتح ، ثم إذا بمصطفى بك النحاس يدخل علينا باسمًا وعيناه تلمعان وفى يده كتب . ويعرف كل الذين عاشروا النحاس بك أن له ساعات هى ساعات الحوادث الجسام . تظهر فيها على وجهه ، وفى عينيه ، وفى كل حركات جسمه ، دلائل الحماسة بالغة حدّها الأقصى . حتى ليظنّ رائيه أن الشعور الذى يقوم فى نفسه أدنى إلى أن يكون اغتباطًا بمصارعة الحوادث ، من أن يكون تحسّبا منها . فهو مصارع يرتاح للصراع ارتياح الشباب إلى ركوب الأخطار . وما أعظم ما يفرح إذا نجح وتحقق له

أمل . دخل علينا وفى يده تلك الكتب فشعرنا بأن هنا أمرًا ، ثم وقف وجعل يلقى الكتب لأصحابها إلقاء . فألقاها لفتح الله باشا وعاطف بك والأستاذ أمين عز العرب ، فتهافتنا نسأل ماذا ؟ فقال النحاس بك أوامر من السلطة العسكرية ، ثم فضّ عاطف بك كتابه وأدّاه إلينا من الإنجليزية إلى العربية ، فعلمنا أن المارشال اللنبى يحظر عليه كل عمل سياسى ، ويأمره بالسفر فى أقرب وقت إلى قريته ليكون فيها تحت مراقبة المدير . وكذلك كان الكتابان الآخران ، فسألنا ولمن غير هؤلاء جاءت كتب ؟ فقال النحاس بك وهو يبتسم : للرئيس ولى ولسينوت بك وصادق بك والأستاذ مكرم عبيد وجعفر فخرى .

وفى هذه اللحظة جاءنا سينوت بك وهو يضحك ، وكان فتح الله باشا لا يزال ممسكًا كتابه يقلّب فيه مبتسمًا . وكان من أغرب المناظر أنّ كل الذين بيننا ممن جاءتهم الكتب كانوا باسمين غير مهمومين ، فى حين أننا نحن الآخرين كنّا عابسين . وكانت أول فكرة لى بعد ذلك أن سألت : هل كتاب الرئيس ككل الكتب ؟ فأجاب سينوت بك . نعم . ولكنه أوسع منها حجرًا ، فقلت وعلى أى شىء عزمت أنت ، ومتى تسافر إلى عزبتك ؟ فوقف أمامى وقد سطع بريق عينيه وقال بشدّة . ماذا ؟ أنا أخضع للأمر ؟ ثم رفع يده اليمنى مشيرًا بها إشارة الإباء وقال « كلاّ لن يكون هذا » . . . !

سمعت منه هذا الجواب فأعجبتنى شهامته ، ولكنى أحسست قلقًا يداخلنى فقلت : لا تدع ثورة فكرك الأولى تملكك إلى النهاية . فما زاد على أن هزّ رأسه بسرعة هزّة الرفض وابتسم وأجاب بتلك الحماسة المتدفّقة التى يعرفها فيه كل أصدقائه « لا . لا أبداً » أسافر إلى عزبتى مُكرها ، كما سافرت من قبل . ولكننى لا أسافر إليها خاضعًا مطيعًا .

وحينئذ إتجهت فكرتنا إلى الرئيس ، وكان النحاس بك قد سبقنا إليه . فانتقلنا كلّنا إلى القاعة الكبرى ما عدا الأستاذ حبيب فهمى فإنه بقى فى القاعة الصغرى ، ثمّ لم أره بعد ذلك . دخلنا على الرئيس فوجدناه جالسًا على كرسى فى وسط القاعة . ، وإلى يمينه واصف بك واقفًا يداعب سلسلة ساعته كما هى عادته . وأمامهما النحاس بك جالسًا إلى منضدة فى وسط القاعة يكتب ما يمليه عليه الرئيس ، وبجانبه صادق بك واقفًا يتكئ بيده اليسرى على كرسى النحاس بك ويتابع بعينيه ما يخطّه القلم .

ولقد كنّا شاعرين برهبة الموقف . وكان سعد باشا منصرفًا إلى الإملاء فلم نحّيى . ووقفنا صفًا بين النافذة والباب الصغير . فكان على يمينى فتح الله باشا فالأستاذ الغرابلى

فعاطف بك وكان على يسارى الأستاذ عز العرب فسينوت بك ولكن هذا الأخير لم يقف إلا قليلاً ثم أخذ كرسيًّا ، وجلس قريبًا من المنضدة والنحاس بك .

لم نحيى ، ولكن الرئيس نظر إلينا ساعة دخولنا وقال تعالوا واشتركوا معنا ، ثم استمر يُملى . وما كانت هذه أول مرة رأيته فيها يُملى ، فكأنما تسكت الطبيعة من حوله لتنصت . ولكننى فى هذه المرّة شعرت كأنما يحيط بنا سكون هو الخشوع . ولا غرو ، فقد كان ظاهرًا أن السياسة البريطانية وقد توعّدت فى تبليغها أن تحارب الحركة الوطنية حتى تقتلها، شهرت اليوم سيفها وخرجت تضرب به رأس هذه الحركة . فكانت الساعة ساعة صراع إلى الموت ، ليس بين اللورد اللنبى وسعد باشا ، بل بين إنجلترا ومصر . إنجلترا بكل ما فى يدها من بطش القوة المادّية ؛ ومصر بكل ما فى قلبها من الإيمان بحقّها ، وما فى نفوس أبنائها من العزم والجلد .

كانت ساعة ينطق فيها سعد باشا « بنعم » فيسجّل على روح مصر الغلبة والرضى بالخوف والهزيمة ، أو ينطق « بلا » فينزّهها عن الضعف ، ويثبت لها القوة والشمم . ولقد أجاب فقال « لا » فكان بطلاً . وكانت به مصر شهمة ، كتب التاريخ لها ، فى يومها ذاك ، سطرًا من ذهب . . . !

ولعلّ كثيرًا من الذين يقفون بعيداً يقولون وهل كان لسعد باشا أن يجيب بغير ما أجاب به حتى تكون فى جوابه بطولة ؟ فهؤلاء إنما يقولون ذلك لأنهم واقفون بعيدًا لا يمسّهم ضرّ ولا ينزل بهم نازلة . أمّا لو أنهم كانوا مكان سعد باشا وهو يعلم أنه الهدف الذى تريده السياسة البريطانية وتنتحل الأعذار كلها ، ثم هو شيخ ضعيف البنية ، مضّطر أن يعيش بنظام طبى خاص ليحافظ على صحته ، أقول لو أن هؤلاء الواقفين بعيدًا كانوا مكانه ثم فكّروا فى أن كلمة « لا » معناها فتح الباب واسعاً لظُلُمات مجهولة لا يعرف لها كنه ولا حدّ، لعلموا مقدار ما فى جوابه من الرضى بالتضحية . ولكن الجواب ليس تضحية فحسب، بل هو فوق ذلك بسالة وقفت بها مصر الصغيرة العديمة النصير ، المجرّدة من السلاح ، أمام إنجلترا المسلحة وسيّدة العالم تهزأ بقوتها وسلاحها ، وتقول لها ما كنت لأجبن ولا لأخضع .

هنا لا أكذب الله فقد كان لى فى الجواب رأى وسط بين لا ونعم ، وهو يجمع بين الاحتجاج من جانب، وتجنيب الرئيس الاستهداف للظلمات المجهولة من جانب آخر .

ولكن رأيى هذا لمْ يرح . لا بل إنه قوبل بالرفض الباتّ ، كى تكون كلمة « لا » فى جواب الرئيس حاسمة ، وتكون التضحية من جانبه كاملة .

أملى سعد باشا . ثمّ لما كانت فكرتى أن يكون الردّ احتجاجًا ، يتلوه فيها بعد السفر إلى العزبة ، ظهر غرضى هذا فى ملاحظاتى . وحينئذ توقّف سعد باشا عن الإملاء لأن كلّ الموجودين تقريبًا جادلونى بسرعة . وإنىّ أقول تقريبًا ، لأنى لم أجد غير واحد هو الذى وافقنى ، وقد كانت موافقته لى سلبية محضة ، لا يصاحبها شىء من التأييد .

أمّا الرئيس فانظر كيف كان موقفه . إنه رفع رأسه كمن يتقدم لمصادمة الحوادث ويأبى أن يعتريه فى مصادمتها وهن أو لين ، وقال : « أنتم شبّان لا يأخذكم الضعف الذى قد يأخذ الشيوخ فى ملاقاة الخطوب فالرأى لكم . وأنا عند ما تتفقون عليه . ولكن إعلموا أننى لا يمسّنى ضعف ولا تميل نفسى لأن استبقى بقّية من التضحية الواجبة » .

وحينئذ لم أتمالك أن أعُجبت وعجبت فى آن واحد . أعجبت بها فى كلمته من الشهامة ، وعجبت من أن هذا الرجل الذى وصفه شانئوه بالاستبداد فى الرأى ، يخضع لرأى غيره . لا فى تقرير مسألة من المسائل النظرية ، بل فى مصيره هو نفسه . أمام سيف شهره العدوّ فى وجهه . حقًّا إننى رأيت هذا عجيبًا . ولقد هممت وقتًا ما أن أقول إنه لا يحقّ لأحد غير الرئيس أن يبتّ فى أمر خاص بشخصه . ولكننى لم أجد لا فى سيماء سعد ، أو فى الآراء المتداولة ، ما يشجّعنى على إبراز فكرتى فطويتها فى صدرى .

جرت المناقشة وكانت قصيرة فقال النحاس بك وسينوت بك فى صوت واحد تقريبًا : يجب أن يكون الجواب رفضًا محضًا ، وعلى اللورد أن ينفذ أمره بالقوة .

فقلت : ألا تخشيان أن يعدّ الرفض مخالفة لأمر صادر من السلطة العسكرية ؟ فقالا بشّدة . ليكون ذلك ، فليس فى وسع الرئيس أن يجيب بغير الرفض . وانضّم إليهما الباقون كلّهم إلاّ فتح الله باشا فقد بقى ساكتًا ، وهو الذى قلت إنه وافقنى فى كلمة أسرّها إلىّ ولكنّه لم يؤيدنى . واتفق أن مرّ واصف بك أمامى فقلت له همسًا ألا ترى أن هذه آراء خطرة فأجاب بلا تردّد : وهل نحن هنا إلاّ لذلك ؟

وفى هذه اللحظة دخل الأستاذ مكرم عبيد ، فألقى فى الموضوع برأيه حاسمًا قويًّا ، وبه انتهت المعركة وأقفل الجدل . قال وكأنه يخطب فى قوم يريد أن ينقل إلى صدورهم ما فى صدره من النار المتقّدة : «لا جواب غير الرفض » . إنّ العالم هنا وفى أوروبا يترقب الآن ما

يفعله الرئيس . ليأت الجنود ولينتزعوه بسلاحهم من داره ليكون « الضحّية » الماثلة فى كل وقت ، أمام أمته . . . !

بعد كل هذا لم يبق إلاّ أن يقول الرئيس كلمته ، فتالله ما عشت ، لا أنسى نظرته إلينا إذ ذاك نظرة الجندى الفتى ، لا نظرة الشيخ المتُعب ، وهو يقول بصوت مملوء حزمًا وقوة : شكرًا لكم ، لقد أصبتم ما فى نفسى ، فلنكتب الجواب وليذهب به الرسول حالا .

وكان واصف بك قد جلس منذ قليل إلى مكتب الرئيس وجعل يكتب على حدة فهّب يقول : « وضعت مشروع جواب هو هذا » ، ثم قرأه باللغة الفرنسية . فقال الرئيس لا بأس به فى مجموعه ، وشرع يُملى على النحاس بك ما كان فى نص الجواب الذى يعرفه الجمهور ، والذى أصبح صفحة ـ ما أجملها ـ من تاريخ مصر .

هوامش الفصل السابع عشر

(١) جاء فى التقارير السرية عن هذه الحركة انه تجمع أكثر من الفين صباح هذا اليوم حول بيت الأمة واصطدموا بالبوليس ، كما جرت مظاهرة حول بيت الأمة ايضًا عصر نفس اليوم ، كما جرت مظاهرات فى نفس اليوم فى بورسعيد وطنطا وبنى سويف والفيوم . F.o. 407/192 Inc. in No. 6.

(٢) للعودة إلى النص الانجليزى لهذا الرد F.o. 407/191 No. 51.

(٣) صاحب جريدة البلاغ وعضو مجلس الشيوخ فيما بعد .

(٤) بعد ان كانت السلطات قد عطلت صدور « الاهالى » و « المنبر » الناطقتين بلسان الوفد تم التوصل إلى اتفاق مع صاحب « المحروسة » أن يحررها محررو الجريدتين الوفديتين المعطلتين وبدأ تنفيذ هذا الاتفاق يوم ١٤ يناير ١٩٢٢ . F.o. 407/192 Inc. in No.43.



الفيلد مارشال اللنبي

الفصل الثامن عشر
فى ليلـة النفـى

عودة حمد باشا الباسل إلى صفوف الوفد ـ كيف نُفّذ النفى فى سعد ـ إحتجاج الوفد المصرى ـ نفى زملاء سعد ـ نداء ويصا واصف غالى للأمة ـ « إن فى ميدان الضحايا والمجد لمتسعا للجميع » ـ إحتجاج الأمة نفى سعد ـ سفر سعد باشا وأصحابه إلى عدن ـ ختام عام ١٩٢١ .

* * *

بقى بعد هذا الرد التاريخى العظيم الذى سجلّ به سعد باشا آية من آياته الوطنية ، أن ينتظر سعد ، وأن ينتظر إخوانه ، وأن تنتظر الأمة معهم ، ماذا تفعل السلطة العسكرية الإنجليزية . وكان طبيعيا أن يتّوقع الجميع شيئا ، إن لم يكن النفي فهو على الأقل الاعتقال . وهكذا وقف سعد باشا الأعزل من كل سلاح إلا سلاح الحق ، ووقفت الأمة كلها من ورائه ، موقف المتحدّى للقوة العسكرية . بل وقف الحق الصراح أمام الجبروت ، غير آبه عسفًا ولا ظلماً .

ولم أكن موجوداً فى بيت الأمة ساعة وصول إنذار السلطة العسكرية الانجليزية ، ولا ساعة الرد عليه . فلما بلغنى النبأ أسرعت إلى هناك فورًا فما لقيت سعد باشا حتى سألنى وكانت تبدو عليه أمارات الجلد : أين كنت ؟ وهل سمعت ؟ فقلت أجل . فكان جوابه : « لتكنْ مشيئة الله ، والبركة فيكم . على أنى قد عرفت مصيرنا ، ولست مهتما الآن إلاّ بكم فأنتم الذين ستعانون الشدائد بعدى ، ولكنّى واثق الثقة كلها من رجولتكم » .

وبعد قليل دخل إلى الحرم ليستريح .

وفيما نحن جالسون فى مكتب الرئيس سمعتُ هتافا عاليا ، فخرجت لأستطلع الخبر . فإذا بحمد الباسل باشا يدخل فى مظاهرة حماسية من الشبّان ، وكان قد مضى عليه أكثر من ستة أشهر لم يدخل بيت الأمة ، لأنه كان قد أعلن حياده فى الخلاف الذى وقع بين سعد وعدلى . وكان سعد باشا يرى أن موقفه غامض . فاستقبلته وأدخلته إلى مكتب سعد باشا . ولّما علم سعد باشا بقدومه حضر ، وكانت مقابلتهما مؤثّرة للغاية ، وكان مما قاله حمد باشا « لقد جئتُ إليك فى ساعة الخطر، لأنى أعتبر أن الاعتداء عليك هو اعتداء على إستقلال البلاد . فأنت زعيم الأمة بلا شكّ ولا جدال ، وأنا أضع نفسى تحت تصرّفك » .

وقد رد سعد باشا معربًا عن إغتباطه بهذا الموقف ، قائلا لحمد باشا : « لا عجب إذا سمعتُ منك مثل هذا الكلام ، فأنت طول حياتك تمثّل الرجولة والشهامة » .

وقد ظهر التأثر الشديد على سعد باشا وهو يتحدث مع حمد باشا ، ثم انصرف بعد أن قضى معه بعض الوقت .

* * *

وكان ما جرى بين المارشال اللبنى وسعد ورجاله قد انتشر انتشار النار فى الهشيم وقد قوبل نبأ السلطة العسكرية لهم من جميع طبقات الشعب بالاستنكار العام وقامت على أثره مظاهرات قوّية تهتف للثورة . فبينما نحن فى بيت الأمة إذا بجماعة من الشباب يعربون عن سخطهم بمظاهرة كبيرة فى شارع « سعد زغلول باشا » ، وأخذوا يحطّمون مصابيح النور ويخلعون الأشجار فى الشوارع ، كما حطمّوا عربات الترام . فأسرعت كوكبة من الفرسان فى مطاردتهم ، وكان على رأس هذه الكوكبة ضابط عُرف بالقسوة والغلظة والوحشية وقتل الناس بالرصاص ، اسمه « محمد شاهين » . وقد رويت عنه حوادث فظيعة فى المنيا والقاهرة فى بدء الثورة سنة ١٩١٩ ضد الأهالى ، والطلبة بنوع خاص . وقد استعمل هذا الضابط العنف البالغ مع المتظاهرين وأطلق الرصاص عليهم حتى لقد كان الرصاص يصيبهم فى أفواههم ، وهم يهتفون للحرّية والاستقلال ، كما كان يصيبهم فى بطونهم . وقد حملت بنفسى نحو أربعة من هؤلاء المصابين ، وأدخلتهم إلى فناء بيت الأمة ، وكانت دماؤهم تسيل على ملابسى . وقد دعانى سعد باشا ليسألنى عن جلّية الخبر ، فأخفيت عليه الأمر حتى لا أزيده تأثرا ، وقلت إنها إصابات خفيفة فطلب أن أستدعى فوراً الدكتور محجوب ثابت ، لتضميد جروحهم واسعافهم ، فلبّيت طلبه . ولكن أى إسعاف يجدى والإصابات كانت قاتلة إذ قد فاضت أرواحهم إلى بارئها وهم بين يدى [١] .

وهكذا ذهب هؤلاء الشبّان إلى لقاء ربّهم ، ضحية قسوة هذا الضابط ووحشّيته ، وتجرّد قلبه من شعور الرحمة والشفقة ، فضلاً عن الوطنية .

وجاء الليل ، فظهرت أمارات الوحشة على مدينة القاهرة ، بعد أن أتلف المتظاهرون مصابيح الشوارع زيادة فى الإعراب عن سخطهم وإستنكارهم لإنذار السلطة العسكرية . ثم كان أن حضر إلى « بيت الأمة » جماعة من الذين كانوا قد انحازوا إلى جانب سعد باشا ، فاستقبلهم سعد باشا مرّحبا ، وأذكر أنه كان بينهم الأستاذ محمد توفيق دياب الكاتب

الصحفى ، والأستاذ محمد كامل حسين المحامى ، والأستاذ جلال الدين حفنى ناصف وغيرهم ، وقد تكلّم الأستاذ محمد توفيق دياب معتذراً لسعد باشا عن موقفه منه .

وعقب صعود سعد باشا للنوم وتأهّبنا للانصراف ، رأينا جماعة من الشبّان يحيطون ببيت الأمة ويعلنون أنهم سيواصلون السهر فى حراسة سعد باشا حتى لا يستطيع أحد الدنّو منه إلا على جثثهم . إلا اننا نصحناهم بالعدول عن ذلك فانصرفوا .

وفى الساعات الأولى من صبيحة يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر ، حضرت إلى بيت الأمة كوكبة من الجنود الإنجليز على رأسها أحد ضباط الجيش وطلبت مقابلة سعد باشا . فأبلغ الخدم سعد باشا بهذا النبأ فتأهب للقائه وشرع فى إرتداء ملابسه ثم النزول إليه . إلا أن الضابط تعجّل الأمر وصعد إلى الدور العلوى فنزل معه سعد باشا . وارادت صاحبة العصمة « أم المصريين » النزول معه ومصاحبته ، وألحّت فى ذلك إلحاحًا كبيرًا إلا أنه هدّأها ، فعادت بالغة التأثر ولكنها قوّية الجنان ثابتة القلب .

وركب سعد باشا سيّارة مع الضابط الإنجليزى ، فذهبت به دون أن يعلم بوجهتها أحد . . .

وبعد ذلك تسامع الناس أن بعضهم شاهد السيّارة فى طريق العباسية متجّهة إلى مصر الجديدة . فايقن الجميع أن وجهتها « السويس » . ثم رأى آخرون سيّارة تتبعها ، وقيل وقتئذ إنهم أسرعوا بإرسالها تحمل طعام الإفطار لسعد باشا .

وحضرتُ فى هذا اليوم مبّكرا إلى بيت الأمة ، فوجدت فيه رجال الوفد يتنسّمون الأخبار عن سعد وعن المكان الذى أرسل إليه . وكان مما سمعناه أنهم ذهبوا به إلى السويس رأساً عن طريق الصحراء .

* * *

وبعد اعتقال سعد باشا وأخذه على هذا النحو ، إجتمع أعضاء الوفد المصرى ، وقرروا الاحتجاج على هذا الإعتداء وحضّ الشعب على الثورة . فاصدروا البيان الآتى :

« نفذّت القوة ما شاءت ، واعتدت على رئيسناسعد باشا زغلول ، فأحاطت، صباح اليوم « ببيت الأمة » بقّوة من الجنود الانجليز المسلّحة ، ودخل ضبّاطها على الرئيس فى غرفة نومه وأخذوه فى سيّارة عسكرية إلى مكان مجهول . ولم يراعوا حُرمّه لمقامه من الأمة ولا

لشيخوخته ، ولا ما يحدثه عملهم من إزعاج لحرمه ، إذ أبوا أن يخبروها بمقرّه .

فباسم الأمة يحتّج الوفد أشد الاحتجاج على هذه التصرّفات الاستبدادية والأعمال القاسية التى أهينت بها الأمة فى شخص وكيلها ، وعلى ما تقدّمها وتلاها من الاعتداء على المصريين وهم عزّل من السلاح ، بسلب حريتهم وإراقة دمائهم وإزهاق أرواحهم . وليس لهذه التصرّفات نتيجة إلا إذكاء البغض فى قلوب الأمة وإشعال نار الغضب فى صدورها ، وإحتمال الآلام بأفئدة مطمئنة ونفوس مستبشرة فى سبيل تحقيق مطلبها الأسمى ، وهو التخّلص من نيْر الاستبداد وربقة الأجنبى والفوز بالاستقلال التام» .

فلتحيا مصر . وليحيا سعد .

واصف بطرس غالى . سينوت حنا . مصطفى النحاس . ويصا واصف . مكرم عبيد .

* * *

وعلى أثر إعتقال سعد باشا ونشر بيان الاحتجاج عليه قصد اعضاء الوفد إلى منزل محمد فتح الله بركات باشا لتناول طعام الغداء معه ، تلبية لدعوته لمواصلة الحديث فى الموقف ، وفيما هم هناك حضر رسول من قبل السلطة العسكرية الإنجليزية وطلب مقابلتهم وتولى الحديث بالنيابة عنهم شقيقه الأستاذ محمد عاطف بركات بك .

قال الرسول : « إن اللورد اللنبى لا يريد سوءا بالذين أرسل إليهم الإنذار بالامتناع عن الاشتغال بالسياسة ، وأنه يمكنهم البقاء فى القاهرة إذا شاءوا ، أو فى البلد الذى يختارونه . وكل ما يطلبه هو أن يمتنعوا عن الاشتغال الفعلى بالسياسة » .

فأجاب عاطف بك بقوله :

« إننا لا نفهم مرادك بعدم الاشتغال بالسياسية فإذا كنت تريد أن نمنع ألسنتنا من التكلّم فلسنا نملك ذلك ، وهذا هو المظهر الأول للحرّية ، بل أقل مظهر من مظاهرها ، ونحن بصفتنا أحرارًا لا نتحول عن استعمال حريتنا » .

وأجاب الجميع بأنهم موّكلون من الأمة ولا يملكون إلا التصّرف بمقتضى وكالتهم فانصرف رسول السلطة العسكرية الإنجليزية دون أن يحر جوابا .

وبعد ساعتين من إنصرافه حضر إلى منزل فتح الله باشا وكيل حكمدار بوليس القاهرة ومعه قوة من الجنود الإنجليز وأعلن أنه جاء ليعتقل فتح الله باشا ، ومصطفى النحاس

بك، وعاطف بركات بك ، وسينوت حنا بك ، والأستاذ مكرم عبيد . وكان فتح الله باشا يصلّى ـ صلاة العصر ـ فأكمل صلاته ، هادئاً مطمئنا .

ثم ركب الخمسة سيّارات عسكرية أعدّت لهذا الغرض وذهبت بهم إلى ثُكنة قصر النيل، وفى المساء نُقلوا بالسكة الحديدية إلى السويس فبقوا فيها مع سعد باشا أياما ، ثم نقلوا بالباخرة إلى « عدن » ومنها إلى « جزيرة سيشيل » .

أما صادق حنين بك فبقى فى منزله « بالزيتون » ، وأما جعفر فخرى بك فبقى فى الأسكندرية ، وأما الأستاذ أمين عز العرب فكان قد سافر إلى بلدته « الجعفرية » فبقى فيها . وقد تساءل الناس عن سبب عدم نفيهم أسوة بزملائهم . . .

* * *

وبقى من أعضاء الوفد بلا اعتقال ولا نفى ، إثنان هما الأستاذ واصف غالى والأستاذ ويصا واصف ، وكانا فى بيت الأمة فى غروب ذلك اليوم . فرأى الأستاذ ويصا واصف الأستاذ واصف غالى ينتحى ناحية ويكتب شيئًا . فاستفسر منه عمّا يكتب فأخفى عليه الأمر أولا ، لكنّه تحت إلحاحه أبلغه أنه يعدّ نداء إلى الأمة لأنه حزين إذ لم يلحق بزملائه فى المنفى أو الاعتقال . ثم قرأ عليه هذا النداء بعد إعداده ، فأعرب الأستاذ ويصا عن رغبته فى توقيعه معه والتضامن فيه . فنصحه الأستاذ واصف غالى بالكفّ عن ذلك لأنه هو إن فعل ذلك فلأنه ثرىّ، ولا أولاد له . أمّا الأستاذ ويصا فإن حياته تقوم على عمله فى المحاماة ، وله أولاد هم فى حاجة إليه . إلاّ أن الأستاذ ويصا أصرّ على توقيع النداء قائلا إنه ليس أقل منه وطنية ، وهو يعرف ما هو مقدم عليه . فكان له ما أراد ووقّع النداء ! وهو النداء الوحيد ـ فى تاريخ الوفد المصرى ـ الذى ظهر بتوقيع اثنين فقط من أعضائه . ونصّه :

« ننقل إلى البلاد فكرة الرئيس نقلا صادقا ، فنطلب إليها أن تواصل بلا انقطاع جهودها النبيلة التى ترمى إلى تحقيق أمانيها المقدّسة . إنّ ظلما كبيرا وقع فعلينا أن نقابله بالصبر وأن ندفعه بالشمم . لا تمكّنوا عدوّكم من أسباب يبلغ بها أعماله ومشروعاته الأثيمة . فأكظموا أحقادكم فى أعماق قلوبكم ، واقبلوا ـ بإبآء ـ كل المظالم والآلام فى خدمة الوطن . إذ المظالم فى خدمة الوطن نعيم ، والآلام شرف ليس فوقه شرف .

« لقد ضرب لنا سعد باشا مثلاً فتابعوا مثله ، ولا تدعو شيئًا يحيد بكم عن طريقه المستقيم .

« نفوا سعدًا ولكن مبادئ سعد باقية ، نفوا سعدًا ولكن روحه تلهمنا وتؤيدنا وتقودنا .

« نفوا سعدًا ولكن مصر باقية .

إننا مصمّمون على أن نواصل العمل . وأن نثابر فيه حتى نصل إلى غايتنا منه بعون الله ، ولئن ضربنا الخصم نحن أيضا ، فليقومّن غيرنا لأننا لاندع علم مطالبنا يسقط من أيدينا .

أيها المصريون

« إنّ فى ميدان الضحايا والمجد لمتسعًا للجميع » .

واصف بطرس غالى

ويصا واصف

* * *

وقد احتجّت جميع طبقات الأمة وهيآتها وجماعاتها على نفى سعد باشا وصحبه ، وأبرقت إلى الحكومة الإنجليزية وغيرها من الحكومات الأجنبية مندّدة بتصّرف السلطة العسكرية ، معلنة سخطها عليه ، وتضامنها مع زعيمها .

كذلك وفدت من جميع المديريات إلى القاهرة وفود جمعت أعيانها وذوى الرأى والمكانة فيها ، محتجّة على هذا العمل البربرى الشنيع الذى أعاد إلى الأذهان ما ارتكبته بريطانيا مع عرابى باشا ورفاقه سنة ١٨٨٣ ، بل ومع سعد باشا فى مارس ١٩١٩ .

وأذكر فى هذا المقام أن وفدًا كبيرًا حضر من الصعيد لهذا الغرض فتوجهت على رأسه إلى الوكالة الفرنسية ، وألقيت باسمه كلمة بالفرنسية قلت فيها :

إن المصريين إذا دخلوا « الوكالة الفرنسية » ساورتهم ذكريات الماضى . وقد جئنا من أقصى الصعيد إلى هنا لنسأل لمصر الشهيدة عزاء وعونًا . وممن نطالب الغوث إن لم يكن من الوطن الذى قرّر « حقوق الإنسان » وابتدع جمعية « الدفاع عن الحق الإنسانى » ؟ ذلك الشعب الذى نشأ مثلنا على البحر الأبيض المتوسط فكانت روحه شبيهة بروحنا من وجوه كثيرة .

وإنّا لنرجو أن تبلّغوا أن جريمة ضد الإنسانية قد ارتكبت فى بلاد الذين بنوا الأهرام ، وأنشأوا من مفاخر التاريخ أروع ما ابتدعه الإنسان . وليس فى الإمكان ترك شعب ، هذا

تاريخه وتلك حضارته ، يُقتل على هذا الوجه دون أن يتحرّك العالم لإغاثته »[٣] .

وقد ردّ علّى مستشار الوكالة ، فى غياب وزيرها المفوّض وقتذاك ، بكلمة مؤثرة ، ووعد بالإبراق إلى حكومته فى هذا الشأن وإبلاغها باحتجاجات الشعب . ولا شكّ أن هذه الاحتجاجات وما صاحبها من المظاهرات كانت أبلغ دليل على تضامن الشعب مع سعد باشا وتأييدها .

وقد ظللّنا أسبوعا كاملا دون أن نعلم شيئًا عن المكان الذى نُفى إليه الزعيم خارج البلاد وصحبه .

إلاّ فى يوم ٣٠ ديسمبر وردت أنباء بأن سعد باشا ورفاقه ركبوا قطارًا خاصًا إلى « بور توفيق » تحت حراسة عسكرية مشدّدة . ومنها أنزلوا فى نقّالة حربية اسمها « فرانز فرديناند»[٤] أبحرتْ بهم إلى عدن ، وقد أقلعت بهم فى الساعة الثانية عشر مساءً .

* * *

وهكذا خُتم عام ١٩٢١ بنفى سعد وصحبه الخمسة ، وقد خيم على البلاد شعور الحزن والكآبة والقلق على مصيرهم المجهول .

والحق أن عام ١٩٢١ كان عامًا حاسمًا فى تاريخ الحركة الوطنية ، بذل فيه سعد باشا ، ورجال الوفد المخلصون للمبادئ التى ينادى بها ، جهدًا جبّارًا ، نقل القضية المصرية من قاعات المفاوضات فى لندن إلى مواجهة صريحة وصدام فعلى بين غُلاة المستعمرين الانجليز ـ تؤيدهم القوى العسكرية الضخمة ـ وشعب أعزل ، لا سلاح له فى المعركة إلاّ إيمانه بشرعية مطالبه واستعداده للبذْل والتضحية فى سبيلها .

ولا شك أن الشهور التى قضاها سعد باشا منذ عودته إلى مصر فى ٤ أبريل ١٩٢١ ، واستقباله بها استقبال الفاتحين . إلى حيث تقرّر نفيه خارجها فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ ونقله على مركب عسكرى فى جُنح الليل إلى مكان غير معلوم ، كانت فترة جهاد لم تشهد البلاد فى تاريخها مثيلا .

وقد كان ـ رحمه الله ـ فى هذه الحقبة يواصل الليل بالنهار فى خدمة قضية بلاده . ولا يبالى بالرغم من تقدمه فى السنّ واعتلال صحته ، بما يتحمّله من إرهاق أو تعب ، أو ما ينتظره من مخاطر أكيدة .

وكان الشعب من ورائه ، كالجيش فى المعركة وراء القائد ، يحّبه ويقدّره ويثق فى مقدرته على القيادة والزعامة . كما كان يشفق عليه كلما أصابت صحته علّة ، أو انتابه مرض .
حتى انتهى العام بإبعاده إلى « عدن » ثم نفيه شهورًا طويلة بتلك الجزيرة النائية - سيشيل - فى مكان سحيق من المحيط الهندى التى لم يكن أحد يسمع بها والتى أضفى عليها نفيه إليها من الشهرة ، ما خلّدها فى صفحات التاريخ . . . !

هوامش الفصل الثامن عشر

(١) تشير الوثائق مقتل اثنين وإصابة ٩ من المتظاهرين F.o. 407/192 Inc. in No.52.

(٢) يجيب على هذا التساؤل المندوب السامى البريطانى فى القاهرة فى برقية سرية إلى لندن جاء فيها ان هؤلاء الثلاثة قد قبلوا إنذاره بالكف عن النشاط السياسى F.o. 407/191 No. 55 .

(٣) واضح تأثير الثقافة الفرنسية لصاحب المذكرات على حركته السياسية .

(٤) كان مفروضا حتى هذا الوقت ان ينفى سعد زغلول إلى جزيرة سيلان حيث سبق نفى عرابى ولكن حكومة الهند البريطانية اعترضت على ذلك مما أدى إلى القرار بنفيه إلى سيشل ، وهو القرار الذى صدر فى ١٠ يناير ١٩٢٢ .

الفصل التاسع عشر
استئناف الجهاد

عودة أعضاء الوفد السابقين إلى بيت الأمّة وضمّ الصفوف ـ نداء من الوفد المصرى إلى الأمة ـ عودة الأعضاء العائدين إلى الانشقاق على الوفد ـ ضمّ أعضاء جُدد إلى الوفد المصرى ـ الأمير عمر طوسون فى بيت الأمة ـ أم المصريين بعد نفى سعد باشا ـ الدعوة إلى مقاطعة الإنجليز والبضائع الإنجليزية ـ نشر البيان فى الصحف المسائية ـ اعتقال جميع أعضاء الوفد .

* * *

وكان من أثر نفى سعد باشا أن تناسى الناس الخصومات السياسية التى نشأت وقت تأليف « البعثة الرسمية » للمفاوضة . وكان « بيت الأمة » يمتلئ كل يوم بالوفود العديدة معربة عن سخطها على هذا النفى ، منذرة بأن لا مفاوضة تجرى ولا وزارة تؤلف إلاّ بعد غسل الإهانة التى لحقت مصر بنفى زعيمها الناطق بلسانها ، المعبّر عن أمانيّها ، وموضع ثقتها ورجائها .

وحضر أعضاء الوفد السابقون الذين كانوا قد انسحبوا منه فى شهر أبريل ١٩٢١ مناصرين الوزارة العدلّية ، وكان فى مقدمة من حضر الأستاذ عبد العزيز فهمى بك ، ولم يكن قد قابل سعد باشا منذ أن بارح باريس .

وقد قابلتْ صاحبة العصمة « أم المصريين » أعضاء الوفد العائدين ورحبّت بهم . وكان مما قالته لهم :

« إننى ، لحرج مركز البلاد وموقفنا العجيب ، فضّلت البقاء لأجاهد مع المجاهدين لأن الوطن محتاج لجميع بنيه ، وأنا من أجل هذا أدعوهم إلى الأخذ بيد بلادكم ، متكاتفين» .

فرّد عليها عبد العزيز فهمى بك بقوله :

« إننا فى هذه الأزمة الشديدة نتقدم مقتفين أثر المحبوب سعد باشا ، ومستمدّين من قوّته ما يكفل لنا نجاح مسعانا » .

وهنا خنقته العَبَرات فبكى . وهتف محمد على علويه بك . « لتحيا أم المصريين ،

وليحيا الاتحاد » . فردّد الجميع هذا الهتاف من ورائه .

وكان الموقف مؤثرًا للغاية .

وقد أذاع حمد الباسل باشا على أثر عودة أعضاء الوفد والمختلفين مع سعد كلمة قال فيها :

« الحمد لله . لم يخب أملى فى إخوان عرفتهم فى الشدائد ، وخبرت وطنيتهم الصادقة ومروءتهم الكبيرة لأنهم ما لبثوا حتى لبّوا داعى الوطن ، أولئك هم أعضاء الوفد المصرى وأولئك هم أصدقاء سعد باشا ، وأولئك هم أنصاره ، أقبل بعضهم على بعض بالأمس متعاونين متضامنين لخدمة البلاد بما أوتوا من كفاءة وعلم وإقدام .

« واليوم نزفّ هذه البشرى لكافّة المصريين ، منبئة أن وفدهم اتّحد اتحاداً تامّا متينًا صادقًا مصممًا على بلوغ أمنيتهم ، مالئا ذلك الفراغ الذى ظنّ خصوم مصر أنه لا يُملأ ، بل يقتدى المصريون بوفدهم فى الاتحاد ، فالاتحاد هو أساس النجاح .

« فليحيا الاتحاد ، وليحيا التضامن ، ولتحيا مصر » .

وبعد ذلك إجتمع الوفد المصرى ـ بكامل هيئته ـ وأذاع على الأمة نداء وقّعه جميع أعضائه . ونصّه :

« إننا ندخل بهذه الآونة فى أشد أدوار المحن . إن السياسة البريطانية قد عدت على حكم بلادنا بالحديد والنار ، من غير أن ترعى حرمة الحرّية الشخصية ومن غير أن تأبه لشعور الأمة . ولقد بدأت هذه المأساة باعتقال معالى سعد باشا زغلول رئيس الوفد المصرى ونفيه وبعض أصحابه ، غير مراعية مقام الرئيس ولا مباليه بشعور أمة بأسرها ، ثم أتبعت ذلك بالإسراف فى تقتيل شبابنا المتظاهرين إحتجاجا على هذا الاعتداء .

ألا فيعلم الإنجليز أننا شعب نصبر على الشدائد من أن تؤخّرنا عن غرضنا صنوف الإرهاب . وأحزم من أن تخور عزيمتنا أمام نفى الزعماء وتقتيل الأبناء وإن نفى رئيس الوفد المصرى الذى تألف للسعى فى الاستقلال التام والذى أجمعت الأمة الثقة به لا يمكن أن يصيب الغرض المقصود منه ولا يمكن يخفت صوت أمة صرّحت عاليا بأنها مستعدة للتضحية بأعز أبنائها عليها ، للوصول إلى حرّيتها .

إن هذا الظلم الصارخ لا يمكن أن يحول بين أحد منّا وبين الواجب عليه .

بهذه المثابة نحن أعضاء الوفد المصرى نعلن أننا قد أجمعنا كلمتنا ، ووحدّنا مجهوداتنا لنسلك بجمعنا سُبل عملنا التى انتهجناها منذ ثلاثة أعوام .

وإننا لنبدأ عملنا هذا ، بأن نرسل إلى الرئيس الجليل فى منفاه صادق تحيّاتنا القلبية ، واحترامنا لشخصه الكريم ، واعتدادنا بخدماته الجليلة للبلاد . ثم نزجى تهانينا لأصحابه الذين صحّت عزيمتهم على مشاطرته الاعتقال والنفى ضحّية لخلاص مصر .

وإننّا فى هذا الظرف العصيب ننادى جميع إخواننا المصريين أن يجعلوا العمل لاستقلال البلاد خالصا من كل التفرقة والتخاذل ، وأن يلتزموا الاتحاد الذى هو سبيلنا الوحيد إلى غايتنا ، والذى جرّبنا ثمرته بالفعل غير مرّة فى أدوار قضيتنا .

إن سلامة إتحادنا هى الكفيل ببلوغ إستقلالنا ، وليطرح كل امرئ أسباب الخلاف ، وليقبل على تنفيذ كل ما يمليه الواجب الوطنى فى هذه الظروف العصيبة ، مهما كلّفه الواجب من تضحية .

إن الإنجليز يستطيعون أن ينفوا قادتنا ويسفكوا دماءنا ، ولكنّهم لا يستطيعون أن يفصموا عرى إتحادنا إلاّ بأيدينا .

إنهم عاجزون عن أن يحولوا طويلاً بيننا وبين إستقلال بلادنا مادمنا متّحدين .

إنهم يخدعون أنفسهم ، إذ يظنّون أنهم قادرون على أن يصرفونا عن مطلبنا الأسمى برصاص بنادقهم ، وظبى سيوفهم .

وليعلموا أننا وطّنا أنفسنا على تضحية كل شىء لنعيش فى بلادنا أحرارًا » .

وقد وقّع على هذا البيان من أعضاء الوفد :

محمد محمود ـ عبد العزيز فهمى ـ حمد الباسل ـ أحمد لطفى السيد ـ ويصا واصف ـ حافظ عفيفى ـ واصف غالى ـ جورج خياط ـ عبد اللطيف المكباتى ـ على ماهر ـ محمد على .

* * *

وقرر الوفد إن يوالى اجتماعاته بعد ذلك للنظر فى موقف البلاد ، وتقرير خطّة العمل بعد نفى سعد باشا وأخوانه . وكان الرأى العام قد وضح اتجاهه ، وجاءت الوفود تترى إلى

بيت الأمة معلنة - كما قلنا - أن لا مفاوضة ولا وزارة إلا بعد الافراج عن سعد باشا وأصحابه . وهنا عاد الاختلاف إلى أعضاء الوفد مع الأسف الشديد ، ففريق الذين عادوا إليه لم يروا هذا الرأى وإنما قالوا إن نفى سعد باشا شىء . والعمل للقضية المصرية شىء آخر . فى حين أن أعضاء الوفد الآخرين ، ومن ورائهم الأمة جميعاً رأوا أن الإفراج عن سعد باشا هو أول ما يجب أن يكون .

وعلى أثر هذا الاختلاف عاد المنشقّون إلى انشقاقهم ، وامتنعوا عن الحضور إلى بيت الأمة . فلم يبق فى الوفد إلاّ حمد الباسل باشا وعلى ماهر بك وجورج خياط بك والأستاذ ويصا واصف وواصف غالى بك . أما الآخرون فقد انفصلوا عنه ، على الرغم من بكاء عبد العزيز فهمى بك على نفى سعد باشا ، حتى أن الكثيرين قالوا فى ذلك الوقت إنها كانت « كدموع التماسيح » . . . !

ثم أعلن عبد العزيز بك إعتزاله السياسة .

ويدأ الوفد المصرى بهيئته الأخيرة يعمل لخدمة البلاد ، وقد ضمّ فى اجتماعه يوم ٣ يناير سنة ١٩٢٢ حضرات محمد علوى الجزّار بك - من زعماء المنوفية - ومراد الشريعى بك - من زعماء المنيا - وعبد القادر الجمّال باشا - سرّ تجار مصر إذ ذاك - إلاّ أن الجمال باشا اعتذر لكثرة أعماله التجارية .

وفى جلسة يوم ٢٠ يناير ضمّ الوفد إليه الأستاذ مرقص حنا بك نقيب المحامين . وكان هذا الضّم مُنتظرًا قبل ذلك ، إلاّ أن عبد العزيز فهمى بك كان يعارض فيه .

ثم اختير الأستاذ واصف بطرس غالى ، سكرتيرًا للوفد وأمينًا لصندوقه .

وبعد ذلك بأيام وصل إلى مصر الأستاذ على الشمسى (وكان والده أمين الشمسى باشا من أقطاب الحركة العرابية سنة ١٨٨١) قادمًا من أوروبا ، وكان موفدًا من قبل سعد باشا للدعاية بها . وبمجرّد وصوله ضُمّ إلى الوفد أيضًا .

وفى يوم ١٧ يناير زار الأمير عمر طوسون بيت الأمة لتشجيع الوفد فى هيئته الجديدة ، وتهنئة أعضائه وحثّهم على الاستمرار والمثابرة فى الجهاد . وقد صرّح بأنه لما قدم القاهرة رأى أن يكون أول عمل له ، هو زيارة « بيت الأمة » للإعراب عن شعوره والافصاح عن مشاركته العاطفة الوطنية .

نداء للامه

أيها المصريون

صرح الانجليز بانتهاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة . ذات سيادة. ولكنا نكرر ماسبق أن قلناه من أن هذا الاعتراف لفظي يجب فهمه على حقيقة . ذلك لأن مظاهر الحكم الأجنبي لاتزال قائمه بينكم فمن احتلال الي احكام عرفيه ومن خرق للحريه في جميع اشكالها ألي بيانات وتحفظات عامة تلقى فى البرلمان الانجليزى هادمة لذلك الاعتراف

ايها المصريون ان شهداءكم لم يجودوا بدمائهم الطاهرة طمعا في لفظ تنالونه ، وان زعيمكم لم يذهب الي المنفى عن رضي ولم يتحمل آلامه باطمئنان رغبة في صيغة جديده — كلا ياأبناء الوطن . أنه لم يجاهد ولم ينزل عن راحته وحريته ليطلي بالذهب السلاسل التي تغل ايديكم وأنما ليحطم تلك السلاسل ويطلقكم أحرار

ان للوطن فيكم أملا وحسن ظن فحققوا أمله وكونوا عند ظنه . اننا ننشد استقلالا حقيقيا لا وهميا وحرية كاملة واضحة لا حرية مزعومة حارسها الاحكام العرفيه وعمادها سلطه الغاصبين

ايها المصريون

ثابروا على التمسك بمطالبكم القومية العادلة واثبتوا انكم جديرون بحريتكم جديرون بشهدائكم جديرون بزعيمكم جديرون بمطمحكم الاسمي . وثقوا انكم واصلون اليه بعون الله ؟

حمد الباسل . ويصا واصف . جورجي خياط . مرقص حنا .

مراد الشريعي . علوي الجزار . على الشمسي . واصف غالي

منشور الطبقة الثانية للوفد إلى الأمة

وقد قررت أم المصريين مواصلة العمل ، بعد نفى قرينها العظيم . فكانت تقابل الوفود التى تفد على « بيت الأمة » وتخطب فيها بما يثير الحماسة فى النفوس ، كما كانت تستقبل أعضاء الوفد ، والطلبة ، والصحفيين . وقد أعجب الناس بشجاعتها وإقدامها وثباتها فى مثل هذا الموقف العصيب .

وقد أُخذ الإنجليز بموقف « الوفد » فى هيئته الجديدة ، وبصمود الشعب من ورائه فى غيبة زعيمه. وبدا أن النفى لم يُلن من قناته أو يضعف مقاومته فزاد تعسّفهم واستبدادهم، لقهر الروح الوطنية ، وقد تجلّت فى أبهى صورها . وضيّقوا الخناق على كل شىء فى مصر . سواء بمراقبة الوطنيين فى غداوتهم وروحاتهم ، أم فى منع دور الطباعة من نشر النداءات والبيانات التى كان أعضاء الوفد يؤججون بها شعور الأمة ، أم فى إذاعة الأخبار أو الكلام فى السياسة حتى لقد منعوا الصحف من ذكر اسم « سعد » أو الإشارة إلى المكان الذى نُقل إليه .

وكان من الطبيعى أن يردّ « الوفد المصرى » على هذا العسف باستعمال سلاح هو أمضى الأسلحة وأشدّها فتكًا . وذلك « بمقاطعة البضائع الإنجليزية » ، والامتناع عن شراء كل ما كان يأتى من إنجلترا ، و « بالمقاومة السليمة » . متأثراً فى ذلك بأسلوب الزعيم « غاندى » فى الهند . فاجتمع الوفد المصرى وأصدر بيانًا دعا فيه الأمة إلى ذلك .

وقد نُشر هذا البيان فى الصحف التى صدرت مساء يوم الإثنين ٢٣ يناير سنة ١٩٢٢ موقّعا من أعضائه الثمانية (حمد الباسل باشا وأخوانه) [1] . وقد جاء فيه :

« غضب الشعب المصرى بعد أن مدّ يدّ الصداقة للشعب الإنجليزى الحرّ فرفضتها الحكومة الإنجليزية ، ورمته « بمشروع كيرزون » ومذكرته الإيضاحية . ذلك إلى بيانات الجالية البريطانية فى مصر وتصرّفات الموظفين الإنجليز يقاومون كل اتفاق عادل بين الشعبين .

ولقد أظهر الشعب المصرى ذلك الغضب ، بكل الوسائل التى فى وسع شعب حىّ ، شاعر بكرامته ، محبٌ للسلام . « فالوفد المصرى » المعبّر عن إرادة الأمة يرى من واجبه أن ينظّم المقاطعة السلبيّة بجميع الوسائل المشروعة » .

ثم ذكر البيان أن المقاومة السلبية تشمل مسألتين الأولى « عدم المعاونة » والثانية « عدم المقاومة » . وأن « عدم المعاونة » يشمل معاملات الأفراد وتجاهل الإنجليز فى الوزارات

والمصالح ، وأن « المقاطعة » تشمل مقاطعة البنوك الإنجليزية ، والسفن وشركات التأمين والتجارة الإنجليزية كافة .

وختم الوفد بيانه بدعوة المصريين إلى هذه المقاطعة ، وعدم التعاون مع الإنجليز . فهما أمضى سلاح يملكونه اليوم .

وما أن نُشر هذا البيان فى الصحف المسائية وهى « النظام » و « الأخبار » و «المحروسة» و « المقطم » حتى ثارت ثائرة الإنجليز . ومُنعت الصحف الصباحية من نشره . وتقرّر تعطيل الصحف الأربع التى نشرته . وكانت هذه أول مرة يُعطل فيها « المقطم » . كما تقرّر إعتقال أعضاء الوفد جميعًا بحيث لا يبقى منهم أحد [٢] .

ففى يوم الثلاثاء ٢٤ يناير ، وهو اليوم التالى على نشر بيان المقاطعة ، ذهبت قوّة من الجنود الإنجليز إلى منازل حمد الباسل باشا ومرقص حنا بك وواصف غالى بك وعلى ما هر بك ومراد الشريعى بك فاعتقلتهم وأرسلوا إلى ثُكنة قصر النيل .

أما الأستاذ ويصا واصف فلم يكن موجودًا فى منزله ، وعلمت السلطة العسكرية أنه ذهب إلى « المحكمة المختلطة » ليترافع فى إحدى القضايا ، وكان من أكبر محاميّها . وكان مقرّ المحكمة إذ ذاك ، فى دارها القديمة التى هدمت وضُمت إلى ميدان العتبة الخضراء (ميدان الملكة فريدة حاليًا) فذهبت القوّة إلى المحكمة وكان الأستاذ ويصا واصف يترافع فى قضيته ، والجلسة معقودة . فحاولت هذه القوة إعتقاله وهو يترافع فمنعها رئيس المحكمة « المستشار هورييه » وكان فرنسى الجنسية ، وأمرها بالخروج من قاعة الجلسة فوراً ، إحتراما لقدسيّة القضاء وألقى على القوة الانجليزية درساً ، شديدًا فلما أتم الأستاذ ويصا مرافعته رفع القاضى الجلسة وخرج معه هو والمحامون حتى باب المحكمة . وكانت مظاهرة كبيرة المغزى . وبعد ذلك اعتقل الجنود الأستاذ ويصا ، وأرسل إلى ثكنة قصر النيل أسوة بإخوانه .

أمّا محمد علوى الجزار بك فكان غائبًا فى شبين الكوم ، فلّما علم باعتقال إخوانه من أعضاء الوفد حضر إلى القاهرة ، وقدّم نفسه للسلطة العسكرية فاعتقل وضُمّ إلى إخوانه .

وكذلك كان جورج خيّاط بك فى أسيوط ، ولم يكن قد وقّع البيان بنفسه وإنما كُتب إسمه بحكم التضامن بين أعضاء الوفد . فسئل عن توقيعه فأقرّه معلنًا أنه متضامن مع إخوانه وزملائه . فاعتقل هو الآخر وأرسل إلى ثُكنه قصر النيل .

وهكذا صار جميع أعضاء الوفد بعيدين بحكم القوّة عن مجال العمل للقضية المصرية. فالرئيس وبعض صحبه منفيّون، وأعضاء الوفد الآخرون فى نُكنه قصر النيل معتقلون، فهل سقط العلم حقًّا ولم يتلقفه أحدٌ من بعدهم؟ . كلاّ . وإليك البيان .

هوامش الفصل التاسع عشر

(١) هم حمد الباسل ، ويصا واصف ، على ماهر ، جورج خياط ، واصف غالى ، مرقص حنا ، علوى الجزار ومراد الشريعى .

(٢) وصف اللنبى البيان بأنه ملتهب وإنه هو الذى أمر بتعطيل الصحف الذى نشرته وعدم نشره فى صحف أخرى والقبض على موقيعه . F.O. 407/19

« الفصل العشرون »

تأليف هيئة جديدة للوفد ـ نداء من الوفد المصرى إلى الأمة ـ تفتيش منزلى وخيبة أمل المفتشين ـ مستر رامزى مكدونالد فى مصر ـ الإفراج عن الأعضاء المعتقلين وإلغاء تعطيل الصحف ـ مستر مكدونالد فى بيت الأمة ـ بعد الإفراج عن أعضاء الوفد ـ سفر اللورد اللنبى ـ إعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ـ اشتداد موقف الأمة من تصريح ٢٨ فبراير ـ اشتداد التضييق على الوطنيين ـ اعتقال أعضاء الوفد مرة أخرى ومحاكمتهم أمام محكمة عسكرية والحكم عليهم بالإعدام ـ نقل سعد باشا من سيشيل إلى جبل طارق ـ سفر أم المصريين إلى جبل طارق .

* * *

ازدحم بيت الأمة بالناس على إثر اعتقال أعضاء الوفد ، وكانوا يتساءلون ماذا سيكون الأمر ، وكنت قد رأيت مع بعض إخوانى أن لاندع العلم يسقط من أيدى الوطنيين وأن واجبنا أن نتلقاه فورًا من أعضاء الوفد المعتقلين ، وذلك بتأليف هيئة جديدة للوفد تُطالب بحقوق البلاد وتحل محل الهيئة التى أعتقل أعضاؤها ، وطلبنا من محمد صدقى باشا (المستشار والوزير السابق) أن ينضّم إلينا فأبى وقال : « إنكم تنطحون الصخر وتعرّضون أنفسكم للمشانق » . وقال مثال ذلك أيضا الأستاذ محمد يوسف بك المحامى .

وقد تألفت هيئة الوفد الجديدة فى الحال (وهى التى عُرفت بالطبقة الثالثة من الوفد) ، من المصرى السعدى بك والسيد حسين القصبى والأستاذ محمد نجيب الغرابلى وسلامة ميخائيل بك والأستاذ مصطفى القاياتى ، ومنّى (١) .

وكان اختيارنا قد وقع أيضا على الدكتور حسن بك كامل (رئيس لجنة الوفد فى طنطا) إلا أنه قال « أنا مستعد للتضحية معكم ولكن وجودى فى طنطا فى الوقت الحاضر قد يكون أفيد للقضية المصرية » . وكذلك تقدّم عبد الستار الباسل بك ـ شقيق حمد باشا ـ لينضّم إلى الوفد ولكن رؤى لمصلحة عائلة « الباسل » أن يكون خارج الوفد حتى لا يتعرض للاعتقال فيكون هو وأخوه معتقلين فى وقت واحد .

وبمجّرد تكوين هيئة الوفد الجديدة منّا نحن الستة ، اجتمعتْ فى بيت الأمة وبعد أن تداولنا فى الموقف قررنا إذاعة النداء الآتى نصه على الشعب :

« إلى الامام أيها المصريون . .

هذا صوت سعد وأصحابه يناديكم فبرّوا بقسمكم ، وانصروا وطنكم ، واحترموا دماءكم ومجّدوا شهداءكم . ألا إن أكرمكم عند الله أثبتكم فى مواقف الصبر ، وأعزّكم على الوطن أسبقكُم إلى التضحية غير عاد ولا باغ .

أيها المصريون . .

إن الاستقلال آت لا ريب فيه ، وكأننا ننظر إلى آخر جندى انجليزى يلقى آخر نظرة على هذا الوطن المقدّس ، فى يوم ينتصر فيه حقكُم على باطل غيركم ، انهم يرونه بعيدًا ونراه قريبا .

أيها المصريون . .

لقد قطعنا على أنفسنا عهدًا أمام وطننا المعذّب أن نقتفى أثر رئيسنا الجليل وأصحابه النبلاء ، وأن لا نحيد قيْد شعرة عن برنامج الأمة الذى رسمته لنفسها وقاد الوفد المصرى سفينته بكل أمانة واخلاص ، وإذا كان الانجليز يظنّون أنهم باعتقالهم رئيس الوفد وزملاءه بالأمس واعتقال الباقين منهم اليوم ، يخضعونكم لاراداتهم ، فهم واهمون لأن ذلك مما يشدّ عزائمكم ويزيدكم استماتة فى الدفاع عن قضيتكم المقدّسة بالطرق المشروعة، وها نحن الآن بوحى من رئيسنا الجليل ، وتأييد من أعضاء الوفد الذين كانوا آخر ضحية للسياسة الانجليزية نسارع إلى علم جهادنا المقدّس بقلوب ملئها الايمان بعدالة قضيتنا ، ونفوس تستعذب الألم فى سبيل رفعة الوطن المقدس ، وإننا نُشهد العالم المتمدين على ما ينزله الانجليز من المظالم الفادحة بالشعب المصرى الذى لا ذنب له إلا المطالبة بحقوقه فى حدود القانون ، ورفضه كل شكل من أشكال الحكم الأجنبى بشمم وإباء .

ونحتّج بكل ما فينا من قوة على اعتقال باقى أعضاء الوفد المصرى ومصادرة حرية الصحف .

أيها المصريون . .

إن فى ميدان الضحايا متسعًا للجميع » . !

فلتحى مصر ، وليحى سعد ، وليحي الاستقلال التام (٢) .

أعضاء الوفد المصرى

المصرى السعدى (عضو الجمعية التشريعية) . . حسين القصبى . . مصطفى القاياتى . . سلامة ميخائيل . . فخرى عبد النور . . محمد نجيب الغرابلى .

* * *

وفى هذه الأثناء كان يوجد فى بيت الأمة ألوف من المنشورات التى أعدّها الوفد بمقاطعة الانجليز وألوف أخرى من منشور أعدّته لجنة السيّدات فى هذا الشأن أيضا ، فتحدّث إلىّ طاهر اللوزى بك فى شأن هذه المنشورات وقال : إن بيت الأمة معرّض فى أية لحظة للتفتيش ، وليس من المصلحة بقاء هذه المنشورات فيه ، فرأيت أن نقلها واجب فنقلتها فى عربة إلى منزلى بالعباسية . .

غير أنه يبدو أن هذه العملية نُقلت أخبارها إلى البوليس ، إذ بينما أنا غائب عن المنزل فى احدى الليالى حضر إلى منزلى مساعد الحكمدار ومعه بعض الضباط والجنود وشرعوا فى تفتيشه وقسّموا أنفسهم أقساما اختص كل قسم بتفتيش جزء فيه ، وكان قصدهم العثور على هذه المنشورات بالذات وضبطها .

وأراد الله الكريم أن يرد كيد الظالمين إلى نحورهم ، فإن زوجتى ـ رحمها الله ـ بمجّرد أن رأت البوليس يدخلون حديقة المنزل أسرعت إلى « البدروم » حيث كانت المنشورات مُودعة ، وشرعتْ تُلقى بها فى وابور المطبخ الكبير ، وفى موقد آخر كان موجودًا بجواره ، وساعدها فى ذلك بعض الخدم . فلم يمض إلا وقت قصير حتى كانت هذه المنشورات طعمة للنار .

واستمر الضبّاط يفتّشون المنزل تفتيشاً دقيقًا فلم يتركوا حجرة إلا دخلوها ولا دولابا إلا فتحوه فلم يجدوا ما يريدون ولم يعثروا على شىء اللّهم إلا أوراقا عديدة من أوراقى الخاصة ، وبعض المذكّرات الوطنية ما كان أغناهم عن أخذها .

وهنا لا يفوتنى أن أذكر حادثًا وقع فى أثناء قيام زوجتى ـ رحمها الله ـ باحراق المنشورات ، إذ دخل إلى البدروم اليوزباشى محمد سليمان صدقى أفندى ـ معاون البوليس فى قسم الوايلى إذ ذاك ـ فرآها تقوم بهذا العمل فدهش اندهاشا شديدا ووقف مشدوهًا كالمذهول .

وهنا التفتت إليه زوجتى وواجهته بقولها فى جرأة وشجاعة ورباطة جأش : « أنا أعتقد

أن وطنيتك لا تقل عن وطنيتنا وإخلاصك لبلادك لا يقل عن إخلاصنا لبلادنا فافعل ما تشاء » ! . .

وفعلتْ هذه الكلمة المؤثرة فعلها فى نفس الضابط فوقف ساكناً ينظر إلى المنشورات ، وهى تُلقى فى النار ، حتى أكلتها جميعًا ، ثم انصرف دون أن يفعل شيئا ، فكان فضل الله عظيمًا ، وموقف الضابط وطنيًا كريمًا .

وهكذا باء الظالمون بالخيبة وغادر رجال البوليس المنزل دون أن يعثروا على ماقدموا للتفتيش من أجله .

* * *

وفى هذه الأثناء قدم إلى مصر مستر « رامزى مكدونالد » زعيم « حزب العمال » الانجليزى المشهور (ورئيس الوزارة الانجليزية فيما بعد) ونزل فى فنادق « مينا هاوس » وقد طلب الاتصال بنا فتوجهنا إليه فى الفندق وكنا أنا والمصرى السعدى بك والسيد حسين القصبى وكان فى يوم الجمعة ٢٧ يناير ، وقد رافقنا فى هذه الزيارة الأستاذ عبدالحليم البيلى الذى كان يتولى فى ذلك الوقت إدارة « المنبر » وتحريرها .

وفى هذه المقابلة أظهر مستر رامزى مكدونالد أسفه البالغ على نفى سعد باشا وإخوانه، واعتقال حمد الباسل باشا وزملائه ، كما أظهر المقت الشديد لسياسة العنف والشدة والاضطهاد التى تتبعها الحكومة الإنجليزية مع المصريين للحيلولة دون حصولهم على الاستقلال .

وقد انتهزنا فرصة هذه المقابلة وأطلعنا مستر مكدونالد على اتجاهات الرأى العام المصرى ووضّحنا له ميول المصريين ومطالبهم . وأبلغناه أنه أيا كان الموقف مع الحكومة البريطانية فإننا قد صممنا على مسايرة الجهاد الوطنى حتى ننال هذا الاستقلال مهما طال الزمن أو ضخمت التضحيات !

وفى مساء هذا اليوم بينما كنا نحن أعضاء الهيئة الجديدة للوفد نؤدى عملنا فى بيت الأمة وفى حجرة مكتب سعد باشا ، سمعنا هتافًا فخرجنا نستطلع الأمر ، فإذا بحمد الباسل باشا وزملائه السبعة يحملهم الشعب على الأعناق بين الهتاف الحار والتصفيق الشديد ، إذ أفرج عنهم بعد أن كانوا قد اعتقلوا أربعة أيام فقط ، ثم جاء الخبر بعد ذلك بالغاء تعطيل الصحف الأربع التى كانت قد عُطّلت لنشرها نداء الوفد بمقاطعة الانجليز [٣] .

وهكذا استأنف حمد باشا وزملاؤه جهادهم ، باعتبارهم هيئة الوفد المنوطة بها تمثيل الأمة ، بعد نفى سعد باشا وصحبه .

وفى اليوم التالى ـ ٢٨ يناير ١٩٢٢ ـ حضر مستر رامزى مكدونالد إلى بيت الأمة ليرد لنا الزيارة وليهنئ حمد باشا وزملاءه بالافراج عنهم وجلس فى غرفة مكتب سعد باشا وتناول الحديث السياسة والمسألة المصرية . وفى أثناء تناوله القهوة قال : « إن المسألة المصرية لا تحتاج فى حلها إلى أكثر من المدة التى قضيناها فى شرب القهوة » . . !

وقد رافقه فى هذه الزيارة الأستاذ أمين يوسف الذى صحبه إلى بور سعيد حين سفره إلى انجلترا ، وقد أقيمت له هناك حفلة باهرة قبل إبحاره ، خطب فيها الأستاذ أمين يوسف باسم الوفد ورد عليه مستر مكدونالد .

وبعد الافراج عن أعضاء الوفد المصرى اشتد تضييق السلطة العسكرية على الحركة الوطنية ، واشتد منع الصحف من ذكر اسم « سعد باشا » واسم « جزيرة سيشيل » التى نفى إليها هو وزملاؤه حتى كانت الصحف ترمز إلى سعد بحرف « س » حين تدعو الضرورة إلى الكتابة عنه . وكان الرد على هذا التضييق انتشار الأغانى الوطنية ينشدها الناس فى الشوارع والأزقة وهى كلها تمجّد سعدا وأصحابه ، وطبع الصور الشعبية وتوزيعها على الناس . . . !

* * *

وفى هذه الاثناء سارت فى البلدإشاعات مقتضاها أن عبد الخالق ثروت باشا يمهّد لتأليف وزارة جديدة وأن مفاوضات سرّية تدور بينه وبين لورد اللنبى فى ذلك ، فاشتد غضب الشعب وذهبت إليه وفود من الطلبة ، ومن لجنة السيدات ، ومن أعيان البلاد يسألونه عن هذه الاشاعات ومبلغ نصيبها من الصحة ، فكانت أجوبته على أسئلتهم غامضة تزيد الشكوك وتجعل الناس أقرب إلى تصديقها .

ثم كان أن كثر حديث المجالس عن المفاوضات التى تدور بين لورد اللنبى وثروت باشا وقيل إنهما اتفقا على أن تعلن انجلترا استقلال مصر والغاء الحماية على أن تحتفظ بمسائل تجرى فيها مفاوضات فيما بعد .

وزادت هذه الاشاعات وتواترت حتى أعلن أن لورد اللنبى سيسافر إلى انجلترا لاقناع ولاة الأمور هناك بذلك . وقد سافر إليها فعلا على ظهر مركب حربية ومعه «مستر ايموس»

مستشار الحقانية « ومستر كلايتون » مستشار الداخلية ، ثم عاد إلى مصر قبيل نهاية شهر فبراير وقدّم إلى عظمة السلطان فؤاد (المغفور له الملك فؤاد الأول) الوثيقة المشهورة باسم «تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ » وهى تعلن استقلال مصر من جانب واحد مع احتفاظ انجلترا بمسائل أربع تكون محلاً لمفاوضة مقبلة فى حين أن هذه المسائل ـ بل واحدة منها ـ تهدم هذا الاستقلال هدما وتجعل أصبع انجلترا تتدخل فى كل شىء . أما المسائل الأربع فهى :

١ ـ تأمين مواصلات الامبراطورية فى مصر .

٢ ـ الدفاع عن مصر فى كل اعتداء أو تدخل أجنبى .

٣ ـ حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

٤ ـ السودان .

وسرعان ما ألّف ثروت باشا الوزارة الجديدة معترفًا بهذا التصريح الذى خيّب الآمال ، وسرعان ما أعلنت الأمة استنكارها لهذا العمل ، وغضبها عليه ، وعدم اعترافها به لأن هذا الاعتراف يعطى الانجليز حق التدخل فى الصغيرة والكبيرة من شئون مصر ، بالرغم من اعلان استقلالها فى الظاهر .

وكان صدور هذا التصريح مُعلّقا على اقرار البرلمان الانجليزى له فلم يتم هذا الاقرار إلا فى يوم ١٤ مارس ، ولكن وزارة ثروت باشا أقامت الزينات على دور الوزارات والمصالح الحكومية قبل ذلك . فلما جاءت الأنباء باقرار التصريح جعل ثروت باشا « يوم ١٥ مارس» عيدًا للاستقلال ، وأقام الاحتفالات والزينات . وساق المديرون إليه الوفود من الحكوميين للتهنئة فى حين كانت الأمة غاضبة حانقة على هذا الذى يجرى ، حزينة آسفة على ما يجرى فى شأنها بعد نفى زعيمها الناطق بلسانها والموكل منها للذود عن حقوقها .

وهنا يجب أن نذكر للتاريخ أنه على أثر صدور « تصريح ٢٨ فبراير » ترك على ماهر بك الوفد وقطع كل صلة به ، وما لبثنا أن سمعنا أنه تعّين ناظرا لمدرسة الحقوق فأصبح الوفد مؤلفًا من حمد باشا الباسل والأستاذ واصف غالى وجورجى خياط بك والأستاذ ويصا واصف وعلوى الجزار بك ومراد الشريعى بك ومرقص حنا بك والأستاذ على الشمسى (وقد عُرفت هذه الهيئة بالطبقة الثانية للوفد) .

وزاد غضب الأمة على هذه التصرّفات وأقيمت لذلك حفلات عديدة منها حفلة

برياسة الأستاذ على الشمسى وأخرى برياستى وقد خطب الأستاذ الشمسى فى الأولى وخطبت أنا فى الحفلة الثانية وأقيمت حفلة ثالثة برياسة عبد الستار الباسل بك ، وقد أقيمت هذه الحفلات جميعها فى نادى المعارف بالفجالة .

وأقيمت حفلة كبرى بشارع إبراهيم باشا خطب فيها الأستاذ عبد المجيد نافع وكانت جميع هذه الخطب فى الرد على تصريح ٢٨ فبراير وتفنيد شروطه وبيان الأضرار التى تلحق الأمة منه .

وأراد الوفد المصرى تعبئة الرأى العام ضد هذا التصريح باقامة حفلات فى مختلف بلاد القطر فمنعت السلطة العسكرية هذه الحفلات منعًا باتًا ، فلما رأيتُ ذلك لجأت إلى الكنيسة «البطرسية » الواقعة بالعبّاسية قريبا من حى الوايلى ، فكنت أحضر الاجتماعات التى تقام فيها للصلاة وأنتهز هذه الفرصة فأقرأ على الحاضرين البيانات التى أعدّها الوفد المصرى ومنعت السلطة العسكرية إذاعتها ونشرها ، كما كنت ألقى فيها كلمات وطنية ، وأذكر أنه فى احدى هذه الاجتماعات أرسل إلى أحد الشبان ورقة يطلب فيها السماح له بالقاء كلمة وكان هذا الشاب هو عبد المجيد بدر وكان إذ ذاك طالبا بمدرسة الهندسة (كلية الهندسة الآن)(٤) فدعوته للخطابة فألقى خطبة وطنية ظهرت فيها مواهبه الخطابية الباهرة حتى لقد ذكرّ الناس بسعد ، وهو يلقى خطبه العظيمة التاريخية ، ومن هذا الوقت أعجب الناس بهذا الخطيب الشاب وتوقّعوا له مستقبلا كبيرا . والحق أن هذا الشاب لو كان اتخذ المحاماة سبيلا له فى الحياة لكان فى مقدمة المحامين فصاحة وذلاقة لسان وقوة حجّة . كما أذكر أيضا أن حفلات الوفد مُنعت فى جميع المديريات ، أما فى مديرية الجيزة فقد سمح مديرها فى ذلك الوقت وهو حسن مظلوم بك باقامة حفلة فى بندر الجيزة ، وقد خطب فيها الأستاذ ويصا واصف والأستاذ عبد المجيد بدر أيضا ، وقد أراد البوليس القبض على الأستاذ بدر فهربتُ به فى سيارتى إلى الحقول المجاورة حتى أفلت من أيديهم .

* * *

وظلّت الأمة خلال فترة طويلة على غضبها من الوزارة . وكان أعضاء الوفد يؤججون هذا الشعور فى الناس ، فاشتد تضييق السلطة العسكرية على البارزين من رجال الوفد فكنت أستدعى من يوم إلى آخر لوزارة الداخلية ووزارة المالية لمقابلة مستر كامبل (وهو مدير الاذاعة الآن) وكنت أرى عنده بدر الدين بك وأذنابه وعبد السلام محمود بك (وأمثاله ممن كانوا يؤيدون السلطة) ، وكان يساعده مستر هيوز جونس (مدير شركة

الأسمنت الآن) ، كما كان منزلى يفتش تفتيشًا دقيقا بمعدل مرة فى كل أسبوع تقريبا ، وكذلك كثيرٌ من منازل الوطنيين .

ومما يُذكر للتاريخ ، وقد أثار أشجان الناس وأحزانها أن الأستاذ واصف غالى تلقّى فى شهر مايو خطابا من سعد باشامؤرخا فى أول أبريل ١٩٢٢ ، يُفهم منه أنه وأصحابه قد أودعوا فى ثلاثة بيوت من منازل قرية « ما هى » بالجزيرة [٥] وأحد هذه البيوت ، وهو الذى يُقيم فيه سعد باشا وأحد رفاقه ، يقع على ربوة عالية فوق الجبل والاثنان الآخران عند السفح والمسافة يقطعونها فى أكثر من عشرين دقيقة . إمعاناً فى مضايقتهم وتعذيبهم وهى بيوت حقيرة . كما يُفهم أيضا من الخطاب أن جوّ الجزيرة شديد الرطوبة وأنهم يتحملون الطقس الحار بصعوبة . غير أن أصحابه لا يتركونه وحده بل يذهبون إليه فى الصباح والمساء للتسرية عنه والتخفيف .

ومما يُذكر أيضا أن المنزل الذى كان يقيم فيه سعد باشا كانوا يسمّونه « ببيت الأمة » تكريما لرئيسهم . وقد حزن الناس فى مصر لذلك وكانوا يخشون أن تودى هذه المعاملة القاسية ، التى لا تتفق مع أبسط معانى الانسانية ، بصحّة رئيسهم المحبوب ، فكانوا يرفعون العرائض لعظمة السلطان بطلب أن يغيّر الانجليز من معاملتهم للزعماء المنفيين . غير أن هذه العرائض كانت تبقى بغير رد . وكان فى سكوت السلطان أبلغ دليل على أن استقلال ٢٨ فبراير هو استقلال « زائف » ، إذ لا حول له ولا طول فيما تجريه السلطة العسكرية ومعتمدها اللورد اللنبى فى مصير المصريين بالرغم من أن هذا الاستقلال اعترف به ملكا لمصر . . (!)

وازاء سكوت السلطات الحاكمة عن إجابة المصريين إلى طلبهم فى الافراج عن سعد باشا وأصحابه أو على الأقل نقله إلى مكان صحى أمين ، أذاع حمد الباسل باشا وزملاؤه بصفتهم أعضاء الوفد المصرى (ما عدا الأستاذ على الشمسى لأنه كان فى أوروبا) فى الأسبوع الثانى من شهر يوليو ١٩٩٢ ، بياناً على الأمة[٦] . فاعتقلتهم السلطة العسكرية على أثره ، فلم نشأ أن ندع العلم يسقط من جديد ، إذ سرعان ما عادت طبقة الوفد الثالثة برياسة المصرى السعدى إلى العمل من جديد ، وكانت فى هذه المرة مؤلفة من المصرى السعدى والسيد حسين القصبى ومنى ، والشيخ مصطفى القاياتى أما سلامة بك ميخائيل فكان فى أوروبا وأما الأستاذ محمد نجيب الغرابلى فكان مُعتقلا فى طنطا ، وقد ضممنا إلينا الأستاذ راغب اسكندر بناء على طلبه إذ تقدم بقوله : « أنا جندى من جنود الوطن تحت أمركم » وكذلك ضممنا الدكتور محجوب ثابت ، إلا أنه لم يلبث معنا أكثر من

أسبوعين ثم سافر إلى الاسكندرية (٧).

وفى اليوم الذى تمّ فيه القبض على أعضاء الوفد السبعة طلب قلم المطبوعات بوزارة الداخلية من الصحف أن تنشر أن السبب فى اعتقالهم هو أنهم نشروا منشورا حرّضوا فيه على ارتكاب الجرائم . وكانت الجملة التى أثارت حنق اللورد اللنبى وغضبه قولهم فى المنشور : « اننا نطلب إليكم أن تعلنوا للعالم المتمدين بكل وسيلة عبارات غضبكم وسخطكم ، لكى تتحمل الحكومة البريطانية والوزارة الحالية مسئولية نتائج هذه السياسة الغشومة . ».

وقد عرفنا فيما بعد أن السلطة العسكرية أخذت كل الأوراق والمطبوعات التى كانت فى بيت سعد باشا وفى بيوت الأعضاء المعتقلين كدليل على تهمة التحريض على ارتكاب الجرائم .

كما طُلب من الصحف أن تنشر أيضا بلاغ الجنرال مكسويل حين كان يقوم بالسلطة العسكرية سنة ١٩١٤ ونصه :

« جميع الذين توجد معهم أوراق مكتوبة أو مطبوعة يقصد بها حضّ الأمة على التشيع لأعداء جلالة ملك بريطانيا العظمى أو حملها على الاستعانة بنظام الحكومة القائمة بالأمر أو الحضّ عليها والذين يذيعون تلك الأوراق أو أشباهها أو يحاولون إدخالها فى القطر المصرى يعّرضون أنفسهم للمحاكمة أمام المحاكم العسكرية » .

وبالفعل قُدّم أعضاء الوفد المعتقلون إلى المحاكمة أمام محكمة عسكرية انجليزية وهم : حمد الباسل باشا ، والأستاذ مرقص حنا ، والأستاذ واصف غالى ، وعلوى الجزار بك ، والأستاذ ويصا واصف ، ومراد الشريعى بك ، وجورج خياط بك . وكانت تهمتهم «أنهم حضّوا على كراهية الوزارة القائمة » وارتكاب جرائم ضد السلطة .

وقد وقف أعضاء الوفد فى هذه المحاكمة موقفًا يُسجل بأحرف من نور فى تاريخ الحركة الوطنية المصرية إذ أبوا أن يعترفوا لهذه المحكمة بالحق فى محاكمتهم ورفضوا أن يجيبوا على الأسئلة التى وجهّت إليهم ، ووقف حمد الباسل باشا فى قفص الاتهام وألقى باسمه وبأسماء زملائه بيانًا وجّهه إلى المحكمة قال فيه صراحة : « لكم أن تحكموا علينا ولكن ليس لكم أن تحاكمونا » . . !

ولكن المحكمة استمرت فى المحاكمة وعقدت لذلك ثلاث جلسات فى يومى ٩ ، ١٠ أغسطس سنة ١٩٢٢ ثم صدر حكُمها بالادانة فى الجلسة الثالثة ، فهتف الأستاذ واصف

غالى « لتحى مصر » فردد الحاضرون الهتاف وقبض البوليس على واحد من هؤلاء وكان هو الدكتور أحمد ماهر [٧] وكان إذ ذاك مدرسًا بمدرسة التجارة العليا ثم أفرج عنه .

وفى يوم الاثنين ١٤ أغسطس ذهب ضابط انجليزى إلى قصر النيل وأعلن أعضاء الوفد بالحُكم . وكان يقضى بالاعدام إلا أنه استبدل به السجن سبع سنوات وغرامة خمسة آلاف جنيه على كل منهم . وقد قابلوا هذا الحكم بالهتاف بحياة مصر . ! ومما يذكر أن الضابط لمّا أعلنهم بحكم الاعدام كان حمد باشا ومرقص حنا بك يلعبان النرد فهتفا « لتحى مصر» ثم سكت الضابط قليلا وقال : « ان الحكم استبدل به السجن سبع سنوات » .

وعلى أثر تبليغهم الحكم نقلوا من ثُكنة قصر النيل إلى سجن مصر (قرة ميدان) حيث عوملوا معاملة المسجونين ولبسوا ملابس السجن . وقد بقوا فيه حتى نقلوا إلى معتقل خاص فى « ألماظة » .

ولا يسع من يسجل للحركة الوطنية إلا أن يقف أمام بطولة أعضاء الوفد السبعة ، وهم يجابهون الموت أمام المحكمة العسكرية البريطانية ، موقف الاعجاب والفخار . أما عن تفاصيل ما جرى فى هذه الجلسات فيمكن إجمالها فيما يلى :

انعقدت الجلسة الأولى للمحاكمة يوم الاربعاء الموافق ٩ أغسطس ١٩٢٢ واختير لها دار محكمة الاستئناف بباب الخلق [٨] . وقد حضرها عدد من رجال الصحافة الانجليزية والامريكية ومكاتبيها مثل مكاتب الديلى تلغراف ، والديلى اكسبريس والنيويورك هيرالد والمورننج بوست . كما حضرتها أيضا الكاتبة الأمريكية « سانتيا موير » وكانت قد قدمت إلى القطر لدراسة أحوال « المرأة المصرية » .

وكانت المحكمة قد أحيطت من كل جانب برجال البوليس وبثلّة من رجال الجيش الانجليزى . وقد رأس هيئة المحكمة الجنرال « لوسون » وأربعة من ضباط هذا الجيش . وقد مثّل الاتهام المستر ماكسويل المدّعى العمومى .

أما الدفاع فكان يتعيّن عليه المرافعة باللغة الانجليزية وقد قام به المستر ماريورتى المحامى يعاونه ثلاثة من المحامين المصريين وهم الأساتذة محمد حسن واسماعيل مجدى وعبد الرحمن البيلى .

ومن أجمل ما يذكر أنه حينما دخل أعضاء الوفد المتهمون قاعة الجلسة تحف بهم الجنود البريطانية وقف جميع الذين كانوا فيها إجلالا لهم واحتراما . فكان منظرا رائعًا ومؤثرًا للغاية .

فى جبل طارق وأفيد فخامتكم الآن أنى لا أزال إلى اليوم منحرفة الصحة ولكنى رغم هذا المرض لا يسعنى إلاّ التعجيل بالسفر فقد ورد فى مساء الأمس من زوجى تلغراف مقلق كثيرًا يدعونى فيه للسفر إليه ولذا فانى أرجو من فخامتكم أن يصل إلىّ التصريح بسفرى ومعى سعيد بك زغلول أحد أفراد العائلة وسيدة لمرافقتى وخادمة ورأجو أن يشمل جواز التصريح لى ولمن سيسافرون معى بالعودة إلى القطر المصرى .

« صفية زغلول »

فتلقت عصمتها منه الرد الآتى تلغرافيا وهو :

باكوس فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٢

حرم زغلول باشا

القلم المختص بادارة الأمن العام ستعطى إليه التعليمات اللازمة غدا صباحًا وهو سيتخابر مع قلم جوازات السفر .

« اللنبى »

وقد سافرت أم المصريين بعد ذلك إلى جبل طارق ، ومعها من طلبتْ أن يصحبوها وبقيت إلى جانب قرينها العظيم تحبوه بعطفها وترفّه عنه بحنانها ، حتى أفرج عنه وعاد إلى الوطن .

وقد ودعت أم المصريين وداعاً حافلاً برهن فيه المصريون على شدة تعلقهم بزعيمهم .

ومما يُذكر أن سعد باشا فى مبدأ اعتقاله كان يرى أن تبقى حرمه المصون فى مصر ولكن نقله إلى جبل طارق وبقاءه وحيدا ، ثم ضعف صحته ، ذلك الضعف الذى يقتضيه نظاما طبيا دقيقًا فى المعيشة وفى الطعام ، كل هذا حمله على أن يطلب إليها أن توافيه إلى حيث نُفى ، لأنه محتاجٌ إلىّ خدمتها . وهكذا كان ، وكان لابد أن تسافر عصمتها وأن تشاركه الحياة فى المنفى بعيدًا عن الوطن والأهل والاخوان .

هوامش الفصل العشرون

(١) تقول الوثائق البريطانية انه تم اختيار المصرى السعدى بك ليحل محل حمد الباسل لأنه من القبائل البدوية مثله ولأنه عضو سابق فى الجمعية التشريعية اما الخمسة الباقين ومنهم صاحب المذكرات (فخرى عبد النور) فتصفهم بأنهم من انصار زغلول المتحمسين F. o. 407/192 No. 56 . .

(٢) نشر هذا النداء فى الأهرام فى ٢٥ يناير ١٩٢١

(٣) احضر المندوب السامى صباح يوم ٢٧ يناير ١٩٢٢ كلا من حمد الباسل ومرقص حنا وعلى ماهر أمامه وأبلغهم أنهم سوف يطلق سراحهم على أن يتوقفوا عن أعمالهم وأبلغ السكرتير الشرقى لدار المندوب السامى الخمسة الباقين نفس الرسالة وقد حذرت الصحف من نشر أى بيان موقع عليه من هؤلاء. F. o. 407/192 No 44.

(٤) الذى تولى الوزارة مرات عديدة بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٧ للشئون الاجتماعية ثم التجارة والصناعة ثم المالية .

(٥) ماهى Mahe هى كبرى جزر سيشل البالغ عددها ٩٠ جزيرة وتبلغ مساحتها ١٤٨ ميلاً ومدينتها الرئيسية هى بورت فيكتوريا .

(٦) كان مما جاء فى هذا البيان انه « لم يعد ممكنا احتمال هذه المعاملة البربرية التى لم تعرف منذ العصور الوسطى » وتقول الوثائق البريطانية ان البيان أعد يوم ١٨ يوليو وبعد ذلك بثلاثة ايام بدء فى طبعه وتوزيعه على نطاق واسع .

(٧) يقول تقرير بريطانى انه فى اليوم التالى لأعادة تشكيل طبقة الوفد الثالثة اصدر بيانا وقعه أربعة فقط من هذه الطبقة هم المصرى السعدى وحسين القصبى ومصطفى القاياتى وفخرى عبد النور F. o. 407/192Idid

(٨) وزيرا للمعارف (١٩٢٤) ، والمالية (١٩٣٨ ـ ١٩٣٩) ورئيسا لمجلس الوزراء (١٩٤٤ ـ ١٩٤٥) .

(٩) كانت المحكمة برئاسة الكولونل لاوسون Lawson الذى رأس المحكمة التى حاكمت عبد الرحمن فهمى .

(١٠) بعد الكشف الطبى على سعد زغلول باشا فى سيشل يوم ٢٣ يوليو ١٩٢٢ نصح الطبيب بضرورة نقله من المكان « بسبب ارتفاع نسبة السكر والضعف الشديد للقلب » (F. o. 407/192 No. 21) وتم تبادل البرقيات بين المسئولين البريطانيين الذين قرروا نقله إلى مستعمرة جبل طارق (F. o. 407/)

(١١) من بين التعليمات التى صدرت لقبطان السفينة الحربية Carlew التى قامت بنقل زغلول : منعه هو أو خادمه الذى كان بصحبته من الاتصال بأى كائن فى الموانى التى ترسو فيها السفينة ، ألا تتوقف السفينة فى القناة للتموين أو لغيرة إلا فقط فى السويس ليركبها مرشد القناة ، وان يكون مرورها فيها ليلاً ، وألا تعرف تحركاتها من اى جهة غير قيادتها F. o. 407/192

الفصل الحادى والعشرون

اجتماع الطبقة الثالثة للوفد برئاسة « المصرى السعدى بك » فى بيت الامة ـ الاحتجاج على تقديم الزعماء السبعة للمحاكمة العسكرية ـ الوفد يصدر بيانًا إلى الأمة ـ التنديد بموقف الانجليز والوزارة ـ دعوة الأمة إلى المثابرة فى جهادها فى سبيل الحرية والاستقلال ـ الشروع فى اغتيال المستر براون ـ اللنبى يأمر بالقبض علىّ والشيخ مصطفى القاياتى من أعضاء الوفد وبعض الوطنيين ـ تدبير اتهام ضدنا ـ ستة شهور فى السجون .

* * *

بينما كانت المحكمة العسكرية البريطانية المشكّلة بتكليف من اللورد اللنبى تحاكم زعماء الوفد الابطال السبعة ، بتهمة التحريض على القتل وإرتكاب أعمال العنف ضد الانجليز ، والدعوة إلى كراهية الحكومة القائمة ـ وزارة ثروت باشا ـ واحتقارها ، وتعدّ الترتيب للحكم عليهم بالإعدام ، بعد نفى سعد باشا وصحبه الكرام إلى سيشل ، للقضاء على الحركة الوطنية قضاءً مبرماً . وبينما كان زملاؤنا فى الجهاد يقابلون هذا الأمر ببطولة نادرة ، وشجاعة تفوق الوصف ، وتعجز البيان .

كنا نحن ـ أعضاء الطبقة الثالثة من الوفد ـ نجتمع برئاسة المصرى السعدى بك ببيت الأمة . الذى أضحى بعد نفى زعيمنا منتدى اجتماعاتنا وملتقانا ، وقد جرى هذا الاجتماع فى التاسع من شهر أغسطس ١٩٢٢ . وقد حضرته ، كما حضره من اخوانى السيد الحسيب النسيب حسين القصبى بك ـ عميد أعيان مديرية الغربية ـ والأستاذ الشيخ الجليل مصطفى القاياتى وكان من أبرز رجال الأزهر ، وأحد خطباء مصر المفوّهين . وكان قد انضم الينا ـ كما سلفت الاشارة ـ الأستاذ راغب اسكندر المحامى ، استكمالا لتمثيل الأقباط فى هذه الطبقة الجديدة من الوفد ، على ما أوصانا به سعد باشا قبل نفيه وأذكر أن الدكتور محجوب ثابت قد حضر هذه الجلسة التاريخية أيضا .

ولعلّ من المفارقات العجيبة ، أن هذا الاجتماع الوطنى ـ على خطورته ـ كان يجرى ببيت سعد باشا بالمنيرة ـ بيت الأمة ـ بينما كان زملاؤنا يُحاكمون بمقر محكمة الاستئناف بباب الخلق ، أى على مسافة لا تزيد عن بضع مئات من الأمتار ، بل وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه المحاكمة العسكرية .

فى هذه الجلسة تدارس المجتمعون الموقف السياسى بعد تقديم الباسل باشا للمحاكمة مع إخوانه . وقد اقترحتُ على إخوانى أن يصدر الوفد ـ فى هيئته الجديدة ـ بياناً إلى الأمة ، نعلن فيه تضامننا مع اخواننا وبذلك يشعرون ـ وهم يعرّضون رقابهم للمشانق ـ أن تضحياتهم لن تذهب سدًى أو تضيع عبثا . كما يشعر اللورد اللنبى ، ومن رضى على وطنيته أن يتعاون معه ـ من المصريين ـ على تنفيذ سياسته ، أن أية محاولة لقتل الحركة الوطنية سوف تبوء بالفشل . إذ كلّما وقع التنكيل « بطبقة » من زعماء الوفد ، قامت فوراً محلها « طبقة » جديدة ، وهكذا يسير الأمر حتى نحصل على استقلالنا وحريّاتنا .

ولا شك أن هذه الخطّة التى كان زعيمنا سعد باشا قد دبّر أمرها قبل منفاه ، وكان مما أوصانا به عندما ادلهّمت الخطوب علينا بعد عودتنا من « رحلة الصعيد » ، وما جرى فيها من أحداث دامية ومؤلمة ، كانت من أسباب نجاح ثورة ١٩١٩ . إذ سارت الحركة ، فى الطريق المرسوم لها ، دون أن تتوقف لحظة . وكأن قادة الأمة من الوطنيين ضبّاطًا فى جيش واحد ، يحاربون عدواً واحدا ، إلا أنهم صفوف متراصّة ، يتبعون بعضهم بعضا فى نظام مرتّب محكم . . !

ومن دواعى الاعتزاز ـ وأنا هنا أسجلّ للتاريخ ـ أن سعد باشا كان يختصنا ـ نحن أعضاء هذه الطبقة من الوفد ـ بعد عودته من المنفى بكثير من عبارات الثناء وكم من مرّة سمعته يقول : « لو أن هذه الطبقة لم تتقدم الصفوف بعد محاكمة حمد باشا وإخوانه لظنّ « اللنبى » أنه نجح فى القضاء على الحركة . . وانتهى الأمر » .

كم لا أنسى ـ مادمت حياً ـ كم كان باراًّ بى ، عطوفا علىّ مقدراً ما بذلته ، فكان لا يذكر اسمى أمام الناس إلا ويردفه بعبارة « الوطنى الغيّور » وقد أضحى لقبى ـ بين اخوانى ـ وعلى الألسنة ، فكان ذلك لى تكريماً ما أجمله من تكريم .

وبعد أن عكفنا على كتابة البيان ، قررنا طبعه وتوزيعه فى صورة منشور وهاكم نصه :

(من الوفـد ـ إلى الأمـة)

أيها المصريون

لقد برح الخفاء ، ولم يبق شك فى نيّات الوزارة الحاضرة والحكومة والانجليزية بعد أن قرّ الرأى على تقديم زعمائكم رجال الوفد للمحاكمة أمام محكمة عسكرية ، لتهمة زعموا أول الأمر أنها التحريض على العنف والقتل ـ ولكن الحجّة أعوزتهم . والحيلة أعيتهم . والتعسف خذلهم . فزعموا أنها التحريض على كراهية الحكومة واحتقارها : وإثارة السخط على النظام الحالى ـ ترددوا فى نسبة التهمة إليهم واضطربوا . وما ذلك إلا دليل قاطع على أن الاعتقال قد وقع « قبل أن يدبّروا لهم تهمة » أو يتلمسوا لعملهم تبريرا .

أيها المصريون

لقد برح الخفاء . فلم يبق شك فى أنهم يريدون إرهابكم . يريدون التخلص من العاملين . والقضاء على المخلصين . انهم يريدون أن يمهّدوا الطريق لانتخاباتهم ويفسحوا المقاعد لصنائعهم . واتخذوا لتحقيق ذلك نفى الزعماء . واعتقال المعارضين . وملء السجون بمن يتوهمون فيهم يقظة وثباتا .

انهم يريدون أن يحاكموا الروح الوطنية التى حاربوها فهزمتهم . ويخمدوا نار العزيمة القومية التى هبت فلفحتهم . أما الأسباب التى يتعللون بها لذلك فليست من الأهمية بمكان .

انهم يعلمون أن أسلحتنا الحق الصراح . والعزيمة الصلبة والوسيلة المشروعة وهى أسلحة تفل أسلحة الظالمين . وتقطع مطامع الطامعين .

أنهم يريدون إخضاعكم باسم الاستقلال فمرحى مرحى بوزارة الاستقلال ! ! ولكن أى تهمة يتهمون . وأى تحريض على كراهية الحكومة يقصدون . وأى سخط على نظام الحكم يعنون . إن الحكومة شيء والوزارة شيء آخر . فالادعاء بأن الوزارة هى الحكومة غبن كبير للعرش وللأمة ولنوابها ـ أننا ندافع عن النظام ضد الاخلال به . وعن القانون ضد الخروج عليه . . ان الوزارة تمر . والعرش يبقى موضع احترام الأمة وولائها .

انه ليس من شك فى أن الوزارة الحاضرة مكروهة بأفعالها ـ وهل بنا من حاجة إلى ذكر ما فى البلاد من قمع محكم . وإرهاق منظّم . فمن اجتماعات ممنوعة . إلى صحافة معطلة أو مشلولة . ومن مصادرة للأموال إلى نفى للزعماء ومن أحكام عرفية مبسوطة . إلى محاكم عسكرية قائمة . أفلو كانت الوزارة حائزة لثقة الأمة ومؤيدة من غالبيتها . كانت

هذه الفوضى والحال السوأى فى البلاد تسود ؟

أيها المصريون . . ان وزارة الاستقلال صامتة . فماذا تفهمون ؟ ـ رجال دولة أجنبية يحاكمون أبناء مصر « المستقلة » لخرقهم القانون المصرى كما يزعمون . والوزارة المصرية مطأطئة الرأس . فهل فى الأمة بعد اليوم مخدوع بأساليبها . مخدوع بتصريحاتها . مخدوع باستقلالها ؟ ومن ذا الذى لا يعتقد بعد اليوم أن الوزارة الحاضرة مشتركة أم هى على الأقل راضية بما يرتكب الآن . مع زعمائكم . ومن ذا الذى لا يعتقد أن كرامة الأمة قد ديست . وحرمة القضاء المصرى قد امتهنت . والوزارة تشهد ذلك فلا ترفع صوتا ولا تحرك ساكنا .

يقولون إنهم يحاكمون كل ساخط على النظام الذى يراد أن تحكم به البلاد ـ إذن حاكموا أيها العسكريون أربعة عشر مليونا . حاكموا الصحفيين والمعلمين حاكموا الأطباء والمهندسين . حاكموا العلماء والمحامين . حاكموا الفلاح فى حقله والصناع فى مصنعه . والتاجر فى خانه . والطالب فى معهده . . حاكموا السيدات فى الخدور . حاكموا الأمة كلها فهى ساخطة على نظام الحكم فى البلاد .

أحقا تقولون . أم هذه رواية الذئب مع الحمل تمثلون ؟

أيها المصريون أنتم أعمق وطنية . وأصدق عزيمة . وأصلب عودا . وأبعد نظرا مما يتوهمون . فاشهدوا العالم باستمرار على أفاعيلهم . وثابروا فى جهادكم المشروع فى سبيل حريتكم الغالية . فان النصر فى النهاية لخدام الوطن المخلصين . »

المصرى السعدى : حسين القصبى : مصطفى القاياتى : فخرى عبد النور : الدكتور محجوب ثابت : راغب اسكندر[1] .

١٥ ذى الحجة سنة ١٣٤٠ هـ　　　　٩ أغسطس سنة ١٩٢٢ م

وبعد أن وقعنا هذا البيان ، ودفعنا به إلى المطبعة ، انتظرنا جميعا ماذا يكون عليه الأمر، بعد اعلانه ونشره على الجمهور .

* * *

وقد حدثت فى هذه الأثناء حوادث اعتداء على بعض الانجليز ، ومنها حادث الاعتداء الذى وقع على « مستر براون » ـ مدير قسم البساتين فى وزارة الزراعة اذ ذاك ـ إذ أنه كان حدائق الأورمان بالجيزة فى عربة هو وعائلته مساء السبت ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٢ فأطلق عليه الرصاص ، لكنه لم يُصب بسوء [٢] . فبينما أنا نائم فى منزلى حوالى الساعة

الرابعة فجر يوم الاثنين ١٤ أغسطس سنة ١٩٢٢ ـ وهو صبيحة يوم صدور الحكم بالاعدام على حمد باشا الباسل وزملائه أعضاء الطبقة الثانية من الوفد ـ سمعتُ حركة وجلبة فاستيقظت ، ونظرت من النافذة أستطلع الخبر فإذا بالمنزل مُحاط بالجند من جميع الجهات وعلى رأس القوة مأمور القسم محمود حسيب أفندى (المدير فيما بعد) وقد طلب فتح الباب ففتح له فدخل وأبلغنى أن لديه أمرا بالقبض علىّ ، ثم شرع وبعض الضباط يفتش المنزل فلم يتركوا مكانا الا فتشوه ، وأخذوا كثيرا من الأوراق ، حتى عقد إيجار الباخرة «نوبيا » التى سافر بها سعد باشا واخوانه فى « رحلة الصعيد » والتى نشرنا وصفها فيما تقدم .

وفى هذه الأثناء طلب منى مأمور القسم أن ارتدى ملابسى وأركب عربة «البكسفورد» التى كانت قد أحضرت لنقلى إلى المعتقل فركبتها وركب معى أحد الضباط وهو التونى الضبغ أفندى ـ وكان إذ ذاك معاونا للبوليس ـ واجتازت بنا الشوارع حتى « شارع محمد على » ومنه إلى القلعة . فوصلنا إليها قبل شروق الشمس وهناك تسلّمنى أحد الضباط الانجليز فبقيت وحدى فترة من الوقت وإذا بسيارة تُقل الدكتور نجيب اسكندر[٣] ـ مدير المعمل البكترويولوجى بالصحة ـ وتلتها سيارة أخرى تقل الأستاذ الشيخ مصطفى القاياتى ، ثم أحضر بعد ذلك الأستاذ محمود فهمى النقراشى الموظف إذ ذاك بوزارة الزراعة[٤] . ثم وصل حوالى الظهر الأستاذ حسن يس وكان فى بلده « أشمنت» بمديرية بنى سويف . فاعتقل فيها وأحضر إلى القاهرة وبعد ذلك أحضر عبد الستار الباسل بك من الاسكندرية ، والأستاذ محمد نجيب الغرابلى من طنطا فأصبحنا سبعة[٥] .

وقد اعتقلونا فى مخزن عتيق مملوء بالروائح الكريهة وليست فيه نوافذ صحية . فاحتج الدكتور اسكندر على انزالنا فى هذا المكان غير الصحى إلا أنه قبل أن تغرب الشمس أحضرت سيارتان كبيرتان فنقلونا فيهما ـ وخلفنا مدفع ـ على عربة ، وأذكر هنا أن أحد الجنود كان يجرّب فى هذا الوقت بندقيته فخرجت منها رصاصة مرت بجوار أذنى ، ونجّانى الله منها .

ولمّا ركبنا السيارتين اتجهتا بنا لُكنة قصر النيل[٦] فلّما وصلنا إليها رأينا حقائب كثيرة ، وقف أمامها خادم حمد الباسل باشا ، فأدركنا أن حمد باشا واخوانه نقلوا من الثكنة إلى سجن مصر بعد الحكم عليهم كما تقدم ، واننا حللنا محلهم فى الاعتقال توطئة لمحاكمتنا ، وأن دورنا فى هذه المحاكمة قد حلّ . . !

من الوفد ـــ الى الامة

أيها المصريون

لقد برح الخفاء . ولم يبق شك فى نيات الوزارة الحاضرة والحكومة الانجليزية بعد أن قر الرأى على تقديم زعمائكم رجال الوفد للمحاكمة . أمام محكمة عسكرية . لتهمة زعموا أول الأمر أنها التحريض على العنف والقتل ـــ ولكن الحجة أعوزتهم . والحيلة أعيتهم . والتعسف خذلهم . فزعموا أنها التحريض على كراهية الحكومة واحتقارها : وأثارة السخط على النظام الحالى ـــ ترددوا في نسبة التهمة اليهم واضطربوا . وما ذلك الا دليل قاطع على أن الاعتقال قد وقع . قبل أن يدبروا لهم تهمة. أو يتلمسوا لعملهم تبريرا

أيها المصريون

لقد برح الخفاء . فلم يبق شك فى أنهم يريدون أرهابكم . يريدون التخلص من العاملين . والقضاء على المخلصين . انهم يريدون ان يمهدوا الطريق لانتخاباتهم . ويفسحوا المقاعد لصنائعهم . واتخذوا لتحقيق ذلك نفى الزعماء . واعتقال المعارضين . وملء السجون بمن يتوهمون فيهم يقظة وثباتا

أنهم يريدون أن يحاكموا الروح الوطنيه التى حاربوها فهزمتهم . ويخمدوا نار العزيمة القومية التى هبت فلفحتهم . أما الأسباب التى يتعللون بها لذلك فليست من الأهمية بمكان

أنهم يعلمون أن أسلحتنا الحق الصراح . والعزيمة الصادقة والوسيلة المشروعة . وهى أسلحة تفل أسلحة الظالمين . وتقطع مطامع الطامعين

انهم يريدون أخضاعكم باسم الاستقلال فرحي مرحى بوزارة الاستقلال !!

ولكن أى تهمة يتهمون . وأى تحريض على كراهية الحكومة يقصدون . وأى سخط على نظام الحكم يعنون . أن الحكومة شيء والوزارة شيء آخر . فالادعاء بأن الوزارة هى الحكومة غبن كبير للعرش وللأمة ولنوابها ـــ اننا ندافع عن النظام ضد الاخلال به . وعن القانون ضد الخروج عليه ـــ ان الوزارة تمر. والعرش يبقى. موضع احترام الامه وولائها

أنه ليس من شك فى أن الوزارة الحاضرة مكروهـة بأفعالها — وهل بنا من حاجة الى ذكر ما فى البلاد من قمع محكم . وأرهاق منظم . فمن اجتماعات ممنوعه . ألى صحافة معطلة أو مشلولة . ومن مصادرة الأموال الى نفى للزعماء . ومن أحكام عرفية مبسوطة . ألى محاكم عسكرية قائمـة . أفلو كانت الوزارة حائزة لثقة الأمـة ومؤيدة من غالبيتها . كانت هذه الفوضى والحال السوأى فى البلاد تسود ؟

أيها المصريون أن وزارة الأستقلال صامتة . فماذا تفهمون ؟ — رجال دولة أجنبية يحاكمون أبناء مصر « المستقله » بخرقهم القانون المصرى كما يزعمون . والوزارة المصرية مطأطئة الرأس . فهل فى الأمة بعد اليوم مخدوع بأساليبها . مخدوع بتصريحاتها . مخدوع باستقلالها ؟ ومن ذا الذي لا يعتقد بعد اليوم أن الوزارة الحاضرة مشتركة أو هى على الأقل راضيه بما يرتكب الآن مع زعمائكم . ومن ذا الذي لا يعتقد أن كرامة الأمة قد ديست . وحرمة القضاء المصرى قد امتهنت . والوزارة تشهـد ذلك فلا ترفع صوتا . ولا تحرك ساكنا .

يقولون أنهم يحاكمون كل ساخط على النظام الذى يراد ان تحكم به البلاد — اذن حاكموا أيها المسكريون أربعة عشر مليونا . حاكموا الصحفيين والمعلمين حاكموا الأطباء والمهندسين . حاكموا العلماء والمحامين . حاكموا الفلاح فى حقله . والصانع فى مصنعه . والتاجر فى خانه . والطالب فى معهده — حاكموا السيدات فى الخدور . حاكموا الأمة كلها فهى ساخطـة على نظام الحكم فى البلاد

أحقا تقولون . أم هذه رواية الذئب مع الحمل تمثلون ؟

أيها المصريون أنتم أعمق وطنية . وأصدق عزيمة . وأصلب عودا . وأبعد نظرا مما يتوهمون . فاشهدوا العالم باستمرار على أفاعيلهم . وثابروا فى جهادكم المشروع فى سبيل حريتكم الغاليه . فان النصر فى النهاية لخدام الوطن المخلصين

المصرى السعدى : حسين القصبى : مصطفى القاياتى : فخرى عبد النور

الدكتور محجوب ثابت : راغب اسكندر

١٥ ذي الحجة سنة ١٣٤٠ — ٩ اغسطس سنه ١٩٢٢

منشور الطبقة الثالثة للوفد إلى الأمة

وقد بتنا ليلتنا فى هذا اليوم بدون طعام ، وفى اليوم الثانى أرادوا احضار طعام لنا من المعسكر فرفضنا . وأخيرا جاء قائد المعسكر وطلب إلينا أن نتفق على اختيار واحد منا يكون رئيسا لنا ليخاطب المعسكر باسمنا فى كل ما نحتاج إليه فاختارنى اخوانى لذلك ، واتفقنا على أن نُحضر الطعام من بيوتنا . فقبل قائد المعسكر ذلك إلا أنه اشترط أن يفتش الطعام وحامله ، قبل دخوله الثكنة .

وبقينا فى المعتقل أسبوعين أو أكثر ونحن لا ندرى أسباب اعتقالنا وما هو مصيرنا ، وقد سعى أهلنا لدى الجهات المختصة ليصدر تصريح لذوى قربانا بزيارتنا فى المعتقل وأسفرت هذه المساعى عن النجاح وحُدّد يوم فى الأسبوع لهذه الزيارات بشرط أن يكون الزائر من ذوى القربى القريبة جدا بعد أن كانت السلطة تمانع ممانعة شديدة فى زيارة أحد لنا .

وكان يرافق الزائر فى هذه الزيارات ضابط انجليزى ومعه مترجم ، أذكر كان مصرياً واسمه ساويرس أفندى وأظن أنه توفى إلى رحمة الله ، وقد كان متساهلاً جدا يتغاضى عن سماع الحديث الذى كان يدور بيننا وبين زوّارنا .

ومما يُذكر أن محمد زكى الابراشى بك [٦] كان يزور صديقه الأستاذ الغرابلى من وقت لآخر وكان ينتحل الاعذار كثيرا حتى يُسمح له بهذه الزيارة . وأذكر أيضا أن زارنى غير أولادى وأفراد عائلتى الأنبا يوساب ـ مطران جرجا ـ [٧] ، كما زارنى كذلك المرحوم حسن عبد الله أبو كب عمدة العوامر قبلى من مركز جرجا ، وقد ادّعى أنه من أقربائى وأن اسمه غالى روفائيل (أ) ، كما زارنى الشيخ عبد اللطيف حسّاب والشيخ خليفه السّمان وغيرهما من رؤساء العشائر بالصعيد .

ولا أنسى أن العالم الورع الأستاذ الشيخ أبو الوفا الشرقاوى كان يرسل مع الزائرين رسائل يشجعنى فيها ، ويبث فى روح الاقدام قوة الايمان الوطنى .

ومما يذكر أن اثنين من أخصّ أصدقائى هما المرحومان بولس بك حنا [٨] من كبار أثرياء قنا ، وشكرى بك بطرس من عائلة « البطارسة » المعروفة بالبلينا حصلا على تصريح بزيارتى كذلك ، ولكن كان أفرج عنى قبل أن تتم هذه الزيارة .

ومما أذكر أيضا أن الأستاذ الشيخ عبد العظيم القاياتى عميد أسرة القاياتى بمديرية المنيا زار الشيخ مصطفى القاياتى وكان مما قاله : « يا مصطفى لتكن لك بأبيك وعمّك

أسوة ، فهنا كان معتقلهما فى سنة ١٨٨٢ » وأشار إلى غرفتين فى الدور الأول . وكنّا نحن فى الدور الأخير . والجدير بالذكر أنهما كان من أشد المشايعين « للحركة العرابية » وقد حُكم عليهما بالسجن وقتذاك .

ومضت الأيام حتى يوم الاثنين أول أكتوبر ونحن نسمع إشاعات كثيرة عن اعتقالنا وبينما نحن فى هذا اليوم نتناول طعام الغداء إذ بقائد المعسكر يدخل ومعه ضابط لم أكن أعرفه وعلى رأسه طربوش فقال هذا الضابط من فيكم فخرى عبد النور ؟ فقلت له : أنا فخرى « بك » عبد النور .

فقـال : أنا لا يهمنى ان كنت « بك » أو « باشا » .

فقلت : ولكن يهمنى أنا أن أحافظ على كرامتى ، وأنا حائز لرتبة المتمايز الرفيعة من سنة ١٩٠٩ وقد زارنى الخديو عبآس فى منزلى لتكريمى وتشريفى ، فلا يصح أن تخاطبنى بهذه اللهجة وأنا لا أقبل أن تخاطبنى بها . وحدثت مشادة كلامية بيننا انتهت بأن سألنى أين حجرتك ؟ ثم انتقلنا معا إليها وجلس هو فوق السرير وأبيت أنا الوقوف أمامه ـ كالمتهم ـ وخرجت وأحضرت كرسيًا وجلست عليه . وبدأ هو يسألنى بعد ذلك فكان مما قال : هل تعرف الشافعى البنا ؟

فقلت : هو شاب أزهرى ، رأيته مع الأستاذ الشيخ مصطفى القاياتى .

فسألنى : هل تعرف زكى حنفى المغربى ؟

فقلت : لا أعرفه .

فقال : كيف لا تعرفه وأنت كنت ولىّ أمره فى مدرسة « وادى النيل » ؟

فقلت : ان الذى كنت ولى أمره هو « زكى يوسف » وهو شاب من أسرة قبطية فى المنيا . أما الذى تسألنى فيبدو من اسمه أنه مسلم .

فقال : هل تعرف حسين وهبى ؟

فقلت : لا أعرفه .

فقال : كيف لا تعرفه وهو ناظر مدرسة « وادى النيل » ؟

فقلت : ان ناظر مدرسة « وادى النيل » هو محمد وهبى ، لا حسين وهبى . ووالده صديقى وهو عبد الله باشا وهبى .

ثم سألنى هل تعرف محمود سليمان باشا ؟

فقلت : كيف لا أعرفه وأنا أعتبره كوالدى ، وكان صديقاً لجدّى ، وزميلا له فى «مديرية جرجا » منذ أكثر من ٥٠ عاما .

وأخيرا وجّه إلى تهمة مقتضاها أنى كنت أوزع سلاحا على الذين اعتدوا على الانجليز وأنهم اعترفوا بذلك وذكر لى بالذات زكى حنفى المغربى والشافعى البنا ومحمد أمين ومحمد عبد الخالق فنفيت هذه التهمة بشدة وأنكرتها ، فسألنى من هم الجناة اذن ؟ فقلت لا أعرف ويجب أن تفهم أنى عضو فى الوفد المصرى ، وقد وضع سعد باشا مبادئ الوفد صريحة واضحة وهى مقدسة لنا ، ومحورها هو المطالبة باستقلال مصر وحريتها « بالطرق السلمية المشروعة » . وليس الاغتيال منها .

وفى أثناء كلامى هذا ارتفع صوتى فسمعنى اخوانى وشرعوا ينصتون إلى الحديث الذى دار بينى وبين هذا الضابط والذى دام نحو ساعة ، إذ كان الجو مشحوناً للغاية !

وأخيرا تغيّرت لهجة الضابط ـ فجأة ـ ومدّ إلى يده يريد مصافحتى فسألته عن سبب هذا التغير فقال : لقد عجمت عودك ، وعرفت أنك صادق ولا تخاف .

ولعلك أيها القارئ تسألنى من هو هذا الضابط الذى كان يلبس فوق رأسه الطربوش مع أنه انجليزى ؟ وأنا أجيبك بأنه « مستر أنجرام » أحد الضبّاط الانجليز فى بوليس مصر، والمشهور بأعماله فى التحقيقات التى كانت تجرُى فى القضايا السياسية ، ـ وكان إذ ذاك مساعدا لحكمدار بوليس القاهرة ـ ثم نقل حكمداراً لبوليس الاسكندرية ومات هناك .

وفى يوم ٢٢ أكتوبر أفرج عن الأستاذ محمد نجيب الغرابلى والدكتور نجيب اسكندر ، وألزم الأستاذ الغرابلى بالبقاء فى طنطا بحيث لا يبرحها [٩] .

وفى يوم ١٥ نوفمبر أفرج عن الشيخ القاياتى وعبد الستار الباسل بك والأستاذ محمود فهمى النقراشى [١٠] .

ويقيت فى الاعتقال وحدى مع الأستاذ حسن يس .

وفى يوم ١٧ نوفمبر أطلق الرصاص على المرحومين حسن عبد الرازق باشا والأستاذ

اسماعيل زهدى وهما خارجان من دار « حزب الأحرار الدستوريين » ، وهو الحزب الجديد الذى أنشأه عدلى باشا يكن ، لمناهضة الوفد . فأعيد اعتقال الشيخ مصطفى القاياتى ، كما أعتقل الدكتور محجوب ثابت .

وفى يوم ٢٧ ديسمبر أفرج عن الأستاذ حسن يس فبقيت فى المعتقل وحدى . وفى عصر هذا اليوم اعتدى على مستر « روبسون » بمدرسة الحقوق فقُتل .

ولا يفوتنى أن أنوّه هنا ، ان « الاعتقال » محك قوة الرجال ، وجلدهم وصبرهم . وهو يكشف عمّا فى النفوس من طباع ويبين فى الرجال الصبور والجزع والعابس والضحوك ، والشجاع والجبان . كما أنه المرآة التى تظهر فيها أخلاق الناس على طبيعتها ، بسجاياها أو ما جُبلت عليه من ضعف . !

وما أذكره ، عمّن شاركونى فى هذا المعتقل ، أن الأستاذ الغرابلى كان صبورًا تقيا ، طالما رأيته يؤدى صلاة الفجر فى وقتها .

وكان يمضى أيامه فى الكتابة والتحرير . وكان يقرض الشعر ويرسله ـ خفية ـ إلى جرائد الوفد فُينشر فيها بتوقيع مستعار ، كان تارة « ن » ، وتارة « أ » .

وكان الدكتور نجيب اسكندر مرحًا ، لطيف المعشر ، لبقًا فى كلامه ، وفى تصرّفاته ، مع زملائه ، أو القائمين على شئون المعتقل . أمّا عبد الستار الباسل بك فقد كان رجلا شهمًا ، وكان زميلى فى أوقات الرياضية ـ إذ كنا نتريض اثنين اثنين ـ وكان فى خدمته فى المعتقل خادم نوبى أمين يحمل إليه الخطابات يوميا فى حذائه ، ويأخذ منه الردود عليها ويوصّلها إلى المرسلة إليهم .

أما الشيخ القاياتى فكان همّه منصرفا إلى القراءة فى الكتب القديمة وشرب الشاى . وكان انسانا لطيفا للغاية ، تكاد لا تشعر به . وكان يعيش معنا كأنه غير مسجون ، هادئ الطبع ، يمرح ويضحك ، ويستقبل الشديد من الأمور بثبات تام ، فضلا عن شجاعته وإقدامه .

وكان الأستاذ النقراشى برمًا بظروف الاعتقال ، كثير الغضب ، متوتر الأعصاب دائما وقد أطلق لحيته فى آخر مدة اعتقاله .

أما الأستاذ حسن يس فكان كثير الهواجس ، كما كان يصاب بالأرق ـ أحيانا — فيبدو

عليه الحزن وتظهر على وجهه أمارات الكآبة . كما كان يردد شعر « المتنبى » الذى يحفظه عن ظهر قلب ، فيسرّى عنا بالقائه الخطابى ، وصوته الجهير .

ومما أذكره له أنه فى يوم إطلاق سراحه من المعتقل ـ بشرط أن يقيم فى بلده ـ صمم على زيارة أولادى فى منزل ، لكى يطمئنهم على صحتى ، وقد كان على خلق كريم ، سخى العاطفة .

هوامش الفصل الحادى والعشرون

(١) يحذف نص المنشور الذى جاء فى الوثائق البريطانية اسم كل من محجوب ثابت وراغب أسكندر ويؤكد أن الأربعة الأولين فقط هم الذين وقعوه F. o. 407/192 No. 51.

(٢) كان المستربراون مع اثنين من أطفاله ومربية وسايس العربة وقد قتل الأخير لدى اطلاق النيران

(٣) وزير الصحة فيما بعد ،

(٤) رئيس الوزراء فيما بعد .

(٥) تضع الوثائق البريطانية فخرى عبد النور على رأس القائمة باعتباره أهم المعتقلين .

(٦) كانت الثكنة تقع على النيل وفى المكان الذى بنى عليه فندق هيلتون النيل فيما بعد . F. o. 407/192 No. 70

(٧) رئيس الخاصة الملكية فيما بعد (الناشر) . .

(٨) بطريرك الأقباط فيما بعد (الناشر) . .

(٩) بولس حنا باشا : عضو مجلس الشيوخ فيما بعد . .

(١٠) تقول الوثائق البريطانية ان الافراج عن الغرابلى ونجيب اسكندر كان يوم ٢٤ أكتوبر وأن الأول قوبل بمظاهرة طلابية فى طنطا ترحيبا به . 7034.

(١١) تشير نفس الوثائق إلى أن الشيخ القاياتى قد أعيد اعتقاله يوم ١٧ نوفمبر كما تؤكد أن الاثنين الباقين فى الاعتقال فخرى بك عبد النور عضو الوفد وصاحب التوقيع على المنشور وحسن افندى يس طالب الحقوق F. o. 407/195 No. 107.

الفصل الثانى والعشرون

الوفد يحتفل بالذكرى الرابعة لعيد الجهاد الوطنى برياسة المصرى السعدى ـ استقالة وزارة ثروت باشا فى ٢٩ نوفمبر ١٩٢١ ـ توفيق نسيم يؤلف الوزارة الجديدة ، اشتراك فخرى باشا فى هذه الوزارة ـ سعيهما فى الافراج عنّى ـ عودتى لمباشرة نشاطى ـ أزمة وزارية بسبب الخلاف على لقب « ملك مصر والسودان » فى مشروع الدستور ـ نسيم باشا يبدى رغبته فى الاستقالة ـ توسطى لحمله على العدول عن الاستقالة ـ فشل هذا المسعى ـ بريطانيا توّجه إنذارا للحكومة المصرية ـ نسيم باشا يرفض هذا الانذار ويقدم استقالة الوزارة ـ مصر تحت الحكم العسكرى بلا وزارة ـ تكرّر حوادث الاعتداءات ـ إغلاق بيت الأمة ـ بيان الوفد إلى الأمة ـ إعتقال بعض رجال الوفد .

* * *

ولم يفت الوفد المصرى ، برئاسة المصرى السعدى بك ، وعضوية من بقى من أعضائه خارج السجون والمعتقلات ، أن يحتفل بذكرى « عيد الجهاد الوطنى » فى هذا العام . فأقام فى يوم ١٣ نوفمبر ١٩٢٢ احتفالا كبيرا فى فناء « بيت الأمة » . وقد حضره جمهور غفير[1] . وقد ألقى فيه الأستاذ راغب اسكندر المحامى ـ باسم الوفد ـ خطابا سياسيا ، هاجم فيه الوزارة القائمة ، منددا بأساليبها فى قمع الحركة الوطنية . وكذلك خطب أيضا محمد أبو شادى بك ، ومحمد عز العرب بك ، كما ألقى المرحوم مصطفى الخادم كلمة باسم مدينة الاسكندرية ـ وأهلها .

وكان توفيق نسيم باشا قد ألّف الوزارة فى أول ديسمبر ١٩٢٢ ، (وهى المرة الثانية التى يتولّى فيها الحكم ، أما المرة الأولى فكانت فى الفترة من مايو ١٩٢٠ إلى مارس ١٩٢١ ، كما سلف الاشارة) ، وذلك على أثر استقالة عبد الخالق ثروت باشا فى ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢ بسبب أزمة وزارية ـ نشبت بين ثروت باشا وبين الملك فؤاد . وكان قد نمى إلى علم رئيس الوزراء بأن القصر يسعى فى التقرب إلى رجال الوفد . وقد ضايقه كثيراً ، ما رآه شخصيا فى الاحتفال الذى أقيم فى ٩ أكتوبر ـ بمناسبة عيد الجلوس الملكى ـ من استقبال الملك فؤاد للسعدى بك ـ رئيس الوفد ـ بحفاوة كبيرة . وقد أشيع ـ وقتذاك ـ أن رجال القصر قد تلقوا تعليمات من الملك شخصياً بحسن مقابلة أعضاء الوفد ، ومحاولة الاتصال بالصحف الوفدية ، وكبار كتّابهم ، وعلى رأسهم الأستاذ عبد القادر حمزة .

وكان توفيق نسيم باشا ـ رئيس الوزارة الجديدة ـ صديقاً حميماً . كما اشترك معه فى الوزارة محمود فخرى باشا ، الذى تقلّد وزارة الخارجية . وكانت تربطنى به صلات كثيرة أهمّها أنه كان زميلا فى الدراسة ، فضلاً عن أن والده حسين فخرى باشا كان صديقاً أيضا للمرحوم والدى . وقد صادف أنه كان يزور الصعيد فى يونيو ١٨٨١ فنزل ضيفا علينا . كما شاءت الصدف أن أولد فى هذا التاريخ فأسُمّى باسمه ، تكريما لهذه الزيارة ، وإحتفاء بالزائر الكريم .

وقد حاول الاثنان عقب تولّيهما الوزارة ، السعى فى الافراج عنّى . فتوّسطا لدى اللورد « اللنبى » وفاتحاه فى هذا الشأن . إلا أنهما لم يوفّقا فى البداية ، إذ أبلغهما اللورد أننى خطر على الأمن العام ، وأن اسمى موضوع فى القائمة السوداء وأن السلطة العسكرية تتهمنى بأننى وراء كثير من الاعتداءات التى وقعت على الانجليز فى الفترة الأخيرة ، بعد نفى سعد باشا إلى سيشيل ، ورفض إجابتهما إلى طلبهما . فبقيت فى وحشة الاعتقال وحدى ـ حتى يوم السبت ٣ فبراير سنة ١٩٢٣ . ثم كان أن تقدم بعض أعضاء مجلس العموم فى انجلترا بسؤال لوزير الداخلية هناك عن السبب فى عدم الافراج عنى ، وبقائى فى المعتقل بعد اطلاق سراح باقى إخوانى (٢) .

ويبدو أن هذا المسعى البرلمانى حرّك الموضوع ، ففى هذا اليوم أخرجت من المعتقل «قبيل الغروب » وذهبت بى القوّة إلى وزارة الداخلية رأسا . حيث قابلت ـ لأول مرة ـ مستر « كوين بويد » ـ مدير الادارة الأوروبية ـ والمسئول عن الأمن العام فى مصر . فتحدث إلى حديثا ليّنا ، ثم أبلغنى بأنه قد تقرّر اطلاق سراحى ، بعد أن ثبت لهم أنى برىء من التهم التى كانت تحيط باسمى . ثم سألنى إلى أين أنت ذاهب الآن بعد الافراج عنك ؟ فقلت له : سوف أذهب أولا إلى بيت الأمة لأنضّم إلى زملائى من أعضاء الوفد ، وبعد قضاء فترة مع أسرتى ، سوف أغادر القاهرة لزيارة بلدى وأهلى فى الصعيد .

فقال : إعلّم ان الذى أمر بالافراج عنك هو « اللورد اللنبى » شخصيا فاذهب إلى دار المندوب السامى وسوف يستقبلك هناك المستر « كار » ـ المستشار ـ وهو فى انتظارك الآن .

فرفضت ذلك باباء شديد .

فظل يلّح على فى أن أجيبه إلى طلبه، وأنا أرفض هذه الفكرة، حتى أن قابل هذا الرفض بكلمة شديدة، وقد احتججتُ عليها، وقلت له : إن كان الأمر موضوع مساومة،

فانني على استعداد للعودة إلى المعتقل فوْراً ، وأفضّل ذلك عن مقابلة المعتمد البريطانى والتنكّر لجهادى ، وإن صفحتي الوطنية بيضاء ، ولا أريد أن أخسر احترام زملائى أو تقديرهم . فبدا عليه الاقتناع ، وأخيرا خرجت من وزارة الداخلية ـ مُفرجاً عنى ـ وقصدت على الفور إلى « بيت الأمة » فوجدت أعضاء الوفد مجتمعين وهم المصرى السعدى بك ، والسيد حسين القصبى ، والأستاذ راغب اسكندر ، وسلامة ميخائيل بك ، والامير الاى محمود حلمى اسماعيل (الذى كان قد ضُمّ إلى الوفد بعد اعتقالى مباشرة) فى شهر أغسطس ، فكان سرورهم بعودتى إليهم كبيرا .

وهكذا أكون قد أمضيت فى الاعتقال ـ وهو أول ما عرفت من اعتقالات ـ حوالى ستة أشهر . أو بالدقة خمسة أشهر وعشرين يوما (١٤ أغسطس ١٩٢٢ ـ ٣ فبراير ١٩٢٣) .

* * *

وممّا يذكر أنه لما طالت مدة اعتقالنا وبقيت وحدى فى قصر النيل ، وبقى الشيخ مصطفى القاياتى فى سجن مصر ، رفعت تلغرافات احتجاج كثيرة من مختلف أنحاء العالم إلى مليك البلاد ، يطلب فيه مرسلوها الافراج عنّا كما كتبت جريدة البلاغ [٣] فى العدد الثالث من صدورها يوم ٣٠ يناير ١٩٢٣ كلمة بعنوان : « الأستاذ القاياتى وفخرى بك عبد النور تقول :

« أعربت البلاد بكل ما فى طوْقها من الوسائل المشروعة ، عن تألّمها من اعتقال صاحب العزة فخرى بك عبد النور ، وصاحب الفضيلة الشيخ مصطفى القاياتى ، العضوين فى هيئة شريفة طاهرة السمعة هى هيئة « الوفد المصرى » التى تسعى سعيها المبارك جهارا نهارا ، بعيدة عن كل عنف وقوة . والتى استنكرت ولا تزال تستنكر كل عمل من أعمال العنف والقوّة معها مهما تكن شخصية صاحبه ، ومهما يكن الغرض الذى يسعى إليه » .

ولكن فخرى بك والأستاذ القاياتى لا يزالان معتقلين على الرغم من مطالبة وفود الأمة باطلاق سراحهما ، وعلى الرغم مما نشرته ولا تزال تنشره الصحف من المطالبة باخلاء سبيلهما .

ولو أنه قد كان وجّهت تهمة معّينة لأحدهما أو كليهما لاستطعنا أن نفهم وجه الاصرار على استبقائهما فى الاعتقال ، ولكن شيئا من هذا لم يكن . فلا تهمة وجهت إليهما ، ولا سؤال

ألقى عليهما ، وكل ما فى الأمر أنهما أعتقلا ، ولا يزالان معتقلين ، من غير أن يبيّن لهما سبب هذا الاعتقال .

فهل نفهم من هذه الحال أن المسألة محض تحكّم من القوة ، وأن هذه القوة لا تبالى بما يكون من تحكّمها من الأثر ؟ وهل يتفق هذا التحكّم مع ما تزعمه السياسة الانجليزية ـ من الرغبة فى إسترضاء المصريين وإستمالتهم للاتفاق معها ؟

إننا لا نلتمس رحمة لأحد ، ولكننا نطلب إنصافا لرجلين مسالمين لا نعرف لاعتقالهما سبباً ، وعلى الحكومة المصرية أن تحمى الرعايا المصريين وتنقذهم من كل حيف يصيبهم . »
وقد علمت بعد الافراج ، أن كاتب هذه الكلمة الكريمة هو الأستاذ عبد القادر حمزة ذاته ، صاحب جريدة « البلاغ » وكان قد أصدر العدد الأول منها صبيحة يوم الأحد ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣ ، بعد أن عطّلت له السلطة العسكرية جميع الصحف التى أصدرها منذ سنة ١٩٢١ وهى « الأهالى » . « والمحروسة » . « والأفكار » .

ومما يُذكر أن رئيسنا الجليل سعد باشا حينما علم بقرب صدور هذه الجريدة الجديدة أبرق إلى الأستاذ عبد القادر حمزة من جبل طارق فى ١٨ يناير ١٩٢٣ يقول له :

« سرّنى أن يظهر « للأهالى » خلف يملأ »
« ما تركت من فراغ ، ويستأنف ما ابتدأت من »
« جهاد ، يناصر الحق فى دعوته ، ويهزم »
« الباطل فى دولته ، يصوّر شعور الأمة »
« بذلك القلم الشاعر ، ويشرح أمانيّها »
« بذلك الأسلوب البديع الباهر . سرّنى أن »
« يكون لنا « بلاغ» يحّرره « عبد القادر »

. . **«سعد زغلول »** . .

وقد توّجت البلاغ الصفحة الأولى من عددها الأول بهذه البرقية ، فاستحسنها الناس جميعا . وكانت من دواعى إطمئنانهم على صحة رئيسهم المحبوب ، وكانت الأخبار التى يتناقلونها أنه يعانى المرض فى منفاه هناك ، بسبب تقلب الطقس فى جبل طارق ، فضلا

عن الوحدة ، بعيداً عن اخوانه الذين بقوا فى « سيشيل . !

وعلى إثر الافراج عنى ، علمت وأنا فى بيت الأمة ، من إخوانى أعضاء الوفد أن هناك أزمة وزارية ـ وأن توفيق نسيم باشا يعتزم تقديم استقالته من الوزارة . ولم أكن أدرى أنه سوف يكون لى مسعى خاص لديه ، لحمله على العدول عنها ، وإن كان هذا المسعى لم يصادفه النجاح ـ كما سيجىء .

وبعد أن أمضيت بعض الوقت فى « بيت الأمة » قصدت إلى منزلى بالعباسية ، وكان غاصاً بالعديدين من الأصدقاء والجيران والطلبة الذين حضروا لتهنئتى بفك اعتقالى .

وفى اليوم التالى للافراج ـ أى يوم ٤ فبراير ١٩٢٣ ـ تلقيت من سعد باشا تلغرافا من جبل طارق يقول فيه :

« ان الافراج عنكم ، المرتقب بفارغ الصبر ، ملأنا سرورا فلكم أطيب التهانى . ونحن معجبون بتفانيكم فى خدمة القضية الوطنية » .

كما تلقت السيدة حرمى برقية تهنئة أيضا من « أم المصريين » تشيد فيها بجلدها وصبرها على المكاره ، وتحيّى شجاعتها .

وبينما أنا فى دارى أستقبل وفود المهنئين من مختلف الهيئات ، والطبقات ، ورجال الوفد ، وكان معى ـ إذ ذاك ـ مواطنّى المرحومان الشيخ محمد شاكر ـ وكيل الجامع الأزهر السابق ـ والشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى ـ وكيل الجامع الأزهر ومدير المعاهد الدينية السابق ـ اللذان حضرا لتهنئتى ، إذا بالأستاذ صادق حنين بك يحضر لزيارتى ، ثم يطلب منى بأن أتوجه لقصر « عابدين » على الفور ويخبرنى بأن حسن نشأت بك ـ وكيل الديوان الملكى ـ[٤] يريد مقابلتى لأمر هام لا يحتمل التأخير . فذهبت إلى القصر. وقابلته فى مكتبه هناك ـ ولم أكن أعرفه من قبل ـ وان كان قد ترامى إلى سمعى أنه قريب الحظوة من الملك فؤاد ، وأنه مستشاره الخاص فى كثير من المسائل .

وبعد أن هنأنى على الافراج عنى ، تحدّث معى فى الأزمة الوزارية التى نشبت بين القصر والانجليز بسبب تلقيب الملك باسم « ملك مصر والسودان » فى مشروع الدستور الجديد . وبأن الانجليز يروْن فى هذا اللقب خَرْقاً لاتفاقية سنة ١٨٩٩ ، ولتصريح « ٢٨ فبراير ١٩٢٢ » إذ كان « السودان » أحد التحفظات الأربعة التى تضمّنها هذا التصريح ، بعد الاعتراف باستقلال مصر من جانب واحد ، ثم أضاف : ان توفيق نسيم باشا لا يجد

لهذه الأزمة مخرجا ، وقد إعتزم تقديم إستقالة الوزارة . وقال « إن صاحب الجلالة الملك يعلم أنك صديق شخصى لتوفيق نسيم باشا ، وأنك زميل قديم من الصغر لمحمود فخرى باشا ـ وزير الخارجية ـ وأنه يطلب منك أن تذهب إلى نسيم باشا لعلّك تقنعه بالعدول عن هذه الاستقالة ، تفاديا للأزمة » .

وكانت وزارة نسيم باشا ـ التى حلّت محل وزارة ثروت باشا منذ ديسمبر ١٩٢٢ ـ صديقة للوفد . وكان أعضاء الوفد متصلين بها . فلّما ذهبتُ إلى نسيم باشا ، ومعى صادق حنين بك ، وجدت عنده الأستاذ أشيل صيقلى ـ الذى كان يتولّى أعمال السكرتارية العامة لمجلس الوزراء وقتذاك ـ فبقينا معه أكثر من ساعتين وهو يشرح لنا نظريته فى موضوع النص فى الدستور على تلقيب ملك مصر بلقب « ملك مصر والسودان» . وأن الوزارة مصرّة على الاحتفاظ بهذا اللقب كاملا حتى لا تضيع حقوق مصر فى السودان بينما يصر الانجليز على أن يكون اللقب « ملك مصر فقط » وأن يحتفظ بموضوع لقب « والسودان » لمفاوضات تجرى بين الطرفين فيما بعد . ثم أضاف انه قد صمّم على الاستقالة ، وأن اخوانه فى الوزارة مجمعون على هذا الرأى أيضا ، وأنهم متضامنون معه فى تقديم الاستقالة .

وقد ألمح فى حديثه ، أن الحكومة البريطانية قد أنذرته بضرورة إحترام نصوص « إتفاقية السودان » وتصريح « ٢٨ فبراير ١٩٢٢ » ، وبأنه لا يقبل على ضميره الوطنى أن يرضخ لهذا الانذار . كما أخبرنى بأن السلطة العسكرية قررت القيام بمظاهرة حربية ، فأمرتْ بتحرّك بعض قطع من الأسطول البريطانى صوب ميناءى الاسكندرية ، وبورسعيد . . . !

وكان الموقف ، فيما بدا من حديثه معى « خطيرا » للغاية . غير أننى طلبتُ منه التريث فى تقديم هذه الاستقالة ، كما رجوته الانتظار بعض الوقت حتى نعرض الأمر من جانبنا على سعد باشا فى منفاه بجبل طارق بحيث إذا رأى هذا الرأى أيضا قدّمها بعد أن يرفض الانذار ، إلا أنه اعتذر عن قبول هذه الفكرة أو التأجيل .

وقدّم استقالة الوزارة فعلا ، فى ٩ فبراير ١٩٢٣ . وبقيت البلاد بعد استقالته ـ بلا وزارة ـ حتى ١٥ مارس ١٩٢٣ أى لمدة ٣٥ يوما ، كان الحاكم العسكرى البريطانى ـ خلالها ـ هو الذى يحكمها بالفعل .

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أن توفيق نسيم باشا كان قد كتب ـ قبل تقديم استقالته بأيام ـ

إلى دار المندوب السامى مذكّرة عن حالة البلاد ، على أثر مقتل مستر « روبسون » المدّرس بمدرسة الحقوق . وكان إغتياله هو الحادث الثامن عشر فى سلسلة الاعتداءات التى وقعت على الانجليز (٥) ، منذ نفى سعد باشا فى ديسمبر ١٩٢١ ، وكانت الحكومة عاجزة تماماً عن القبض على الجناة فى أغلب الأحوال .

وقد دافع نسيم باشا فى هذه المذكرة عن رجال الوفد وقال : أنه مادام الاضطهاد واقعا عليهم ، وما دام سعد باشا وزملاؤه منفيين فى « سيشيل » و « جبل طارق » ، واخوانهم الآخرون فى « ألماظة » بعد الحكم عليهم بالسجن والبقية فى المعتقلات الأخرى ، فلا سبيل إلى حفظ الأمن وإنما السبيل القويم هو التفاهم مع الوفد باعتباره الممثل الحقيقى للشعب، وبذلك تعود السكينة ويستتب الأمن وكان لهذه المذكرة ـ وقد كُتبت عباراتها فى أسلوب قوى ـ أثر كبير ووقع شديد على الدوائر البريطانية . وقد غضب منها اللورد اللنبى . وكان الذى حملها إلى دار المندوب السامى هو فخرى باشا وزير الخارجية شخصيا، فطلب منه مستر « كار » سحبها ، فأبى ، وصمم على تقديمها ، أيا كانت النتائج .

ولمّا سمعت بتفاصيل هذه المذكرة من نسيم باشا ، ومحمود فخرى باشا ـ أثناء مقابلتى لهما ـ إجتمعت وزملائى من أعضاء الوفد وكتبنا إلى سعد باشا بمضمونها . وقد تولّى صياغة هذا التقرير الأستاذ كامل سليم ـ سكرتيره الخاص ـ فتلقينا من سعد باشا رداً على كتابنا يثنى فيه على موقف نسيم باشا ، وبأنه بموقفه « يستحق تقدير الوطن » ! وقد نُشرت هذه الرسالة فيما بعد . كما أبرق إليه الرئيس ـ بعد إستقالته ـ بهذا المعنى أيضا فأعاد إليه إعتباره الوطنى ، بعد أن كان الناس يظنون فيه التسامح أو التفريط فى حقوق مصر المشروعة . وممّا هو جدير بالذكر أنه كانت توجد بين الرجلين علاقة مصاهرة إذ كان المرحوم فتحى باشا زغلول (٦) متزوجاً شقيقة نسيم باشا .

* * *

وعلى أثر استقالة توفيق نسيم باشا ظلت البلاد بلا حكومة . وتردد فى الأوساط السياسية أن جلالة ا لملك سوف يعهد إلى عدلى يكن باشا فى تأليف الوزارة الجديدة بناء على رغبة الانجليز وكان عدلى باشا فى هذا الوقت معنياً بتكوين حزب « الأحرار الدستوريين » لمناوأة رجاله للترشيح فى الانتخابات المقبلة ضد مرّشحى الوفد فى ظل أحكام الدستور المزمع اصداره، ولم يكن قد أعُلن عنه بعد .

وقد أثارت هذه الاشاعة الكثير من الأقاويل . وأرجف فيها الناس ولغطوا ، إذ كانت تُعتبر لطمة للقضية الوطنية ، ولكفاح رجال الوفد منذ أبريل ١٩٢١ . كما عادت حركة الاغتيالات ونشطت مرة أخرى . وألقيت عدة قنابل على مركز القيادة العسكرية البريطانية بحيّ الأزبكية ، كما أعتدى على عدد من الجنود حتى ظنّ الناس أن شبح أيام ثورة ١٩١٩ سوف يطلّ برأسه من جديد !

وفى ١٣ فبراير ١٩٢٣ رأينا أن ندعو الشعب إلى إجتماع كبير ، عقدناه بحيّ العباسية . وقد أمته الآلاف (٧) وقد اشتركت مع إخوانى فى استقبال الوفود ، وألقيت فى هذا الاجتماع الخطب السياسية . وكان أغلبها يدور حول « مسألة السودان » وعن وحدة وادى النيل ، وضرورة الافراج عن سعد باشا وزملائه المنفيين ، والعفو عن المحكوم عليهم ، والغاء الأحكام العرفية . والرقابة على الصحف ، واطلاق الحريات العامة . وقد ألقى كلمة الوفد الأستاذ محمد نجيب الغرابلى .

وفى ١٩ فبراير رأينا توجيه نداء إلى جماهير الشعب نستثير فيها نخوتها وندعوها إلى المثابرة على الجهاد ، وكانت عباراته شديدة اللهجة وجاء فيه :

« أيها المصريون »

« يحاول الانجليز بكل ما يملكون من وسيلة أن يخنقوا »
« حريتكم . ويسلبوكم حقكم . أو يحملوكم على النزول عنه »
« وقد رأيتم منذ قيام نهضتكم المباركة . كيف »
« استبدّوا فيكم . وداسوا كرامتكم فلا نفساً اذلوا ، »
« ولا مطمعاً أدركوا . ولا عن حق نزلتم . ولا فى »
« جهادكم مللتم . وقد تجلّى فشل سياستهم . »
« وباءت محاولاتهم بخيْبة لم تعد خافية ، حتى على أنباء »
« وطنهم فى بلادهم . ولكن المستعمرين لا يريدون على »
« ما يظهر أن يسمعوا أو يتعلموا . وهم اليوم يتدخّلون »
« لينصبوا « عدلى » رئيس وزارة تحكمكم . وتجدد »
«آلامكم . وقد خبروا « عدلى » فكان عند حسن »
« ظنّهم به . ينفّذ رغباتهم ، ويشقّ وحدتكم .

ـ « عدلى » الذى أطلق الرصاص ـ أيام وزارته المشئومة ـ على مظاهراتكم السلمية البريئة فى مصر ، والاسكندرية ، وأسيوط ، وجرجا .

ـ عدلى » الذى سافر للمفاوضات الرسمية ـ رغم إجماعكم وبالاستناد إلى حراب خصومكم .

ـ « عدلى » وأصحابه الذين ضربوا عليكم « الحماية » فى ثوب الاستقلال .

أولئك الذين لم يعتبروا نفى الرئيس وزعمائكم الأوفياء عملاً من أعمال الظلم والقمع . إنما اعتبروه ضروريا ـ ومرغوبا فيه ، توطئة لازمة لمجهود آخر فى سبيل تنفيذ السياسة الاستعمارية . والذين لم تر البلاد فى تاريخها الحديث ما رأته فى أيامهم من الويل والشقاء!

يريد الانجليز أن ينصبوا « عدلى» رئيس وزارة من جديد . رغم أنوفكم ، ورغم ما تحملونه من الذكريات المؤلمات، ورغم اجماعكم على ألا وزارة مادامت الأحكام العرفية مبسوطة على البلاد ، وما دام سعد وأصحاب سعد ، فى المنفى والسجون . ومادام الانجليز متشبثين بنزع النصوص الخاصة «بالسودان » فى الدستور .

هذه أولى مطالب الأمة . وتلك مطامع الانجليز .

هذه حالة سيئة ستقابلونها بثباتكم ، ووقوفكم فى وجهها ، واحتجاجكم بكل ما تملكون من الوسائل الشرعية :

أولا ـ على تدخل الانجليز فى تشكيل وزارتكم .

ثانيا ـ على عدم تحقيق مطالبكم .

ثالثا ـ على محاولة اعادة « عدلى » إلى الوزارة .

أيها المصريون

قوّوا حقوقكم . وشدّوا عزائمكم . وثابروا فى جهادكم . وابسموا للخطوب .

واذكروا « أن فى ميدان الضحايا والمجد متسعاً للجميع ». لتحي «مصر» و السودان» .

وليحى سعد !

وقد وقعّه من أعضاء الوفد : « المصرى السعدى » . « حسين القصبى » . « فخرى عبد النور » . « محمود حلمى اسماعيل » . « محمد نجيب الغرابلى » . « راغب اسكندر » .

ومما هو جدير بالذكر أن ذكر « السودان » باعتباره جزء لا يتجزأ من الوطن بجوار «مصر » أثار اهتمام الناس . إذ لم يسبق من قبل الاشارة إلى قضيته فى أى نداء من نداءات الوفد .

* * *

ولم يكد هذا النداء يُذاع على الملأ حتى فقدت السلطة العسكرية صوابها ورأت أن ترد عليه بأن أمرت باغلاق « بيت الأمة » ، ومنع كافة الاجتماعات التى كانت تعقد فيه .

ففى صبيحة يوم الثلاثاء ٢٠ فبراير توجّهت قوة كبيرة من رجال البوليس وأحاطت بمنزل سعد باشا من جميع الجهات . وكان على رأس هذه القوة المستر « أبلت » ، مساعد حكمدار القاهرة ، ثم حاصروا البيت ودخلوا مكتب السكرتيرية ، واستولوا على كل ما وجدوه من الأوراق والجرائد . كما دخلوا مكتب سعد باشا أيضا ، وفتّشوه تفتيشاً دقيقا .

ومما يُذكر أن المغفور له سعيد بك زغلول ـ ابن أخت سعد باشا ـ والأستاذ أمين بك يوسف المحامى وأفراد أسرته ، كانوا يقيمون فى المنزل . فأمرتهم القّوة باخلائه فوراً . ولم تمهلهم الا وقتاً قصيرا ، لنقل أمتعتهم الشخصية وملابسهم . وبعد مغادرة الجميع ، وُضعت الأختام على أبواب البيت ، ومنعت السلطة الناس من الاقتراب منه ، وقد فهمنا من هذا الاجراء أن السُلطة العسكرية لم تتنازل عن غرورها وصلفها . فقرّرنا الرد عليها فورا ، بالانتقال إلى بيت « المصرى السعدى بك » بحىّ المنيرة . وما أن عرف الناس ذلك حتى وفدت إليه الوفود ، من أحياء القاهرة والأقاليم . وكان السعدى بك رجلا شهما كريما . فسمح لنا بعقد جميع اجتماعاتنا بداره وكان يزورنا فيه أنصار الوفد. كما أن سكرتارية الوفد انتقلت إليه بكامل هيئتها وأضحت « دار السعدى بك » كأنها « بيت الأمة » الجديد . . !

وقد أغاظ هذا التدبير الانجليز ، كما تكرّرت حوادث الاعتداءات فى الشوارع عليهم . فتلقينا ، ونحن مجتمعون فى الدار عقب إغلاق بيت الأمة خطاباً من السلطة العسكرية يدعونا للذهاب إلى ثكنات قصر النيل . فذهبنا إلى هناك وعلى رأسنا المصرى بك والسيد حسين القصبى والاميرالاى محمود حلمى اسماعيل والأستاذ راغب اسكندر . فأحاط بنا الجنود وأدخلونا على الحاكم العسكرى المسئول عن الأمن فى مدينة القاهرة . فوقفنا ، وخلفنا الجنود بالبنادق . وكان الحاكم جالسا ، وبجواره مستر « كوين بويد » ، فتلا

الحاكم العسكرى إنذارا باللغة الانجليزية . ثم قرأ علينا مستر « كوين بويد » ترجمته بالعربية ، ومقتضاه أننا مسئولون أمام السلطة العسكرية عن أى حادث يقع مستقبلا . فاحتججنا على ذلك إحتجاجا شديداً غير أنه لم يُسمع لنا احتجاج . وأضاف المستر «بويد» أن بمصر طغمة من الأشخاص ، تنتهز فرصة الاضطراب السياسى لقتل الانجليز. وأنتم بالنداء الذى أصدرتموه يومى ١٩و٢٠ الجارى قد هيأتم الفرصة المذكورة مرّة أخرى وبناء على ذلك فانكم مسئولون شخصيا عن أى حادث أو اضراب أو اعتداء يقع على حياة أى شخص من الجنود البريطانيين ، أو المدنيين . أو الأجانب . وأن السلطة العسكرية سوف تتخذ أشد الاجراءات حيالنا وتعتبرنا شركاء بالتحريض على إرتكاب مثل هذه الجرائم . وقد تُصادر أملاكنا بعد احالتنا على المحاكم العسكرية .

وبعد أن انتهى من تلاوة هذا الانذار ، وقف الحاكم العسكرى وأمرنا بالانصراف .

وبعد عودتنا لمنزل المصرى بك ، علمنا أن عبد الستار الباسل بك قد اعتقل فى بلدته فى الفيوم . وكذلك فإن الدكتور « محجوب ثابت » قد قُبض عليه بعد تفتيش منزله وعيادته . وأنهم ضبطوا بعض الأوراق ، والمنشورات ، وأخذوا عددا من السيوف القديمة من مخلّفات والده ثم أرسلوه مخفورا إلى معتقل قصر النيل ، وبعد استبقائهما أياماً قليلة تم ترحيلهما إلى معتقل « المحاريق » بالواحات قرب أسيوط .

وبتنا على يقين أن دورنا فى الاعتقال ـ مرة أخرى ـ سوف يجيء طال الوقت أو قصر !

هوامش الفصل الثانى والعشرون

(١) تذكر الوثائق أن الاجتماع المذكور قد عقد فى فناء مدرسة وادى النيل الثانوية فى المنيرة وأن عدد الحضور ناف عن السبعة آلاف F. o. 407/195 No. 107.

(٢) بمناسبة اطلاق سراح صاحب المذكرات تضمن التقرير البريطانى الذى ساق الخبر ترجمة له جاء فيها « فخرى بك عبد النور قبطى من أعيان جرجا من الطبقة الثالثة من الوفد التى تكونت فى يوليو ١٩٢٢ لدى اعتقال اعضاء الوفد القديم . وهو على العموم أحد رجال الجناح المتطرف من الوفد . . أصدر فى أوائل يناير ١٩٢٢ بيانا فى الصحف بعنوان « العهد الوطنى » تعهد فيه هو وسائر الموقعين عليه مقاومة أى وزارة وعدم قبول أى مفاوضات مع الحكومة البريطانية قد نص أى تعاون مع الانجليز ومقاطعة البضائع الانجليزية طالما بقى زغلول وصحبه فى المنفى وطالما بقيت الاحكام العسكرية قائمة » F. o. 407/195 No. 100.

(٣) صدر العدد الأول من جريدة البلاغ يوم الاحد ٢٨ يناير ١٩٢٣ وكان صاحبها ورئيس تحريرها عبد القادر حمزة مدير تحرير جريدة الاهالى الصحيفة الوفدية التى كان قد سبق تعطلها لستة شهور ولما عادت للصدور عطلت مرة أخرى بعد ثلاثة ايام وقد جاء فى صدر أولى اعدادها برقية ارسلها لها سعد زغلول من جبل طارق جاء فيها ارحب بالصحيفة الجديدة التى جاءت لتملأ الفراغ الذى تركته الاهالى ولتستمر فى نضالها الذى بدأته لنصرة الحق » F. o. 407/196 No. 8.

(٤) لعب دورًا خطيرا كرجل الملك بعد استقالة وزارة الشعب (١٩٢٤)أثناء وزارة زيور وتأليف حزب الاتحاد (١٩٢٥) تدخل الانجليز لابعاده فاشتغل فى السلك الدبلوماسى ممثلاً لمصر فى مدريد ثم طهران فبرلين ثم لندن . . .

(٥) من أهمها اغتيال المسترهاتون بسكك حديد مصر والضابط ستيل والجندى كرشو والمستر هوبكنز والكابتن جوردون والبكباش كيف والكولونل بيجوث وأخيرا المستر روبسون بالاضافة إلى محاولات اغتيال عديدة .

(٦) شقيق سعد زغلول .

(٧) يقدرهم التقرير البريطانى بأربعة آلاف نسمة ودام الاجتماع لساعة ونصف

F. o. 407/196 No. 107.

الفصل الثالث والعشرون

حيلة جديدة لضرب الحركة الوطنية ـ البريطانيون يبشّرون بضرورة الاتحاد مع « العدليين » قبل الدخول فى الانتخابات ـ رفض االوفد هذه الفكرة ـ اعتقال جميع أعضاء الوفد ـ تعطيل جريدة البلاغ ـ قيام هيئة جديدة برئاسة حسن حسيب باشا ـ يحيى ابراهيم يؤلف الوزارة فى ١٥ مارس ١٩٢٣ ـ الوزارة الجديدة تسعى إلى الافراج عن الزعماء الوطنيين ـ بقائى ثلاثة أشهر فى السجون والمعتقلات ـ محاولة تقديمى للمحاكمة العسكرية وبراءتى من جميع التهم .

* * *

وإذ أدركت « دار المعتمد البريطانى » أن سياسة القمع لن يجديها نفعا ، شرعت فى تدبير ما كر لضرب الحركة القومية تحت ستار « الوحدة المقدسة » فأوعزت لرجال عدلى باشا وأنصاره الاعضاء فى حزب الأحرار الدستوريين ، بالدعوة إلى ضرورة توحيد الصفوف قبل الدخول فى الانتخابات ، لكى يأتلف المختلفون ويقتسموا فيما بينهم الدوائر الانتخابية ، والمقاعد الوزارية حتى إذا ما تمّ ذلك تفتح أبواب السجون والمعتقلات ، ويعود المنفيون بسلام . لكن قناع الخديعة كان شفافا ، فلم يقو على اخفاء حقيقة هذه الحيلة التى كان من شأنها انتزاع اعتراف الوفد بتصريح « ٢٨ فبراير ١٩٢٢ » ، واعتباره المطلب الأسمى الذى تسعى اليه الأمة ، فضلاً عن اظهار وكلاء الأمة الأوفياء ، الذين جاهدوا فى سبيل تحقيق هذا المطلب ، كما لو كانوا زمرة من الوصوليين ، طلاّب المناصب والمقاعد البرلمانية !

وكان من أشد خصوم هذه الفكرة الأستاذ صادق حنين ، وكان من ذوى الرأى الصائب ، فدعوناه لابداء رأيه فى جلسة خاصة عقدها الوفد لحسم الموضوع . إذ كانت الصحف وكبار الكتّاب الوفديين غير متفقين فيما بينهم على قبول الفكرة أو رفضها ، فمنهم من كان يرى أن الاتفاق مع « العدليين » سوف يجنّب البلاد كثيرا من المكاره ، وأن عودة سعد باشا وزملائه من المنفى والافراج عن المعتقلين ، سوف تكون من ثمار هذه الدعوة « المعتدلة » . بينما وقف الآخرون منها موقف المعارضة الشديدة . وكان على رأس هؤلاء الكتاب الأستاذ عبد القادر حمزة الذى نشر سلسلة من المقالات فى جريدته تحت

عنوان « برنامج عدلي باشا » . ندّد فيها بهذا الرأى . وكان مما كتب :

« ان البرهان على صفاء النية ، وعلى أن الاتحاد مقصود لذاته ـ لا لتأليف الوزارة ـ هو أن يعود إلى مصر المنفيون يفرج عن المسجونين والمعتقلين السياسيين . قبل تأليف أية وزارة» .

وفى أثناء اجتماعنا عرض علينا الأستاذ صادق رأيه مؤيدا بكثير من الحجج المقنعة ، وتناولنا الموضوع من كافة جوانبه السياسية والوطنية بل والأخلاقية . فأجمع الوفد على رفض الفكرة بتاتا . ورأينا تهدئة للخواطر أن نصدر بيانا نعرب فيه عن رأى الوفد فى الفكرة ، وأسباب رفضها . وقد وقّعناه جميعا كما وقعه معنا الأستاذ عبد الحليم البيلى . وصادف أن يكون إصدار هذا البيان فى الثامن والعشرين من فبراير ١٩٢٣ ، وهو تاريخ اعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ـ المشئوم ـ وهاكم نص البيان :

« فى مثل هذا اليوم من العام الماضى ـ وبعد أن مُهّد بنفى الزعيم وصحبه المخلصين حاولت السياسة الانجليزية بالتصريح لمصر استدراج البلاد لقبول « الحماية « فى ثوب » «الاستقلال » الذى تنشده . ولكنها باءت بالفشل . ولم تُثمر التجربة سوى تقوية عناصر المقاومة المشروعة واستهانة الشعب بما يصيبه من الالآم فى سبيل حريته . واليوم يذيع بعضهم بياناً بشروط يقولون إنها « تضمن للأمة فوق رفع الأحكام العرفية فى الحال ، رفع القيد الخاص بالسودان فى الدستور ، وفك اعتقال المعتقلين والافراج عن « المبعدين » «والمسجونين والسياسيين » .

وأن تحقيق تلك الشروط مُعلّق على رضاء الأمة ، وانتهوا بعد ذلك بالدعوة إلى «الاتحاد» . « والمطالبة الضمنية » « بالثقة » بالوزارة ، التى تتألف على هذا الأساس .

لم يكن الوفد ضنينا ـ فى وقت من الأوقات ـ بثقة لمن يستحقونها بما قدّمت أيديهم ، وكانوا للوطن مخلصين . وقد فتح صدره ـ ولازال فاتحاً له ـ ليعود إلى صفوف الأمة كل الذين خرجوا منها ليتمّ اتحادها . فتقوى عزيمتها . وتحترم إرادتها . فليس بغير الاتحاد سبيل إلى استخلاص حقوقها كاملة من يد الغاصبين .

ولكن الأمة تأبى أن تتقدم بثقتها لمن لم يحفلوا بارادتها . ومن جربّتهم فكانوا عليها ، لا لها .

أولئك الذين عودوها حسن القول وسوء العمل .

على أن الوفد وهو المعبّر عن إرادة الأمة والذى لم يجعل للشخصيات محلاً للاعتبار فى خططه ، لا يستطيع أن يرضى عن تشكيل وزارة قبل التحقيق الفعلى للمطلبين الآتيين :

١ ـ رفع الأحكام العرفية ، مع عدم المساس بأى حق من حقوق البلاد .

٢ ـ عودة الرئيس الجليل سعد وصحبه الأوفياء . والافراج عن أعضاء الوفد المصرى ، وسائر المبعدين والمعتقلين والمسجونين السياسيين .

وأن يكون من أهم أغراضها العمل على إصدار دستور يكون وليد ارادة الأمة ، شاملا للنص على « أن السودان جزء لا يتجزأ من الأراضى المصرية » ، خاضع مثل مصر لتاج مليكها .

تلك شروط تشترطها الأمة ، لا تقصد بها تعجيزاً ولا تفريقاً . . وانما تريد بها حماية البلاد من الوقوع مرة أخرى فى حبائل سياسة المستعمرين !

ولم تمض ساعات قليلة على إذاعة هذا البيان ونَشْره فى صحف الوفد حتى أنزل البريطانيون جامات غضبهم على رجاله وأنصاره فشرعوا فى اعتقال صادق بك حنين باعتباره المسئول عن فكرة رفض توحيد الصفوف ، ثم اعتقل الأستاذ عبد القادر حمزة ـ صاحب البلاغ ـ لنشره بيان الوفد ، وتعطيل صحيفته عن الظهور ، وفى يومى الخامس والسادس من شهر مارس ١٩٢٣ تم اعتقال جميع أعضاء الوفد ـ من الطبقة الثالثة ـ الذين وقّعوا على البيان [1] . وتم ايداعنا فى ثكنات قصر النيل . ومن المفارقات أننى كنت قد بارحتها فى ٣ فبراير ، أى أن فترة استمتاعى بالحرية لم تتجاوز شهراً ويومين ، عدت بعدها الى الاعتقال ثانية .

وفى اليوم السابق على إذاعة بيان الوفد ألقيت قنبلة بشارع « نوبار » قريبا من سبيل «الوالدة باشا » ، المقابل لمسجد « أولاد عنان » بحى الأزبكية . فجرحت خمسة من الجنود البريطانيين وتمكن الجناة من الافلات . ولم تفلح المحاولات التى بذلها رجال الحكمدارية للعثور عليهم . بالرغم من تفتيش العشرات من المنازل ، وقد أقفلت بعض الشوارع المؤدية لمحطة مصر بسبب الحادث . وتعطّلت حركة السفر ، منها وإليها .

ثم علمنا بعد إعتقالنا ـ اننا سنُقدّم إلى المحاكمة أمام محكمة عسكرية بتهمة التحريض على ارتكاب هذا الحادث ، وغيره من حوادث الاعتداءات على البريطانيين . وأصدر الحاكم العسكرى أمرا بتعيين أعضاء هذه المحكمة وقد عُهد إلى المستر « ماكسويل » ـ

الذى كان مدّعيا عموميا فى قضية حمد الباسل واخوانه ـ أن يكون نائب الاحكام فى القضية ضدنا . وأن مصيرنا سوف يكون مصير زملائنا الذين صدرت أحكام ضدهم فى أغسطس ١٩٢٢ ، أى الاعدام ، وقد تصادر أملاكنا أيضا . فبعثنا إلى أسرنا لكى تأخذ أهبتها . وكان الانذار الذى تلاه علينا المستر « كوين بويد » فى ٢٦ فبراير يفيد هذا المعنى .

وفى هذه الأيام كانت السلطة العسكرية تجرى التحقيق فى قضية الأستاذ الشافعى البنّا وزملائه . وكانت الأستاذ الشافعى من طُلّاب الأزهر الشريف وقريب الصلة بالشيخ مصطفى القاياتى ، إذ كان يحضر حلقات الدروس الدينية التى يُلقيها هناك ، وكان اسمى يذكر يوميا فى التحقيقات . فاستدعونى لمواجهة شاهد الملك ـ زكى حنفى المغربى ـ فأخذ يسرد وقائع ملفّقة . ويقول انه جاء إلى منزلى بالعباسية أكثر من مرة . وأننى أعطيته سلاحا ومالا وكنت أحّرضه على ارتكاب اعتداءات على الانجليز . وأنه اعتدى هو والشافعى البنا ومحمد أمين ومحمد عبد الخالق عليهم أكثر من مرة ، مع أن هذه التهم كانت قد حقّقت بواسطة الأستاذ محمد عبد الهادى الجندى بك ، وقد ثبت كذبها ، كما سبق أن أخبرنى المستر « انجرام » والمستر « كوين بويد » .

غير أن السلطة العسكرية أوعزت باعادة التحقيق فى هذه القضية وتلفيق اتهام لى ، فكنت أستُحضر يوميا من ثُكنات قصر النيل إلى محكمة مصر بباب الخلق ، ولما امتد التحقيق ـ أياما ـ دون أن يثبت ضدى أى شىء أبيت فى أحد الأيام النزول من غرفتى فى ثكنة قصر النيل وكانت فى الطابق الثالث ، وقلت اننى مريض وحالتى الصحية لا تسمح لى بمغادرة المكان خوفا من اشتداد المرض علّى ، فحضر أحد الأطباء الانجليز ومعه مستر جونز ـ مدير متجر الأسمنت الآن ـ فصرخت فى وجهه : ماذا تريدون منى وأنا برىء مما تحاولون تلفيقه ضدى من تهم ؟ وأضفت : أين عدلكم أيها الانجليز ؟ وكيف يشترك رجل من رجال القانون مثلك فى مثل هذا التلفيق الرخيص ؟ فسكت ثم عاد فقال انك تدّعى المرض لكى تعطل التحقيق . غير أنه سوف يتم فى غيابك فى جميع الأحوال وهذا الأمر ليس فى صالحك ، وسوف تثبت التهمة ضدك أن لم تحضر ، واننى انصحك بالحضور إلا واننى صممت على عدم النزول ، وبقيت فى حجرتى .

* * *

ومما أثلج صدورنا ونحن فى المعتقل ما نمى إلى علمنا من أن هيئة جديدة من الوفد قد تألفت لحمل العلم بعد أن تم اعتقالنا ، برياسة اللواء حسن حسيب باشا وكان عائدا

لتّوه من « لوزان » بسويسرا حيث عقد مؤتمر لدول الحلفاء مع ممثلى الحكومة التركية . بعد قيام حركة مصطفى كمال ، لتقرير مصير الشعوب التى انفصلت عن الامبراطورية العثمانية عقب هزيمة الأتراك ، والحرب العالمية ، وكان سعد باشا قد رأى ايفاده للمؤتمر مع الأستاذ سلامة ميخائيل لشرح وجهة نظر مصر ، والمطالبة باستقلالها استقلالا كاملا عن أية وصاية أو ولاية . الا أن الحكومة الانجليزية ـ حالت دون اشتراكهما فى هذا المؤتمر أو السماح لهما بعرض هذا الرأى ، بدعوى أن مصر قد استقلّت فعلا ، بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . . (!) وبالتالى فإن حضورهما المؤتمر أصبح غير ضرورى .

وقد اشترك مع حسيب باشا فى هذه الهيئة الجديدة كل من حسين هلال بك ، وعطا عفيفى بك ، وعبد الحليم البيلى بك ، والشيخ مصطفى بكير وابراهيم راتب بك . كما كان سلامة ميخائيل بك يوّقع البيانات التى تصدرها هذه الهيئة التى عرفت « بالطبقة الرابعة » للوفد ، حيث كان قد تخلّف خلال شهر فبراير بالنمسا ، وعاد إلى مصر فى شهر أبريل بعد أن حضر اجتماعا للطلبة المصريين هناك بمدينة « انسبروك » .

وقد أدرك « اللورد اللنبى » بعد قيام هذه الهيئة الجديدة ، أنه كمن كان ينفخ فى « قربة مقطوعة » (!) كلّما أمعن فى التنكيل بطبقة من الوفد ، قامت طبقة أخرى محلها ، وأن ، « ميدان الضحايا » قد أفسح صدره لكل وطنى مخلص يريد أن يفدى الوطن . . كما أدركت الحكومة البريطانية فى لندرة أن سياسة رجلها فى مصر لم تحقق النجاح الذى كان يتوقع منها وانتهى الأمر إلى أنها عادت تعيد حساباتها ، على أساس أن تفتح صفحة جديدة فى تعاملها مع رجال الوفد ، باعتباره الهيئة الوحيدة التى تمثل الشعب ، بسعيها لتحقيق أمانية بكافة الوسائل المشروعة وأنه ما من فائدة من التعامل مع غيرهم ، من غير الحائزين على ثقتها أو رضاها !

وكان من نتائج هذه السياسة الجديدة أن طلب « اللورد اللنبى » من الملك فؤاد أن يعهد إلى أحد رجال القضاء تأليف الوزارة ـ بعد أن بقيت البلاد بلا حكومة أكثر من شهر ـ فكان التفكير فى « يحيى ابراهيم باشا » إذ كان رئيسا لمحكمة الاستئناف مدة طويلة ، وقد اشتهر بالنزاهة والاستقامة ، وطيبة القلب . فضلاً عن أنه كان بعيدا عن الاشتغال بالسياسة ، وكان يتّولى منصب وزارة المعارف فى وزارة توفيق نسيم باشا المستقيلة .

وفى ١٥ مارس صدر المرسوم بتشكيل هذه الوزارة ، وقد اشترك معه فيها عدد من الوزراء الاداريين ، الذين لم يُعرف عنهم الاهتمام بالأمور السياسية ، وكان من أبرز

أعضائها « أحمد حشمت باشا » الذى تولّى وزارة الخارجية ، ومحمد توفيق رفعت باشا وقد تقلّد منصب وزارة المعارف .

وقد لوحظ فى تشكيل هذه الوزارة أن محمود فخرى باشا ـ وزير الخارجية ـ فى وزارة نسيم باشا ـ قد أستبعد منها بسبب تعاطفه مع الوفد ، كذلك يوسف سليمان باشا ـ الذى كان عضوا فى وفد مفاوضات عدلى باشا يكن بلندرة سنة ١٩٢١ .

ومما أذكره أنه على أثر تأليف هذه الوزارة ، طلب الدكتور نجيب اسكندر الاذن بزيارتى للكشف على ، بناء على طلب أسرتى ، وقد أسرّ إلى أثناء الزيارة بأنه علم من عائلة يحيى باشا ابراهيم ـ وهو طبيبها الخاص ـ أن رئيس الوزراء الجديد اشترط لقبوله الوزارة أن يُفرج عنا جميعا . وبالفعل لم تكد تنقضى أيام قليلة على هذه الزيارة ، حتى أبلغ أعضاء الوفد المعتقلين فى قصر النيل بأن هذا الافراج قد تقرر للجميع ـ فيما عداى ـ بزعم أننى متهم فى قضية جنائية لم يتم التصرف فيها بعد ، بمعرفة النيابة العمومية . .

وكم تأثر زملائى الذين كانوا فى المعتقل وهم يتركوننى فى وحشة المعتقل وحدى ويخرجون هم إلى حيث يستنشقون نسيم الحرية . . . !

وفى هذه الأثناء كانت المحكمة العسكرية تُعقد لمحاكمة الشافعى البنا وزملائه وكان اسمى يذكر يوميا فيها ، وبينما أنا جالس فى المعتقل إذا بالأستاذ توفيق دوس بك يحضر وكان مما قاله لى : إلى متى يستمر اندفاعك ؟ انى أضمن لك الافراج عنك بشرط أن تُعلن أنك طلقت السياسة ، فقلت له هذا لا يمكن مهما تكن النتائج .

وفى اليوم التالى حضر إلى « مستر ديلينى » مراسل شركة ـ رويتر للأنباء ـ وتحدّث إلى فى هذا الشأن فلم يجد أية فائدة .

وقد تلقيت وأنا فى المعتقل عدة خطابات منها خطاب من الأستاذ عبد القادر حمزة وآخر من صادق حنين بك ، وقد أبلغانى أنهما سمعا من مستر « كار » أنه لابد من تقديمى إلى المحاكمة العسكرية بتهمة التعدّى والتحريض .

وفى يوم ٣ مايو حضر أحد الضباط ونقلنى إلى « سجن الأجانب » وعلمت ساعة دخلت فيه أنه ملآن بالمعتقلين ومنهم الأستاذ محمد أبو شادى بك والأستاذ عبد الحليم البيلى ، والأستاذ محمود فهمى النقراشى ، والأستاذ راغب اسكندر ، وعبد الغنى سليم عبده بك . ففى الليل استطعت التسلل وقابلت الأستاذ راغب اسكندر فى غرفته وعلمت

منه أن هناك قضية مؤامرة أخرى تحاك لنا . وفى أثناء الحديث جاء أحد الجنود ، وحذرنى من الخروج من الحجرة .

وقد قضيت فى هذا السجن أياما صعبة . وقد أخبرنى هذا الجندى أن « انجرام » يحضر إلى السجن كثيرا . وأنه أحضر زكى حنفى المغربى ليحتك بى .

وبعد ذلك انحرفت صحتى فحضر طبيب المحافظة لعيادتى واسمه الدكتور « رحمت» فلمّا فحصنى أشار بنقلى إلى المستشفى ، ولكن السلطة العسكرية رفضت نقلى . ثم نقلونى إلى سجن مصر « قره ميدان » وفى يوم وصولى إليه أدخلونى إلى « زنزانة » قضيت فيها بقية النهار وطول الليل على حصير « برش » ، ثم نقلونى إلى عنبر كبير ملآن بالمسجونين . فغضبت لذلك ، ولمّا حضر أحد الأطباء وهو الدكتور « فكرى » لفحصى وجد أن حالتى تستدعى البقاء فى حجرة الأمراض المعدية ، فنُقلت إلى الحجرة التى كان فيها « عبد الرحمن بك فهمى » [٢] والتى مرّ بها أيضا « الأستاذ واصف غالى بك . ، وجورج خياط بك » ، وقد بقيت فيها ٣٥ يوما . وأحضر إلى السجن أثناء هذه المدة الشيخ مصطفى القاياتى ، وقد طلبنا أن يعطونا ملاءة فرش ومرتبة فلم يقبلوا .

ومما يذكر أنى لم أستحم طوال هذه المدة ، كما أنى أطلقت لحيتى ، لقذارة الحلاّق . وقد قابلت فى هذه المدة الأستاذ الجديلى ، والأستاذ عبد الحليم عابدين ، والأستاذ محمد يوسف ، والأستاذ حسنى الشنتناوى وهم من المحكوم عليهم فى قضية عبد الرحمن فهمى بك ، وسمح لاولادى بزيارتى فزارونى .

وجاءنى مستر « انجرام » وشرع يهددنى بمختلف صنوف التهديد وهو يقول اما لك أن تقول ؟ فقلت ماذا أقول ؟ فأخرج من جيبه ورقة وأخذ يتلو ما كتب فيها وهو تصريح صادر له من اللورد اللنبى بأن يفعل فى الشيخ مصطفى القاياتى وفخرى عبد النور ما يشاء، فقلت له وماذا تريد ألسنا فى السجن ؟ ولم يكن أمامى فى هذه الأثناء إلا المُصحف والانجيل فأمسكت بهما وقلت لانجرام : هذان فيهما العبر وفى تلاوتهما عزاء للمظلومين . . .

وحضر الأستاذ توفيق دوس بك لزيارة موكّله توفيق بك العرب أحد المسجونين فى قضية الشافعى البنا فمرّ على غرفتى . وأبلغنى أنه توجد قضية « مؤامرة كبرى » أنا أحد المتهمين فيها . ونصحنى بالمبادرة إلى توكيل محام انجليزى عنى . فاحتلت حتى أخرجت

خطابا إلى عائلتى أبلغتهم فيه هذا النبأ . فوكّلوا مستر « سيلى » المحامى وسلّموا الأستاذ توفيق دوس بك ثلثمائة جنيه ليسلمها له كمقدم أتعاب . ولكن لم يمض أسبوعان (فى أوائل يونيو) حتى تكلم توفيق دوس بك مع منزلى تليفونيا طالبا أن يحضر إليه وكيل أشغالى فلما ذهب إليه سلمه مبلغ الثلثمائة جنيه وأبلغه أن القضية ستُحفظ ، ولا داعى لتوكيل محام .

وقد ساورت عائلتى الوساوس اثر هذا إذ ظّنت أن إعادة المبلغ والنصح بعدم توكيل محام ، معناه أن المسألة صار ميئوسا منها .

وفى يوم الأحد ١٠ يونيو زارتنى عائلتى فى السجن وأبرزوا قصاصة من جريدة « وادى النيل » وفيها تلغراف من لندن يتضمن أن سؤالا وجّه فى مجلس العموم البريطانى عما تم فى التهم الموجهة إلى وعن سبب بقائى فى السجن طوال هذه المدة وأن وكيل وزارة الخارجية الانجليزية رد على هذا السؤال بأن التحقيق لم يُسفر عن شىء .

وقبل هذه الزيارة بيوم كان قد حضر لفحصى الطبيب الانجليزى المعروف الدكتور «فيليبس » فأشار باعادتى إلى سجن الأجانب . فبينما كانت العائلة عندى جاء الأمر بنقلى إلى هذا السجن ، فنقلت إليه فى اليوم نفسه .

وحوالى الظهر استدعيت إلى وزارة الداخلية فذهبت إلى هناك حوالى الساعة الواحدة . وقابلت مستر « ريدر » و « مستر انجرام » الذى أخذ يسألنى أسئلة عديدة ويوّجه إلى تهما كثيرة معظمها خاص بالاعتداء على الانجليز ، ومنها عن بلاغ من مدير جرجا عبد العزيز يحيى يتهمنى بأنى منذ عامين (سنة ١٩٢٠) حرّضت على الاعتداء على « لورد اللنبى » عند زيارته لمعبد « أبيدوس » بالعرابة المدفونة . ولى أملاك تجاور هذا المعبد .

واستمر مستر « انجرام » يوجه الأسئلة بسرعة غريبة . وأنا أجيب عليها نافيا بشدة كل ما نسب إلى . وبعد نحو أربع ساعات قال لى : « يظهر أنك مظلوم » . وطلب مشروبا غازيا لى (وكان قد مضى على حوالى عام لم أشربها بسبب توالى اعتقالى وسجنى) .

وطلبتُ اعادتى إلى سجن مصر (قره ميدان) لأقضى فيه أيام اعتقالى . فأجبت إلى هذا الطلب . وخوبرت إدارة هذا السجن لنقلى فتبيّن أن السجن أقفل لحلول الغروب ، ولا يجوز دخول أحد فيه فى الليل فأعدت إلى سجن الأجانب بعد أن صرّح لى مستر «انجرام » بأن أتصل أمامه بعائلتى تليفونيا . إلا أنه اشترط على أن لا أقول لهم أين أنا .

ولمّا عدتُ إلى سجن الأجانب وجدت فيه الذين كانوا قد نُفوا إلى المحاريق « في الواحات » وهم الأستاذ محمود بسيوني بك . والدكتور محجوب ثابت . وعبد الستار الباسل بك ، واليوزباشي حمدي الرشيدي ، والأستاذ حسن يس ، وكانوا قد اعتقلوا يوم دعونا إلى قصر النيل بأمر الحاكم العسكري الانجليزي وفي صباح اليوم التالي (١١ يونيو) استيقظت من النوم فوجدتهم فصحت بصوت عال « فرج الله قريب » .

وفي ظهر ذلك اليوم ، أي يوم الأثنين ١١ يونيو ، جاء إلى أحد الضبّاط وطلب إلى أن أصحبه إلى وزارة الداخلية لأني استدعيت إليها ، فذهبت معه وأدخلت إلى الحجرة التي أدخلت إليها في المرة السابقة ، وفيها أبلغت نبأ الإفراج عني وبقيت حتى تمت الاجراءات ثم خرجت[٣] وهكذا انتهى اعتقالي بعد أن أمضيت في السجن هذه المرة ثلاثة أشهر وستة أيام (٥ مارس ١٩٢٣ ـ ١١ يونيو ١٩٢٣) .

هوامش الفصل الثالث والعشرون

(١) وهم المصرى السعدى بك ، حسين القصبى ، فخرى بك عبد النور ، محمد حلمى إسماعيل محمد نجيب الغرابلى وراغب اسكندر F. o. 407/195 No. 125 .

(٢) الذى حوكم وحكم عليه فى قضية الانتقام وكان قد نقل وقتذاك إلى سجن الحضرة بالاسكندرية .

(٣) تم الافراج عن فخرى بك عبد النور ضمن عديد ممن استمر اعتقالهم بتهمة الا شتراك فى أعمال الاغتيال من المعتقلين فى الواحات تم الافراج عن كل من د . محجوب ثابت وعبد الستار الباسل ومحمود بسيونى وحسن يس ومن المعتقلين فى القاهرة تم الافراج عن فخرى بك عبد النور وعبد الغنى سليم عبده ومحمود فهمى النقراشى وراغب اسكندر وعبد الحليم البيلى ومحمود ابو شادى F.o. 407/197 No. 17

الفصل الرابع والعشرون

الحكومة البريطانية تتراجع عن موقفها وتقرر تغيير سياستها ـ الافراج عن الزعيم سعد زغلول فى ٢٧ مارس ١٩٢٣ ـ إعلان الدستور ـ العفو عن حمد الباسل وإخوانه ـ الافراج عن منفيّى سيشيل ـ إطلاق سراح جميع المعتقلين فى ثُكنات قصر النيل والمحاريق ـ إلغاء الأحكام العُرفية فى البلاد ـ عودة سعد باشا ـ استقبال مصر لرئيسها استقبال الفاتحين ـ المؤتمرات الوطنية فى طول البلاد وعرضها ـ الوفد يقرر خوض معركة الانتخابات ويفوز ب ٩٠٪ من ثقة الناخبين فى ١٢ يناير ١٩٢٤ ـ بدء العهد الدستورى ـ الاعلان عن الهيئة النهائية للوفد برياسة سعد زغلول باشا وعضوية جميع أبطال « سيشيل » و « المالطة » و « قصر النيل » ـ خاتمة المذكّرات .

* * *

كان من الواضح عندما تّولى يحيى إبراهيم باشا الوزارة ، مبشرّاً بعهد جديد ، بعد أن رزحت البلاد تحت وطأة الوزارات التى تولت الحكم منذ ديسمبر ١٩١٤ ، أن الحكومة البريطانية قد انتهت إلى قرار العدول عن سياسة القمع والتنكيل والارهاب التى فرضتها على المصريين منذ نشوب الحرب العالمية الأولى . والتى كان « اللورد اللنبى من أشد المؤمنين بها ، وأنها سوف تجنح فى تعاملها مع الوطنية المصرية إلى سياسة أكثر اعتدالا .

وكان فاتحة هذا العهد ما قررته حكومة لوندرة فى ٢٧ مارس ١٩٢٣ ، بالافراج عن الزعيم « سعد زغلول » والسماح له بترك منفاه فى جبل طارق » إلى حيث يريد أن يذهب ، والتصريح بسفره ، بعد أن ظلّ يعانى من آلام النفى ، والبعد عن الوطن ، والعزلة [١] ، ما يقرب من ١٤ شهرا (ديسمبر ١٩٢١ ـ مارس ١٩٢٣) .

وقد عرف الناس فى مصر بهذا الخبر من جريدة المقطّم ـ وكان أصحابها قريبى الصلة بدار المعتمد البريطانى بقصر الدوبارة ـ إذ نشرت فى عددها الصادر فى ٣١ مارس ١٩٢٣ أن الحكومة الانجليزية ـ قررت اطلاق سراح سعد زغلول باشا ، والسماح له بترك منفاه فى قلعة « جبل طارق » إلى حيث يريد أن يسافر ، وذلك مراعاة لحالته الصحية .

ومن الطريف أن هذا النبأ نُشر فى ملحق خاص بالجريدة التى ظهرت يوم السبت ٣١مارس ليلا ، بعد أن كانت وزعّت عددها العادى فى الثانية بعد الظهر ، عند خروج

الموظفين من الدواوين الحكومية ، فأقبل الناس على شرائه بعشرات الآلاف . وكان الجمهور يتخاطف الجريدة ويدفع فيها أضعاف ثمنها !

وكان لانتشار هذا الخبر وقع عظيم فى النفوس ، وكان مبشّرا بزوال الكابوس الذى كان جاثما على مصر منذ ١٩١٤ ، والذى اشتدت وطأته بعد نفى زعيمها واخوانه ، والتنكيل بأنصاره تنكيلا لم تعرف البلاد له مثيلا منذ احتلالها فى سبتمبر ١٨٨٢ .

فها هى بريطانيا العظمى ـ بكل هيبتها وسلطانها ـ تتنزل عن كبريائها وتعترف بالرجل الذى حاربته منذ ١٩١٨ ـ باعتباره الزعيم الذى يرمز إلى أمانى المصريين المشروعة فى الحرية والاستقلال ـ بعد أن اضطرت إلى الغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ـ فى تصريح ٢٨ فبراير ـ مع احتفاظها بالنقاط الأربع المعروفة .

وها هو « سعد زغلول » يُفكّ أسره حتى يعود إلى الكفاح فى سبيل الغاء هذه التحفظات ويجعل من هذا الاستقلال حقيقة واقعة ، ومن الحرية حقاً طبيعياً للمصريين جميعا ، بعد سنوات طويلة من العبودية والقهر .

حقاً ، لقد فرحت مصر بالنبأ ، كما لم تفرح من قبل ، وباتت ترقب ما يخبئه لها القدر من أحداث ، فى استبشار وغبطة .

وقد عرفنا بالافراج عن سعد باشا ـ إذ دُسّ لنا عدد جريدة المقطم ـ وكنا ممنوعين من قراءة الصحف ـ مع الطعام الذى كان المعتقلون من رجال الوفد يتلقونه من أسرهم من الخارج . وأذكر أن زوجتى[٢] ـ رحمها الله ـ كتبت لى ورقة وضعتها فى سلّة الفواكه ، وقد وجدتها أثناء تناولى الطعام فى اليوم التالى قالت فيها « مبروك لسعد باشا وعقبالكم » . . فكان لهذه العبارة أجمل الأثر فى نفسى وفى نفوس اخوانى .

ومما يُذكر أن سعد باشا ، بعد أن تقرر الافراج عنه ، ترك « جبل طارق » مع حرمه المصون على ظهر سفينة صغيرة أقلعت إلى ميناء « طولون » جنوبى فرنسا ، ومنها انتقل إلى مدينة « مارسيليا » . وكان فى استقباله هناك حشد كبير من الطلبة المصريين فى فرنسا وانجلترا وسويسرا وكان فى مقدمتهم الدكتور حامد محمود[٣] والأستاذ لويس أخنوخ فانوس[٤] وقد استقبله الطلبة بالحفاوة وأقاموا له حفلة تكريم فى أحد فنادق المدينة خطب فيها زعماؤهم ، مؤيدين له ، مرحّبين بمقدمه ، مغتبطين بنبأ اطلاق سراحه وعودته إلى أرض الوطن سالما .

وكانت صحّة سعد باشا قد اعتلت كثيرا ، وظهرتْ على وجهه علامات التعب والارهاق ، بعد أن ظلّ هذه المدة الطويلة منفياً فى أجواء شديدة التقلّب والحرارة والرطوبة ، فضلا عمّا كان يعانيه من مرض البول السكرى ، فنصح الأطباء بضرورة استشفائه فى أحد المصحّات فوقع الاختيار على « اكس ليبان » القريبة من مدينة «ليون » . فغادر مرسيليا إلى هذه المدينة فى ١٣ أبريل ١٩٢٣ . وكان سفره بالقطار فاستقبله فى محطتها حشد من المصريين . وكان على رأسهم جعفر فخرى بك المحامى (شقيق محمود باشا فخرى) والدكتور حسن صدقى رئيس الجمعية المصرية بفرنسا والدكتور على حسنى وحنفى بك ناجى وغيرهم .

وفى اليوم التالى أقامت له الجمعية المصرية مأدبة بفندق « رويال » وقد رأت إدارة هذا الفندق رفع العلم المصرى على السارية ـ وقد حضرها عدد كبير من مكاتبى الصحف فى أوروبا ، وجميع المصريين فى « ليون » وقد زُينّت المدينة بالأعلام المصرية . .

ثم غادر سعد باشا ، وحرمه « ليون » إلى قرية « إكس ليبان » التى اشتهرت باعتدال طقسها ، وبها عيادات كثيرة نزل فى احداها ، طالبا الراحة والاستشفاء مّما ألم به من أمراض .

* * *

وكان « مشروع الدستور » قد تم إعداده ، وبالرغم من التعديلات الكثيرة التى أدخلت عليه ، إمّا لصالح « القصر » لتوسيع سلطات الملك ، أم لصالح « الانجليز » . كما جرى الحال بالنسبة لمسألة « السودان » فأن يحيى ابراهيم باشا سعى إلى إعلانه . بل إن هذا الاعلان كان شَرْطًا من شروطه ، لقبول تأليف الوزارة ، فى ١٥ مارس ١٩٢٣ .

وبالفعل أعلن أن جلالة الملك فؤاد قد وقع فى ١٩ أبريل ١٩٢٣ « أمراً ملكيا » بوضع نظام دستورى للدولة المصرية يُعمل به من تاريخ صدوره . وقد نصّ فى مادته الأخيرة «على الوزراء تنفيذ هذا الدستور كل فيما يخصّه » ، وقد لوحظ أن هذا الأمر قد أصدره الملك فؤاد باعتباره ملك مصر « وقد أُسْقط منه لقب » « السودان » . وكان حذف هذا اللقب السبب فى الأزمة التى نشبت بين الحكومة الانجليزية وتوفيق نسيم باشا ، والانذار الذى تلقته الحكومة المصرية فى شهر فبراير .

كما لوحظ أيضا أن هذا الدستور قد بدا وكأنه « منحة » من الملك ، وليس « حقا » من

حقوق الشعب ، وقد تناولت أقلام الكتّاب ، والفقهاء فى القانون ، نواحى النقص فى هذا الدستور ، وكان إصداره فى هذه الصورة مصدر خلافات عديدة فى التطبيق ، وفى جميع الأزمات الدستورية التى وقعت بعد ذلك بين « الملك » و « الوفد » . فى سنوات ١٩٢٤ و١٩٢٨ و ١٩٣٧ ، تلك الأزمات التى كانت تؤدى دائما إمّا إلى إقالة الوزارة أو حملها على تقديم الاستقالة .

غير أنه بالرغم من هذه المآخذ التى أخذ رجال القانون يعددونها بشأن هذا الدستور ، وما تضّمنه من أحكام اختلفوا فى تفسيرها . فلا شكّ أن هذه الوثيقة كانت من مكاسب ثورة ١٩١٩ . فقد كانت البلاد تُحكم منذ عهد « الخديو اسماعيل » حكما فرديا استبداديا ، لاضابط له سوى هوى الحاكم . وقد جاء هذا الدستور كقيد عليه . وأصبح للشعب ـ متمثلا فى مجلس النّواب ـ الحق فى مناقشته فى كثير من الأمور العامة . كما نُصّ فيه على أن « مجلس الوزراء هو المهيمن على مصالح الدولة » وأن « توقيعات الملك » يجب أن يوقع عليها مجلس الوزراء والوزراء المختصّون لكى تكون نافذة .

ولست أنسى ما كان زعيمنا الراحل ـ رحمه الله ـ يردّده أمامنا نحن أعضاء الوفد المرافقين له فى الرحلة التى قام بها قبيل وفاته « بمسجد وصيف » فى أغسطس ١٩٢٧ من أنه كان من محّبذى فكرة انتخاب « جمعية عمومية » بواسطة « الشعب » لوضع مشروع «الدستور » حتى تأتى أحكامه متفقة مع مصالح الشعب ورغباته .

غير أن الانجليز ومن كان يعاونهم فى تنفيذ سياستهم من المصريين كانوا ينزعجون لمجرد إثارة هذا الاقتراح . إذ كانوا يخشون من أن يسترد الشعب حقوقه كاملة فى التشريع والتنفيذ والقضاء ، فلا يُصبح الملك فى الدستور الا مجّرد رمز للدولة ، دون أن تكون له سلطات فعلية يمارسها .

ومن هنا كان الاسراع فى تكوين اللجنة التى سُمّيت « بلجنة الدستور » سنة ١٩٢٣ لحماية مصالح العرش . وكان سعد باشا قد أطلق عليها من قبيل الفكاهة والتندر ـ اسم «لجنة الأشقياء » ، وقد عرُفت بها فعلا ، رغم أنها كانت تضم عددا من كبار رجال القانون ، وبعض الأعيان من مؤيدى عدلى باشا .

* * *

وكان عيد الفطر المبارك فى هذا العام يحلّ يوم الثلاثاء الموافق ١٥ مايو ١٩٢٣ ، وقد

رأى جلالة الملك فؤاد أن يرأس صلاة « الجمعة اليتيمة » من شهر رمضان ـ ١١ مايو ١٩٢٣ ـ فى جامع عمرو بن العاص. بمصر القديمة. وقد حضر الصلاة واشترك فيها الوزراء وعلى رأسهم يحيى ابراهيم باشا .

وقد روى من كان حاضراً الصلاة فى المسجد ، فى هذه المناسبة أن الملك فؤاد كان منشرح الصدر إذكانت هى المرة الأولى التى يؤديها ـ كملك مصر ـ على البلاد ، منذ إعلان الدستور فى ١٩ أبريل ١٩٢٣ ، والغاء لقب « سلطان » .

وفى ليلة العيد أى فى ١٤ مايو أذيع أن زعماء الوفد السبعة المعتقلين فى ألماظة(٥) ، ممن كان قد حكم عليهم بالاعدام فى ١٤ أغسطس ١٩٢٢ واستبدلت عقوبتهم بالسجن ، سوف يُفرج عنهم بمناسبة العيد .

وبالفعل حلّ العيد ، وأُعْلِنَ المسجونون ـ فى صبيحة هذا اليوم ـ وهم حمد الباسل باشا ، ومرقص حنا بك ، وعلوى الجزار بك ، ومراد الشريعى بك ، والأستاذ واصف بطرس غالى ، والأستاذ ويصا واصف ، وجورجى خيّاط بك أن «ولاة الأمور » قرروا إعفاءهم من باقى العقوبة . وكانوا قد أمضوا منها ما يقرب من سنتين فى السجن ، فضلا عن تغريم كل منهم مبلغ خمسة آلاف جنيه لاستبدال بعقوبة الاعدام عقوبة السجن!

وبمجرد خروجهم من ألماظة توجهوا فورا إلى منزل « المصرى السعدى بك » بالمنيرة . إذ كان « بيت الأمة » لا يزال مغلقاً . فاستقبلهم فيه السعدى بك ، وأعضاء الوفد ممن كانوا خارج المعتقلات ، وتناولوا جميعا طعام الافطار على مائدته(٦) .

ومن أجمل ما يُروى أن جميع أعضاء الوفد الحاضرين هذا الاجتماع قرروا أن يرسلوا لزعيمهم سعد باشا فى « اكس ليبان » تلغرافا ، يوقعون عليه جميعا يفهم منه أن أعضاء الوفد الذين عصفت بهم القوة الغاشمة منذ نفيه إلى جزيرة سيشيل فى ديسمبر ١٩٢١ ، قد أصبحوا « هيئة واحدة » تعمل فى سبيل القضية الوطنية والحرية ـ فجاءهم من الرئيس الجليل الرد الآتى :

« لم نذق طعم السعادة الحقيقية إلا فى هذه اللحظة . وقد أصبح فرحنا مما لا يمكن وصفه . وليس الافراج عنكم إلا إحقاقا للعدل كان منتظراً منذ أمد بعيد . ونحن فخورون بأن نراكم تستأنفون العمل فى موقف الشرف حيث تخدمون الوطن العزيز بنفس روح التضحية وانكار الذات . التى كانت تقودكم فى الماضى » .

وقد وقّعت على هذا الرّد أيضا السيدة حرمه .

* * *

وكان من امارات السياسة الجديدة التى تنتهجها السلطة أن صُرّح للأستاذ عبد القادر حمزة باصدار صحيفة تحمل اسم « الرشيد » ولم يكن للوفد ـ إذ ذاك أية صحافة ـ بعد أن عُطّلت صحف « الأهالى » و « الحرية » و « البلاغ » فكان أن صدر العدد الأول من هذه الجريدة فى يوم الأحد الموافق ٢٠ مايو ١٩٢٣ .

وقد عمد الأستاذ عبد القادر حمزة إلى تصدير الجريدة ببرقية تلقاها من سعد باشا يقول له فيها .

« علمت أن » « الرشيد » يصدر فى رؤية العيد بتحريركم البليغ فقدّرت له النجاح الكامل ، وتمنيت له العمر الطويل » .

وكان مما دبّجه صاحب الجريدة فى صدرها قوله : « بعد أن افتتحت فى « البلاغ » منذ ثلاثة أشهر عملا جديدا ، أفتتح اليوم فى « الرشيد » عملا آخر جديدا .

وقبل البلاغ رأيت الصحف فى يدى واحدة بعد الأخرى ، لأن حرية الصحافة تعصف بها فى هذه الأونة عاصفة من القوة . فتطاردها كما يطارد الآثم فى ذاته . وللقوة أن تفعل ، وعلينا أن نثابر . »

وظلت هذه الجريدة تدافع عن سياسة الوفد حتى أن تقرر الغاء الأحكام العرفية وعادت البلاغ » إلى الظهور ، وهى لا تزال تصدر حتى الآن [٧] .

* * *

وفى أول يونيو ١٩٢٣ ، نشرت جريدة « المقطم » أن الحكومة البريطانية قررت الافراج عن معتقلى « جزيرة سيشيل » وهم فتح الله بركات باشا وشقيقه عاطف بركات بك ، ومصطفى النحاس بك والأستاذ مكرم عبيد ، وسينوت حنا بك . فازداد فرح الناس ، وكان الجمهور يتخاطف عدد « المقطم » ـ كما فعل يوم تقرر الافراج عن سعد باشا ـ وظلت مصر ساهرة طوال الليل تترقب أن يصبح هذا الخبر حقيقة واقعة .

وفى الثالث من يونيو تلقى المصرى السعدى بك تلغرافا من سعد باشا يؤكد النبأ وقد جاء فيه :

« أولئك الذين أغضبوا القوة فيما أرضى الحق . وفضّلوا آلام السجن والابعاد على نعيم الاقامة والاستسلام ، وساروا إلى المنفى والشجاعة تملأ قلوبهم . وأقاموا به والعزّة ترفع رءوسهم . يعودون اليوم وفوقهم حلل من المجد الخالد . فتستقبلهم مصر وهى تفخر ببنّوتهم . ويتلألأ وجهها بشرا بعودتهم واغتباطا بنتيجة مسعاها الحميد . وانى أرجو أن تكون هذه العودة مقدّمة لانتهاء الظلم والارهاب ، وإقبال عصر تنال فيه مصر جميع حقها ، فيخرج بقية الأحرار من سجونهم ، وتتحقق مطالب البلاد » .

* * *

وقد علمنا فيما بعد أن هذا الافراج كان نتيجة مساع لسعد باشا لدى زعماء المعارضة فى انجلترا ، وعلى رأسهم المستر « رامزى ماكدونالد » وقد بات واضحًا أن بقاءهم فى المنفى بعد الافراج عن سعد باشا ـ أصبح أمرا غير مفهوم . وإن كانت السلطات البريطانية تعلّله بأن الافراج عن الزعيم إنما كان لأسباب صحية بحته وليست سياسية . . !

وفى هذا اليوم ـ ٣ يونيو ١٩٢٣ ـ صدر أمر بالافراج عن معتقلى « المحاريق » وهم عبدالستار الباسل بك ، والدكتور محجوب ثابت ، والأستاذ حسن يسن ، والأستاذ محمود بسيونى بك المحامى بأسيوط (٨) ، والملازم حمدى الرشيدى . فبرحوا نقطة المحاريق بالواحات صباح يوم الخميس ومنها إلى أسيوط حيث استقبلوا ـ استقبال الأبطال ـ ومن بعد وصولهم القاهرة أعيدوا إلى سجن الأجانب ومنها إلى وزارة الداخلية حيث تقرر اخلاء سبيلهم .

وفى ١١ يونيو ١٩٢٣ تقرر الافراج عنى ، كما سلف الذكر .

وعلى اثر خروجى من وزارة الداخلية ذهبتُ على الفور إلى دار المصرى السعدى بك ، فوجدت فيه اخوانى أعضاء الوفد من معتقلى « ألماظة » و « قصر النيل » ، فعانقونى عناقًا حارًا ، وكنت لم أر « حمد باشا » واخوانه منذ سنتين تقريبا لاقينا فيها من الأهوال ما لايوصف ، وبللت دموع الفرح وجنات الجميع .

وبعد الافراج عنى أرسلت تلغرافا إلى سعد باشا ، وقّعه معى معتقلو « الواحات » المفرج عنهم حديثا . قلنا فيه :

« بمناسبة اطلاق سراحنا نقدم لكم تمسّكنا الشديد بالمبدأ المقدس واستعدادنا لتقديم كل تضحية حتى يتم لنا استقلال وادى النيل وحريته » .

فجاءنى منه الرد التالى :

« سعيد بالافراج عنكم ، آمل أن يكون هذا آخر عهدكم بالاعتقال ، وأنا وحرمى نشكركم ونهنئكم » .

« **زغلول** »

* * *

وفى يوم الجمعة ١٥ يونيو غادرت القاهرة صباحا إلى جرجا فاكتظّت المحطة بالمودعين، منهم جمهور كبير من الأصدقاء وأعضاء الوفد ولجانه . وألقى الأستاذ ويصا واصف كلمة شكر ، وهتفت : لتحى التضحية . لتحى مصر . ليحى سعد زغلول ، واجتمعت فى جميع المحطات جماهير كثيرة لتحيتى ، وكانت مظاهر حماسة فياضة لا يسعنى وصفها ، إذ كانت تموج بالمستقبلين وبالأخص مديريتى أسيوط وجرجا ، فلّما وصلت إلى جرجا فى الغروب وجدت فيها استقبالا حماسيا رائعا واجتمع الناس ألوفا مؤلفة بطبولهم وزمورهم لتحيتى وتهنئتى .

وحضرت إلى منزلى وفود من العائلات الكبيرة فى المديرية ، ووفود عديدة من « الهوّارة » فى جرجا وقنا ، فكانت هذه الحفاوات سببا فى الترفيه عنى وتخفيف ما حلّ بى مدة السّجن والاعتقال ، وقد بقيت مدة طويلة أستقبل وفود المهنئين بين مظاهر الفرح والسرور التى عمّت البلاد .

وبينما أنا فى جرجا ، جاء نبأ قرب وصول معتقلى « سيشيل » . ثم استدعيت إلى القاهرة لسؤالى أمام المحكمة العسكرية فى قضية الشافعى البنّا فسافرت ومثلت أمام هذه المحكمة ، ووجّهت إلى عدة أسئلة ، كما سئل فى اليوم نفسه الأستاذ محمد عبد الهادى الجندى بك (وكان هو الذى تولى التحقيق الأول فى هذه القضية) ، وكانت الأسئلة توجه إلينا من مستر « مكسويل » ، باعتباره ممثل الادعاء .

وكانت التهمة التى وجهت إلىّ هى التحريض والتآمر على قتل الجنود والضباط البريطانيين وغيرهم من المصريين الذين أدوا خدمات للسلطة العسكرية .

وقد قال زكى حنفى المغربى « شاهد الملك » بأنى أعطيته هو ومحمد الشافعى البنا ومحمد عبد الخالق عثمان ١٧ جنيها وثلاثة مسدسات وأن هذه المسدسات هى التى

استعملوها فى حوادث الاعتداء ـ كما يدّعى ـ ولكن الشافعى البنّا ومحمد عبد الخالق كذّباه .

ومن دواعى الأسف أنه حُكم فى هذه القضية بالاعدام على الشاب ابراهيم خليل نظير (ابن الشاعر السودانى الطهطاوى خليل نظير ربيب على باشا رفاعه وكيل وزارة المعارف سابقا) وعلى « فهمى على » و « محمد دسوقى مصطفى » ، وقد نفّذ فى ثلاثتهم هذا الحكم ، أما الشافعى البنّا ومحمد عبد الخالق عثمان فقد أستبدل بحكم الاعدام بالنسبة إليهما الأشغال الشاقة المؤبدة ، كما حُكم على السيد محمد (ناظر المدرسة التحضيرية المعروفة) ولكنه مات فى السجن ، وكذلك حُكم على توفيق العرب بالسجن خمس سنوات ، أما محمد أمين فلم يقدّم للمحاكمة نظرا لقرار الأطباء بضعف قلبه بحيث لا يحتمل المحاكمة ولا السجن .

وكان معتقلو سيشيل فى طريقهم إلى مصر وقد وصلوها فعلا ـ عن طريق ميناء السويس يوم الثلاثاء ٢٦ يونيو ١٩٢٣ ، فقرّر الوفد أن يرافق كل واحد منهم عضو من أعضاء الوفد ويلازمه حتى يوصله إلى بلده . فكان نصيبى أن أرافق الأستاذ مكرم عبيد فزاملته حتى وصلنا إلى قنا ، وقد رافقنا فى السفر الأستاذ محمد أمين يوسف بالنيابة عن عائلة سعد باشا والشاب محمد صلاح الدين [٩] بالنيابة عن الطلبة ، وكان إذ ذاك طالبا فى السنة الثالثة بمدرسة الحقوق . فكان الاستقبال على طول الطريق رائعا حماسيا ، أما فى قنا فحدّث ولا حرج . وقد خطب فى الاحتفال الأستاذ حسن نبيه المصرى بك (وكيل محكمة قنا إذ ذاك) وألقيت أنا كلمة الوفد ، وبعد انتهاء الاحتفال عدت إلى جرجا .

وتلقى الأستاذ أمين يوسف تلغرافا ينبئه بوفاة المرحوم سعيد زغلول بك (وكان فى فرنسا مع سعد باشا) فأسرع فى العودة إلى القاهرة وقابلته أنا فى جرجا وعدت معه وبقينا حتى اشتركنا فى تشييع الجنازة .

ومما يُذكر عن المرحوم سعيد زغلول بك أنه كان شابًا نابها وكان سعد باشا يحبّه حبا جّما وهو ابن أخته وكان موضع ثقته كما كان كريم الخلق ، كما كانت صاحبة العصمة أم المصريين تعزّه كأنه ابنها ، وقد دفن رحمه الله بجوار المرحوم مصطفى فهمى باشا ، وقد بلغ التأثر بسعد باشا وأم المصريين عليه حدا كبيرا .

* * *

وكان الوفد فى البيان الذى أصدره فى ٢٨ فبراير ١٩٢٣ ، للرد على حملة من سُمّوا «بالمعتدلين» من أنصار عدلى باشا . قد اشترط ـ قبل الموافقة على تشكيل أية وزارة جديدة يتم تأليفها « دون أن يكون للشخصيات محل للاعتبار فى خططه » ـ على حدّ تعبير هذا البيان ـ أن يتحقّق للأمة مطلبان : أولهما أن تُرفع الأحكام العرفية عن البلاد . والثانى أن يُفرج عن سعد باشا وأعضاء الوفد وجميع المعتقلين والمسجونين السياسيين وأن يسمح للمبعدين خارج البلاد بالعودة إليها .

وقد بدا من سير الأحداث التى جرت بعد صدور هذا البيان أن وزارة يحيى إبراهيم باشا قد نزلت على هذين المطلبين . أو على الأقل سعت إلى تحقيقهما . ذلك أن الأمر لم يكن بيدها ـ وحدها ـ وإنما كان عليها أن ترجع فيه للدوائر البريطانية لإقناعها بضرورة الاستجابة إليهما وحملها على قبولهما .

وإذ سُمح لسعد باشا بمغادرة منفاه فى جبل طارق فى اليوم الأخير من شهر مارس ١٩٢٣ وتمّ الإفراج عنه « لأسباب صحّية بحتة » ، ثمّ خففت العقوبة عن مسجونى الماظة فى ١٤ مايو ١٩٢٣ ، وأخيرا أبلغ المنفيون فى « سيشيل » من زملاء سعد باشا أن فى وسعهم مغادرة الجزيرة والعودة لبلادهم فى ١ يونيو ١٩٢٣ ، كما أفرج عن المعتقلين من رجالات الوفد بثكنات « قصر النيل » أو المحاريق » بالواحات فى غضون هذا الشهر أيضا، تحقق بهذا جميعه أحد شرطى البيان وبقى أن ترفع الأحكام العرفية الجاثمة على صدر الأمة منذ شهر نوفمبر ١٩١٤ . وبذلك تعود البلاد إلى حالتها الطبيعية ، وتتاح الفرصة للمصريين لممارسة حقوقهم السياسية فى ظلّ أحكام الدستور الذى أعلن فى ١٩ أبريل ١٩٢٣ ، والإعراب عن الرأى دون كبت أو قهر .

وقد نجحت هذه الخطّة ، وهى بلا شك مما يعدّ من حسنات وزارة يحيى ابراهيم باشا . إذ أصدر اللورد اللنبى فى يوليو ١٩٢٣ ، باعتباره القائد العام للقوات البريطانية فى القطر المصرى أمرًا مضمونه أنه « يُلغى من تاريخ هذا الإعلان نظام الأحكام العرفية الذى أعلن فى ٢ نوفمبر ١٩١٤ » .

وفى اليوم ذاته صدر عفو عن عدد من المحكوم عليهم من المحاكم العسكرية ـ وهم حوالى ثلاثمائة ـ من أبطال الثورة الذين صدرت ضدهم أحكام فى الفترة من ٩ مارس ١٩١٩ حتى هذا التاريخ .

إلاّ أن هذا العفو لم يشمل الجميع . فقد بقى فى السجون أكثر من مائة سجين إلى أن تولّى سعد باشا « وزارة الشعب » فى يناير ١٩٢٤ وقد تم الإفراج عنهم وقتذاك .

ومن جميل ما يُذكر أن هذه القرارات أعلن عنها فى الصحف يوم ٦ يوليو ـ وكان الجمعة ـ فابتهج الناس وأعرب المصلون فى مساجد القاهرة أثناء أداء صلاة الجمعة عن فرحهم بها . وقد اشترك معهم فى الإعراب عن اغتباطهم اخوانهم من الأقباط . سيّما وأن عددا من المفرج عنهم كان منهم . فكانت مظاهرة وطنية رائعة أكدّت معانى الأخوة الوطنية للمصريين جميعا ، دون تفرقة أو تمييز ، وقد بدأوا أخيرا يستنشقون معًا نسيم الحرية .

كذلك صدر فى ٥ يوليو ١٩٢٣ قانون سمّى بقانون « التضمينات » وكان صدوره بمقتضى مرسوم وقّعه الملك فؤاد ووزراؤه . وكان الغرض منه إجازة جميع الإجراءات التى اتخذتها السلطة العسكرية البريطانية فى فترة قيام الأحكام العرفية . ولم يرض الوطنيون عن هذا القانون الأخير . وقد أعربوا عن سُخطهم بنشر المقالات فى الصحف تنتقده وتطعن عليه وقد أخذ على الوزارة أنها أصدرته دون أن تنتظر عرضه على البرلمان الجديد المزمع انعقاده بعد إجراء الانتخابات .

وكان من أشدّ المعارضين لهذا القانون الأستاذ عبد القادر حمزة فى جريدة « البلاغ » التى عادت إلى الظهور بعد إلغاء الأحكام العرفية وبعد أن تحررت أقلام الكتّاب ، فأصبحوا غير خاضعين لأى قيد أو رقابة .

* * *

وفى سبتمبر ١٩٢٣ يعود سعد ـ وقد تحقّقت شروط الوفد ـ إلى مصر . كما يعود الأسد إلى العرين . فتستقبله أمة بأسرها استقبال الغزاة الفاتحين . ويكون إبحاره على الباخرة «لوتس » ـ من بواخر الشركة الفرنسية للملاحة ـ من ميناء « مرسيليا » فى الثالث عشر من هذا الشهر ووصوله إلى ميناء الاسكندرية ـ يوم الثلاثاء الموافق ١٨ سبتمبر ١٩٢٣ . وتكون عودته إلى أرض الوطن مظاهرة وطنية لم تشهد البلاد مثيلا لها ، سوى ما كان عند عودته لمصر ، بعد النفى إلى مالطة ، فى ٤ أبريل ١٩٢١ .

وفى فجر هذا اليوم خرجت الاسكندرية وعشرات الألوف ممن أمّها من المديريات المجاورة ـ على بكرة أبيها ، مصريون وأجانب ، تستقبل الزعيم البطل وكأنه أسطورة من من أساطير التاريخ ، فى مشهد رائع يعجز القلم عن وصفه . وتقلع السفن من الميناء إلى

عرض البحر للاعراب عن ابتهاجها بعودته ، تحفّ بها المئات من الزوارق الخاصة واللنشات البخارية وهى تقلّ حشودا غفيرة من البشر . فكنت لا تسمع مع هدير الأمواج وتلاطمها إلاّ هدير الأصوات يتجاوز آفاق السماء لا تتميّز منه إلاّ كلمة واحدة : سعد ، سعد ، سعد . . ! والرنين ورجع الصدى يتصادمان إلى أبعد مدى ، فيثيران فى النفوس رهبة وجلالا .

حتى إذا ما رَسَت الباخرة بجوار المرفأ هجمت الجماهير من كل حدب على زعيمها . وكأنها لا تصدّق أنه لا يزال حياً أو أنه كان فى الإمكان أن يعود إليها سالما بعد أن حكم عليه أعداؤها بالنفى والإبعاد مدى الحياة . وسعد ـ واقف كالعلم المرفوع على السارية ـ يحيّى هذه الجماهير بكلتا يديه والدموع تنساب من عينيه ، دموع الشكر والتقدير والعرفان ![١٠]

وتتكرر مشاهد الاستقبال فى الاسكندرية فى هذا اليوم وكأنها هى هى المشاهد التى رأيناها فى ٤ أبريل ١٩٢١ . بل لقد لوحظ أن الجاليات الأجنبية من ايطالية ويونانية وفرنسية وغيرها شاركت فيها أيضا . فرفعت راياتها الوطنية وأعلامها على الشرفات وكانت تهتف بلغاتها بحياة « سعد » و « الحرية » ، فكان منظرا جميلا ومؤثرا للغاية . . .

ويخطب سعد فى حفل الشاى الذى أقامته له لجنة الوفد بالاسكندرية وقد حنكته ما مرت به من الأحداث ويصفها فيثير كوامن النفس من المشاعر الوطنية . ويحيّى ذكرى الشهداء ، وأبطال مصر الأبرار الذين ضحّوا بأرواحهم فداء لحرية الوطن . كما يذكر فضل الثورات التى سبقت هذه الثورة : حركة أحمد عرابى سنة ١٨٨١ ، جهاد مصطفى كامل على رأس الحزب الوطنى ، تضحيات محمد فريد من بعده ، إلى غيرها من المواقف الوطنية التى تقوم بها الأمم وتصنع الشعوب الحرّة . . فتسيل الدموع . ويدرك الناس أن قيادة هذا الرجل لأمته إنما هى قيادة من نوع نادر ، لا تعرف الأنانية أو الأثرة ، وها هو الرجل فى أوج ما وصل إليه من المجد يعترف لغيره بما أسدوه لبلادهم من فضل . وأن ما يشعر به وهو يعبّر عن آمال مصر وتاريخها المجيد انما هو من فيض مصر ذاتها ومكنون وجدانها . .

وفى اليوم التالى يصل ركب الرئيس ـ بالقطار الذى كنّا قد أعددناه لسفره ـ إلى القاهرة . وكأن شعبا بأسره يحفّ بالقطار منذ قيامه حتى وصوله . الكل يريد أن يحظى برؤياه أو أن يتزود بنظرة منه والهتاف واحد على طول الطّريق لا تسمع منه إلا كلمات قليلة : « سعد »

«الوطن» « الحرية » « الاستقلال » . . . إلى غيرها مما كانت تجيش به مشاعر الحب والوطنية والعرفان بالجميل .

أمة تجمعّت فى رجل ، ورجل تمثل فى أمة . وكأن مصر قد أضحت سعدًا وأن سعدًا أضحى « مصر » لا فرق بين الإنسان والوطن . . وقد امتزجا فأصبحا وحدة واحدة دون انفصام .

أما شوارع القاهرة فقد امتلأت عن آخرها بطوفان من البشر ، وكأنه يوم الحشر . . اجتازها « سعد » من المحطة إلى بيت الأمة فى أكثر من أربع ساعات . واقفًا على متن السيارة المكشوفة يلوّح لجماهيرها بمنديله الأبيض ، منصوبًا ، رافع الرأس وقد عاد ـ وهو الشيخ الذى تجاوزت سنه السبعين من العمر ـ شابًا فتيًا .

وكنّا قد أقمنا فى فناء بيت الأمة . بعد أن رفعت عنه الأختام التى وضعتها عليه السلطة العسكرية ـ سرادقا يتسع لأكثر من خمسين ألفا . وقد امتلأ عن آخره ولم يبق فيه مكان لقدم . وقد تصدّره السيد محمد البيلاوى ـ نقيب الأشراف ـ وابراهيم سعيد باشا وأعضاء الوفد بكامل هيئاته وفى مقدمتهم حمد الباسل باشا ، والأستاذ على الشمسى ، والأستاذ ويصا واصف .

وفى هذا الحفل الحاشد خطب سعد باشا شاكرًا للأمة وفاءها وكرمها وثباتها على مبادئ الوفد فى طلب الحرية والاستقلال ، قاطعا العهد على أن يظل حتى النفس الأخير أمينا لها فى الوكالة عنها والذود عن حياضها حتى تنال مصر استقلالها كاملا وأن يتم تحرير أرض الوطن ـ مصره وسودانه ـ بجلاء القوات البريطانية عنها جلاء تاما .

* * *

وكان الوفد قد أعلن فى أغسطس ١٩٢٣ أن هيئته الكاملة بعد أن واجه رجاله من المحن والتضحيات ما وصفناه منذ ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ ، قد أصبح مؤلفا من كل من : حمد الباسل باشا وسينوت حنا بك والأستاذ مصطفى النحاس بك والأستاذ واصف بطرس غالى وجورج خياط بك والأستاذ ويصا واصف . وفتح الله بركات باشا وعاطف بركات بك والأستاذ مرقص حنا بك . ومراد الشريعى بك ومحمد علوى الجزار بك والأستاذ على الشمسى وهم الذين تكوّنت منهم الطبقتان الأولى والثانية للوفد وقد رؤى أن يضم إليهم من قاموا مقامهم بعد نفْيهم إلى « سيشيل » أو الحكم عليهم بالاعدام فى ١٤ أغسطس

١٩٢٢ ، وهم المصرى السعدى بك وحسين القصبى بك والشيخ مصطفى القاياتى والأستاذ سلامة ميخائيل بك والأستاذ محمد نجيب الغرابلى والأميرالاى محمود حلمى اسماعيل والأستاذ راغب اسكندر وفخرى عبد النور بك (صاحب المذكّرات) من الطبقة الثالثة ، ثم حسن حسيب باشا وحسين هلال بك والأستاذ عبد الحليم البيلى والشيخ مصطفى بكير وابراهيم راتب بك وعطا عفيفى بك . وهم من قاموا بتأليف الطبقة الرابعةللوفد بعد القبض على أعضاء الطبقة الثالثة . وبذلك أُدمجت الطبقات الأربعة فى «هيئة واحدة » تحت رياسة سعد زغلول باشا حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، ولم يضُمّ إليها إلا الدكتور أحمد ماهر بعد الحكم ببراءته فى قضية اغتيال السردار » سنة ١٩٢٥ .

وكان على الهيئة الجديدة أن تُعدّ ـ فوراً ـ للمعركة الانتخابية لاختيار أعضاء مجلس النّواب وثلاثة أخماس مجلس الشيوخ فى ظل الدستور الذى صدر فى ١٩ أبريل ١٩٢٣ ، وقد تحدّد لها ١٢ يناير ١٩٢٤ . تلك المعركة التى خاضها الوفد بكافة قياداته ورجالاته وقد ظفر منها بحوالى تسعين فى المائة من الدوائر البالغ عددها ٢١٤ دائرة . والتى دلّت فى النهاية على تعلّق الشعب بالوفد وثقته الكاملة فى سياسته .

وقد جرت هذه الانتخابات فى جوّ من الحرية المطلقة . ولم يتدخل فيها رجال الادارة حتى أن رئيس الوزراء ـ المغفور له يحيى إبراهيم باشا ـ سقط فى دائرته الانتخابية أمام مرشح الوفد أحمد مرعى أفندى فى دائرة منيا القمح . فكان سقوطه فى هذه الدائرة دليلا على نزاهة الرجل وحيدة الانتخابات التى جرت فى عهده .

وبدخول مصر فى العهد الدستورى الذى فرضته أحكام الدستور على الأحزاب السياسية فى مصر وهى الوفد المصرى والحزب الوطنى وحزب الأحرار الدستوريين برياسة عدلى يكن باشا ، تنتهى هذه الفترة من تاريخ البلاد التى بدأت فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ حينها توّجه سعد زغلول وصاحباه على شعراوى وعبد العزيز فهمى لمقابلة « ونجت » لإنهاء الحماية على مصر والمطالبة بالاستقلال ، والتى عاصرها من الأحداث والأهوال ما رأيت من واجبى أن أذكره للأجيال المقبلة .

وتنتهى ذكرياتى عنها . وقد دوّنتها من ذاكرتى ومن بعض الأوراق الخاصة التى أفلتت من الوقوع بين أيدى رجال السلطة ، على ما جاء تفصيلا فى الأبواب السابقة . وكل الآمال أن تنفع رواية هذه الذكريات أبناء مصر فى التعرّف على أحداثها ، وما حرّكته فى الشعب

من مشاعر فى حب الوطن وافتدائه بكل نفيس أو غال . وما أصدق « سعد زغلول » حينما قال :

« جاء هؤلاء الخلق ونابوا عناَ أحسن نيابة . وعُذّبوا وأهينوا ولكنهم صبروا حتى حُكم عليهم بالإعدام فتقبّلوه بوجوه باشة هاتفين لمصر وللاستقلال التام !

وعندما أخذوا قام من خلفهم ، وسار سيرهم . فكان لهم ما كان لهم من احترام وسجن واعتقال . ثم خلفهم أسياد قاموا بعبئهم خير قيام فتوالى قيام الأبطال مكان الأبطال . السجن يفتح أبوابه لكل حرّ ولكل عامل للحرية . دليل على تأصل النهضة فيكم وانكم حقيقة مستعدّون لأن تضحّوا كل شىء فى سبيل استقلالكم وأن نهضتكم حقيقية . وأنكم تمجدون الأشخاص الذين يتمسكون بمبادئكم . »

* * *

عاشت مصر لأهلها . . . وعاش الكل لها !

هوامش الفصل الرابع والعشرون

(١) جاءت التوصية من الطبيب فى جبل طارق بضرورة توجه سعد زغلول إلى مكان فيه مياه معدنية يوم ٢٢ مارس ١٩٢٣ ابلغ بعدها الزعيم المصرى بحريته فى التوجه إلى حيث يشاء ٢٧ مارس) غادر بعدها المنفى قاصدًا إلى طولون (٤ ابريل) .

(٢) هى السيدة (صديقة) كريمة المرحوم ناشد سوريال . من الأسر الموسرة المعروفة بمغاغة .

(٣) وزير الصحة فيما بعد . .

(٤) عضو مجلس الشيوخ فيما بعد . .

(٥) كانوا قد سجنوا أولاً فى ليمان طره فى ٣ سبتمبر ١٩٢٢ ، جاءت التعليمات بنقلهم إلى مكان مريح فاعد لهم معسكر قديم للقوات الجوية فى الماظه نقلوا إليه فى اوائل نوفمبر حيث تمتعوا برعاية طبية واقامة حسنة لم يتمتعوا بها من قبل F. o. 407/196 No. 172.

(٦) اصدروا فى نفس اليوم بيانا جاء فيه ان اعتقالهم وسجنهم قد اتاح فرصة أخرى لتأكيد حيوية وقوة الحركة الوطنية F. o. 407/196 Ibid.

(٧) يقصد عام كتابة المذكرات (١٩٤٢)

(٨) رئيس مجلس الشيوخ فيما بعد . .

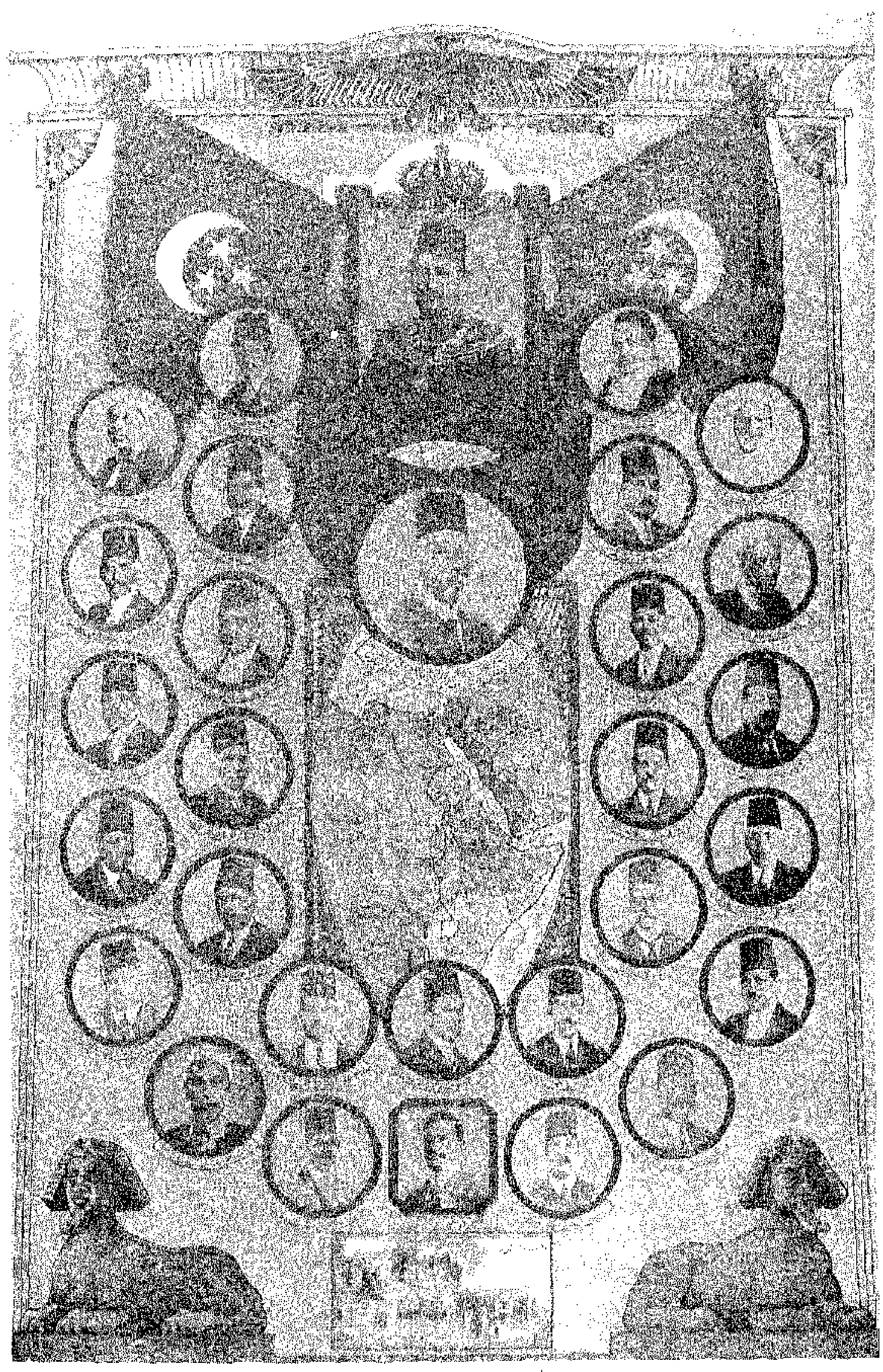
(٩) وزير الخارجية فى وزارة الوفد الاخيرة (١٩٥٠ ـ ١٩٥٢) .

(١٠) يقول التقرير البريطانى ان الجماهير اقتحمت الحواجز التى وضعها البوليس ودخلت المنطقة الجمركية دون ان تتمكن اى قوة من اعاقتها F. o. 407/195 No. 87.

(١١) اقيم فى فندق كلاردج .



الوفد المصرى بجميع طبقاته : ويرى من اليمين إلى اليسار مع حفظ الألقاب : **الجالسون** : فخرى عبد النور ـ جورج خياط ـ حسين القصبى ـ المصرى السعدى ـ سعد زغلول ـ حمد الباسل ـ ويصا واصف ـ سينوت حنا ـ محمد نجيب الغرابلى . **الواقفون : فى الصف الأول** : مصطفى النحاس ـ مرقص حنا ـ عاطف بركات ـ علوى الجزّار ـ مكرم عبيد ـ على الشمسى ـ مصطفى بكير ـ حسن حسيب ـ مصطفى القاياتى . **فى الصف الثانى** : عبد الحليم البيلى ـ سلامة ميخائيل ـ عطا عفيفى ـ إبراهيم راتب ـ حسين هلال ـ راغب إسكندر ـ واصف غالى . ولم يظهر فى هذه الصورة : فتح الله بركات ومراد الشريعى لمرضهما



أبطال الحركة الوطنية

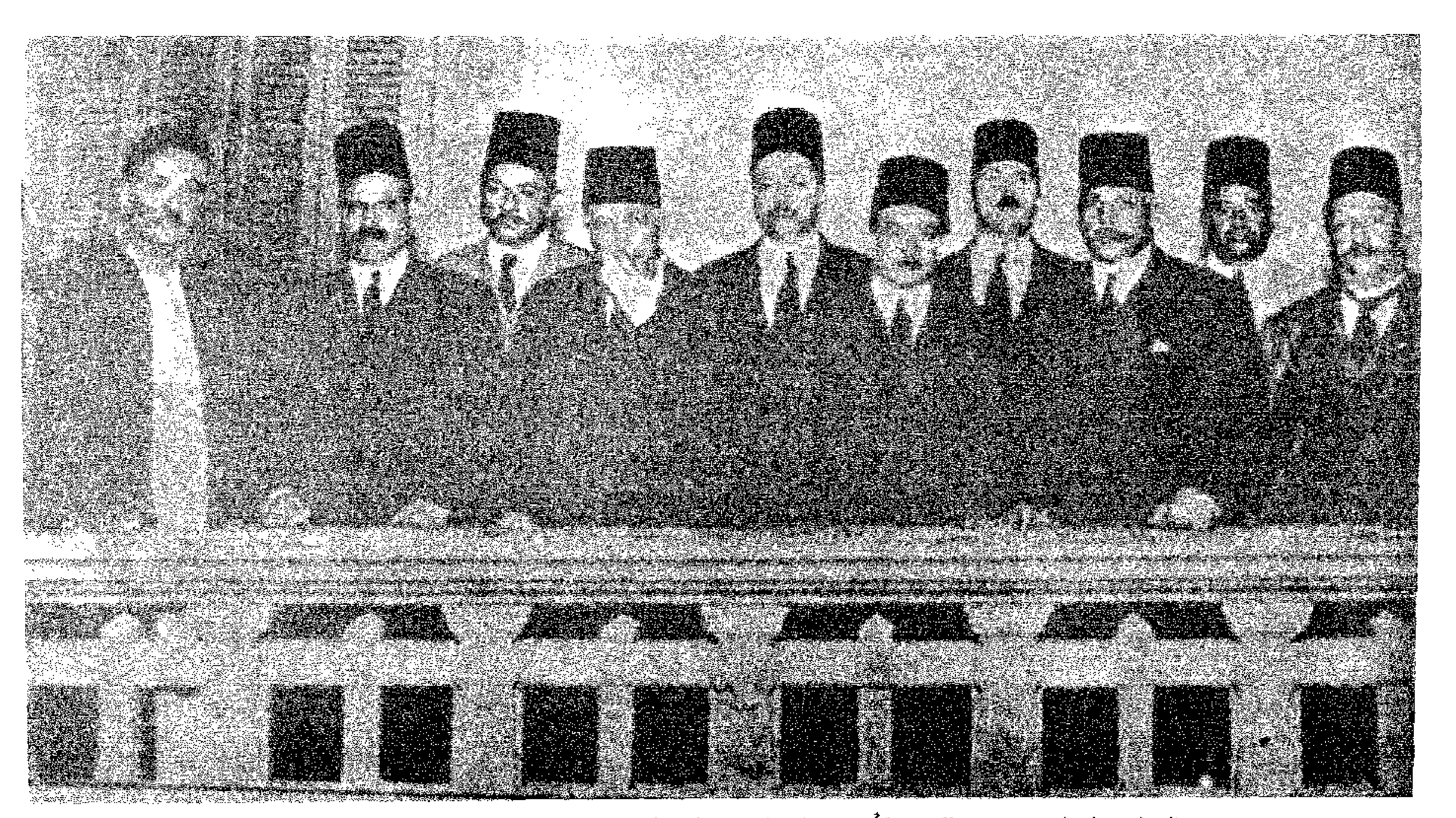
أعضاء الوفد المصري وقد أضيف إليهم عبد الرحمن فهمي بك سكرتير لجنة الوفد المركزية



الزعيم سعد زغلول فى مسجد وصيف بضعة أيام قبل وفاته



٢٣ أغسطس ١٩٢٧ انتقال سعد زغلول إلى الرفيق الأعلى صورة لجثمان الفقيد العظيم
وقد حمله حمد الباسل باشا ، ومحمد نجيب الغرابلي باشا وفخري عبد النور بك
ولفيف من أقرب أنصاره وقد ظهرت على الجميع إمارات التأثر



التقطت هذه الصورة على شرفة بيت الأمة عقب انتخاب مصطفى النحاس باشا رئيسًا للوفد المصري في سبتمبر ١٩٢٧

ويرى في الصورة من اليمين إلى اليسار : فخري عبد النور بك والأستاذ راغب اسكندر والأستاذ محمد نجيب الغرابلي باشا . وإبراهيم راتب بك وعلي الشمسي باشا والأستاذ مكرم عبيد ومرقص حنا باشا وعلوي الجزار بك والرئيس مصطفى النحاس باشا وحمد الباسل باشا وقد لبس الجميع السواد حدادًا على الزعيم الراحل .



فخـــري عبد النـــور

كشاف الأعلام

(ش)

(ص)

(غ)

(ن)

كشاف الدوريات

كشاف الأماكن والبلاد

(أ) البلاد

(ب) الأماكن

الهيئات السياسية والقضائية والعامة

المصريون:

٢١ ـ ٤٠ ـ ٤٢ ـ ٤٩ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٦٠ ـ
٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧٧ ـ ٨٨ ـ ٨٩ ـ ٩٧ ـ ٩٨ ـ
١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٠٦ ـ ١١٤ ـ ١١٨ ـ
١٣٠ ـ ١٤٢ ـ ١٤٥ ـ ١٥٨ ـ ١٦١ ـ
١٦٣ ـ ١٦٦ ـ ١٧٠ ـ ١٧٣ ـ ١٧٥ ـ
١٧٦ ـ ١٧٧ ـ ١٧٨ ـ ١٨١ ـ ١٩٠ ـ
١٩١ ـ ١٩٥ ـ ١٩٦ ـ ١٩٩ ـ ٢٠٢ ـ
٢٦٧ ـ ٢٧٧ ـ ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ـ ٢٨٩ ـ
٢٩١ ـ ٣٠٤ ـ ٣٣٣ ـ ٣٤١ ـ ٣٤٢ ـ
٣٤٥ ـ ٣٤٧ ـ ٣٥٢ ـ ٣٥٤ ـ ٣٥٨ ـ
٣٦٠ ـ ٣٦٢ ـ ٣٦٣ ـ ٣٦٤ ـ ٣٦٨ ـ
٣٦٩ ـ ٣٧٠ ـ ٣٧٢ ـ ٣٧٦ ـ ٣٨٥ ـ
٣٨٨ ـ ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ـ ٤٠٦ ـ ٤١٠ ـ
٤١١ ـ ٤١٣

الفهـــرس

رقم الإيداع : ٩٢/٥٠٧٦
I.S.B.N. 977 - 90 - 0102 - 4

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

فخـرى عبد النـور

☐ ولد بمـدينة جرجا فى ١٥ يـونيو ١٨٨١ لأسرة معروفة فى الصعيد بالنشاط فى مجالات الخدمة العامة ، يعمـل أفرادها فى العديـد من شئون الزراعة والتجارة والمال .

☐ تأثر فى طفولته وشبابـه بالجو العام الذى ساد البـلاد فى أعقاب الحركـة العـرابية واحتـلال بريطانيا لمصر .

☐ تولى إدارة « البنـك المصرى » فى الصعيد سنـة ١٩٠٤ .

☐ إنضم إلى حزب الأمة سنـة ١٩٠٧ وكان أحد مؤسسى صحيفة « الجريـدة » الناطقة بلسان الحزب التى رأس تحريرهـا الأستاذ أحمد لطفى السيد ونادت بأن « مصر للمصريين » .

☐ شايع الخديوى عباس حلمى الثانى فى الكثير مـن مواقفـه الوطنيـة ضد سيـاسة الاحتـلال البريطانى . وقد زاره الخديوى بمنـزله بجرجا فى ٩ فبراير ١٩٠٩ .

☐ كـان منزلـه محط رجال الحكـم والسياسـة فى زيـاراتهم لبـلاد الصعيد وعلى رأسهـم سعـد زغلول باشا وزير الحقانيه آنذاك .

☐ كان أحد ثلاثة من زعماء الأقباط طالبوا سعد زغلول رئيس الـوفد المصرى فى نوفمبر ١٩١٨ بضرورة اشتراك الأقباط فى الوفد تأكيدًا لمعانى الوحدة بين أبناء الوطن .

☐ عمل عضوا بـارزا فى لجنة الوفد المركـزية إبان اندلاع ثـورة ١٩١٩ كما دعا أعضاء الـوفد إلى زيارة بـلاد الصعيد فى أكتـوبر ١٩٢١ قبيـل نفى سعد زغلول وصحبه إلى جزيرة سيشيل .

☐ اشترك فى تـأليـف الطبقـة الثالثـة للـوفـد فى أغسطس ١٩٢٢ عقب الحكـم بالإعدام على أعضاء الطبقة الثانية .

☐ اعتقلتــه السلطــات العسكـرية وقدمتـــه للمحاكمة وقضى مددا طويلة فى السجون .

☐ اختير عضوا فى الوفد المصرى بكـ
سبتمبر ١٩٢٣ برياسة الزعيم سـ

☐ انتخب فى جميـع البرلمانات الحرة منـذ سنـة ١٩٢٤ إلى أن وافـ
٩ ديسمبر ١٩٤٢ وهو يخطب تـ
النواب فى الدفاع عن قضايا الفا

فخـري عبد النـور

- ☐ ولد بمدينة جرجا في ١٥ يونيو ١٨٨١ لأسرة معروفة في الصعيد بالنشاط في مجالات الخدمة العامة ، يعمل أفرادها في العديد من شئون الزراعة والتجارة والمال .
- ☐ تأثر في طفولته وشبابه بالجو العام الذي ساد البلاد في أعقاب الحركة العرابية واحتلال بريطانيا لمصر .
- ☐ تولى إدارة « البنك المصري » في الصعيد سنة ١٩٠٤ .
- ☐ إنضم إلى حزب الأمة سنة ١٩٠٧ وكان أحد مؤسسي صحيفة « الجريدة » الناطقة بلسان الحزب التي رأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد ونادت بأن «مصر للمصريين» .
- ☐ شايع الخديوي عباس حلمي الثاني في الكثير من مواقفه الوطنية ضد سياسة الاحتلال البريطاني . وقد زاره الخديوي بمنزله بجرجا في ٩ فبراير ١٩٠٩ وأنعم عليه برتبة البكوية المتميزة .
- ☐ كان منزله محط رجال الحكم في زياراتهم للصعيد وعلى رأسهم سعد زغلول باشا .
- ☐ كان أحد ثلاثة من زعماء الأقباط طالبوا سعد زغلول رئيس الوفد المصري في نوفمبر ١٩١٨ بضرورة اشتراك الأقباط في الوفد تأكيدًا لمعاني الوحدة بين أبناء الوطن .
- ☐ عمل عضوا بارزا في لجنة الوفد المركزية إبان اندلاع ثورة ١٩١٩ كما دعا أعضاء الوفد إلى زيارة بلاد الصعيد في أكتوبر ١٩٢١ قبيل نفي سعد زغلول وصحبه إلى جزيرة سيشيل .
- ☐ اشترك في تأليف الطبقة الثالثة للوفد في أغسطس ١٩٢٢ عقب الحكم بالإعدام على أعضاء الطبقة الثانية .
- ☐ اعتقلته السلطات العسكرية وقدمته للمحاكمة وقضى مددا في السجون .
- ☐ اختير عضوا في الوفد المصري بكامل هيئاته في سبتمبر ١٩٢٣ .
- ☐ انتخب في جميع البرلمانات الحرة نائبًا لجرجا منذ سنة ١٩٢٤ إلى أن وافته المنية في ٩ ديسمبر ١٩٤٢ وهو يخطب تحت قبة مجلس النواب .



هذا الكتاب

هذه المذكرات تناولت ذكريات صاحبها فخرى بك عبد النور عن الفترة من نوفمبر ١٩١٨ إلى يناير ١٩٢٤ . المعروفة فى التاريخ بثورة ١٩١٩ .

وقد ظل الجزء الأكبر من هذه المذكرات مطويًا لمدة خمسين سنة رغم أهميتها إذ أنها القت الأضواء على دور سعد زغلول ورجال الوفد فى الحركة الوطنية وسجلت أحداث الثورة يومًا بيوم بقلم شاهد من أهم شهودها .

وقام بتقديم هذه المذكرات عميد الصحافة المصرية وابن « بيت الأمة » الأستاذ الكبير مصطفى أمين وقام بتوثيق أحداثها وتحقيقها والتعليق عليها فى هوامش أضيفت إلى فصول المذكرات الدكتور يونان لبيب رزق أستاذ تاريخ مصر المعاصر .

الناشر